

تفسير

الشجر وأهله

المجلد السابع

من الآية ١١٠ «سورة الانعام» الى الآية ١٨٨ «سورة الاعراف»

والنص القرآني جاء بقوله الحق : « لا يؤمنون » وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا ؛ لأنها أفهام تتصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذي يجعل الأسلوب يجيء بهذا الشكل ؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش في القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب في قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » هو دليل على أنه ليس لكم علم . وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعلى أي أساس بنيتم شعوركم هذا ؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويطنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تمحيك . وأنتم لا تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .

وبعض من المفسرين قال : إن (لا) زائدة ومنهم من كان أكثر تأدبا فقال : (لا) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : (لا) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا الأدب ؛ لأن الذي يتكلم هو الإله وليس في كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفته شيئا فالكلام يفسد ولا يؤدي المراد منه ؛ لأن الله مرادات في كلامه ، وهذه المرادات لا بد أن يحققها أسلوبه . والمثال في حياتنا أن يقول لك واحد : « ما عندي مال » أو ما عندي من مال ؟ إن « من مال » هنا ابتدائية أي ما عندي من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : « ما عندي مال » أي ليس عنده ما يعتد به من المال الذي له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يقال له : مال . إن في جيبه القليل من القروش .

و « لا » في هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما يعلمكم يا مؤمنون أنني إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تلتطف الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم في التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حبا في الكفار ، بل حبا في النبي والمنهج ، وكان الحق يقول لهم : أنا أعذرکم لأنکم تأخذون بظاهر جهد اليمين « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » ومبالغتهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قولهم ؛ لأن هذا هو مدى علمكم ، وما أدراكم أنني إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإيمان . ولو كنتم تعلمون ما أعلم لعرفتم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب بـ « لا يؤمنون » ف « لا » حقيقية وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم يقول :

﴿وَنَقَلِبُ أَفْقَدْتَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٦)

وحين تقول : أنا أقلب السلعة فهذا يعنى أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر الفؤاد ، بل بلطفى وعظيم خبير أعلم الباطن منهم فاطمئنوا إلى أن حكى هو الحكم الحق الناتج من قلب لطيف خبير . وقد يكون هنا معنى آخر ، أى أن يكون التقلب لونا من التغيير ؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا فى هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . ومادامت قلوبهم لا تثبت فأنى لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت آية ؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجيء الآية أبطل أمره كذلك أم يتغير ؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا قد لا تستحسنه ثانيا . حين « نقلب أفقدهم وأبصارهم » أى أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم (ونقلب أفقدهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

إن الإيمان يحتاج إلى استقبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن تستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان فى فؤادك . وسبحانه يوضح لنا أنه يقلب أفقدهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع ؟ أو هى رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدرة منهم على الاستنباط ؟ وهل أفقدهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة ؟

﴿وَنَقَلِبُ أَفْقَدْتَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ﴾ (١١٦)

(سورة الأنعام)

إذن فهم لا يؤمنون ويسيرون إلى ضلالهم . فإن جاءت آية فلن يؤمنوا ، وفى هذا عذر للمؤمنين فى أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٢٨٧٢

لماذا؟ لأن الحق قال : «كما لم يؤمنوا به أول مرة»، أى أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم «ونذرهم فى طغيانهم يعمهون» والطغيان هو تجاوز الحد، وهم قد تجاوزوا الحد هنا فى استقبال الآيات، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها، وعجزوا عن أن يأتوا بعشر سور، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة، وكان يجب الا يطغوا، والا يتجاوزوا الحد فى طلب الاقتناع بصدق الرسول .

«ونذرهم فى طغيانهم يعمهون» و«العمه» هو التردد والحيرة، وهم فى طغيانهم يترددون ، لأن فيهم فطرة تستيقظ، وكفرا يلح؛ يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن؟ والفطرة التى تستيقظ فيهم تلمع كومضات البرق، وكان يجب ألا يترددوا: أو «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم» فى النار؛ لأن البصر لم يؤد مهمته فى الاعتبار، والقلب لم يؤد مهمته فى الفقه عن الله، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم فى النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى
وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ يُجَاهِلُونَ﴾

هنا يوسع الحق المسألة . فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون، بل قال : «ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة» مثلما اقترحوا، أو حتى لو كلمهم الموتى، كما قالوا من قبل :

[سورة الدخان]

﴿فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٦)

ويأتى القول : «وحشرنا عليهم كل شئ» و«الحشر» يدل على سوق بضغظ مثلما نضع بعضا من الكتب فى صندوق من الورق المقوى ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغظ، وهنا يوضح الحق : لو أننى

أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقدرتى صالحة أن أتى بالآيات التى طلبوها جميعا لو جدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد تضن بالإيمان .

«وحشرنا عليهم كل شىء قبلا» و«قبلا» هى جمع «قبيل»، مثل سرير وسرر .

«وحشرنا عليهم كل شىء قبلا» . وهذا يعنى أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات ، وكأن كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية ، وهكذا . فلن يؤمنوا ، أو «قبلا» تعنى معاينة أى أنهم يرونها بأعينهم ، لأن فى كل شىء دبرا وقبلا ؛ والقبيل هو الذى أمام عينيك ، والدبر هو من خلفك . فإن حشرنا عليهم كل شىء مقابلا . ومعاينا لهم فلن يؤمنوا . وإن أخذتها على المعنى الأول أى أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المعطى أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا . وإن أردت أن تجعلها مواجهة ، أى أنهم لو رأوا بعيونهم مواجهة من أمامهم فلن يؤمنوا .

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا

مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (١١١) ﴾ [سورة الأنعام]

وجاء الحق هنا بمشيئته لأن له طلاقة القدرة التى إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك ، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطى الاختيار فى التكليف ولذلك قال سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَلَّغْتَ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمِ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً

فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [سورة الشعراء]

والله لا يريد أعناقنا تخضع ، وإنما يريد قلوبنا تخضع . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : « ولكن أكثرهم يجهلون» . والجهل يختلف عن عدم العلم ، بل الجهل هو علم المخالف ، أى أن هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها ، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفى أن نقولها حتى يفهمها فورا . لكن مع الجاهل هناك مسألتان : الأولى أن نزيل من ادراكه هذا الجهل الكاذب ، والأخرى أن نضع فى

إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعني أنهم قد اتبعوا الضلال .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ
الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ
الْقَوْلِ غَمُورًا ۗ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۗ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ ﴾

« وكذلك » إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطى الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له في موكب الرسالات ، فلست بدعا - يا محمد - في أنك رسول يُواجه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقبول بهؤلاء الأعداء .

وهل فتّ أعداء الرسل في عضد من أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأثنوهم عن دعوتهم ؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين ؟ .. إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سبقتك ولا معقب على رسالتك فلا بد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسبين للمهمة التي تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد في هذه العداوة أننا تركناهم أعداء لمجرد العداوة ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة ؛ لأن الإنسان إذا ما كان في منهج خير وأهاجه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا تجد الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحدياً من خصومهم ، هنا تجد الصحوة الإيمانية قد استيقظت لأن هناك خصوماً يتحدونها ، ولولم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فاترة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من أى لون من ألوانهم من يتحدى أى قضية من قضايا الدين . في هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يغار على الدين .

إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن في أي مظهر في الوجود يُغلب الله على مراداته في كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذي يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، وأوضحنا من قبل أن الباطل جندي من جنود الحق ؛ لأن الباطل حين يعرض ويعربد في الناس يتساءل الناس متى يأتي الحق لينقذنا ، وأنتك ساعة ترى مريضاً يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندي من جند الشفاء . وكان الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطفاً في هذا المكان فسارع إلى علاجه . ولذلك نجد أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها ، هي الأمراض التي تأتى بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا بعد أن يستعصى شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندي من جنود العافية .

وحيث يكون لك عدو في الحارة أو في البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هنة وعيب حتى لا يشنع عليك ؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن تنصره على نفسك .

والشاعر القديم ، الذي أعجبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداى لهم فضل على ومنة فعندى لهم شكر على نفعهم ليا
فهم كدواء والشفاء بمره فلا أبعد الرحمن عنى الأعدايا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها فأصبحت بما دنس العرض خاليا
وهم أجبوا جهدى ولكن يبغضهم وهم نافسون فاكتسبت المعاليا

لذلك لا بد أن ننظر إلى كل شيء بحكمة إيجاد الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

زُخْرُفِ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١١٧﴾

(سورة الأنعام)

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيجين ومثيرين للنبي ولأتباعه ، لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أججت في نفس المقابل قوة حتى لا يهزم

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٨٧٧

أمامه ولا يغلب أمام منطقته . ولذلك قال الحق : «وكذلك جعلنا» أى أنهم لم يتطوعوا بالعداوة إنما هو تسخير للعداوة «جعلنا لكل نبي عدوا» .

وكيف يجعل الله لكل نبي عدوا؟ إنه يفعل ذلك بما أودع فى الناس من الاختيار، وما داموا مختارين فالذى اختار الهدى يكون نصيراً للنبي، والذى اختار الضلال يكون عدوا للنبي .

إذن فهم لم يكونوا أعداء بطبيعتهم، وإنما بما أودع الله فيهم من الاختيار .

وإذا كان الله هو الذى أودع الاختيار فقد أراد أن يحقق مشيئته فى قوله :

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ .. (٤٢)﴾ [سورة الأنفال]

ولو شاء الله الا يكون للنبوة أعداء لفعل ذلك؛ لأن له طلاقة القدرة، ولكن ذلك سيكون بالقهر، والله لا يريد قهراً للعقلاء، وإنما يريد أن يذهبوا إليه بمحض اختيارهم؛ أى وهم قادرون على الا يذهبوا . وكلمة «عدو» فى ظاهرها أنها مفرد، ولكنها تطلق على الواحد، وتطلق على الاثنين، وتطلق على الجماعة، فتقول: «هذا عدو لى»؛ و«هذه عدو لى»؛ ولا تقل «عدوة»، وتقول: وهذان عدو لى، وهاتان عدو لى، وهؤلاء عدو لى، لأن كلمة «عدو» تطلق على الذكر والأنثى وتقال للمفرد وللثنى، وللجمع .

اقرأ أو قول الحق:

﴿فَأِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [سورة الشعراء]

واقرأ أو قول الحق:

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (١٢٣)﴾ [سورة طه]

ولم يقل أعداء، إذن فكلمة «عدو» تطلق على المفرد والمفردة، والثنى والمثناة،

وعلى جمع المذكر وجمع المؤنث . لكن بعض الذين يحبون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول الواحد منهم : كيف يقول : « فإنهم عدو لى » ، أو « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ؟! ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تَلِكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ .. (٢٢) ﴾

[سورة الأعراف]

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (٦٠٢) ﴾

[سورة آل عمران]

ونقول له : أنت قد فاتك أن الذى يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو ، وجمعتة مصلحة واحدة فى معاداة المعادى يكونون وحدة فى العداوة فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد فى العداوة . لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدواً برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

.. (١١٢) ﴾

[سورة الأنعام]

وشياطين الإنس والجن كما يقول النجاة بدل من عدو و « شياطين » جمع شيطان وهو اللعين المطرود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » والوحى - كما نعرف - هو إعلام بخفاء ، ولماذا يوحى بعضهم إلى بعض ؟ لأن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا ؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس المحققين فى قضية يتحركون فى علانية . ولا يستخفون من الناس .

« يوحى بعضهم إلى بعض » ومن الذى يوحى ؟ ومن الذى يوحى إليه ؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحى : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً فى النفس ، أو إن كان بالإشارة أو بالبدس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أساليب الوحى الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحى من شياطين الجن فهل يوحون إلا بشر ؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشر . مصداقاً لقوله الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا « وسوسة » ، ونعلم أن المعانى حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسية ، والوسوسة هى صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن للفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغرى بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

« يوحى بعضهم إلى بعض » وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحى لإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجئى يوحى لجئى ؛ لأن الجن مكلف أيضاً . وكذلك يوحى الجن للإنس .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » الزخرف . هو الشيء لمزين ظاهره لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل :

﴿ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . (٣٥) ﴾ [سورة الزخرف]

أى أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

﴿ يُوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . . (١١٢) ﴾ [سورة الأنعام]

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقتربوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس ؛ لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية فى ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجد من يقول لآخر :

اشرب الخمر لتصاب بتليف الكبد مثلاً !! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليزهد همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

« زخرف القول غروراً » أى ليغروهم ؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ، ويسترون عن الناس مضرة هذا الشيء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : « ولو شاء ربك ما فعلوه » إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى أعطى خلقه اختياراً فى أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، فى نور أو فى ظلمة . ويأتى الوقت الذى يثيب فيه سبحانه أو يعاقب ؛ لذلك فهو - جل شأنه - لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عليه ؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : لماذا العقاب ولا شيء فى الكون يقع على غير مشيئة الله ؟ ونقول : نعم كل شيء من فعل الله ؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذى خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا إن شاء الله ، لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل فى بعض الأمور ، فالذى ينظر إلى أن كل فعل من الله أى ليس بطاقة من عبد ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك ؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا ويحصل منه كذا . فإن أردت الحقيقة تجد كل فعل يأتى من الله ، فأنت - على سبيل المثال - لم تخلق القوة التى لليد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هى العضلات التى تتحرك لتفعل الانقباض ؟ أنت لا تعرف . إنك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذى خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها فى قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التى فى اليد ، ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

« ولو شاء ربك ما فعلوه » أى لو شاء عدم فعله لفعل ؛ لأن له طلاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مستخراً ، ثم لماذا نأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان ؟ خذ المثال من نفسك . أنت فىك أشياء ليس لك سيطرة عليها ، ولا اختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تمرض ؟ . لا .

ألك اختيار أن يقع عليك حجر وأنت تمشى؟ لا .

ألك اختيار فى أن يصيبك سائق سكران؟ لا .

ألك اختيار فى أن تموت أو لا تموت؟ لا . لقد جعل الله فىك الأمرين الأثنين :

قهرك فى أمور . والقهرية تثبت له . سبحانه . القدرة وطلاقتها ، وجعلك مختاراً فى أشياء ، والاختيار يثبت صحة التكليف .

ويتابع الحق مديلاً الآية : « فذرهم وما يفترون » لأن افتراءهم وكذبهم وزعمهم الباطل لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، وهم يرون أن افتراءهم يعوق الدعوة ، لا ، فقد صار افتراؤهم وكيدهم وعداوتهم للنبي وقوداً مهيباً لداعوة ؛ لأن يخلص الدعوة من الشوائب ويصهر المؤمنين بها ويخرج منهم خصال الشر ويملاهم بخلال الخير .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. (١٧) ﴾

[سورة الرعد]

ولو لم يكن هناك مهيبات لهذه المسائل لدخل الدعوة العاقل والباطل ولاندس فينا من لا يعرف قيمة الإيمان ؛ لذلك يحص الله الدعوة بالأعداء وبالقوم الذين يقنون أمامها حتى لا يكون فى حملة الدعوة أحد من ضعاف العقائد وضعاف الإيمان ، وهم الذين يخرجون هرباً من مسئوليات الإيمان ولا يبقى إلا أصحاب الرسالة الذين يخلصون الصدق مع الله وينقيهم الله بواسطة الأعداء . ولذلك قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا .. (٤٧) ﴾

[سورة التوبة]

فمن الحمكة أنه - سبحانه - ثبط عزيمتهم وضعف رغبتهم فى الانبعاث والخروج معكم .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا

[سورة التوبة]

مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) ﴾

وهنا يقول الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول هو لون من الأداء له سُماع ، ومن يسمعونه قد لا يؤثر في قلوبهم ولا في نفوسهم ، ومرة أخرى يسمعونه ويكون عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس :

﴿ وَلِنَصِّغِيَ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ (١١٣)

كأن من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن رُئيت له معصية فإنه يتساءل : كم ستدوم لذة هذه المعصية ؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً ؛ وماذا أفعل يوم القيامة الذي يكون فيه الإنسان إما إلى دخول الجنة وإما إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تتقبل أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا الدنيا ، فيقول لنفسه : فلتتمتع في الدنيا فقط ، ولذلك لو استحضر كل مؤمن العقوبة على المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنا في هذه الدنيا نخاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا في العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب القاهرة في العقوبة ؟ ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبالهم إذا عرضت لهم أى معصية ، يقارنونها بالعقاب ، فلا يقتربون منها . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم ؛ لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان منا في الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تتوقف عند كل ما يسمع ، بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسمونه التسمع لا السمع ، وهذا هو الإصغاء . ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : من تسمع غانية - أى امرأة تغنى بخلاعة - ولم يقل : « من سمع » ، والإنسان منا قد يسير ويذهب إلى أى مكان والمذياع يذيع الأغاني ، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك

السمع منطقة وليست مفتوحة ؛ فهو لا يتصنت ، وآلة إدراك الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين ؛ فالعين لا ترى وهي مغمضة ، إنها ترى وهي مفتوحة ، والعين تغمض بالجفون أما الأذن فليس لها جفون يقول لها : لا تسمعي هذه ، وهذه اسمعها .

إذن فالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذى له فيه اختيار .

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَليَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ (١١٣)

[سورة الأنعام]

كأن فيه شيئاً ينبع طلب السمع فيه من الفؤاد ، أى يوافق ما فى الأعماق ، وشيئاً آخر يمر عليه الإنسان مر الكرام غير ملتفت إليه . والأفئدة هى القلوب ، صحيح أن الأذان هى التى تصغى ، لكن القلوب قد تسمع ما يقال ، وكأن النفس مستعدة لهذه العملية ؛ لأنها لا تؤمن بأن هناك آخرة وعندما استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون التفات للآخرة . ولذلك ينقل الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى الفؤاد وهذا إدراك .

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .. ﴾ (١١٣)

[سورة الأنعام]

ثم تأتى المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة :

﴿ .. وَلِيَرَوْهُ وَليَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ (١١٣)

[سورة الأنعام]

وقد يصغى إنسان ، ثم تتبته نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة . لكن هناك من يصغى ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم ينزع للعمل ليقتترف الإثم . وهذه ثلاث مراحل : الأولى هى : « ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » . ثم المرحلة الثانية : « وليرضوه » ، ثم المرحلة الأخيرة : « وليقترفوا » أى يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التى درسها علماء النفس فالإدراك ؛ « لتصغى » ، والوجدان ؛ « ليرضوه » ، والنزوع ؛ « ليقترفوا » .

وقبل أن يولد علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المختلفة من إدراك ووجدان ، ونزوع ، والشرع لا يتدخل عند أى مظهر من مظاهر شعور المرء إلا عند النزوع إلا فى حالة واحدة حيث لا يمكن فصل النزوع عن الوجدان وعن الإدراك ؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون فى عملية نظر الرجل إلى المرأة ؛ لأنك حين تنظر تجد فى نفسك : تحبها وتعشقها تفتن بها ، ومحرم عليك النزوع ، فحين تتقدم ناحيتها يقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات ؛ لأنه إن أدرك وجد ، وإن وجد نزوع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠) ﴾ [سورة النور]

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [سورة النور]

إذن فقد منع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى النزوع ، لماذا ؟ لأن الإدراك الجمالى فى كل شىء يختلف عن الإدراك الجمالى فى المرأة : الإدراك الجمالى فى المرأة يحدث عملية كيميائية فى الجسم تسبب النزوع ، ولا يمكن فصلها أبداً . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون . وساعة ما نقول : « ما » ويأتى الإيهام فهذا دليل على أن هناك أموراً كثيرة جداً . ولذلك يقول الحق :

﴿ .. فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾ [سورة طه]

أى أنه أمر لا يمكن أن تحده الألفاظ ، مثله مثل قوله : (وليقتروا ما هم مقترفون) .

أى أن كل واحد يقترف ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يميل إليه ؛ فهناك من يغتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التى لا تحدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ الذى يعطى العموم .

وما دامت المسألة فى نبوة واتباع نبوة ، وفى أعداء شياطين من الإنس والجن

ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لابد من حاكم يحكم . فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك بكذا وكذا ويبدلون قصارى جهدهم في إيذائك ومن اتبعك ، فإياك أن تبتغى حكماً غيرى ؛ لأنى أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذى سوف أجازى .

لماذا ؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتى من يقول مراد المقنن كذا ، أو المفسر الفرنسى قال كذا ، والمفسر الإنجليزى قال كذا ، لا ، إن الذى يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بها ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :
(إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى فلعن بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليركها)^(١) .

أى إياك أن يقول واحد : إن النبى قد حكم ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد حكم بظاهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصمين قوى الحجة ، والآخر لا يجيد التعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذى قنن ، وما دام هو الذى قنن وهو الذى يحكم بينكم ، فليطمئن كل إنسان يتخاصم مع غيره ؛ لأن القضية يفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ
الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ
أَنَّهُ مَنزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾^(١١٤)

فسبحانه هو من يحكم وهو من قنن ، وهو من يعلم القانون ويعلم من يتبع

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

القانون ، ومن يخالف القانون . وساعة تقول : « أغير الله أبتغى حكماً » فهذا دليل على أنك واثق أن حجيتك لن يقول لك إلا : لا تتبغى حكماً إلا الله ، ولذلك يطرح المسألة في صيغة استفهام ، ويقول صلى الله عليه وسلم : مبلغاً عن ربه : « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » ، ولم يقل رسول الله : وهو الذى أنزل على الكتاب ، بل قال مبلغاً عن رب العزة : « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب » كأن العداوة ليست لمحمد وحده ، لكنها العداوة لأمة الإيمان كلها ، والحكم لأمة الإيمان كلها . ومع أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ولكن مهمته البلاغ إلى الناس والغاية منه للمؤمنين كلهم ، وهكذا تكون العداوة للنبي عداوة للمؤمنين كلهم ، ولذلك أنزل عليه الحق هذا التساؤل : « أغير الله أبتغى حكماً » كما أنزل عليه من قبل القول الحق :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فعدو النبي هو عدو للمؤمنين به والمتبعين له ، لكن قمة العداوة تكون للنبي المرسل من الحق :

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وكلمة « من ربك بالحق » فيها إغراء للمؤمنين بأن كل الأمر يعود عليكم أنتم بالفائدة ؛ لأن غاية إنزال الكتاب لكم أنتم ، والكتاب جاء بهذا المنهج لصالحكم ولن يزيد في صفات الله صفة ، ولن يزيد في ملك الله ملكاً . بل الغاية أنتم

﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وسبحانه لم ينزل الكتاب إلا بتفصيل لا تلتبس فيه مسألة بأخرى :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

﴿ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

والمقصود هنا بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعتك ويعلمون الكثير من كتابك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الآفة أنهم اعتنقوا دينين : دينا يعلن يبدونه ويظهرونه ، ودينا يُسَرُّ به ، فما يسر به لا يعلنونه ويحرمون السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلونها ، وما الذي جعلهم يلتون هكذا ؟ لأن لهم حالين اثنتين : حال أيام أن كانوا يعاديهم من لا يؤمن بالسما ومنهج السماء كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق :

(وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا)

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

لقد كانوا من قبل أعداء للذين كفروا وأشركوا فكان همهم وشغلهم الشاغل أن ينتصروا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :

(أظل زمان نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)

وحينما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم :

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا)

(من الآية ٩ سورة التوبة)

وكان الثمن هو بقاء السلطة في أيديهم ، وعندما أتت النبوة تنزع منهم السلطة ، فليس في الإسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت . وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم ، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

﴿ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذى يشيعونه هو باطل . إذن فهناك علم بينهم وبين نفوسهم ؛ وعلم آخر يقولونه للآخرين . وقوله الحق : « فلا تكونن من الممترين » أى الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق . هذا خطاب للنبي ﷺ ، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فالمراد المداومة عليه والزيادة ؛ لأن هناك أمورا قد تزلزل الإيمان ؛ لذلك يأتى الأمر بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تمتروا ولا تشكوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ

لِكَلِمَتِهِ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

وكلمة « تمت » تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمت ؟ . أمى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. (٣) ﴾

[سورة المائدة]

أو « كلمة ربك » المقصود بها قرآنه ؟ . ونرى أن معنى « تمت » استوعبت كل أفضية الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكما من الأحكام ؛ لأن الأحكام غطت كل الأفضية . ولفظ « كلمة » مفردة لكنها تعطى معنى الجمع . وأنت تسمع فى الحياة اليومية من يقول : وألقى فلان كلمة طيبة فوبلت بالاستحسان والتصفيق . هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء بـ « كلمة » إذن « تمت كلمة ربك » المقصود بها المنهج الذى يشمل كل الحياة ، وقرأ قوله الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾

[سورة الكهف]

أهى كلمة أو كلمات؟ أنها كلمة ولكن فيها كلمات. إذن لفظ «كلمة» تطلق ويراد بها اللفظ المفرد، وتطلق ويراد بها الكلام. والكلمة فى الأصل لفظ مفرد، أى لا يكون معها لفظ آخر، ولكنها تدل على معنى، فإذا كان المعنى غير مستقل بالفهم؛ ويحتاج إلى ضميمه شىء إليه لفهمه فهذا حرف، وأنت تقول: «فى» وهو لفظ يدل على الظرفية، إلا أنه غير مستقل بالفهم؛ لأن الظرف يقتضى مظروفاً ومظروفاً فيه، فتقول: «الماء فى الكوب» لتؤدى المعنى المستقل بالفهم. وكذلك ساعة تسمع كلمة «من» تفهم أن هناك ابتداء، وساعة تسمع كلمة «إلى» تعلم أن هناك انتهاء. وإن كان يدل على معنى فى نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الأسم. وإن كان الزمن جزءاً منه فهو «الفعل». أما «الكلام» فهو الألفاظ المفيدة.

وحيث تسمع «سما» تفهم المعنى، وكذلك حين تسمع كلمة «أرض» وهو معنى مستقل بالفهم. وحيث تسمع كلمة «كتب» فهى تدل على معنى مستقل بالفهم، والزمن جزء من الفعل، فكتب تدل على الزمن الماضى و«يكتب» تدل على الحاضر و«سيكتب» تدل على الكتابة فى المستقبل. إذن فـ «الكلمة» لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف. و«الكلمة» قد يقصد بها الكلام.

وقوله الحق: «تمت كلمة ربك» تعنى الكثير. فإن إردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله. وكلام الله نسميه «كلمة» لأن مدلوله كلمة واحدة. انتهت وليس فيها تضارب، هذا إن أردنا بها القرآن، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شىء، وكل قضية فى الوجود وأيضاً لم ينس أو بدّل فيه حرف؛ بل بقى وسيبقى كما أنزل؛ لأن الآفة فى الكتب التى نزلت أنهم كتموا بعضها ونسوا بعضها، وحرفوا بعضها، وكان حفظها موكولاً إلى المكلفين، ومن طبيعة الأمر التكليفى أنه يطاع مرة، ويعصى مرة أخرى. وإن أطاعوا حافظوا على الكتب، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله الحق:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾

و«استحفظوا» أى طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفي عرضة أن يطاع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر اختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحجر]

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلف عمل فيها أبداً .

إذن فقوله الحق : « تمت كلمة ربك » المقصود بها أن تطمئن على أن القرآن الذى بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو ولن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب فى بعض نصوص القرآن ، فتجد نصاً مساوياً للنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق :

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة المدثر]

ومرة أخرى يقول سبحانه :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة عبس]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكَّرَةٌ ﴿٢٩﴾ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الإنسان]

فهذا لون ونوع من التشابه من الآيات ليقول لنا الحق :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة القيامة]

والحق يقول :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٨٩١

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ
اللُّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزُّكُوفِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
(٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ
هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) ﴾

[سورة المؤمنون]

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾

[سورة المعارج]

وكل ذلك يدل على أن كل كلمة وصلت كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك
قد تمت . أو قول الله : « وتمت كلمة ربك » ليدل على أن كلمة الله هي العليا ،
ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هي العليا » لم يجعلها الحق جعلاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ،
وسبحانه القائل :

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ .. (٤١) ﴾

[سورة التوبة]

هذا السياق الإعرابي حصل فيه كسر مقصود ، والسياق في غير القرآن أن يقول :
وجعل كلمة الله هي العليا ، ولكنه سبحانه يقول :

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا)

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هي العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا
دليل على أن كلمته قد تمت .

ونلاحظ أن قول الحق : « وتمت كلمة ربك » تأتي بعد « أغير الله أبتغى حكماً » ،
واستقرىء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين

والمحقين ، وبين المهتدين والضالين ، إنه الحق القائل :

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

والحاصب هو الريح التي تهب محملة بالحصى وكانت عقوبة لقوم عاد

﴿ وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَلَكَوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾

(سورة الحاقة)

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : (فخسفنا به وبداره الأرض) .

وكذلك : (ومنهم من أغرقنا) .

وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق - من قبلهم - المكذبين لنوح . إذن كل قوم أخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التي أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن « تمت كلمة ربك » ، وهى الفصل النهائى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا

[سورة الصافات]

﴿ لَّهُمُ الْغَلْبُونَ (١٧٣) ﴾

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب ، والنصر للمنهج الغالب يقتضى الإخلاص ، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القائل :

[سورة المجادلة]

﴿ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام .

[سورة الأنعام]

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا .. (١١٥) ﴾

أى وافق الواقع الكونى ما قال الله به . وكيف كان الواقع صادقاً وعادلاً فى آن واحد ؟ لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصياً لوليك ، وصادف أنه هو الذى يدرس فى المدرسة وهو الذى يدرس لابنك ثم قلت له : أريد أن ينجح الولد فى الامتحان . ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان ونجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل ؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولّمح للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذ غير عادل ، لكن كلمة الله تجىء مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهى كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضح الثواب والعقاب : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علم الله عباده احتياط الصدق فى كلامهم ؛ فأوصاهم :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [سورة الكهف]

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذى لا نتحكم فيه ، فاحم نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ

ربنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحمي الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلا على وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول : « أفعل ذلك غداً » . ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟! لكن الله إذا قال : « سأفعل » فله طلاقة القدرة .

﴿ وَتَمَّتْ لِمَتِّ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) ﴾
[سورة الأنعام]

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سمع لما قالوه في عدواتهم ، وعليم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القاتل من قبل :

﴿ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [سورة الأنعام]

أى ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بخفاء فهو معلوم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ (١١٦) ﴾

و« من في الأرض » المقصود بهم المكلفون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أوامر ونواه ، فما دون الإنسان لا أمر له ، و« أكثر » لا يقابلها بالضرورة كلمة « قليل » أو « أقل » ، وما دام القول هو : « أكثر » . فقد يكون الباقيون كثيراً أيضاً ، وأما كثير فإنها ، تعطى له كميته في ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على « المطار » أو على « الميناء » ، يا داخل

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٨٩٥

مصر منك كثير ، أى إن كنت رجلاً طيباً فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريراً فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١١٨) ﴾ [سورة الحج]

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسم الأمر ؛ لأن لهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس . بل قال « وكثير من الناس » ، ولم يقل الحق : وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : « وكثير حق عليه العذاب » فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم فى ذاتهم فهم كثير ، والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول الحق : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله »؟

« الطاعة » - كما نعرف - استجابة للأمر فى « افعل » ، والنهى فى « لا تفعل » إذا قال الحق للإنسان افعل كذا ؛ فالإنسان صالح لأن يفعل وأن لا يفعل ، وإن قال « لا تفعل » فالإنسان صالح أن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شىء لا تقدر عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان عادة حين يؤمر أو يُنهى إنما يؤمر وينهى لمصلحته ، فإن لم يوجد أمام مصلحة معارض من منهج إلهى فهذا من مصلحته أيضاً ؛ لأن الله أجاز له حرية الفعل والتّرك . ويوضح الحق : من رحمتى أن جعلت لكم تشريعاً ؛ لأننا لو تركنا الناس إلى أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهى كل واحد من الناس بما يخالف هواه ؛ لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع « افعلوا كذا » و « لا تفعلوا كذا » وبذلك يأتى الاستطراق لنفعهم جميعاً . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [سورة الأنعام]

فهناك أناس مؤمنون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو الفطرة في الإنسان ، وقد جاء التشريع لينمي في صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكد هاله ، ويعدل في صاحب النزعة السيئة ليعوده به إلى الفطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : (إن يتبعون إلا الظن) .
كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، ويغيب عنه ما يجزر عليه من الوبال فيما بعد ذلك .

و«الظن» - كما نعلم - هو إدراك الطرف الراجح ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوي :

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) ﴾ [سورة الأنعام]

و«إن» - كما نعرف - تأتي مرة جازمة : إن تفعل كذا تجد كذا ، وتأتي مرة نافية ، مثل قوله الحق :

﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا النَّسِيُّ وَلَدْنَهُمْ .. (٦) ﴾ [سورة المجادلة]

أى : ما أماتهم ؛ ف«إن» هنا نافية . وقوله الحق : « إن يتبعون إلا الظن » أى ما يتبعون إلا الظن . هم إما أن يتبعوا الظن وإما أن يخرصوا . (فالخارص) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر في سوق الغلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكوم من القمح ؟ . فيرد : حوالى عشرة أراب أو اثني عشر أرباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقينى أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلونك . لأنهم لا يملكون دليلاً علمياً ، ولا حقاً يقينياً ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

وساعة ترى «هو» هذه فاعرف أنها تَرُدُّ وتجبب على ما يمكن أن يقال، فهناك من يقول: أنا سوف أرى تصرفات فلان، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدراك؛ لأنك سترى تصرفات فقط، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم؛ لأن الميزان كله عنده، إنه يدرك الظاهر والباطن، وهو سبحانه يقول هنا: «أعلم» وهناك «عليم»، و«العليم» هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به، لا الخافي منه، أما الذي يرى الظاهر والخفي فهو أعلم .

ولذلك كان النبي ﷺ في مسائل كثيرة يعامل الناس بعلايتهم، ويترك سرائرهم إلى الله . وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام، سأله ﷺ لماذا؟، قال: لأنه أعلن الإسلام نفاقاً . فقال ﷺ: أشققت عن قلبه؟! .

وسبحانه وتعالى «أعلم»؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ويقول الحق :

﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ
مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
 وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَحْرَمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ
 إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ
 هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

ما الذى أدخل هذه المسألة فى هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبي يلتمسون ثغرة فى منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هى مهمتهم التى היאها الله لهم ، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج ، فحين قال لهم : إننى أسرى بى إلى المسجد الأقصى وعرج بى إلى السماء فى ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة لينفذوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟! لكن أبو بكر الصديق قال : إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذى يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس . ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته فى خبر السماء فكيف أكذبه فى ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقى .

لكن المعارضين لرسول الله ﷺ قالوا : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً! فأعطى ﷺ لهم الأمارات ووصف لهم العير التى فى الطريق ، وغير ذلك من العلامات التى تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ، ولو مرت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا الحرارة فى تصديقها .

إننا نجد حالياً من يقول : وهل من المعقول أنه ﷺ راح إلى بيت المقدس وجاء فى ليلة ؟ لا بد أن ذلك كان حتماً . لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد ؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة ، وهذه هى المهمة التى جعلها الله للأعداء ؛ لأنه ﷺ لو قال

لهم : إننى حلمت أنى رحمت بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبى حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجروء واحد أن يكذبه ، لكنهم ما داموا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب ، لقد فهموا عنه أنه قد انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن ، لنردِّبه على المكذبين المعاصرين .

إذن فوجود الأعداء يهيج القرائح التى يمكن أن ترد على أية شبهة يثيرها أى إنسان سواء أكان ماضياً أم معاصراً .

والحق هنا يقول :

﴿ فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨) [سورة الأنعام]

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطيد الثغرات لينفذوا منها ، وقالوا : يقول النبى لكم : إن الميتة لا يحل لكم أن تأكلوا منها ، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هى الشبهة التى قالوها ، وهى أولاً مغالطة فى الأساليب ؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحناها لنظهرها من الدم ؛ لذلك فللمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية ، إنما القتل هو سلب للبنية أولاً فتزهق الروح ويبقى الدم فى الجسم . ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة ممّا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟ .

وقد تبين لنا فى عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا فى الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التى يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة ، وفى الجسد أجهزة تصفى وتنقى الجسم من السموم الضارة ، فالكلية مثلاً تصفى الدم من البولينا وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين ، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة ، وأوعية الدم فى الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم

الفاسد ، والدم الفاسد هو الذى لم تتم تنقيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أى أننا ضحينا بالدم الصالح فى سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ؛ فآثار الدمين الاثنيين موجودة . وكذلك آثار الفضلات التى كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله فى هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل فى شىء إلا فى توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته ؟

كان جدلهم أنهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم . ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التى نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أى غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨) [سورة الأنعام]

إن تلقى أى حكم من الحق ، لا يصح أبداً أن نبحث عن علة أولاً ثم نؤمن به ، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذى آمننا به . علينا إذن أن نأخذ الحكم الذى أمر به الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (١١٩) [سورة الأنعام]

وللآيتين - كما علمنا - سبب نزلتا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها ، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت فى عضدهم العقدى فعرضوا هذه المسألة وهى فى ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق ؛ لأن من الذى قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله ، فهل الله هو الذى قطع رقبتها ؟ وهل

ضربها الله على رأسها فأمات أصل إدارة الحياة وهو المخ ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها؟ سبحانه جل وعلا منزّه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، فكيف يسمون الموت قتلاً؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ ، فقولهم : كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أى بالذبح . ولا تبيحون ما قتله الله أى أماته ، فيه مغالطة فى عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التى يثيرونها ؛ فقال : ﴿ فَكُلُّوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨)

وما معنى الذكر ؟ إن عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيراً . فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسياً أم عامداً فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعى - رحمته - يرى : ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فكل مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر الله .

ونقول : ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يمر الشئ بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إن الذكر باللسان فلنبحث فى الحديث القدسى الذى قاله الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم » (١) .

إذن فقد سمى ربنا الخاطر فى النفس ذكراً وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال .

لذلك أقول : يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهى الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى « الذكر » ؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال ، وقد يظل خطوراً على البال فقط ، بدليل ما جاء فى الحديث السابق .

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى .

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء ؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها ، ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله ، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهو الله ، إذن اختياره حيواناً للذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول ، وبهذا تتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل ، وينتهي الخلاف في هذه المسألة . إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمى أو لم يسم ، أوضح لمن سأله : سم وكل .

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائياً بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر ، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائياً . ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة ؛ فقال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم أقطع » (١)

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله . إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر ؛ لأنك حين تقبل على أي فعل فينفع لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تذبح عاجلاً ، أو خروفاً ، وتتأمل أنت كيف يُقدرك الله على هذا الكائن الحي . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كل الكائنات لك . فباسم الله تذبحه .

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن

(١) رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن أبي هريرة .

تقبل عليها باسم الله . ولذلك يخطيء بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته في الحياة ؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له .

لقد قلنا سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المزاوالت الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأتي إلى الحيوانات التي لم يجلها الله للإنسان ، كالحمار مثلاً إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يبيتها ، كأن التف حول عنقه حبل ، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام ، لكن الحيوان الذي أحله الله للأكل ؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل ، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الأمام ، فيقول أهل الريف في مصر : إنه يطلب الحلال ، أى الذبح . فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة .

إذن فمعنى كلمة « باسم الله » أى أنى لم أجتريء على هذا العمل إلا فى إطار اسم الله الذى أحل لى هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين : لا تسمعوا كلام الكافرين ، ويأتى السؤال الاستنكارى : « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » والمعنى : أى سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التى نص الله عليها ، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم . وإن قيل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء ؟ ونقول : إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكل حيوان مهمة . وإن ذبحت محرماً ، فقد يناقض هذا الفعل مهمته . فالخنزير - مثلاً - حرّمه ربنا ؛ لأنك إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ؛ لأنه مخلوق كى يلم جراثيم الأشياء التى لا تراها العين ، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة ؛ لذلك حرم وحلل له ، وإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشئ الضار ؛ فقد حرم شيئاً غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب فى : « افعل هذا » و « لا تفعل هذا » . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فِظْلَمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ۗ

وفي حياتنا اليومية هل تقول : إن الذين يربون أبناءنا في الجيش بالشدة ، يقسون على الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعودوا التزام الأدب والطاعة والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن في بعض الأحيان نتناولها لنداوى بها الأمراض ، فلو أخذها الإنسان من غير مرض أوداع فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتى بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أولاً ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير .

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول ، لعلنا نحتاج إليها في لحظة الشدة والمرض .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريرية بـ « إن كنتم مؤمنين » ، ومعنى « إن كنتم مؤمنين » أى يا من آمنتم بالإله الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أقبلت على أى شىء مما أحله الله لك فأقبل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأنزلها فى كتابه ، وأساء علمها لأحد من خلقه ، وأساء استأثر بها فى علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هى صفات الكمال لله ، التى لا توجد فى غيره . وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول : باسم الله . وتتمى المسألة . وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم : إن الحق سبحانه وتعالى قال فى أول سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى سورة الأنعام يقول :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والمتنبهون من العلماء قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٠٥

بعد السور المكية ، وسورة الأنعام مكية ، وهل يقول الحق في السورة المكية « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » في السورة المدنية ؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال : لقد فصل لكم في سورة المائدة وجاء أيضاً في سورة الأنعام فقال :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

أى فصل لك في هذه السورة المكية . وقد يأتي واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول : لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا ؟

ونقول : القرآن هو الخطوط الأساسية في المنهج ، وتأتي السنة بالتفصيل في إطار :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [سورة الحشر]

والحق يقول هنا :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ .. (١١٩) ﴾ [سورة الأنعام]

واضطرار هو أمر ملجئ إلى شيء غير الأسباب الكونية المشروعة . ومعنى كونه مضطراً أنه يلجأ إلى شيء فقد أسبابه المشروعة كالذي يريد أن يأكل ليستبقى الحياة ، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقى به الحياة فهو مضطر . ونقول له : خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذي يدفع عنك الضرورة . فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع .

والحق يقول :

﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ .. (٣) ﴾ [سورة المائدة]

والمخمصة هي المجاعة . إذن فالاضطرار هو شيء فوق الأسباب المشروعة

للعمل . والله سبحانه وتعالى يعطى الإنسان الرخصة فى أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً .

﴿إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١١٩)﴾

[سورة الأنعام]

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك فى نفوس المسلمين . ومعنى الضلال بالهوى أن تكون عالماً بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية . ولذلك يصف الحق رسوله ﷺ :

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣)﴾

[سورة النجم]

وحين يقول الحق : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم » فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أى أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدورها ولكنك تعدل عنها :

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١١٩)﴾

[سورة الأنعام]

وساعة ترى مجيء متعلق بعد « يضلون » وهو قوله : (بأهوائهم) تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم ، وهو غير مذموم ؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم فى القضية ، وهذا يختلف عن الذى يضل وهو يعرف الحكم ، فهذا ضلال بالهوى ، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً . و« بغير علم » أى ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿... إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)﴾

[سورة الأنعام]

وقد أفسح الله فى النص القرآنى لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى ، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾

هذه تقنيات الساء التي تحمي المجتمع من بعضه وذلك في ألا تقع عين أحد على مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك على مخالفة من غيرك تكون المخالفة مما يدرك لكنها ليست كل الفساد في المجتمع ؛ ففساد المجتمع يأتي من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات . وهناك أشياء تكون في منابع النفس البشرية التي تصدر عنها عوامل النزوع ؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر . والتقنيات البشرية كلها تحميها من ظاهر الإثم ، ولكن منهج الساء يحميها من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم .

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله ، فسبحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم ، فإياكم أن تفعلوا باطن الإثم ، ولا يكفي أن تحمي نفسك من أن يراك القانون ؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس من أن يتظاهروا بالجريمة ويقتفروها علانية ، والفرق بين تشريع الساء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمي الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع الساء يحمي الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم في الأرض .

وبعض أهل الاكتساب في الشر برياضتهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمراً قد تعودوا عليه بلا افتعال .

و « كسب » - كما نعلم - تأتي بالاستعمال العام للخير ، و « اكتسب » تأتي للشر لأن الخير يكون فيه الفعل العملي رتبياً مع كل الملكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد - مثلاً - أن يشتري من محل ما فهو يذهب إلى المحل في وضع النهار ويشتري . لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة ترتيباً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المران والدربة عليه لا يتطلب انفعالاً ، لأنه قد أضحي لونا من

الكسب . و« يكسبون» تدل على الريح ؛ لأن « كسب» تدل على أنك أخذت الأصل والزيادة على الأصل ، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطى لنفسه مقومات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائداً ، وهذا هو قمة الكسب .

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد في حركته أن يحقق لذاته نفعاً هو بصدد الحاجة إليه ، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه ، ثم ينشأ من ذلك الفعل ضرر بعد ذلك ؛ لذلك يحمى الله الإنسان المؤمن بالمنهج حتى يميز بين ما يحقق له الغرض الحالى ويحقق نفعاً ممتداً ولا يأتى له بالشر وما يحقق له نفعاً عاجلاً ولكن عاقبته وخيمة ونهايته أليمة ، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات - مثلاً - يحققون لأنفسهم نفعاً مؤقتاً ، مثل التلميذ الذى لا يلتفت إلى دروسه ، والذى ينام ولا يستيقظ ، والذى إن أيقظوه وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكع فى الشوارع ، هو فى ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة ، لكن مآله إلى الفشل . بينما نجد أن من اجتهد وجدّ وتعب قد حقق لنفسه النفع المستمر الذى لا تعقبه ندامة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (١٢٠)

[سورة الأنعام]
ففى الدنيا نجد أن الجزاء من بشر لبشر ، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم ؟

فالذى يصون المجتمع - إذن - هو التقنين السماوى ، فالمنهج لا يحمى الإنسان من حوله فحسب ولكنه يقن الحركة الإنسان لتكون صحيحة .

ويعود الحق بعد ذلك إلى قضية الطعام فيقول :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِىَ إِلَيْكُمْ أَوْلِيَاءِهِمْ

لِيَجْعَلَ لَكُمْ لُؤْمًا وَإِنْ اطَّعْتُمْهُمْ إِنَّكُمْ لَمَشْرِكُونَ ﴿١٣١﴾

وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه بـ «الفسق» وهو ما تشرحه الآية الأخرى وتبرزه باسم مخصوص :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴾ (١٤٥) ﴿ [سورة الأنعام]

إذن فـ «فسقاً» معطوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم خنزير، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو (فسقاً) ؛ والمعطوف عليه بحكم يختص بالمعطوف عليه ، وهذا الحكم هو الرجس وهكذا أخذت الثلاثة المحرمات حكم الرجس . وعطف عليها ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس والفسق .

ويقول الحق : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وسبحانه يريد أن يبين لنا أن الفطرة السليمة التي لا يعيها هوى تصل إلى حقائق الخير ، ولذلك نجد أن الذين يحثون ويحض بعضهم بعضاً على الشر ويعلم بعضهم بعضاً بخفاء إنما يأخذون مقام الشيطان بالوسوسة والتحريض على العصيان والكفر ؛ لأن المسألة الفطرية تأبى هذا ، وحين يرتكب إنسان موبقة من الموبقات ، إنما يلف لها ويتحایل ليصل إلى ارتكاب الموبقة ، وقد يوحى بذلك إلى غيره ، فيدله على الفساد . ويكون بذلك فى مقام الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم بإعلام خفى ؛ لأن الفطرة السليمة تأبى الأشياء الشريرة وتقف أيضاً فيها ، ولا يجعلها تتقدم إلى الشر إلا الهوى ، فإذا ما أراد شيطان من الإنس أو شيطان من الجن أن يزین للناس فعلاً فهو لا يعلن ذلك مباشرة . إنما يلف ويدور بكلام ملفوف مزين .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعموهم إنكم لمشركون » وفى ذلك إشارة إلى قول المشركين : تأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتل الله وأنتم أولى أن تأكلوا مما قتل الله .

وكان مجرد الطاعة لهؤلاء المشركين لون من الشرك ؛ لأن معنى العبادة امتثال واثمار عابد لمعبود أمراً ونهياً ، فإذا أخذت أمراً من غير الله فإنه يخرج بك عن صلب وقلب منهجه سبحانه وبذلك تكون قد أشركت به .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا
يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ
بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾

والحق سبحانه وتعالى - كما عرفنا - يعرض بعض القضايا لا عرضاً إخبارياً منه ، ولكن يعرضها باستفهام ؛ لأنه - جل وعلا - عليم بأنه حين يأتي لك الاستفهام ، ثم تدبر ذهنك لتجيب فلن تجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق . إذن فالأسلوب أحياناً يكون أسلوباً خبرياً أو يكون استفهاماً بالإثبات أو استفهاماً بالنفي . وأقواها الاستفهام بالنفي . وحين يعرض سبحانه القضية التي نحن بصددتها يوضح وهو العليم أنك إن أحببت أن تجيب فلن تجد إلا الجواب الذي يريد الحق .

إننا نجد في الآية الكريمة موتاً وحياة ، وظلاماً ونوراً .

وما هي الحياة ؟ . الحياة هي وجود الكائن على حالة تمكنه من أداء مهمته المطلوبة منه ، وما دام الشيء يكون على حالة يؤدي بها مهمته ففيه حياة ، وأرقى مستوى للحياة هو ما تجتمع فيه الحركة والحس والفكر ، وهذه الأمور توجد كلها في الإنسان . أما الحيوان ففيه حس وحركة وليس عنده فكر . غير أن الحيوان له غريزة أقوى من فكر الإنسان ، فهو محكوم بالغريزة في أشياء وبالاختيار في أشياء ، وليس لك في الغريزة عمل . لكن في مجال الاختيار لك عمل ، تستطيع أن تعمله وتستطيع ألا تعمله .

إذن فالحياة هي أن يكون الكائن على حال يؤدي به مهمته المطلوبة منه . وعلى هذا الاعتبار ففي الإنسان حياة ، وفي الحياة حياة ، وفي النبات حياة ، وفي الجماد حياة ، وكلما تقدم العلم يثبت لنا حيوات أشياء كثيرة جداً كنا نظن ألا حياة فيها ، وإن ظهر لنا في التفاعلات أن بعض الأشياء تتحول إلى أشياء أخرى ، فعلى سبيل المثال الحيوان فيه حياة فإذا ذبحناه وأكلناه ، ورمينا عظامه ، كانت فيها حياة من نوع ثم صارت أجزاؤه إلى جمادية لها حياة من نوعها ، بدليل أنه حين يمر بعض من الزمن يتفتت العظم .

وكنا قديماً في الريف نحلب اللبن في أوعية من الفخار وتوضع في مراقد ، ويستمر اللبن أسبوعاً في المرقد ، ويكون أحلى في يومه عن أمسه . ويزداد اللبن حلاوة كل يوم ، ثم تأخذ زوجة الفلاح قطعة القشطة الأخيرة وتصنع منها الجبن الجميل الطعم . أو الزبد لكن بعد أن غلينا اللبن نجده يفسد بعد عدة ساعات ؛ لأنك حين وضعت في المرقد ، أخذته بالحياة فيه فظلت فيه حيوية حياته ، لكن حين غليته فقد قتلت ما فيه من الحياة ، فإن لم تضعه في ثلاجة لا بد من أن يتعفن ، ومعنى التعفن أنه لم يعد يؤدي مهمته كلبن ، إنما انتقل إلى حياة أخرى بفعل البكتريا وغيرها ، ولا يذهب الحياة إلا الهلاك وهو ما قاله الحق :

[سورة القصص]

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾

إذن ، لا تأخذ الميت على أنه شيء ليس فيه حياة ، ولكنه انتقل إلى حياة ثانية .

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ .. (١٢٢) ﴾

[سورة الأنعام]

كان للإنسان حياة في ذاته ، ثم جعل الحق له نوراً يمشى به . كأن الحياة متنقلة في أشياء ، ويحتاج الإنسان إلى حياة ، ويحتاج إلى نور تتضح به مرائي الأشياء . وكانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى حين ينتقل شعاع من عينه إلى المرئي فيراه ، إلى أن جاء العربي المسلم ابن الهيثم . وقال هذا رأى جانبه الصواب في قانون الضوء ، وقال : إن الإنسان يرى ؛ لأن شعاعاً من المرئي يصل إلى عين الرائي . بدليل أن المرئي إن كان في ضوء يدركه الإنسان ، وإن كان في ظلمة لا يدركه الإنسان ،

ولو كانت الأشعة تخرج من عين الإنسان لرأى الأشياء سواء أكانت في نور أم في ظلمة، وتعذلت كل النظريات في الضوء على يد العالم المسلم، وجاءت من بعد ذلك الصور الفوتوجرافية والسينما. إذن فالنور وسيلة إلى المراتب.

ويترك الحق سبحانه وتعالى في أفضية الكون الحسية أدلة على الأفضية المعنوية؛ فالنور الحسى الذى نراه إما ضوء الشمس وإما ضوء القمر، وإما ضوء المصباح، وإما غير ذلك، وهذا ما يجعل الإنسان يرى الأشياء، ومعنى رؤية الإنسان للأشياء أن يتعامل معها تعاملًا نفعيًا غير ضار. ونحن نضئ المصباح بالكهرباء حين يغيب النور الطبيعى - نور الشمس - وعندما نضئ مصابيحنا نرى الأشياء وتتفاعل معها ولا نحطمها ولا تحطمننا، وكل واحد منا يأخذ من النور على قدر إمكاناته. إذن كل واحد يضئ المكان المظلم الذى اضطر إليه بغيبوبة المنير الطبيعى على حسب استطاعته، فإذا ظهرت الشمس أطفأنا جميعاً مصابيحنا؛ هذا دليل من أدلة الكون الحسية الملموسة لناخذ منها دليلاً على أن الله إن فعل لقيمنا نورا فلا نأتى بقيم من عندنا، مادامت قيمه موجودة.

ويوضح الله أن الإنسان بدون قيم هو ميت متحرك، ويأتى المنهج ليحيا حياة راقية. ويوضح سبحانه لكل إنسان: احرص على الحياة الثانية الخالدة التى لا تنتهى وذلك لا يتأتى الا باتباع المنهج، وإياك أن تظن أن الحياة فقط هى ما تراه فى هذا الوجود لأنه إن كانت هذه هى غاية الحياة لما أحس الإنسان بالسعادة؛ لأنه لو كانت الدنيا هى غايتنا للزم أن يكون حظنا من الدنيا جميعاً واحداً وأعمارنا واحدة، وحالاتنا واحدة، والاختلاف فيها طويلاً وقصراً وحالاً دليل على أنها ليست الغاية؛ لأن غاية المتساوى لا بد أن تكون متساوية.

إذن فقول الله هو القول الفصل:

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾

[سورة العنكبوت]

فهذه هى الحياة التى لا تضيع منك ولا تضيع منها، ولا يفوتك خيرها ولا تفوته. إذن فالذى يحيا الحياة الحسية الأولى وهى الحركة بالنفخ فى الروح هو ميت متحرك.

﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

أى أنه سبحانه قد أعطى لمثل هذا العبد حياة خالدة ونوراً يمشى به ، لا يحطم ولا يتحطم .

أما من يقول : إن الحياة بمعناها الدنيوى ، لا تختلف عن الحياة فى ضوء الإيمان ، لمثل هذا نقول : لا ، ليس بينهما تساوى فهما مختلفتان بدليل أن الحق يقول :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

فسبحانه يخاطبهم ، وما دام يخاطبهم فهم أحياء بالقانون العادى ، لكنه سبحانه أنزل لرسوله المنهج الذى يحيا به المؤمن حياة راقية ، وافطنوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى أعطى ومنح الروح الأولى التى ينفخها فى المادة فتتحرك وتحس بالحياة الدنيا ، إنه أعطاها المؤمن والكافر . ثم يأتى بروح ثانية تعطى حياة أبدية . ولذلك سُمى منحه الله لخلق روحاً :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فالمنهج يعطى حياة خالدة .

إذن فقول الحق : « أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » أى أَوْ مِنْ كَانَ ضَالًّا فَهَدَيْنَاهُ ، أَوْ مِنْ كَانَ كَافِرًا فَجَعَلْنَاهُ مُؤْمِنًا . ولنلاحظ أن فيه « مَيِّتًا » بالتخفيف ، وفيه مَيِّتٌ بالتشديد . والمَيِّت هو من يكون مآله الموت وإن كان حيًّا ، فكل منا مَيِّتٌ وإن كان حيًّا . ولكن المَيِّت هو من مات بالفعل وسلبت وأزهقت روحه . ولذلك يخاطب الحق نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له : (إنك مَيِّتٌ) .

أى تؤول إلى الموت وإن كنت حيًّا الآن . لأن كُلاً منا مستمر فى الحياة إلى أن يتلبس بصفة الفناء ، ويقول الحق : « فَأَحْيَيْنَاهُ » أى بالمنهج الذى يعطيه حياة ثانية ، ولذلك سُمى القرآن روحاً ، وسُمى من نزل بالقرآن روحاً أيضاً .

« وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس » ولماذا يمشى به في الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ؛ لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تحتاط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر عن التفاعل الصعب لأنهم أصحاب أغيار . ويتابع الحق : « كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » وهذا تساؤل جوابه : لا ، أى ليس كل منها مساوياً للآخر ، مثلما نقول : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ . والفطرة هنا تقول : لا ، مثلما تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور ، أو الظل والحرور ، وهنا يَأْمُنَّا اللهُ على الجواب ؛ لأنه سبحانه - يعلم أن الأمر إذا طرح كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خيراً .

ويذيل الحق الآية :

﴿ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

والمعنى هنا أى تركناهم عرضة لأن يفعلوا للتزيين ، ولم يحمهم الحق بالعصمة في اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حراً للإنسان :

﴿ مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا

لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ

وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾

وقول الحق سبحانه : « وكذلك » تدل على أن شيئاً شبه بشيء ، فكما وُجد في مكة من يناصبك العداً ويناهضك ويقاومك في أمر الدعوة إلى الله ، ويصد عن

سبيل الحق؛ إن تلك قضية لست فيها بدعاً من الرسل؛ لأن هذه المسألة قضية سائدة مع كل رسول في موكب الإيمان، و«كذلك» أى كما جعلنا فى مكة مجرمين يمكرون جعلنا فى كل قرية سبقت مع رسول سبق هذه المسألة، فلم تكن بدعاً من الرسل. وحيث إنك لم تكن بدعاً من الرسل فلتصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل. وأنت أولى منهم بالصبر؛ لأن مشقاتك على قدر مهمتك الرسالية فى الكون كله، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة ليعالج داءً محدوداً فى زمان محدود. وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة، فلا بد أن تتناسب المشقات التى تواجهك مع عموم رسالتك التى خصك الله بها.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا .. ﴾ (١٢٢) [سورة الأنعام]

والإجرام هو مأخوذ من مادة «الجيم» و«الراء» و«الميم»، الجرم والجُرم والجريمة. فيها معنى القطع. و«مجرميها» جمع مجرم، ومجرم من أجرم، وأجرم أى ارتكب الجرم والجريمة، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالجريمة عن مجتمعه الذى يعايشه، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو، فكأنه قام بعملية انعزال اجتماعى، وجعل كل شىء لنفسه، ولم يجعل نفسه لأحد؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التى تترتب على ذلك.

إذن فالإجرام هو الإقدام على القبائح اقدماً يجعل الإنسان عاجلاً نفسه عن خير مجتمعه؛ لأنه يريد كل شىء لنفسه. ومادام يريد كل شىء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه، ويرتكب الرذائل. ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل؛ كى لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه.

﴿ . لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢٢) [سورة الأنعام]

والمكر - كما نعرف - مأخوذ من التفاف الأغصان بعضها على بعض التفافاً بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعلى أن تقول هذه الورقة من هذا الفرع؛ لأن الأغصان والفروع ملفوفة ومتشابكة ومجدولة بعضها مع بعض. والماكر يصنع ذلك

لأنه يريد أن يلف تبيته حتى لا يكشف عنه، ومادام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف التكوين؛ لأنه لو لم يعلم ضعف تكوينه لما مكر لأن القوى لا يمكر أبداً، بل يواجه، ولذلك يقول الشاعر:

وضيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث لنفسه بأن هذه فرصة لن تتكرر، فيجهز على خصمه خوفاً من الا تأتي له فرصة أخرى، لكن القوى حين يأتي لخصمه فيمسكه ثم قد يحدث نفسه بأن يتركه، وعندما يرتكب هذا الخصم حماقة جديدة فيعاقبه. إذن فلا يمكر الا الضعيف. والحق سبحانه وتعالى في هذه المسألة يتكلم عن المجرمين من أكابر الناس، أى الذين يتحكمون فى مصائر الناس، ويفسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف فى مواجهتهم. وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة، وبعضها وقع فيه الجدل والخلاف، ومن العجيب أن الخلاف لم يُصَفِّ، وكل جماعة من العلماء يتمسكون برأيهم. وهذه الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها تلتقى مع القول الحق:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا

تَدْمِيراً ﴿١٦﴾

[سورة الإسراء]

وهذه الآية فيها اشكال، وقامت بسببها معركة بين العلماء؛ فتجد منهم من يقول: وكيف يأمر الله أناساً بالفسق؟. وحاولوا أن يجدوا تأويلاً لذلك فقالوا: إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق. والجانب الثانى من العلماء قالوا: لا، إن الحق لا يقسر البشر على الفسق، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله فى المنهج فلا بد أن يعرف أن هذا الأمر عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى؛ لأن المأمور- وهو المكلف - صالح أن يفعل، وصالح الا يفعل، وأن الأمر قد أمر بشيء، والمأمور له حق الاختيار؛ وبذلك تجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان؛ لأن الحق هو القائل:

﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ.. (٥)﴾

[سورة البينة]

والفسق - إذن - مترتب على اختيار المأمور .

وحين نتأمل نحن بالخواطر معنى : « أمر الله » نجد أن أمر الله يتمثل في التكوينات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على مخالفة الله في ذلك ، فهو القائل : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

ويتمثل أيضاً أمر الله في التشريعات ، وللبشر الذين نزلت لهم هذه التشريعات أن يختاروا بين الطاعة أو العصيان ، وسبحانه القائل عن الأمر بالتشريع : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) .

وحين يقول الحق : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً فيها ففسقوا فيها) .

فسبحانه لا يهلك هذه القرية ظلماً ، وإنما يرسل إليهم المنهج ، فإن أطاعوا فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلا بد لهم من العقاب بالدمار .

وهكذا نرى أن العلماء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر في القرآن جاء على لوتين : أولاً : أمر التكوين بالقهريات فلا يستطيع المأمور أن يتخلف عنه ، ويمثل الأمر القهري قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢)

(سورة يس)

فالأمر جاهز في عالم الأزل ليبرز حين يشاء الحق . والأمر الثاني : هو الأمر التشريعي وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصى ، وفي هذا الإطار نفهم قوله الحق :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيَّهَا الْقَوْلُ فَمَدَدْنَا نَهَا

تَدْمِيرًا ﴾ (١١)

(سورة الإسراء)

فلا تقل : إن الله يأمر بالفسق ؛ فالحق قد أمر المؤمنين بالمنهج لأنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء ، بل جاء الأمر لكل البشر أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، لكن كبار

أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسدوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميراً . فإن كان في الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف في الكونيات ، أما أمره الثاني في اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار .

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتلتقى مع الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها : أى وإذا أردنا أن نهلك قرية أنزلنا منها جباراً فأكابرها كانوا أسوة سيئة انفسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وكذلك - أيضاً - نفهم قوله الحق : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتو لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوى . ولئلا هذا الماكر نقول : أنت تريد أن تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التي تنشأ من هذا الأمر بالنسبة لك ، وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتى الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

أى لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدي إلى النفع الحقيقي . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَا حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

وكان الآية التي أرسلها الله مع رسوله وهى القرآن لتثبت لهم صدقه فى البلاغ عن

الله لم تمنعهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طالبوا بآيات أخرى ، فهم قد قالوا :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلِهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

هم لا يريدون أن يؤمنوا بل إنهم يدخلون في اللجاج ، والتماس سبل الفرار من الإيمان ؛ لذلك تجد أن كل الحجج التي وقفوا بها أمام دعوة الرسول هي أكاذيب ؛ فقالوا إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الولد وأبيه ، ويدخل بما جاء به - ويزعم أنه من عند الله - الفتنة في الأسرة الواحدة .

لكن لماذا لم يتساءلوا : مادام قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحرنا؟ . وهل تأبوا هم على السحر؟ . وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر؟ . إنهم في ذلك كاذبون .

ثم قالوا : إن الرسول ﷺ شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولاً ، ولذلك نجد منهم من تصفوا نفسه يقول : والله ما هو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب الحق منهم ألا يقولوا رأياً جماهيرياً ؛ ففي الرأي الجماهيري يختلط ويلتبس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي ثُمَّ تَفْكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة سبأ]

أى لا تأتوا في أثناء هياج الناس وتتهموا الرسول ﷺ بالجنون ؛ لأن قولكم في الهياج الجماهيري غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله

مثنى أى اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونزي قضاياه : أهو كاهن ؟ . أهو ساحر ؟ . أهو شاعر ؟ فيين الاثنين لا يضيع الحق أبداً لأن كلا منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان للنقاش ، إذا انهزم منها واحد أمام الآخر لا يُفصح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن ينهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليتناقشا ، ويبعثا أى أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ؛ لذلك يأتي الأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول : أهو مجنون ؟ .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ؛ لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون ، يضربه ، أيشتمه ، أيقطع له ملبسه ؟ . أما الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمراً افتعالياً . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أى قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ في النفس تصير هي الخلق وتصدر عن النفس الأفعال بيسر وسهولة . وفي أعمال المعاني نسميها خلقاً ، وفي أعمال المادة نسميها آلية .

وكلنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم الأفعال التي تؤدى إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها بيسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن في الخلق حين تصدر عنه الأفعال بذكورة ومهارة ، ونجد - على سبيل المثال - من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم في الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه في وقت طويل ، لكن من يتدرب يصنع الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب في استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق : أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته استجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له في حركاته ولا في سكناته ولا فيما يأتي ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستبدلون آيات

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٢١

الله ثمنا قليلا، وهو الذى أعلن لكم رفض الملك والثروة والجاه . لكنهم قالوا :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. ﴾ (١٢٤)

[سورة الأنعام]

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك ، وكان من ناحية السن أسنّ من رسول الله ، ومن ناحية المال كان غنيا ، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد ، وقال : لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا لأننى أسنّ ولأننى أكثر مالا ولأننى أكثر ولداً . وهو قد قاسها بمقاييس البشر ، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رئاسة ، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد ﷺ ، الذى فطره الله عليه وأعدده واصطفاه ليكون رسولا ، ولكن مع هذا قال بعضهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) [سورة الزخرف]

ولنسمع رد القرآن :

[سورة الزخرف]

﴿ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴾ (٣٢)

ويوضح لهم الحق : نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية ، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله ، وفرق بين الرحمة فى الرسائل وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال ؛ لأن هذه عطاءات ربوبية . لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية ، انكم تميزتهم فى دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة ، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال لما وجدت من يفلح لك الأرض ، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس . ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولا ، أى يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس ؛ تكون لهذا فى زمن ولآخر فى وقت وزمن آخر ولا تدوم لأحد .

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى

الشرف؛ أظعموا فأطعمنا، كسوا فكسوننا، ذبحوا فذبحنا. حتى صرنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا بوحى كما يأتيه، ومعنى كفرسى رهان، أى فحين تنطلق الخيل فى السباق فى وقت واحد كانوا يدقون عوداً فى الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له: حاز قصب السبق، وعود القصبه هو غايه المشوار، حتى لا يقولن أحد لقد سبقنى بخطوة أو غير ذلك.

وهنا يقول الحق: (وإذا جاءتهم آية).

وانظر إلى كلمة «جاءتهم آية»، فمرة يقول: (قد جئناك بآية من ربك)، ومرة يقول: «جاءتهم آية»، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقبالتها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تجيء.

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ .. ﴾ (١٢٤)

ويقول الله لهم رداً عليهم: لا تقترحوا ذلك على الله؛ لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته؛ لأن الرسالة إنما تجيء لتشر خيراً فى الجميع، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير. والغير يريد أن يأتى له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس. والرسول قد جاء لينشر خيره للأخرين، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به. ويأمر سيدنا رسول الله ﷺ قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة، أما ما تركه فقد صار صدقة للناس، أى أنه لم ينتفع به فى الدنيا؛ لذلك هو مأمون على الرسالة، ولم يرد أن يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده. وقد أراد الله كذلك ليكون خيره لكل الناس. فالرسالة تكليف، والنبوة ليس جزاؤها هنا، بل من عظمة الجزاء أنه فى الآخرة، ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ فى بيعة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك. قال: تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا.

قالوا له: فما لنا؟ أنت اشترطت لنفسك، فما لنا إن نحن وفينا؟. ماذا قال الرسول ﷺ؟. قال: لكم الجنة. هذا هو الثمن الذى عنده،

فمن يريد الجنة يأتي إلى الإيمان، ومن يريد ما هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان. مع أنه قال لهم فيما بعد ستركبون السفن وتفرشون الزرابي والوسائد وتجلسون عليها، وبشرهم بالكثير، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن من هؤلاء من لا يدرك خيراً في الدنيا مع الإسلام؛ بل يموت والإسلام ضعيف واتباعه في قلة، لذلك أعطاهم الجزء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له: ماذا إن نحن وفينا؟ قال: لكم الجنة. وكأنه ﷺ يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوتك ولا تفوته.

[سورة الأنعام]

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ .. (١٢٤)﴾

وحين نتأمل قولهم: (لن نؤمن) نجد أن في هذا القول إصراراً على عدم الإيمان، أي لن نؤمن حتى في المستقبل إنهم تحكّموا في المستقبل. ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر، ومن بقى منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح. ومن العجيب أن العبارة التي ينطقون بها هي عبارة مهزوزة لاتستقيم مع منطق الكفر منهم، قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلاً من الله، والأصل في الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله ﷺ خاتم الرسل، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغيباء، فما دمتم تعرفون أن الله رسلاً يصطفيه، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله في الاختيار؟

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية، حسية مرئية، وهي وإن كانت فيها قوة المشهد الملمزم، إلا إنه لا ديمومة لها، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينقلب لن يكذب هذه الآية الكونية، إلا أنها أصبحت خيراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى، وكذلك رسالة عيسى ﷺ حيث أبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله. وهذه رسالات لزمن محدود وفي قوم محدودين، لكن الرسول ﷺ جاء ومعه المنهج المعجزة الباقي إلى قيام الساعة، فإن كانت المعجزة حسية فلن يراها إلا قوم مخصوصون لأن الأمر الحسى لا يتكرر، بل ينتهي، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة. فلا بد له من آية باقية إلى قيام الساعة؛ لذلك كانت الآية في المعنويات والعقليات التي لا تختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان،

لكنهم أرادوا معجزة حسية، وأخرى عقلية، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية، فحسم الحق الأمر وقال: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ولو نظروا إلى كلمة «الله أعلم حيث يجعل رسالته»، فكلمة «أعلم» تدل على أنه قد يمكن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمداً ﷺ؛ لأن الذين واجههم ﷺ بأمر الدعوة، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة، أو آمنوا به بمجرد الإخبار؟ لقد آمنوا بمجرد الإخبار؛ لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض، ولا بد أن يكون مأمونا على خبر السماء؛ لأنه لم يكذب عليهم في أمر الأرض، فكيف يكذب في أمر السماء؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال: صدقت، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته، وقالت أول استنباط فقهي في الإسلام. وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحى الحديث، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هي استنباطات للعقل الفطرى السليم البعيد عن الأهواء. إنه يقدر أن يستقرىء الأمر ولا بد أن يهتدى، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذى أصابه مرض أو مس من الجن رفضت ذلك لأنه يصل الرحم، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وقالت له: والله لا يخزيك الله أبداً.

إذن فقد جاءت بالمقدمات التى ترشح أن ربنا لا يمكن أن يخذله، وكل المقدمات مفاخر، كلها خلق عظيم، وكلها التقاءات إنسانية قبل أن يأتى منهج السماء، التقاءات إنسانية بالفطرة دون تقدير أو تدبير، وكان هذا أول استنباط فقهي في الإسلام. ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول زوجة له؟ لأنه ستمر به فترة لا يحتاج فيها إلى زوجة فقط، بل إلى ناضجة، ذلك النضج الكامل الذى تستقبل به مسائل النبوة، ولذلك حين يخرج إلى الغار تأتى له حكمة خديجة فى الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام؟

«الله أعلم حيث يجعل رسالته»؟، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياء حكما بوجودها فيه وأنها صفات رسول.

﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

هنا نجد فجوة انتقالية في الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عنمن يظنون أنهم كبار ، فيأتى ليقول : إن الصغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم ذاتياً ، فكل منهم سيشعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان في نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ؛ لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق . فالصغار والذل والهوان سينزل بهم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد .

لماذا العذاب الشديد؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس . والعذاب الأليم الذى يكون فى البنية ؛ لأن الإنسان له بنية وله معنويات قيمة ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعانى النفسية تصيبه الإهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تملك أن تهينه وتحمل المشقة برجولة ، ومهما تلقى من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلى للشامتين أريمو أرى لريب الدهر لا أتضع
لذلك ينزل قدر الله بالعذاب على نوعين : عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم يُنزل الحق العذاب هؤلاء جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يمحرون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة النحل)

والحق سبحانه وتعالى حينها عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار فى التكليف بل أوجد ذلك فى إطار :

[سورة الكهف]

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ .. (٢٩) ﴾

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة: «يصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد» وسبحانه قد أوضح لنا: نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لكرهم.

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريري لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم في الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك؛ فيقول سبحانه:

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا
حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ
يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

فجد من يقول إن ربنا حين يريد للإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وما ذنب المكلف إذن؟.

وللرد على هذا نقول: لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان: المعنى الأول: الدلالة وهي أمر وارد وواجب حتى للكافر: فإن هدى الله للكافر أن يدلّه إلى طريق الخير، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهي للذي آمن، ويصبح أهلاً لمعونة الله بأن يخفف عنه أعباء التكليف ويسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافى عن كل النواهي.

يقول بعض الصالحين: «اللهم إني أخاف ألا تثيبني على طاعة، لأني أصبحت أشتهيها» كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد فيها مشقة أو تكليفاً، لذلك فهو خائف، وكأنه قد فهم أنه لا بد أن توجد مشقة، ومثل هذا الإنسان الصالح نقول: لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقتَه فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا نودي إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالي لكنه ﷺ يقول لبلال حينما يأتي وقت الصلاة: «أرحنا بها يا بلال» .

وهذا غير ما يقوله بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم: هيا نصل لنزيحها من على ظهورنا، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق. أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزنهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم، يقول الواحد منهم: مادامت الصلاة تريح القلب، فلاذهب إليها وألقى ربي زائداً على أمر تكليفه لى متقرباً إليه بالنوافل، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة. ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لاتنهض به. فيقوم إلى الصلاة، وهذا أمر منطقي، ولله المثل الأعلى .

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح؟ إننا نلجأ لربنا ولقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .

إذن فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة، وقد يجوز أنه شاق عليك؛ لأنه يخرجك أولاً عما ألفت من الاعتياد. فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول: إن هذه المشقة إنما يريد ابها لى حسن الجزاء، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حباً لك، وكان واحد من الصالحين - كما قلت - يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه فى شهواتها لكن رسول الله ﷺ وضع لنا المثل فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به» أى يصبح ما يشتهي موافقاً لمنهج الله، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى .

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان : هداية بمعنى الدلالة، وهداية بمعنى المعونة .

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف ويجعلك عاشقاً لها ، ولذلك يقول أهل الصلاح : ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات ، وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

« فمن يرد الله أن يهديه » أى يدلّه سبحانه كما يدل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذى اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَشِيرِ يُضِلُّهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

مَرَدًّا ﴿٦٦﴾

(سورة مريم)

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان . ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » ؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب فى التكليف الناتجة عنها بـ « افعل » و « لا تفعل » . فالتكليف يقول لك : « افعل » لشيء هو صعب عليك ، ويقول لك : « لا تفعل » فى شيء من الصعب أن تتركه ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكليف ؛ لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمور التكليف ، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه ، يوضح له سبحانه : آمنت بى وجئتى ؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل ، ويشرح صدره للإسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاءً . فسبحانه هو القائل :

﴿الرَّشْرَحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾

(سورة الشرح)

فقد جازاه ربنا بذلك ؛ لأنه أدى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها التكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد المتميز لقبول التكاليف ، فإنه يخففها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تستهيهها ، وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله في ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول : لقد كلفني الله بالتقليل وسبحانه يستحق الكثير . فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسي :

« من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها » (١) .

أى بالأمور التي تزيد على ما كلفه في الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أى يجعل الأمور التي يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك في خلقه مثلاً للناس ، فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وبكد ؛ لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء .

إننا نجد المؤمن يعطى للسائل لأن السائل هو الجسر الذي يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل زادى إلى الآخرة بغير أجره ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام على - رضى الله عنه وكرّم الله وجهه - ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أننا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

واختار الإمام على مقياساً للإيمان في نفس كل مؤمن، وقال له: إن جاءك من يطلب منك، وجاء من يعطيك، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب.

إذن في «شرح صدره للإسلام» أي يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يعشقه في التكليف. ويهديه الله إلى طريق الجنة، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج، ولذلك نجد القرآن يقول: «عمن ضلوا»:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨)

[سورة النساء]

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴿

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء، ونجد الحق يقول:

﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥)

[سورة محمد]

وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) ﴿

وقد يتساءل إنسان: كيف يهدي الله من قتل، وهل هناك تكليف بعد القتل؟
نقول: انظر إلى الهداية، إنها هداية الجزاء «سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم».

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء، من يحسن العمل يُجزه الله الجنة، أما من يسيء فله عذاب في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ

[سورة الأنعام]

اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴿

وبدل هذا تجن من الله على خلقه؟ لا، لأنه مادام دعاهم للإيمان فأمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا، فصاروا أهلاً للحرَج وضيق الصدر. ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدي به مهمته، فحين يقال: ضاق البيت بى وبECIALى، فهذا يعنى أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين، وكان البيت متسعاً. ثم أنجبا عيالاً كثيرة فضاقت بهم البيت. وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل. ويقال: صدره ضيق أو ضيق فقد ورد فى القرآن لفظ ضيق على نعتين: فالحق يقول:

﴿.. وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧)

[سورة النحل]

وهناك فى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها توجد كلمة ضيق، والحق يقول:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ..﴾ (١٢)

[سورة هود]

فما المراد من «ضائق»، و«ضيق»، و«ضيق»؟. نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين فى التكوين: القلب والرئة، والرئة هى الجارحة التى لا تستمر الحياة الا بعملها؛ فقد تبطىء الأمعاء مثلاً، أو تتوقف قليلاً عن عملها، ويتغذى الرنسان على خزينه من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة، ويصبر على الماء مدة أقل، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير.

ولقد قلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد يملك بعضاً قوت بعض. وأقل منه أن يملك بعضاً ماء بعض، لكن أيملك أحداً هواء أحد؟ لا؛ لأن الرضا والغضب أغيار فى النفس البشرية. فإذا غضب إنسان على إنسان، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر، ولذلك لم يملك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً.

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» نعلم أنها أن الصدر

هو محل التنفس، والرئة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثاني أوكسيد الكربون، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس، كأن حيز الصدر صار ضيقاً، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاتته فينهج. ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء، فينهج؛ لأن الحيز قد ضاق، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلباً، ينهج أيضاً؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود، لمعادنة جاذبية الأرض، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية.

إننا نجد نزول السلم مريحاً؛ لأن فى النزول مساعدة للجاذبية، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم، ولذلك يقال: «فلان صدره ضيق» أى أن التنفس يجهد إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذى يسعه صدره.

«ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً» والحرج معناه الحجز عن الفعل، كأن نقول حرجت على فلان أن يفعل كذا، أى ضيقت عليه ومنعته من أن يودى هذا العمل. (كأنما يصعد فى السماء).

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته. فالجهات التى تحيط بأى شىء ست: هى فوق وتحت، ويمين، شمال، وأمام، وخلف، وعرفنا أن الهبوط سهل؛ لأن الجاذبية تساعد عليه، والمشى ماذا يعنى؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف، فهو فعل فى الاستواء العادى الظاهر، والذى يتعب هو أن يصعد الإنسان، لأنه سيعاند الجاذبية، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين: قوة للفعل فى ذاته، والقوة الثانية لمعادنة الجاذبية.

«ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء» وذلك بسبب مشقات التكليف؛ لأنه لم يدخلها بعشق، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذى يستقبل هذه التكاليف بشرح صدره وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل، والذى يسهل مشقة الأعمال حلوة تصور الجزاء عليها؛ فالذى يجتهد فى دروسه إنما يستحضر فى ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٣٣

فى نفسه مستقبلاً وفى أهله . أما الذى لا يستحضر نتائج ما يفعل فىكون العمل شاقاً عليه .

﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾

[سورة الأنعام]

والسمااء هى كل ماعلاك فأظلك ، فالجو الذى يعلوك هو سمااء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهر آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذى كان يدرك أن الذى يصعد فى الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثانى المناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافى لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء : لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق فى القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا فى أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لانتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب .

لذلك نقول : أنبعد القرآن عن هذه حتى لاتعرضه للذبذبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التى أثبتت التجارب صدقها .

وقائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لاتتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لاتحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها فى شىء وهى غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية .

﴿ .. كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ

[سورة الأنعام]

لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

و « هذا » مقصود به ما تقدم من آيات . من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ؛ فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام . وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) . و « الصراط » هو الطريق السوى ، والطريق السوى قد يكون مع استوائه معوجاً لكن هذا الطريق مستو ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية . وعلى هذا فصراط لا تغنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يغنى عن صراط ، بل لا بد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إننا - نحن البشر - نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدائيات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدائيات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده . وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كأداء كجبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق في الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحنى الطريق ليضمنوا جودة تعبيد الطريق . فإن جاء المهندسون وقالوا غشى من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك . وإلا جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونيّاً ؛ وذلك ليتفادى السائر العقبات التي ليس له قدرة عليها .

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم . ولنلاحظ أنه سبحانه قال : « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية

الربوبية ، والربوبية عطاء الرب ، إنه سيد ، ومرب ، وخالق الخلق ويضمن لهم ما يعينهم على مهمتهم في الوجود معونة ميسرة سهلة . وهكذا نعرف أن طريق الحق هو الصراط المعبود المستقيم ، أي الذي يصل بين البداية والنهاية . فإن كان الطريق الذي نتبعه مستقيماً ومعيداً ، وسهلاً ، فلماذا لا نتبعه ؟

« وهذا صراط ربك » . ونلاحظ أنه سبحانه قد أسند الرب لمحمد ، أي من أجل خاطره جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولى لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون .

﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١١٦)

(سورة الأنعام)

« فصلنا » أي أن كل شيء في هذا الكون مخلوق لما يناسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقها ربنا لتحقيق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عنق . والمنهج الذي أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شيء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولداً . ولا يعطى سبحانه الحياة لمخلوق ويوجده في الكون ، ثم يعرّيه من أسلحة الحركة في الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد الأسلحة والمواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبني بيتاً ، أنقول له : اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت وتخططه ؟ أنقول له : تعلم كيف تكون فنياً وكهربائياً ونقاشاً ؟ إن الفرد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك وزع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره . وبعد ذلك يأتي غيره ليؤدى له عملاً ليس له فيه موهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أفراداه .

ولو كنا نخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا في التعليم يقومون بأعمال في الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محدودة ليهبهم قدرات أخرى تصلح في مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعليماً عالياً لصار الهرم مقلوباً . وإن انقلب الهرم فمعنى هذا أن أجزاءً منه ستكون بغير دعائم في الأرض . لذلك نجد أن هناك إعداداً عقلياً أرادته الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج في

الجامعة ثم اكس الشارع . وكن في الغد حداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحسن استقبال قدر الله في نفسه يُعطي الله له من العمل كل الخير .

ونلاحظ الآن أن من يعمل موظفاً في الدولة يجيا في راتب محدود ، بينما تجد السباك يقدر عمله بأجر يحدده هو ، ويبقى الويل والتعب لمن كان تقدير عمله في يد غيره . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

وانظر كل قضية في الكون ، لم يُدخل ابن آدم فيها أنفه تجدها مستقيمة ، ولا يأت الفساد إلا في القضايا التي أدخل ابن آدم فيها بدون منحه الله . فإن دخلت في كل مسألة بمنحه الله يستقم الكون تماماً . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى في كونه والذي لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه ؛ السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أمورهما تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تستقيم أموركم في شئونكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنحه الله ؛ لأن الأشياء التي تدار بمنحه الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدي مهمتها كما ينبغي .

فعلى الإنسان - إذن - أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التي أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولا بد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات الفطرية . وأقصر الأمور أن تسأل نفسك : أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ ! لا ، هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادعى واحد في كون الله - وما أكثر ما يدعى - أنه خلقتك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله يقرر قانون صيانتكم ، وسيظل الناس متعيين إلى أن يسلموا الصنعة إلى خالقها . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال « لقوم » حتى إذا ما مال أو غفل واحد في الفكر يعدله غيره . وكلنا متكافلون في التذكير ، وهذا التكافل في التذكير يعصم كل

مؤمن من نفسه؛ فإن حصل عندى قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى يعدله غيرى. وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبداً، ولا بد من تذكّر الغاية التي جاء بها فى قوله الحق :

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٧)

أى أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا ورابطوا، لهم دار السلام، وهو أسلوب مكون - كما يقال - من مبتدأ وخبر، الا أن المبتدأ أخرُّ هنا، والخبر تقدّم، وكان المنطق أن يقال : «دار السلام لهؤلاء» ولكن الأسلوب القرآنى جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق، وهى أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهى خالصة لهم يوم القيامة و«دار السلام» مكونة من كلمتين، «دار» ومعناها ما يستقر فيه الإنسان، ويجمع هذا المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان، وهى أوسع قليلاً من كلمة «بيت»؛ لأن البيت مكان يعد للبيتوتة، لكن كلمة «دار» تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها.

و«دار» هنا مضافة إلى السلام، وهو - كما نعلم - اسم من أسماء الله، إذن فالحق هنا يوضح : لهم دار منسوبة للسلام وهو الله، وهم مستحقون لها جزاءً منه، فإذا كانت الدار التى وعدّها الله هى دار السلام وهو الله، فلا بد أن فيها متعاً وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله، ولماذا لم يقل الله : «دار الله»؟ لأن الله أراد أن يأتى بوصف آخر من أوصافه؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان.

وهناك فرق بين دور الدنيا، وهذه الدار؛ فدور الدنيا فيها متع، ولكنك فيها بين أمرين : إما أن تفوت أنت ما هى فيه، وإما أن يفوتك ما فيها، ولذلك لا يوجد فى الدنيا أمن؛ لأن غيرك قد يناوئك فيها ويعاديك، وقد تأتى لك مكدرات المرض، وقد تأتى لك معكرات الأعداء، كل ذلك ينغص عليك والأمن والسلام فى الدنيا. ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد آمنت، وأن تأمن فيها

من كل الآفات التي كانت في دار الدنيا .

[سورة الأنعام]

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ .. (١٢٧) ﴾

وكان دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون ، ولكنها جاهزة معدة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين ، وسبحانه قد خلق جنائنا تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا ، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه ، على فرض وتقدير أنهم كفروا . وسياخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويرثون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا في الدنيا .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٢٦) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدُوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٢٦) ﴾

[سورة المؤمنون]

فلم يخلق الحق جنائنا محدودة ، لا ، بل أعد وهياً من الجنان ما يتسع لكل الخلق إن امنوا ، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا . وما دامت العندية منسوبة إلى الله فهي عندية مأمونة .

وبعد ذلك أيتخلى الله عنهم ويكلهم إلى ما أعدّه لهم ؟ . لا ، بل قال :

[سورة الأنعام]

﴿ .. وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) ﴾

فهناك إعداد ، ثم قيومية ولاية الله ، وهذه القيومية لله ، هي للمؤمنين في الدنيا . لكن فلنلاحظ أن الولاية في الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله ، لكن في الآخرة هناك الجزء الذي لا يكله الله للأسباب ، فتكون الولاية مباشرة له ؛ لأنه سيعطيك فوراً ، وإذا خطر أى شىء ببالك تجده حاضراً : فهي متعة على غير ما ألف الناس ؛ لأن الناس يتمتعون في الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله . ولكن في الآخرة فلا ملكية لأحد حتى في الأسباب ، لذلك يقول سبحانه :

[سورة غافر]

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦٦) ﴾

وستجد الإجابة هي قوله - سبحانه - :

﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارِ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والحق هو الولى الذى يليك ، قرباً تنتفع به ، فلا تضطر حتى أن تنادى عليه لياتى لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كما عمل لك فى الدنيا ووفقك للعمل وهو وليك فى الآخرة بحسن الجزاء لك بسبب ما كنت تعمل ؛ فالعمل فى الدنيا هو الزرع وهو الحراث لثمرة الآخرة . ولكن أيعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل يعطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطاء على قدر الأعمال ، إننا لو حسبناها لما أدينا ثمن عشر معشار نعم الله علينا فى الدنيا . فكأننا نعمل فى الدنيا لنؤدى شكر ما أفاء علينا وأعطانا من النعم ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأعطانا بعد ذلك ثواباً فهو الفضل منه ، ولذلك يوضح الحق لنا : إياكم حين توفقون فى العمل أن تفتنوا بأعمالكم ، بل عليكم أن تتذكروا أن ذلك فضل من الله :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة يونس)

وقد شرح النبى عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال :

« لن يُدْخِلَ أحداً منكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة »^(١) .

إذن المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ؛ فأنت تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أضعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله أو كماله أو يزيد به صفة أو يزيد به ملكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعلك ولنفع بنى جنسك .

ولذلك نجد الإمام الرازى - رضى الله عنه - يقول : إن العمل فى ذاته يورث

(١) رواه مسلم فى المنافع واللفظ له ، ورواه البخارى فى الرقاق والمرضى ، وابن ماجه فى الزهد ، والدارمى فى الرقاق ، ورواه أحمد فى المسند ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦ .

الذات شيئاً من الصفاء الذي ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجزء في الراحة ، والراحة النفسية هي الأمر المعنوي الذي يوجد في بنية مادية هي قالبك . فساعة يوجد شيء في النفس فهو يؤثر في القلب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره في البنية نفسها فيحمر الوجه ، ويرتعش الإنسان للانفعال بالغضب ، والغضب أمر معنوي لكنه أثر في البنية ، وكذلك إذا ما حدث ما يسرك ، يظهر ذلك في البنية أيضاً ؛ فتشرق وتهلّل أسازيرك . إذن فالعمل يؤثر في البنية ، والبنية تؤثر في العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشِرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

وساعة تسمع « يوم » اعرف أنها « ظرف زمان » ، أى أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : « ويوم يحشرهم جميعاً » أى اليوم الذي يقف فيه الجميع ويحشدون ، وحين نظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن جاء « يا معشر الجن » وهذا « نداء » . فكان الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضى منادياً ، وهو الحق سبحانه ، ومنادى وهو معشر الجن والإنس ، وقولاً يبرز صورة النداء . فكان العبارة هي : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يا معشر الجن والإنس ، و « الحشر » هو الجمع ، و « المعشر » هم الجماعة المختلطة اختلاط تعامش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرفة بخصوصها ؛ يا معشر التجار ، يا معشر العلماء ، يا معشر الوزراء . لكن إن قلت : يا معشر المصريين فهي جماعة مختلطة اختلاط تعامش ومعاشرة .

[سورة الأنعام]

﴿يَمْعَثِرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ .. (١٢٨)﴾

و«استكثر» أى أخذ منه كثيراً ، كمن استكثر من جمع المال ، أو استكثر من الأصدقاء ؛ فمادة «استكثر» تدل على أنه أخذ كثرة . وماذا يعنى استكثرهم من الإنس؟ . نحن نعلم أن من الجن طائعين ، ومنهم عاصون ، والأصل فى العصيان فى الجن «إبليس» الذى أقسم :

[سورة ص]

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾

فكان الحق يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجد عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتم منهم ، بأن ظننتم أن لكم غلبة وكثرة وعزاً ، لأنهم إذا أطاعوكم فى الوسوسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ماكان يحدث ، فكان الإنسان إذا ما نزل وادياً مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادى - من الجن - ويطلب أن يحفظه ويحفظ متاعه ، وحينما يوسوس له شىء يسارع إلى تنفيذه ، وهذا استكثرار .

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .. (١٢٨)﴾ [سورة الأنعام]

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منهج الله ، لهؤلاء إغواءً وسيادة ، يأمرونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم يحققون لهم شهواتهم فى صورة تدين ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، وعبدوا الشمس ، وعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك يرضى فيهم غريزة الانقياد التدينى ؛ لأن كل نفس مفطورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى قرنائهم وجددهم أبناء أغيار ؛ الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وغداً مريضاً ، ويكون اليوم غنياً وغداً فقيراً ، فما الذى يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأغيار؟ .

إن الإنسان يحب أن يلجأ ويرتبط بقوى ؛ حتى إذا جاءت هذه الأغيار كانت

سنداً له . إلا أن هناك من يصعدُها في التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله بمطلوبات هذا الإيمان في «افعل» و«ولا تفعل» . لكن الأشياء التي يعبدونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكاليف إلا أن تكون موافقة لأهواء النفس ، وهذا الإكذاب للنفس أي حمل النفس على الكذب لا يدوم طويلاً ؛ لأن الإنسان لا يغش نفسه ؛ فالإيمان يحمي النفس إذا جاء أمر فوق أسبابك ، وليس هناك من يقول : يا شمس أو يا قمر ، يا شيطان أو يا صخر ! لا يمكن ؛ لأنك لن تكذب على نفسك أبداً . ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ .. ﴾ (١٢٧)

[سورة يونس]

وهنا يقول الحق عن الإنس :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا .. ﴾ (١٢٨)

[سورة الأنعام]

أي أن هذا الاستمتاع أمداً ، هو أمد الأجل أي ساعة تنقضي وتنتهي الحياة ، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق :

﴿ .. قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلَلْتُمْ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢٨)

[سورة الأنعام]

و«الثواء» هو الإقامة ، و«مَثْوَاكُمْ» أي إقامتكم ، «إلا ما شاء الله» وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء ، دار فيه كلام طويل ؛ فهناك من قال : إن الحق سبحانه وتعالى قال : «إلا ما شاء الله» أي أن له طلاقة القدرة والمشية ؛ فيفعل ما يريد لكنه حسم الأمر وحدد هو «ما شاء» فقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (٤٨)

[سورة النساء]

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٤٣

وهنا حدد «ماشاء» ، أى أن ماشاء يكون فى غير الشرك به فإن الشرك لا يكون محل غفران منه سبحانه . أو يجوز «إلا ماشاء الله» أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى فى النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من الزمن الخلودى ، فلن يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب . فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود فى الجنة أو النار .

ونحن نجد أيضاً «إلا ماشاء ربك» فى سورة هود حيث يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ (١٠٨) ﴾

[سورة هود]

إذن فهناك الاستثناء فى النار والاستثناء فى الجنة ، فقول الحق : «خالدين فيها مادامت السموات والأرض «إلا ماشاء ربك» فمجيء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل على إن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فى النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك؟

والرد على هذا أن أهل النار لا يخلدون فى عذاب النار ، وحده بل يعذبون بالزمهير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم ولعنهم وطردهم وإهانتة إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فلهم ما يفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله فى مقابلته : (إن ربك فعال لما يريد) أن ربك يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة الذى لا انقطاع له .

ويذيل الحق الآية بقوله: «إن ربك حكيم عليم». حكيم فى أن يعذب، عليم بمن يستحق أن يعذب، ومقدار عذابه، وعليم بمن يستحق أن يشاب وينعم، ومقدار ثوابه ونعيمه، وحكيم فى أن يرحم. ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩)

«وكذلك» تشير إلى ما حدث من الجن والإنس من الجدل، فقال الحق على السنة الإنس:

﴿رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضَنَا بَعْضًا...﴾ (١٢٨) [سورة الأنعام]

ولم يأت بكلام الجن؛ لأن كلامهم جاء فى آيات أخرى؛ فالحق هو القاتل:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ...﴾ (٢٢) [سورة إبراهيم]

وكذلك أورد الله ما يجيء على لسان الشيطان فى سورة أخرى:

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ...﴾ (١٦) [سورة الحشر]

[سورة الحشر]

وكذلك جاء الحق فى آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا:

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فصلت)

وقوله الحق هنا في سورة الأنعام :

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

أى كما صنعنا مع الجن والإنس ، باستكثار الجن من الإنس واستمتاع بعضهم ببعض إضلالا وإغواء ، وطاعة وانقيادا ، نجعل من بينهم ولاية ظالم على ظالم ، ولا نؤلي عليهم واحداً من أهل الخير ؛ لأن أهل الخير قلوبهم مملوءة بالرحمة ، لا يقرون على أن يؤدبوا الظالم ؛ فهم قد ورثوا النبوة المحمدية في قوله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ولذلك إذا أراد الله أن يؤدب ظالماً لا يأتي له بواحد من أهل الخير ليؤديه ، إنه - سبحانه - بتكريمه لأهل الخير لم يجعل منهم من يكون في مقام من يؤدب الظالم . إنه - سبحانه - يجعل أهل الخير في موقف المتفرج على تأديب الظالمين بعضهم بعضاً .

والتاريخ أرانا ذلك . فقد صنع الظالمون بعضهم في بعض الكثير ، بينما لو تمكن منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحمهم ؛ لأن قلوبهم مملوءة بالرحمة .

ولذلك بلغنا عن سيدنا مالك بن دينار وهو من أهل الخير . يقول : قرأت في بعض الآثار حديثاً قدسياً يقول فيه الحق :

« أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدي »^(١) .

فإياكم أن يظن الطاغية أو الحاكم أو المستبد أنه أخذ الحكم بذكائه أو بقوته ، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة ، بدليل أنه ساعة يريد الله أن تنتهي هذه المسألة فهو

(١) تذكرة الموضوعات لابن القيسران .

بجلاله يتزع المهابة من قلوب حرّاسه ، وبدلاً من أن يدفع عنه بالبندقية ، يصوّب البندقية إليه .

فإياكم أن تظنوا أن ملكاً يأخذ الملك قهراً عن الله ، ولكن إذا العباد ظلموا وطغوا يسلط الحق عليهم من يظلمهم ، ولذلك يقال : « الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به ويتنقم منه » .

﴿ وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فكان ما سلط على الناس من شرّعاتٍ هو نتيجة لأعمالهم ، ولذلك كان أحد الصالحين يقول : أنا أعرف منزلتي من ربي من خلق دابتي ؛ إن جمحت بي أقول ماذا صنعت حتى جمحت بي الدابة ؟! وكان المسألة محسوبة . وهذه معاملة للأخيار ، عندما يرتكب ذنباً يؤاخذ به على الفور حتى تصير صفحته نظيفة دائماً . قال عليه الصلاة والسلام : « مامن مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها » (١) .

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات ، يوفيه الحق جزاءه من مرض في جسمه أو خسارة في ماله ، وكذلك المسيء الذي لا يريد له الله النكال في الآخرة . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم أذى شوكة فما فوقها إلا حط الله تعالى له به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » (٢) .

(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) هم اعتقدوا أنهم أخذوا شيئاً من وراء الله وخلصوا به . نقول : لا ، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك بما قدمت يداك وما عملت من سيئات أو حسنات .

ويقول الحق بعد ذلك :

(١) رواه البخارى ومسلم واحداً .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

﴿يَمَعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنذِرُوكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّهْمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

ونلاحظ أنه قال هنا: «يامعشر الجن الإنس» لأنه يريد أن يقيم عليهم الحجة بأنه سبحانه لم يجرم أعمالهم ولم يضع لهم العقوبات إلا بعد بلغهم بواسطة الرسل ؛ فقد أعطاهم بلاغاً بواسطة الرسل عما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك . فلم يأخذهم - سبحانه - ظلماً .

وهنا وقفة ؛ فالخطاب للجن والإنس «ألم يأتكم رسل منكم» فقال بعض العلماء: إن الجن لهم رسل ، والإنس لهم رسل ، وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة ؛ لأن القرآن جاء فيه على لسانهم: (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى).

إذن فقد احتج الجن بكتاب أنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذي جاء بعده ، كأن الجن يأخذون رسالتهم من الإنس ؛ فكأن الله قد ارسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجن ما قاله الرسول ، وهو هنا يقول سبحانه:

﴿يَلْمِزُكَ الْبَشَرُ نَجِيبٌ مِّمَّنْ لَمَّ يَتَّبِعُكَ يَقْتُبُكَ يُرِيدُ أَن يُصِيبَكَ﴾ [سورة الأنعام]

وأنت حين تأتي إلى اثنين: أولهما معه مائه جنه ، والثاني يسير معه وليس معه شيء وتقول: «هذان معهما مائه جنه» فهذا قول صحيح . فقوله سبحانه: «ألم يأتكم رسل منكم» أي من مجموعكم . أو أن الرسل تأتي للإنس ، وبعد ذلك من الجن من يأخذ عن الرسول ليكون رسولاً مبلغاً إلى إخوانه من الجن :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا

[سورة الأحقاف]

قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾

فكان المنذرين من الجن يأخذون من الرسل من الأتس وبعد ذلك يتوجهون إلى

الجن .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي .. ﴿١٣٠﴾

[سورة الأنعام]

والآيات تطلق على المعجزات التي تثبت صدق الرسل ، وما يكون من شرح الأدلة الكونية الدالة على صدق الرسل . وكلمة «يقصون عليكم آياتي» أي يروون لهم الموكب الرسالي من أول «آدم» إلى أن انتهى إلى «محمد» ﷺ . و«يقصون عليكم آياتي» قول يدل على دقة الأداء التاريخي ؛ لأن «قص» مأخوذ من قص الأثر ، ومعناها تتبع القدم بدون انحراف عن كذا وكذا ، وهكذا نجد أن المفروض في القصة أن تكون مستلهمة واقع التاريخ .

﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا .. ﴿١٣٠﴾

[سورة الأنعام]

وهو اليوم المخزى حيث سيقفون أمام الله ويذكرهم الحق أنه قد نبههم وقد أعذر

من أنذر .

﴿ .. قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ

[سورة الأنعام]

كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

وقولهم : «شهدنا على أنفسنا» إقرار منهم على أنفسهم ؛ فقد شهدوا على أنفسهم ، ولكن ما الذي منعهم أن ينضموا إلى الإيمان بمواكب النبوة ؟ . تأتي الإجابة من الحق : (وغرتم الحياة الدنيا) .

والذى يغرّ هو الشيء الذى يكون له تأثير ، وهو موصوف بأنه «دنيا» !! لذلك فالغرور الذى يأتى بالدنيا هو قلة تبصّر . (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . ومن يستقرئ آيات القرآن يجد آية تقول :

﴿ وَاللّٰهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِيْنَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

فمرة ينفون عن أنفسهم أنهم كفروا ، ومرة يثبتون أنهم كفرون ، وهذا لاضطراب المواقف أو اختلافها . أو أنهم « شهدوا على أنفسهم » ؛ بمعنى أن أبعاضهم شهدت عليهم ؛ لأن الإنسان فى الدنيا له إرادة ، وهذه الإرادة مسيطرة على ما له من جوارح وطاقت مخلوقة لله ؛ لأن الله جعل للإرادة فى الإنسان ولاية على الأبعاض التى تقوم بالأعمال الاختيارية . لكن الأعمال الاضطرارية القهرية ليس للإنسان إرادة فيها ؛ فلا أحد يملك أن يقول للقلب انبض كذا دقة فى الساعة ، ولا أن يقول للأمعاء : تحركى الحركة الدودية هكذا . لكنه يقدر أن يمشى برجليه إلى المسجد ، أو يمشى إلى الخمارة . ويستطيع أن يقرأ القرآن أو يقرأ فى كتاب يضره لا يفيد .

إذن إرادة الإنسان مسيطرة على الأبعاض لتحقق الاختيار المصحح للتكليف . لكن يوم القيامة تسلب الإرادة التى للإنسان على أبعاضه ، وتبقى الأبعاض كلها حرة ، وحين تصير الأبعاض حرة فالأشياء التى كانت تقبلها فى الدنيا بقانون تسخيرها لإرادتك قد زالت وانتهت ، فهى فى الآخرة تشهد على صاحبها ؛ تشهد الجلود والأيدى والأرجل :

﴿ وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وحين يقولون لربنا : ما كنا مشركين ، فهذا كلامهم هم ، لكن جوارحهم تقول لهم : يا كذابون ، أنتم عملتم كذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾

﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣)

« ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ؛ حتى لا يكون لأحد حجة بعد الرسل ، وقد أقرروا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا على أنفسهم ، وماداموا قد أقرروا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذا إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعاقب على جرم ، وقبل أن يجرم ينزل النص بواسطة الرسل . أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ .

« وأهلها غافلون » ، و « الغفلة » ضد اليقظة ، فاليقظة هي تنبه الذهن الدائم ، و « الغفلة » أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أى غير يقظين ؛ فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما احتاجوا إلى الرسل ؛ لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته ، وكان المقروض كما يلحق الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنوهم مع ذلك قيم دينهم . فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم ، ثم ينقلونها ويزيدون عليها بانتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم في الناس كما عاشت وسائل حياتهم .

ولماذا - إذن - عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء؟! لأن زاوية الدين هي التي يغفل الناس عنها ، بسبب أنها تقيد حركتهم في « افعل » و « لا تفعل » ، ولكنهم يريدون الترف في وسائل حياتهم . لماذا إذن أيها الإنسان تفرص على الترقى في ترف الحياة ولا تفرص على الترقى في القيم ؟ . لقد كنت - على سبيل المثال - تشرب من الماء أو التبع بيدك ثم صنعت كوباً لتشرب منه ، ونقيت الماء من الشوائب ونقلته من المنابع في صحاريج . أنت ترفه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين!!

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آبائه من القيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرّر التنبيه بواسطة الرسل . وكلما انطمست معالم القيم التي يحملها المنهج فهو - جل وعلا - يرسل رسولاً رحمة منه وفضلاً وعدالة ، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة ضد اليقظة .

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسول ؛ لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما ينقلون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن ؛ إن الأب - مثلاً - إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل في دروسه أورشب فهو يعاقب الابن ، وهذه هي الغيرة على المستقبل المادى للابن ، ولا غيرة على أدائه لفروض الدين ، لماذا ؟ . إن الناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير في الناس وأصبح أمراً رتيباً .

وعرفنا أن الغفلة ضدها اليقظة ، كما أن السهو ضده التذكر ، والغروب ضده الشروق ، والغياب ضده الحضور .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ

يَغْفِلُ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

« ولكل » ، وجاءت بالتنوين أى لكل من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكأن الأعمال تتفاوت ؛ فقد تكون في ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارن للعمل والمكتسب والفاعل له ، فهناك من يخلص بكل طاقته ، وهناك من يؤدي عمله بنصف إخلاص ، ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسي :

« الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي » (١)

إذن فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيد العبد من جنس ما فرضه الله عليه ؛ فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فيزيد العبد عشر ركعات في الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومى الاثنين والخميس .

والذى يقف عند ما فرض الله مجازيه الله على إخلاصه في أداء ما عليه ، وحينئذ سأل أعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذى لا يؤدي إلا الفروض فقط ، قال له : (أفلح إن صدق) (٢) ، فالذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً . ولا يوصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحاً إلا إذا كان فى درجة أعلى ، وكلمة « درجات » تفيد العلو ، وكلمة « دركات » تفيد الهبوط ، والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لأى عبد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ
مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

وهنا يحنتنا الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ؛ يحنتنا إلى فضيلة الطاعة ، وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويفخم لنا فيه لنعمل لصالحنا نحن ؛ لأن كل أعمالنا - كما قلنا - لا تزيد فى ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنتقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ؛ لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نزده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ،

(١) رواه أبو القاسم القشيري فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب .

(٢) رواه النسائي والبيهقى فى السنن الكبرى .

وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وإيجاد متعلق الصفة . فالله خالق ؛ والله رحمن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار وخالق حتى قبل أن يبرز ويظهر ما يخلقه ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو رزاق قبل أن يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشئ كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو غنى عن العباد وله كل الملك ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول ﷺ يقول :

«لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتُوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرَةٍ وَقَدْ أَضْلَهُ فِي أَرْضِ فَلَاحٍ»^(١) .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (١٣٢)

[سورة الأنعام]

إذن فالخلق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالقية موجودة .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أو ادم

فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليفة في الأرض خاضع لله ، فإن شاء اذهب الخلق وأتى بخلق جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ ﴾ (١٣٤)

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلا بد أن يتحقق وعده ، وإذا أوعد فلا بد أن يأتي وعده . والوعد إذا أطلق فهو في الخير ، والوعيد يكون في الشر . والذي يخلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتغير رأيه

(١) رواه البخاري في الدعوات ، ومسلم في التوبة ، والترمذي في الدعوات . سقط على بعيره : أى صادفه وعثر عليه من غير قصد فظنر به .

فلم يعد أهلاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه في مكنته ، وبعد ذلك خرج عن مكنته ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعده به فلا بد أن يتحقق الوعد أو يأتي الوعيد . . . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار ، والمثال أنه قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْخَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [سورة المسد]

وهذا وعيد في أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها ما يؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويسلمان ، ألم تتب هند ؟ ! ألم يسلم أبو سفيان ؟ ! . لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبي لهب واختيار زوجته ، وإن كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) .. ﴾ [سورة الأخصاص]

أى لا يوجد إله آخر ليعادل هذا الأمر .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) ﴾ [سورة الأنعام]

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتي بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فالوعد آتٍ وأنتم لاتستطيعون الهرب منه ، ولا أحد بقادر على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعده ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتعجزوه ؛ فالله غالب على أمره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والقوم هم الجماعة ، وعادة يطلق على الرجال لانهم أهل القيام للمهمات ؛ لأن الشأن والأصل في المرأة الستر والبيتوتة والاستقرار في البيت للقيام على أمره ورعايته .
 وحين تقرأ القرآن تجد كلمة « قوم » وتفهم أن المقصود منها الجماعة التي تجمعهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق :

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ
 يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ومادام قد جاء بمقابل « قوم » : « ولا نساء » ، ف « قوم » هذه للرجال وماخوذ منها « القيام للمهمات » ، وماخوذ منها « القوامة » . ولذلك الشاعر يقول :
 ولا أدري ولست أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
 يعنى أرجال أم نساء .

﴿ قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة الأنعام)

و « المكان » هو الحيز الذي يأخذه جسم الإنسان ؛ فكل كائن له مكان ، إن وقف له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ، فحين تقف في مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتنع التداخل بين اثنين في حيز لا يسع إلا واحداً ، وهذا أمر فطري ؛ فتجد الولد الصغير الذي لم يدرك أى شيء ويقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسي الذي تجلس عليه

أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد على الكرسي يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان في حيز واحد .

وترى ذلك أيضاً في غير الحرم المرئي ، فانت حين تأتي بقارورة وتضعها في ماء لتمتلئ تسمع صوت الهواء الخارج منها في بقبة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن خرج الهواء ، ولأن المياه أكثف فهي تضغط ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل . أى لا يوجد شيان اثنان في حيز واحد . ومكانتك هي الموقع الذي تستولى عليه ، ولذلك حتى في الجيوش وفي الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولى على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتيئيسا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لي من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقاتى الإيمانية ومدد ربى الأعلى من الطاقة .

﴿ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا كَانُوا يُعْمَلُونَ ۖ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۗ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقَبَةٌ ۗ

الْدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٥﴾

(سورة الأنعام)

« فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » و « له » تعطى دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى « اللام » اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكان الظالمين إن تلهم عاقبة فهي ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ ۗ

﴿ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كَانُوا لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى
اللَّهِ وَمَا كَانُ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وهنا رجوع إلى كلام عن الذين يناهضون منهج الله .

و«ذراً» أى خلق ، وبث ، وبشر ، والحراث يراد به الزرع ، وسمى الزرع حراثاً ؛ لأنه يأتى بالحراث ، و«الأنعام» وهى تتمثل فى ثمانية أزواج فى آية تأتى بعد ذلك ، وهى الإبل ، والبقر ، والضأن والمعز .

«وجعلوا لله محاذراً من الحراث والأنعام نصيباً» أى مما خلق ، وهم قد حراثوا فقط ؛ لأن الذى يزرع هو الله ، فسبحانه الذى أعطى للبذرة قوتها لتربى لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذى جاء بعناصر الأرض كلها ، وهو الذى جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير صالح بقانون «الذى خلق فسوّى والذى قدر فهدى» . والذى صنعه الله الحراث وفى الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذى ذرأ وخلق . إنه - سبحانه - هو المتصرف .

هم جعلوا لله محاذراً من الحراث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله «بزعمهم» وهذا لشركائنا ، أى جاءوا بالحراث وقسموه قسمين . وقالوا : هذا لله ، وهذا للأصنام . وكذلك قسموا الأنعام وجعلوا منها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذى خلق بدلاً من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقيكم ، وباليستكم أنصفتم فترضى بقسمتكم فيذهب القسم الذى لله للصدقات على الفقراء ، والذى للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم الأقداح ، وباليستكم عرفتم العدل فى القسمة بل أن ما صنعتوه هو قسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا؟ . تأتى الإجابة من الحق :

﴿ فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى ﴾

[سورة الأنعام]

﴿ شُرْكَائِهِمْ .. (١٣٦) ﴾

أنتم قسمتتم وقتلتم: هذا لله وهذا لشركائنا. فاصدقوا مع أنفسكم في هذه النسبة ، لكنهم كانوا يسرقون حق الله ، وكان لهم في الهلاك تقسيم معين ، وفي الزيادة لهم تقسيم آخر. فإذا ما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا: إن ربنا غنى! وبرغم أنكم قسمتتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التي فرضتموها ورضيتم بها .

وكذلك في الأنعام يقدرون عدداً من الأنعام ويقولون: هذه لله ، وتلك للشركاء ، فإن ماتت بهيمة من المنذور لله لم يعوضوها ، وإن ماتت بهيمة مندورة للأصنام يعوضوها ويأخذوا بدلاً منها من القسم الذي نذروه لله . وأيضاً نفترض أن عيناً جارية ساحت فيها المياه لتروى الزرع المقسوم لله ، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام. إذن هي قسمة ضيزى من البداية ، وليتهم ففوا بهذه القسمة ، وهكذا ساء حكمهم وفسد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرِدُّوهُمْ ﴾

﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾

﴿ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴾ (١٣٧)

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى ما يتعلق بذواتهم في الإنجاب والإنسال ؛ فشركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم ، و«التزيين» هو إدخال عنصر التحسين على

التزيين أمراً عرضياً طارئاً ، ووجه التزيين أنهم كانوا إما أغنياء ، وإما فقراء ، فإن كانوا فقراء يقل الواحد منهم لماذا أجلب لنفسي هماً على همّ ، وإن كانوا أغنياء يقل الواحد منهم : إن الأبناء سيأخذون منك ويفقرونك . إذن ففيه أمران : إما فقر موجود بالفعل ، : إما فقر مخوف منه ، ولذلك تجد الآيات التي تعرضت لهذا المعنى ، تأتي على أسلوبيين اثنين ؛ فالعجز مختلف باختلاف الصدر ، والذين يجبون أن يستدركوا على أساليب القرآن لأنه مرة يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ (٣١) [سورة الإسراء]

ومرة ثانية يقول :

﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴾ (١٥١) [سورة الأنعام]

فما الفرق بين العبارتين؟

ونقول لمثل هذا القائل : أنت تقارن بين التذييل « نحن نرزقكم وإياهم » ، و« نحن نرزقهم وإياكم » . هذه تذييل لآية ، وهذه تذييل لآية ثانية . هات ذيل الآية مع صدرها نجد أن ذيل كل آية مناسب لصدرها . ومادام قد اختلف في الصدر فلا بد أن يختلف في الختام ، ففي الآية الأولى يقول الحق سبحانه : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » فالإملاق وهو الفقر واقع موجود . إذن فشغل الإنسان برزقه أولى من شغله برزق من يعوله من الأولاد ، فيقول الحق لهؤلاء :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴾ (١٥١) [سورة الأنعام]

فالإملاق موجود ، وشغلهم برزق أنفسهم يملأ نفوسهم . لذلك يقول لهم : « نرزقكم وإياهم » فيطمئنهم سبحانه نحن نرزقكم ثم نرزقهم . أما إن كان الإملاق غير موجود فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ (٣١) [سورة الإسراء]

أى لا تقتلوا أولادكم خوفاً من فقر ، فأنتم تملكون رزقكم ، وحين يأتى الأولاد نرزقهم ونرزقكم معهم . وهكذا نرى أن الصدر مختلف فى الآيتين ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ؛ لأن حب الأبناء غريزة فى النفس البشرية ، والنفس تحب أن يكون لها ذرية ؛ لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه فى الأجيال المتتابعة . ونجد الإنسان وهو ممتلىء بالسعادة حين يأتية حفيد ، ويقول : لقد ضمنت ذكرى جليين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقى هو الذى يقدمه الإنسان من عمل ، لا ذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجبت أبناء فسيفقر ونك ويدلونك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكل يوم يدخلك أبناؤك فى قتال ونزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهاب للملك ، وإن كانوا بنات فسيتم سبيهن من بعدك ، وهكذا تكون المبالغة فى الإغراء لعملية تناقض الفطرة السليمة فى امتداد النسل .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ .. (١٣٧) ﴾

[سورة الأنعام]

و«لكثير من المشركين» تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، و«يردوهم» من الردى ، وهو الهلاك ، والموت .

﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .. (١٣٧) ﴾

[سورة الأنعام]

أى يخلطوا عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين ؟ . لقد ورث هؤلاء من أمر قديم الدين ما كان سابقاً وهو ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عنه إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أعمالاً ليوردوهم موارد الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم مابقى لهم من دين .

﴿ .. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾

[سورة الأنعام]

لأن وأد الأولاد وقتلهم إنما ينافى فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتقتل أنت؟! .

كانهم يصادمون إرادة الإيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنه - سبحانه - لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار ينفذون إلى كل مراد لهم ، ولو لم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ؛ لأنه لو أراد ألا يضلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يقهر على مراد له ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه مختاراً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المختار شيئاً غصباً عن الله ؛ لأن الألوهية تقتضى أمرين اثنين : تقتضى قدرة تتجلى في الأشياء القهرية التي لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذى له حق الاختيار بين البديلات في مراداته ، أما بقية الكون فسائر بقانون التسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبتت لله طلاقة القدرة ، ولكنها لا تثبت لله محبوبة المخلوق ؛ لأن المحبوبة تنشأ من أنك تكون حراً فى أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلاً مراد الله على مرادك . (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) .

و « الافتراء » هو الاختلاق والكذب المتعمد ، وهم مفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صدق الواقع فى الإنجاب ، فقد خلق الله الزوجين - الذكر والأنثى - من أجل الإنجاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَّحَرَّتْ حِجْرُهُمْ لَا يَطْعَمُهَا

إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حَرِّمَتْ ظُهُورُهَا

وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ

سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٨﴾

وهذا تماد في الشرك ؛ لأنهم قسموا الحيوانات والحراث وحجزوا قسماً للأصنام ، وهذه الأنعام المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبنها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم يتبها إلى أن هذه الأنعام نعمة من الله ، ولا بد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيرها لك ولا تفعل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثْ حِجْرًا لَا يُطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَرَعْمِهِمْ .. (١٣٨) ﴾

[سورة الأنعام]

أى هى أنعام محرم استخدامها ، وحرموها أيضاً ركوبها .

[سورة الأنعام]

﴿ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا .. (١٣٨) ﴾

وتمادوا في الكفر فذكروا أسماء الأصنام عليها :

[سورة الأنعام]

﴿ وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ .. (١٣٨) ﴾

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقى من الله ، ومأمور به منه - سبحانه - ولو قالوا : إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله ، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله :

[سورة الأنعام]

﴿ .. سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) ﴾

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ

لذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا فَرِحْنَا وَإِنْ يَكُنْ

مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفِهِمْ

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٦٣

ويتوودهم الباطل إلى باطل آخر فادعوا أن مافى بطون هذه الأنعام من اللبن ومن الأجنأ إذا نزلت حية فهى للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على التشقيق فى القسمة .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم :

[سورة الأنعام]

﴿ .. سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٣٩)

أى سيجزيهم على كذبهم وافترائهم بما يليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه - سبحانه - (حكيم) فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بما يفعلونه من خير وشر ، وإنه سيجازيهم على ما فعلوه أتم الجزاء وأكملة .

ويتول الحق من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ
ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٤٠)

وجه الخسران أنهم لم يلتفتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبناءهم أيضاً ، ولعلك أيها الأب قتلت ولداً ، كنت ستعيش أنت فى رحاب رزقه ، وكثيراً ما يكون البعض من الأولاد صاحب رزق وفير ، ويقال عن مثل هذا الابن : إن وجهه وجه الخير والسعد والبركة ، فمن يوم أن وكد ولد معه الخير ، وذلك حتى لا يتأبى الإنسان على عطاء الله ؛ لأنك حين تتأبى على عطاء الله تحرم نفسك العطاء فيما تظنه غير عطاء ، وهذا خسران كبير .

إننا نلاحظ أن العرب كانوا في بيئة تستجيب وتلبى الصريخ ، فساعد بصرخ من في شدة نزلت به واستنجد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده .
والمثال على ذلك ما حدث من جد رسول الله ﷺ حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لا يحفر ، فقال : لو أن لى عشرة أبناء سأضحى بواحد منهم . إذن فكثرة الأولاد فى هذه المسائل تعطى العزوة وتكثر الصريخ ، ولا يفعل ذلك إلا المفطور على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقير فقد تخسر رزقاً قد يكون فى طى من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تفقد مباحج الشأن أو العزوة أو الآل . أو على الأقل أنهم قد خسروا لأنهم عاكسوا مرادات الله فى الإيجاد بالإنجاب .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٤٠) ﴾ [سورة الأنعام]

و«سفهاً» تعنى طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً .

﴿ .. وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤١) ﴾

[سورة الأنعام]

وهم حين يحرمون على أنفسهم ما رزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران فلو تركوها لا تتفخعوا منها فى حمل أثقالهم أو فيما تدره من لبن ، أو فى أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيراً ، وهم مع ذلك فعلوا ما فعلوا بكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً للهداية ، وكان يكفى أن يصفهم بقوله : «قد ضلوا» ؛ لكنه أضاف : «وما كانوا مهتدين» لأن الضلال هو عدم الذهاب إلى المقصد الموصول للغاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فأثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ
مَّعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ
وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن
ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١٤١)

وقول الحق : « أنشأ » أى أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نماذج توضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ؛ لأنه لا يوجد خالق سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواه من شريك أو نِد فإنه حين يخلق إنما ينشئ خلقاً على غير نظام أو مثال كان قد سبقه .

وكلمة « جنات » تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ، ومما تنفكه به ، وتسمى جنة وتسمى جنات ؛ لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجنون لأن فيه سترًا للعقل ، ومنها الجن لأنهم مستورون عن رؤية العين ، وكذلك « المَجَنِّ » لأنه الذى يستر عن الإنسان طعنات الخصم .

والجنة هى المكان الممتلئ بالزروع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ؛ لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ؛ ففي الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شيء . كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذى يضم ويشتمل على كل المرافق « قصرًا » لأنه قصرٌ عن أى مكان سواه ؛ لأن فيه الأشياء التى تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شيء بعده .

[سورة الأنعام]

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ .. (١٤١) ﴾

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف «عرش» ويطلق العرش أيضاً على السرير ؛ مثل قوله الحق : (ورفع أبويه على العرش) :

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق : (ولها عرش عظيم) .

كل ذلك يدل على «العلو» وقوله الحق هنا : « معروشات وغير معروشات » ، أى أن الزرع من نوع العنب ، حين نعى به نجعل له القوائم والقواعد التى يقوم عليها ؛ لأن امتداد أغصانه اللينة لانتفض أن تقوم وحدها ، ولكن هناك نوع أيضاً يقوم وحده نسمية العنب الأرضى ، وكأن الكلام فيما يختص بالكرم . أى : أنك إذا ما نظرت إلى الزرع الذى لاساق له كالبطيخ ، وكالشمام ، وكالكوسة ، وكل الزروع التى ليس لها ساق تجدها مفروشة فى الأرض أى غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش . وإن كنا الآن نحاول أن نرفعها لنعطى لها قوة الإنتاج . والكلام جاء على ما كان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبى ﷺ (وهو الذى أنشأ جنات معروشات والتخل والزرع) : والزرع يطلق ويراد به ما نقتات به من الحبوب .

﴿ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانُ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ .. (١٤١) ﴾ [سورة الأنعام]

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبقتها آية فيها كل هذه المعانى يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [سورة الأنعام]

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعاني الواحدة ؛ لأنهم لا يمتلكون فطنة أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم في كل شيء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل على الخالق ووحدانيته بدليل أنه ذيل الآية بقوله : (إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، ولكن الكلام في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتفاع بها فيقول :

﴿ كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ولاشك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالإله الواحد تحتاج إلى الدليل أولاً ؛ لأن فائدتها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأخلد من الأكل ، لأن الأكل قصارى ما فيه أنه يقوتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأولى تعطينا الثواب الباقي والنعيم المقيم ؛ لذلك فالآية الأولى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتفاع ، وهنا نلاحظ أنه قال : « كلوا من ثمره إذا أثمر » ، وفي هذا إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترتب على ذلك لون من الضرر وإلا عاجلناها بما يزيل وينفي عنا الضرر ، فإذا ما وجدت ثماراً لم تنضج لك أن تأكل منها ، ولم يجعل الحق لنا حرجاً فيما نحترث ونبذر ونروى ولكن الله سبحانه هو الذى يزرع ونحن نأكل منه ، ونجد أهل الريف يشوون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

لقد قالوا إن الآية مختصة بما يُحصَد وهي الزروع ، أما الأشياء التي لا يقال فيها : حصد فهي خارجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإمام أباح حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبت الأرض ينطبق عليه هذا النص ؛ لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بفهم اللغة .

ما معنى الحصاد في اللغة ؟ . الحصاد في اللغة القطع ، فحينما تفصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ؛ تكون الغلال في السنابل ، ويرى الإمام أبو حنيفة أن تعطى من البداية لمن حضر القسمة ، وكذلك حينما تدرسه وتذريه تعطى ، وعندما تغربل الحبوب أعط أيضاً ، ويتبدى الحصاد من ساعة أن تُكِيل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتيه من الحق يوم حصاده هو غير المفروض ؛ لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفي هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والبعض قد فسّر الإسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أى تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافاً ؛ لأنه مأخوذ من « سرف الماء » ، وهو أن يُطلق الماء ويذهب في غير نفع ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإنسان مثل جبل أبي قبيس ذهباً ثم أنفقه في حل ما عدّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً في معصية يعد سرفاً .

إذن فمعنى : « ولا تسرفوا » أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزوا الحدود التي شرعها الحق فتستعملوا هذا في معصية ، أو لا تسرفوا في أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق .

وكان حاتم الطائي كريماً جداً ، وقعدوا يلومونه على هذا الكرم ، فقال واحد له : لا خير في السرف . رد عليه فقال له : ولا سرف في الخير . أى أنه مادام في الخير فلا يكون سرفاً .

وإذا كنا سنأخذ الأمر على المعنيين الاثنين : النقص والزيادة ، فما المانع أن نعطي للفقير أكثر؟ . ويحكى الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريحية والنشاط للبدل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزها وأعطها كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُفِع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا؟ مخافة أن تحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتندم على أنك أعطيت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا

مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٦٩

وبعد أن تكلم سبحانه عن نعمه علينا في الزراعة ونعمه علينا في الماشية قال :
«ومن الأنعام» وهي الإبل والبقر والغنم ، «حمولة» والحمولة هي التي تحمل ،
فيقال : « فلان حمول» أى يتحمل كثيراً . والحق يقول :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ . . (٧) ﴾

[سورة النحل]

والذى تحمله فوق ظهرها يسمى «حمولة» . ولذلك نقول عن السيارة التى تنتقل
«حمولة كذا طن» . (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) .

والإبل نحمل عليها الرحال ، وكل متطلباتنا ، و«فرشاً» معناها : مقابل
الحمولة . فالحمولة هى المشتدة التى تقوى على أن تحمل . وكل ما لا يستطيع الحمل
لصغره ، أو لأنه لم يعد لذلك ، إذا ما نظرت إليه نظرة سطحية تجده وكأنه فارش
للأرض . أو «ومن الأنعام حمولة» ؛ وهى التى تحمل متاعكم إلى بلد لم
تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . « وفرشاً » أى ومن ما تتخذون منه فرشاً بأن
نسيج من وبره وصوفه وشعره ما نفرشه .

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٦) ﴾

[سورة الأنعام]

وفى الحديث عن الأنعام ، جاء بالحمولة والفرش ويأتى أيضاً بسيرة الأكل ؛ لأننا
نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهى تحملنا
ونأخذ من أصوافها وأوبارها وشعورها الفرش ، والوبر وهو شعر الجمال ، والصوف
وهو شعر الغنم ، وشعر الماعز يتميز بلمعة وانفصالية بين شعيراته .

ونلاحظ أنه سبحانه قال فى الآية الأولى : «كلوا» وفى الثانية : «كلوا» ؛ لأن ذلك
جاء بعد الكلام عما حرموه على أنفسهم من أرزاق الله فى الأرض . فكان ولا بد
أن يؤكد هذا المعنى ، ويوضح : إن الذى خلق هو الله ، والذى كلف هو الله ، فلا
تأخذوا تحليلاً لشيء ولا تحريماً لشيء إلا من خلق ومن كلف .

(كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

الشیطان هو الذی یوسوس لهم بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشیطان ظاهرة . فإذا ماكنت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرأهما على المخالفة فخرجوا من الجنة ، كان من الواجب أن نحتاط في قبول هذه الوسوسة .

ثم یفصل الحق لنا الأنعام التي نتخذها حمولة ، أو نأخذ منها فرساً فقال :

﴿ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ
الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ
أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامٌ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيئِي يَعْلَمُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

وكلمة «أزواج» ، جمع زوج ، و«الزوج» يطلق على الشيء معه ما يقارنه مثل «زوج النعل» ، ونحن في أعرفنا نأخذها على الاثنين ، لكنها في الأصل تطلق على الواحد ومعها ما يقارنه ، إلا أنه إذا لم يكن هناك فارق بين الاثنين بحيث لا يتم الانتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ولكن لا تميز لأحدهما على الآخر كالجورب مثلا ، ففي مثل هذا نستسمح اللغة في أن نسمى الاثنين زوجا ، لكن إذا كان هناك خلاف بين الاثنين لانقول على الاثنين : زوج .

والذكر والأنثى من البشر ، صحيح أنهما يقتربان في أن كل واحد منهما إنسان ، لكن للذكر مهمة وللأنثى مهمة مختلفة . أما الجوارب فكل «فردة» منها نضعها في أى قدم لأنه فارق بينهما ، إذن كلمة «زوج» تطلق ويراد بها الشيء الواحد الذي معه ما يقارنه . والحق يقول :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٧١

وكلمة «زوج» هنا أطلقت على حواء ؛ فأدم زوج وحواء زوج ، والحق هو القائل :

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٤٥)

[سورة النجم]

ولم يقل عن الاثنين: إنهما «زوج» وإلقال: خلق الزوج الذكر والأنثى. إذن فكلمة «زوج» تطلق على واحد معه ما يقارنه ، مثلها كمثّل كلمة «توأم» وهى لاتقال للاثنين ، بل تقال لواحد معه آخر. لكن الاثنين يقال لهما: توأمان .

﴿ثُمَّ لَمَسَ مِنْ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ..﴾ (١٤٣)

[سورة الأنعام]

و«من الضأن اثنين» أى ذكرها وأنثاها فتسمى الذكر كبشا والأنثى «نعجة». ومن المعز اثنين ، والذكر نسميه «تيساً» ، والأنثى نسميها «عزّة» ، وبذلك يكون معنا أربعة ، ومن هنا نفهم أن الزوج مدلوله فرد ومعه ما يقارنه .

﴿.. قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبُوْنِي يَعْلَمُ إِنْ

[سورة الأنعام]

كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤٣)

ومادتمم أنتم تحرمون وتحللون ، وتقولون: إن هذا من عند الله فقولوا لنا أحرّم الذكرين أم حرّم الأنثيين؟ ولا يجدون جواباً ؛ لأن سبحانه لا حرّم هذا ولا حرّم ذاك ، ولذلك أبرزت المسألة إبراز الاستفهام ، والشىء إذا أبرز الاستفهام فمعناه أنه أمر مقرر بحيث إذا سألت الخصم لا يقول إلا ماتوقعه ، واسمه السؤال أو الاستفهام التقريرى . ويقول الحق: «نبئونى بعلم إن كنتم صادقين» أى أخبرونى بعلم ذلك فى التحريم إن كنتم أهل صدق ؛ لأنكم لستم أهلاً للتحريم ، إنما يحرم ويحلل من خلق وشرع . فإن كان عندكم علم قولوا لنا هذا العلم .

ثم يأتى الحق بخبر الأربعة الباقية من الأنعام فيقول :

﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ
 وَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ
 عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ
 وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى أيضاً ، والذكر من البقر نسميه ثوراً ، ويخطو بعض
 الناس في تسمية الأنثى من البقر « بقرة » ، إن البقرة اسم لكل واحد منها : للذكر
 والأنثى ، والتاء في بقرة للوحدة ، واسم الأنثى « ثورة » . (ومن الإبل اثنين ومن البقر
 اثنين قل الذكركين حرم أم الانثيين) أنتم تقولون : إنكم لم تتبعوا رسولا ، وكنتم
 على فترة من الرسل ، ولم يأت لكم رسول ، إذن فلا تحريم إلا من الله ، ولا يبلغكم
 تحريم الله إلا عن طريق رسول . بل أنتم شهداء مسألة التحريم ، أى أشاهدتم
 ربكم ورأيتموه حين أمركم بهذا التحريم ، أم أنتم الأنبياء ؟ . إنكم تتعمدون
 الكذب على الله لإضلال الناس . إذن ، فالحق لا يهدى من يظلم نفسه ويظلم
 الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ
 يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا

﴿ أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ
 اللَّهِ بِهِ ۗ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم فى آيات كثيرة ؛ فهناك الآية التى قال
 فيها :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
 وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّتُمْ وَمَا ذُبِحَ
 عَلَى النُّصَبِ .. (٢) ﴾ [سورة المائدة]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحصر فى أربعة فقط ، فىقول
 سبحانه :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
 مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. (١٤٥) ﴾ [سورة الأنعام]

فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر؟!

من يقول ذلك نقول له : أنت لاتفرق بين إيجاز وإطناب ، ولاتفرق بين إجمال
 وتفصيل ؛ فالذى ترك فى هذه الآية داخل فى الميتة ؛ لأن المنخنقة والمرتدية
 والنطيحة وماأكل السبع ، والذى ذُبح على النصب وما أهْلَ به لغير الله موجود
 وداخل فى كلمة «الميتة» .

ثم : من قال : إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ؟ التشريع أيضاً لرسول
 الله ﷺ ، بتفويض من الله فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [سورة الحشر]

فلاتقل إن المحرمات فقط محصورة في هذه الآية لأن فيه محرمات كثيرة ،
بدليل أن الله مرةً يُجملها ، فيحرم علينا الخبائث ؛ فكل خبيث مُحَرَّم . وقلنا من
قبل : إن الدم المسفوح مُحَرَّم ، والدم المسفوح هو السائل الذي ينهال ويجرى
وينصب ساعة الذبح ، وهل هناك دم غير مسفوح ؟ نعم ، وهو الدم الذي بلغ
من قوة تماسكه أن كونه عضواً في الجسم كالكبد أو الطحال . ولذلك يقول
الرسول ﷺ : «أحلت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان
فالكبد والطحال»^(١) وفي رواية أخرى : السمك والجراد .

وعلى منطوق التحريم للميتة والدم كان لا بد ألا نأكل الميتة من السمك . ولا الكبد
والطحال ، ولكن الله أحل لنا السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تضر
الجسم ، فالسمك والجراد ليس لهما نفس سائلة أى دم يجزى ؛ فإذا ما ذبحنا
أحدهما لا يسيل له دم ، أما الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية
أنه يكون عضواً في الجسم ، ولا يتكون عضو في الجسم يؤدي مهمة من دم فاسد ،
بل لا بد أن يكون من دم نقي .

والحق الذي شرع يقدر الظروف المواتية للمكلفين ، وقد تمر بهم ظروف
وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة ، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضرر
والجوع . لكن على المسلم ألا يملأ بطنه من تلك الأشياء .

﴿ .. فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٥) [سورة الأنعام]

وأشكال الإضطرار : ألا تجد ما يؤكل من الحلال ، أو أن يكون ما يؤكل من
الحلال موجوداً إلا أن هناك من يكرهك على أن تأكل هذا المحرم ، فالإكراه داخل
في الإضطرار ، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تمتنع عن نفسك الهلاك ؛

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ابن عمر .

فتأخذ من طعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع ، فإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من الميتة في حال مظنة أن تموت من الجوع فمالك من الإكراه بالموت العاجل ؛ إنه أولى بذلك ؛ لأنه سبحانه هو الذى رخص ، وهو الذى شرع الرخصة ، ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف ؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه ، ومادامت قد دخلت في دائرة التكليف فهنا يكون الغفران والرحمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا
مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ
ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

هنا يأتى الحق بالتحريم الثانى ، وهو التحريم للتهذيب والتأديب ، مثلما قال من قبل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ .. (١٦٠) ﴾ [سورة النساء]

ف«الظُّفْر» هو ما يظهر عندما ننظر إلى أقدام بعض الحيوانات أو الطيور ، فهناك حيوانات نجد تشقق إصبعها ظاهراً والأصابع مفصلة ومنفرجة بعضها عن بعض ، فهذه ليست حراما عليهم ، ونوع آخر نجد أصابعها غير مفصولة وغير منفرجة مثل الإبل ، والنعام ، والبط ، والأوز وهى ذو الظفر . فكل ذى ظُفْر حرم على اليهود ، وقد حرم عليهم لالخبث وضرر فى المأكول ، ولكن تأديبا لهم لأنهم ظلموا فى أخذ غير حقوقهم ؛ لذلك يحرمهم الله من بعض ما كان حلالا لهم ؛ فالأب يعاقب ابنه الذى أخذ حاجة أخيه اعتداء ؛ فيمنع عنه المصروف ،

والمضروف في ذاته ليس حراماً ، ولكن المنع هنا للتأديب . والحق هو القائل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدْمِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (١٦٦) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .. (١٦٦) ﴿

[سورة النساء]

ولأنهم فعلوا كل ذلك يأتي لهم التحريم عقاباً وتأديباً

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١٤٦) ﴿

[سورة الأنعام]

وأنت حينما تذبح الذبيحة تجرد بعضاً من الدهن على الكلى ، ونجد في داخلها مايسمونه «منديل الدهن» وكذلك «ألية الخروف» ، وحين تقطع الرأس تجرد فيها نوعاً من الدهون، وقد حرّم الحق عليهم في البقر والغنم شحومهما . وكذلك «كل ذي ظفر» محرم كله . وهناك استثناء في البقر والغنم هو : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا ﴾ .

أى أحل لهم ما هو فوق الظهر من الشحم ، وأحل لهم ما حملته الحوايا من الشحوم و« الحوايا » جمع حوية أو حاوية أو حاوياء وهى ما تحوى من الأمعاء أى تجمع واستدار ، وفى الريف تقول المرأة عن قطعة القماش التى تبرمها وتلفها وتصنع منها دائرة مستديرة تضعها على رأسها لتحميه عندما تحمل فوقه الأشياء ؛ تقول : صنعت «حواية» والحواية هنا هى الأمعاء الغليظة ، وطولها كذا متر ، ومن حكمة تكوينها الربانية نجدها تلتف على بعضها ، ولذلك اسمها « الحوايا » ، وهى ما نسميه «المبار» . وكذلك حلل لهم ما اختلط بعظم فى القوائم والجنب والرأس والعين ، وكذلك أحل لهم شحما اختلط بعظم منه الألية ، لأن الألية تمسك بعَجَبِ الذنب . أى أصله ، وهو الجُزْءُ فى أصل الذنب عند رأس العَصْصُصِ . ولأنه رحيم فهو ينزل عقوبة فيها الرحمة فيبيح له شيئاً ويحرم شيئاً آخر .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ .

وليس هذا التحريم تعدياً عليهم ، أو تعنتاً في معاملتهم ، بل لأنهم بَغَوْا ، والباغى يجب أن يأخذ حظه من الجزاء ؛ حتى يفكر ماذا يحقق له البغى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه ، وهم قد صدوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا لينموا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل ، لذلك حَرَّمَ عليهم الحق بعض الحلال . وسبحانه صادق فى كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصى فكان التحريم عقوبة لهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

وكان مقتضى أنهم يكذبونك فيما أخبرت به عن الله ، أن يعجل الله لهم بالعذاب ؛ لكن الحق لم يعجل لهم بالعذاب لأنه ذو رحمة واسعة .

﴿ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأنعام)

ولكن إياكم أن تطمعوا فى الرحمة الدائمة ؛ إنها رحمة تأجيل فقط . ولن يفوتكم عذابه ، وهنا يحنتهم أيضاً فيقول سبحانه : « ربكم ذو رحمة واسعة » وكأنه يقول لهم : راجعوا أنفسكم واستحوا من الله ولا يفرنكم أنه رب ، خلق من عَدَمٍ وأمد من عَدَمٍ ، وتولى التربية ، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا
 وَلَا آبَاءَ آبَائِنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ
 مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ
 إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

وكلما تقرأ آية فيها « سيقول » فاعلم أنها تنطوي على سرٍّ إعجازي للقرآن ،
 والذي يعطى هذا السرّ هو الخصم حتى تعرف كيف يؤدي عدو الله الدليل على
 صدق الله ، مما يدل على أنه في غفلة . ومن قبل قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

و « سيقول » معناها أنهم لم يقولوا الآن ، ويخبر القرآن أنهم سيقولون ،
 ولم يخبئ ويستتر القرآن هذه الآية ، بل قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً
 يُقرأ ويُصلى به . ولو أن عندهم شيئاً من الفكر لكانوا يسترون القول حتى يُظهروا
 المتكلم بالقرآن بمظهر أنه لا يقول الكلام الصحيح ، أو على الأقل يقولون إنه
 يقول : « سيقول السفهاء » ، ونحن لسنا بسفهاء فلا نقول هذا القول . لكنهم
 يقولون القول السفهيه برغم أن الآية قد سبقتهم بالتنبؤ بما سوف يقولون ؛ لأن الذي
 أخبر هو الله ، ولا يمكن أن يجيء احتياط من خلق الله ليستدرك به على صدق الله .
 هم سمعوا الكلمة ، ومع ذلك لم يسكتوا بل سبقتهم ألسنتهم إليها ليؤيدوا القرآن .

وكل مسرف على نفسه في عدم اتباع منهج الله يقول : إن ربنا هو الذي يهدي
 وهو الذي يضل ، ويقول ذلك بتبجح ووقاحة لتبرير ما يفعل من سفه . وسيظل
 المسرفون على أنفسهم وكذلك المشركون يقولون ذلك وسيحاولون تحليل ما حرم
 الله . وقد جاء المشركون بقضيتين : قضية في العقيدة ، وقضية في التكليف ؛ قالوا

فى قضية العقيدة: «لوشاء الله ما أشركنا» ، وكأنهم أشركوا بمشيئة الله . وجاءوا إلى ما حرموا من حلال الله وقالوا إنهم قد فعلوا ذلك بمشيئة الله أيضاً ؛ ليوجدوا لأنفسهم مبرراً ، وهذا القول ليس قضية عقلية ؛ لأنها لو كانت وقفة عقلية لكانت فى الملحظين : الخير والشر ، فالواحد منهم يقول : كتب ربنا علينا - والعياذ بالله - الشر ، لماذا يعذبنى إذن ؟! ولا يقول هذا الإنسان « وكتب الله لى الخير » . هذا ما كان يفرضه ويقترضه المنطق لكنهم تحدثوا عن الشر وسكتوا عما يعطى لهم من خير .

وقولهم «لوشاء الله ما أشركنا» صحيح المعنى ؛ لأنه سبحانه لوشاء أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لنا اختياراً ، وفى إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية . بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعى . وعلمنا من قبل أن هناك فرقاً بين الكونية والشرعية ؛ فكفر الكافر ليس غصباً عن الله أو قهراً عنه سبحانه ، إنما حصل وحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار ، فالإنسان صالح للاختيار بين البديلات :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ .. ﴾ (٢٩)

[سورة الكهف]

فالإنسان قادر على توجيه الطاقة الموهوبة له من الله الصالحة للخير أو الشر . إذن فأختيار الإنسان إما أن يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر ، لذلك يقول الحق عن الذين يدعون أن كفرهم كان بمشيئة الله :

﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا .. ﴾ (١٤٨)

[سورة الأنعام]

والسابقون لهم قالوا ذلك وفعلوا مثل ما يفعل هؤلاء من التكذيب ؛ وجاءهم بأس وعذاب من الله شديد ، ولذلك يأمر الحق محمداً ﷺ :

﴿ .. قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

[سورة الأنعام]

تَخْرُصُونَ ﴾ (١٤٨)

ويسألهم محمد ﷺ عن علم يؤكدون به صحة ما يدعونه . . . ويزعمونه أى هل عندكم بلاغ من الله ، والحق أنهم لا علم لديهم ولا دليل ، إنهم يتبعون الظن ، ويخرصون ، أى أن كلامهم غير واضح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين وظن وكذب .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴾ (١٤٩)

نعم فلو شاء سبحانه لفسرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج عن الهداية ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع التكليف أمراً داخلياً فى اختيارهم . ألم يخلق سبحانه خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؟ ألم يخلق الكون كله مؤتمراً بأمره؟!

[سورة الأنعام]

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ .. ﴾ (١٤٩)

و«الحجة»هى الدليل الذى تقيمه لتأييد قولك فى الجدل ، ولذلك نسمى عقودنا حجة على الملكية . أو «الحجة البالغة» أى التى لا ينفذ منها شىء أبداً يعطل المراد منها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلْ مِمَّ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ
حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

ومادمت لا تملكون العلم فمن المحتمل أنكم تملكون شهوداً على ما تقولون .
والخطاب : « هلم شهداءكم » هو خطاب للجماعة ، و « هلم » يستوى فيها المفرد
والمفردة والمنشئ مذكراً كان أو مؤنثاً . والجمع مذكراً أو مؤنثاً ، فتقول : هلم
يازيد إلى ، وهلم يا هند إلى ، وهلم أيضاً لجماعة الذكور ولجماعة
الإناث ، وهذه لغة الحجازيين . وتختلف عن لغة بني تميم التي يزيدون عليها
فيقال : « هلم يارجل » ، و « هلمى يا امرأة » ، و « هلمما ، وهلموا ،
وهلممن » . والقرآن نزل بلغة قريش « الحجازيين » ، والحق يقول : « هلم
شهداءكم » . أى هاتوا وأحضروا شهداءكم أن الله حرم هذا ، إنكم بلا علم ،
وكذلك لا شهود عندكم على المدعى ؛ فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء
الشهود .

وماذا إن أحضروا شهود زور ؟ إنه - سبحانه - يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى
ولو أحضروا شهداء إياك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكان الله يريد أن يفضح الشهود أيضاً أمام المشهود أمامهم ، ويعطى أيضاً
قضيتين اثنتين ؛ فسبحانه يدحض ويبطل حججهم ، ويفضح الشهود الذين جاءوا
بهم . فكانه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفى ذلك فضيحة
لمن لفتنهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الذين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة « أهواء » ، جمع
هوى ، وهو ما يختمر فى الذهن ليلوى الإنسان عن الحق ؛ فهو شهوة ترد على
الذهن فتجعله يعدل عن الحق :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالآخرة أيضاً ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم .

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم :

﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

ونفهم من كلمة « يعدل » أنها من العدل بمعنى القسط ؛ إذا قيل : عدل في كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل في الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عديلاً ومساوياً . وجاءت بهذا المعنى في آية أخرى هي قوله الحق :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

(سورة الأنعام)

أى يجعلون ما لا يصح أن يكون مساوياً لله ، مساوياً وعدلاً لله . وهذا فعل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعدل عن ربه عدولاً ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوى به غيره . ويجب أن نلاحظ عند النطق بكلمة « التوحيد » وهي : « لا إله إلا الله » ألا نقف عند قول : (لا إله) لأن ذلك يعنى إنكار ونفى وجود إله وهذا والعياذ بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : (لا إله إلا الله) أو نكون عند نطقنا بلفظ (لا إله) قد انعقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له - تعالت عظمته - من صفات الجلال والكمال ، ومعنى (لا إله إلا الله) أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين بباطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك .

وكلمة « برهيم يعدلون » تفيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعدل ويميل ويحيد عن الاعتراف به إلهاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ
أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقِي تَحْنُ نَزْرُقُكُمْ
وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

نَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

ننظر في هذه الآية فلا نجد شيئاً من المحرمات من الأطعمة التي بها قوام الحياة ، ولكن نجد فيها المحرمات التي إن اتبعناها نهدر القيم المعنوية التي هي مقومات الحياة الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ .

والأداء القرآني هنا يأخذ لفظ « تعال » بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فكان الحق يقول : أقبل على إقبال من يريد التعالي في تلقى الأوامر . فأنت تقبل على أوامر الله لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية ؛ فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر ؛ لأن الشرط الواجب في المشرع ألا يكون مساوياً لمن شرع له ، والأ يكون منتفعاً ببعض ما شرع ، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شيء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

الراسمالي - مثلاً - يشرع ليستفيد ، والماركسي يشرع ليستفيد . وكل واحد

يشرع وفي نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدّل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا تفي ولا تغطي أمور الحياة ، فكان المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فضحتها المجتمع حين برزت القضايا ، فنظر في قانونه فلم يجد شيئاً يغطي هذه القضايا ، فيقول : نعدل القانون ، ونستدرك . ومعنى استدراك القانون أى أن هناك ما جهله ساعة قن .

إذن يشترط في المقتن ألا يكون مساوياً للمقتن له ، وألا تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يُستدرك عليه ، وألا يكون متفعلاً بالتشريع ، ولا يوجد ذلك في بشر أبدأ ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشرى وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها ؛ فحين ينادى الله « تعالوا » فمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنيناتكم التي تحكم حركة حياتكم ، فهو لا يتنفع بما شرع ، بل أنتم الذين تنتفعون ، ولأنه لا يغيب عنه شيء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى أن يشرع لكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

« أتل » من التلاوة وهي القراءة ﴿ ما حرم ربكم عليكم ﴾ أى ما جعله حراماً . أى يمتنع عليهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغاً بعد بلاغ .

﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوى يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فانت ساعة تأتي لتلقى أوامر لمن ترأسه تقول له : استمع إلى ما أمنعك منه فاتبعه . ثم تبدأ فى التفصيل ، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا تشرك به شيئاً . أى أتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن نوحده الله ، فكل نهى عن شيء أمر بمقابله وكل أمر بشيء نهى عن مقابله . وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهياً ، وكل نهى يستلزم أمراً . فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهي . أو تكون (عليكم) منقطعة عما قبلها ، أى عليكم ترك الشرك ، وعلينا إحساناً بالوالدين ، وألا تقتلوا أولادكم ، وألا تقربوا

الفواحش . . أى ألزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بإيجاب ويستلزم نهياً عن مقابله وهو عقوق الوالدين ، أى لاتعقوهم . فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرم الله . ثم يقول سبحانه :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْنَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [سورة الأنعام]

أى استبقوا حياة أولادكم ، فإن أردتها من قبيل النهى فقل هو نهى عن قتل الأولاد، وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل : استبقوا الحياة . وقول : ﴿مِمَّنْ إِمْلَقْنَا﴾ أى من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، ومادام الإملاق موجوداً فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتى بعده ؛ فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتى زيادة وهم الأولاد . ويقول سبحانه :

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ .. (١٥١)﴾ [سورة الأنعام]

وهذا نهى عن القرب ، أى نهى عن الملابس التى قد تؤدى إلى الفعل لانهى عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال :

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (١٩)﴾ [سورة الأعراف]

لأن القرب قد يغرى بالأكل ، وكذلك : ﴿ولاتقربوا الفواحش﴾ أى لا تأتى إلى مقدمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحديق النظر إلى محرمات غيرك ، وكذلك المرأة التى تتبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل ؛ لأن رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه

وعرضه ومن وقع في المشبهات وقع في الحرام كراع يزعى حول الحمى يوشك أن يواقع ، ألا لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت كله ألا وهي القلب» (١).

ويمنعك الحق : ألا تقرب ، أي أبعد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل «اجتنب» تماماً ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .. (٣٠) ﴾ [سورة الحج]

ويقول : ﴿ .. وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [سورة الحج]

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ ﴾ .

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التي ترتكب الموبقات و«وما بطن» هو من أفعال السرائر مثل الحقد ، والغل ، والحسد .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. (١٥١) ﴾

[سورة الأنعام]

وكلمة «النفس» يختلف الناس في معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح في ذاتها خيرة ، والمادة في ذاتها خيرة مسبحة عابدة .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [سورة الإسراء]

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن يفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذي يميت النفس ، أما الإنسان به في الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن في القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذي وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك يشرع الله لنا أن نسلب الحياة قصاصاً ، أو للزنا من الثيب المحصن رجلاً أو امرأة ، أو للردة ، فهذا قتل بحق ، لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق ، والإنسان بنيان الله فلا تعتدى عليه . ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنساناً ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنه ينجو بنفسه ويسلم .

هكذا يأمر الحق بأن تقتل الثيب ، والثيب الزاني يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجته وذاق كل منهما عسيلة الآخر وأفضى إليه ، وكذلك المرتد ، فنحن نحرض على حرية الاعتقاد ؛ بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلي لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضى أن يدرسه دراسة مستوفية مقنعة ، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع . ونحن نحمل بالاختيار ، فنعلن لكل من يقبل على الإسلام ونحذره : إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل ، ومادام الشيء ثمنه الحياة ، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد . وفي ذلك أيضاً ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث في الأدلة فسيفتنع بأن له إلهاً حقاً ، ولكننا لا نقتل الكافر الأصلي .

إذن فقتل المرتد حماية لحزم الاختيار ، وإياك أن تدخل بدون روية ؛ لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفى الحق المسألة تصفية لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج على نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففي أى عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات . ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج ، أو الدخول الأرعن ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية .

وفي الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضاً هي : « أنت طالق » ، ولذلك تحتاط المرأة ، فمادامت قد عرفت أن بقاء زوجها رهن بكلمة فعلها أن تحرض ألا تضع هذا الحق إلا في يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها :

اسمعى ، إن لك أن تختارى الزوج الذى إن أحبك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ؛ لأنه بكلمة منه تنتهى الحياة الزوجية . إذن فعلى المرأة أن تفكر فى الإنسان الأمين على هذه الكلمة .

ومع ذلك فهناك احتياطات للغفلة ؛ فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن فى الطلاق هناك ثلاث مراحل ؛ كرسيد للغفلة . فالرجل يتزوج المرأة بكلمة « زوّجتك نفسى أو يزوجها وليها ويكون القبول من الزوج وبهذا يتم الزواج » . لكن فى الطلاق أباح الله لغفلة الرجل ولرعوته أن يطلق مرة ، ثم يراجع هو من غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ، ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التنبيه من الحق : لقد احتطنا لك برصيد من غفلتك . ولكن عندما تريدها زوجاً لك فلا يتم ذلك إلا أن تتزوج غيرك ، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها . فاحتظ جيداً للأمر الذى تدخل عليه ، وللتعاقد الذى التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن فى تعاقد الزواج ، فما بالنا بالردة ؟ إننا نقتل المرتد ، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول فى حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيقتل . وهكذا يصعب الإسلام الدخول إليه ، ويحمى الاختيار فى الوقت نفسه .

ويتابع سبحانه :

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

و « الوصية » لا تكون إلا للأمر المهمة التى لا تستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها فى أمهات المسائل التى لا يصح أن نغفلها . ولذلك حين تنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاماً يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء فى حجة الوداع وركز كل مبادئ الدين فى قوله تعالى :

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

و « وصاكم » غير شرع ؛ فشرع تأتى بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة ، والوصية تضم أمهات المسائل فى التشريع . و العقل يجب أن يسع المسألة من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعملت عقلك فى كل منى عنه ، أو فى كل مأمور

به فى الآفة فستجد التعقل يعطيك التوازن فى القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء التى ذكرها فى هذه الآفة بـ ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ . وهذه الأوامر متفق عليها فى جميع الرسالات وفى جميع الأديان ، ويسمونها : «الوصايا العشر» .

والآشياء الخمسة التى أوصى بها سبحانه هى :

• ألا تشركوا به شيئاً .

• وبالوالدين إحساناً .

• ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .

• ولا تقربوا الفواحش مظهر منها وما بطن .

• ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم بها ، لكنه قال : ﴿وصاكم به﴾ ، فكأن أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تمثل كلها فى : التزم ما أمر الله به ، واجتنب مانهى الله عنه .

وقوله سبحانه : ﴿لعلكم تعقلون﴾ فكأن العقل لو خُلِّى ليبحث هذه الأشياء بحثاً مستقلاً عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

إذن ، كيف نُعصم من أهوائنا المتضاربة بعضها مع بعض ؟ . لابد أن يكون الإله واحداً حتى لا يتبع كل واحد منا هواه . إننا نعرف أن الأصل فى الإنسان هو الأب والأم . لذلك وصى بالأصل فى ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، وبعد ذلك لابد أن تكون الحياة نظيفة ، طاهرة لجميع الأفراد ، ولا تشوبها شائبة الدنس أبداً ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش : مظهر منها وما بطن ؛ لأننا نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهمَلون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنسال فى الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله . ويكون محسوباً عليه أمام المجتمع ، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة .

ثم يجيء الحق بعد ذلك فى الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ
وَصَّوْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا فى الإنسان ، أما اليتيم فى الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ ﴾ [سورة الأنعام]

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل : لا تأكل مال اليتيم . بل أمرك ألا تقترب منه ولو بالخاطر ، ولو بالتفكير ، عليك أن تتعد عن هذه المسألة . وإذا كان قد قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه ؟ لا ؛ لأنه أضاف وقال بعد ذلك : ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى بأن تُثَمَّرَ له ماله تثمراً يسع عيشه ، ويبقى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال فى موضع آخر :

﴿ وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا ۖ ﴾ [سورة النساء]

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءاً حتى إذا بلغ الرشد يجد المال قد نقص أوضاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال : ﴿ وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ أى ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها . فمآلهم ظرفية للرزق ، ولايتأتى هذا إلا بأن نشموها لليتيم ، ولانحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩٩١

الكفاءات فى إدارة الأعمال والأمناء ، وقد يوجد الكفاء فى إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامه بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال - سبحانه - فى ذلك :

﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ .. (٦) ﴾ [سورة النساء]

أى أن يهب الوصى تلك الرعاية الله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وجد فى ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبه لله وتطوعاً منه مدخراً أجره عند الله . والحق هو القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [سورة النساء]

وحينما يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرين على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغاراً ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وجد اليتيم مكرماً ، ووجده آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم فى رعاية المجتمع ، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أى يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيماني كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعاً بقدر الله فى خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولاداً . والمثل واضح فى سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدنا موسى حينما مرّاً على قرية :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلَهَا .. (٧٧) ﴾ [سورة الكهف]

فلم طلبا نقوداً ليدخرها ، ولكنهما طلبا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة ملحّة . ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك

أنها قرية لثيمة الأهل . وعلى الرغم من العبد الصالح وجد ردهم عليه وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جدار ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ، وكان الجدار له إدارة ، فأقام الجدار ، ولأمه سيدنا موسى ﷺ ، وكان سيدنا موسى منطقياً مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبنى لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجرة ، فهم قوم لثام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه بنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذى تحته وهو ليتمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يريهم . وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار للغلامين يتمين فى المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا .. ﴾ (٨٢) [سورة الكهف]

فكان استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد ، وكان العبد الصالح قد بنى الجدار بناء مؤقتاً ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحيشية لكل ذلك ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. ﴾ (٨٢) [سورة الكهف]

فكان صلاح الأب هو الذى أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كثر الأبناء ، فياتى العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللثام ، ويطلبان طعاماً ، فلا يطعمونهما ، فبى العبد الصالح الجدار الموقوت الذى يصون الكنز من اللثام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (١٥٢) [سورة الأنعام]

من لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتي هي أحسن فليبتعد عنه .

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وكلمة « فليأكل بالمعروف » أى لا يكثر ولا يدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسى مايستر جسمه . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ؛ لذلك قال الحق في أدائه البيانى حيث يؤدى اللفظ ما يوحى بالمعاني الواسعة :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وجعل الحق مال السفيه في مرتبة مال الولي ؛ لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد ييدها . ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿ فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه أداء قرآن عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمادام هو في سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذى لا مال له ؟ . هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » (وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما)^(١) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه البخارى ، والترمذى ، وأبو داود .

« الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذى يصوم النهار ويقوم الليل » (١)

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولي أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلا على أنه يسخط الله ويغضبه فهو حسنة ولؤم ونذالة .

﴿ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

لم يقل الله - سبحانه - بالتي هي حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعنى أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة ، وما المعيار في الذاتية المستقلة ؟ ؛ أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج . مثله مثل الثمرة حين تنضج ؛ أى صارت البذرة التى فيها صالحة لأن نضعها فى الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوى البذرة وتنضج .

و « الأشد » أى أن الإنسان يصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ ، ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف فى المال وفى كل شىء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والكيل هى المعايير لما يكال حجماً ، والموازين هى المعايير لما يُقَدَّر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة . معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضاً التقديرات العادلة فى القياس ، للأقمشة مثلاً ، المقياس فيها هو المتر ، إذن كل شىء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلا بد أن يكن بالقسط ، أى بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو القلقاس ، فنحن نزنه بميزان

كبير؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلو جرام، فالأمر حيثئذ يكون مقبولاً. وحين نزن أشياء أثنى قليلاً، نأتى بالميزان الدقيق. فإن كان الشيء الموزون ذهباً نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن.

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها. وحين نزن المواد الكيماوية نأتى بميزان يعمل بالذرة. إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره؛ لأن تحقيق العدالة فى الميزان مسألة صعبة، وكذلك الأمر فى الكيل. فحين يكيل الإنسان كيلاً بمسك إناء الكيلة ويهزه؛ حتى يأتى الميكال دقيقاً محرراً، وإن أراد أن يلغى ضمير، ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ الميكال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع. وربنا يقول:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

[سورة المطففين]

فحين يكتال يستوفى ويطفف أى يزيد ماسوف يأخذه شراء، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمناً أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل. وأصل المبادلات غالباً بين طرفين، وبعض المنتظعين يقول: كيف يقول الحق: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والتطفيف فى أى مسألة يكون بالزيادة، لا بالنقص. ونقول: انتبه إلى أن المتحدث هو الله، والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء. فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفى لنفسه فهو مطفف.

ولذلك تأتى دقة الأداء القرآنى من ربنا:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (١٥٦)﴾

[سورة الأنعام]

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو اسع رحمته فى التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل فى الاستطاعة؛ ففى ضبط الميكال والميزان قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا

نفساً إلا وسعها ﴿ لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل في نطاق الإنسان . ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التي نعلمها إن كانت من الأشياء التي ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت في المتوسط فوزنها له آلة ، وإن كان في الأشياء النفيسة الدقيقة التي للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصنونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إياحة للأشياء الزائدة أو الناقصة التي لا تدخل في الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .. (١٥٦) ﴾ [سورة الأنعام]

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، يتفعل للمطلوب فيها خيراً أو إنشاءً ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجراحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾

وهل العدل مقصور على القول؟ أو العدل أيضاً يكون في الفعل؟ إن العدل قد يكون في خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل في قولك ، ألفته وأنست به وأحبيته حتى في أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن تقرر على شيء في نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة . قلها بالحق ، والحكم . قلها بالحق . والوصية . قلها بالحق . والفتوى . قلها بالحق . إذن فالحق في القول أمر دائر في كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنت أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لو احدث شيء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحياة يزهده في الحركة . لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

والذى يؤثر في العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يملك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقرباك لك ، وقد تريد إن حكمت - والعياذ بالله - باطلاً ، أن تسعد ذا قرباك ، وأنت بذلك لم تؤد حق القرباك ؛ لأن حق القرباك كان يقتضى أن تمتنع عنه كل شيء محرّم ونحّمى عرضه ، ونحّمى دينه قبل أن نحّمى مصلحته في النفعية الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت في الواقع حكمت عليه لاله .

﴿ وَيَعْهَدِ اللَّهُ أَوْفُوا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف ، فكل تكليف من تكليف الله لخلقه يُعتبر عهداً داخلياً في إطار الإيمان ؛ لأن الله لا يحكم حكماً أو يبينه لمكلف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

أى يا من آمنت بالعهد الأصيل في القيم وهو العقيدة ، وآمنت بي إلهاً : خذ التكليف منى ؛ لأنك قد دخلت معى في عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، وإنما يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن ا في كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذى أمرك أن تفعل كذا ، فَعِلَّةُ كل هى الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ اذِلكرَ وصَّكُم بِهِ لعلَّكُم تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

و « ذلكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُم ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جداً ، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عيون التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآيات : « إنها محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودي الذي أسلم وهو كعب الأحبار : « والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُم ﴾ . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هي جامعة لكل شيء ؛ نجد تسع وصايا قد مرّت ؛ خمساً منها قال فيها : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأربعاً قال فيها : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هي الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا سُبُلَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا تَتَّبِعُوا سُبُلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَا تَحْسَبُوا عِبَادَتَهُمْ كَعِبَادَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مُتَعَلِّمٌ لِمَا تُحْسِنُونَ ﴾

تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ
وَصَّوَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾

أى أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا . وقلت : إننا نلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والأربع التي بعدها ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة الجامعة لكل شيء قال تذيلاً لها : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ .

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التي قال الحق فيها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَيْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّوَّكُم بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الأشياء كانت موجودة في بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تَعَقَّلُوا ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله بمنعكم من هذه الأفعال ، إنه أمر يقتضيه العقل السليم الذى يبحث في الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن « الأربع » الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها . ففى التي كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء فى الكيل والميزان والعدل فى القول والوفاء بالعهد قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى إياكم أن تغفلوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فافعلوها من باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكْرًا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ
وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجاباً وسلباً ، نهياً وأمراً ، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم : لتقوا أنفسكم آثار صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المعبد ، ويأخذون منه صراط الآخرة ، وهو - كما يقال - « أدق من الشعرة ، وأحد من السيف » ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ؛ لأنه لوراح يمينه يهوى في النار ، ولوراح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط معمول بدقة وليس طريقاً واسعاً ، بل - كما قلنا - « أدق من الشعرة وأحد من السيف » فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً ، فلا تنحرف يميناً أو يسرة ؛ لأن الميل - كما قلنا - يبعدك عن الغاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم اختل توازنك فيه قدر ملليمتر فكلما سرت يتسع الخلل ، وأى انحراف قليل في نقطة البداية يؤدي إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما نلتقى فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير في الطريق المستقيم ، وكلما ابتعدنا عن التشريع تفرق بنا السبل .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكْرًا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ
وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ جلى بالحركة الفعلية منطوق النسبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه وخط خطاً . وقال : هذا سبيل الله . ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ، ثم قال : هذه سبيل وعلى كل سبيل منها شيطان ؛ يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكْرًا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ﴾ .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٤٠٠١

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء ، وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل إلى نقطة واحدة .

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه في دينه ، منسوباً إلى رسوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لا يغش نفسه ، والذي يفعله ويمشى فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمراً وهو بنجوة وبعد عنه ، ولو غشكم جميعاً لا يغش نفسه ، وهذا هو صراطه الذي يسير فيه .

والسبيل هنا معروف أنه إلى الله فكأن سبيل الله هو طريق محمد ﷺ . ونسب الفعل والحدث لله وحده ؛ ففي البداية قال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ، ثم قال : «سبيله» فالصراط لم يعمله محمد لنفسه ، ولكن أراد الله للمؤمنين جميعاً ، ورسول الله هو الذي يأخذ بأيديهم إليه .

وحين ننظر إلى كل الخلافات التي تأتي بين الديانات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١١٣) ﴾ [سورة البقرة]

والمشركون قالوا : لاهؤلاء على شيء ، ولاهؤلاء على شيء :

﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ .. (١١٣) ﴾ [سورة البقرة]

أى أننا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا : ليست النصرارى على شيء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شيء ، وقال الذين لا يعلمون - وهم أهل مكة - مثل قولهم ، ثم نجد الدين الواحد منهما ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شيء تتعصب له . وترى أن الذى تقول به هو الحق ، والذى يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والتنزيلات الإلهية على الرسل واحدة؟! إن

آفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة الزمنية ، وكل إنسان يريد أن يكون له مكانة ونفوذ وخلافة . وهذا يريد أن يتزعم فريقاً ، وذاك يريد أن يتزعم فريقاً ، ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لما كانوا فرقاء .

ونجده عليه السلام يقول : « افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة »^(١) .

وفى رواية : « كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة » ، والجماعة : هم أهل السنة والجماعة ، وفى رواية : « ما أنا عليه وأصحابى » .

ونلاحظ دقة هذا القول فى عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لاتسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها ، والذين كانوا يريدون أن يعيشوا فى جلالها .

إذن الآفة تأتى خير نظر حين إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحد رأياً ، ويأتى الآخر فيرى فيه رأياً آخر ، لالشيء إلا للاختلاف . ونقرل لهم : انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحَكَّم ، وحكم تزكاه الله مناطاً للاجتهاد فيه ، فالحكم الذى أراداه الله محكماً جاء فيه بنص لا يحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذى يجبه الله من المكلفين تخفيفاً عنهم على وجه من الوجوه يأتى بالنص فيه محتملاً للاجتهاد ، ومجىء النص من المشرع فى حكم محتمل للاجتهاد هو إذن بالاجتهاد فيه ؛ لأنه لو أراداه حكماً لاختلف فيه لجاء به محكماً .

والمثال المستمر ما تركناه لنا رسول الله عليه السلام فى سنته الشريفة ، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يضع السلاح قبل أن يؤدب بنى قريظة ، وهم من شايعوا مشركى مكة فى الحرب . فقال عليه السلام : « لا يُصَلِّينَ أحد العصر إلا فى بنى قريظة »^(٢) .

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٢) رواه البخارى فى المغازى ، والبيهقى فى الدلائل والسنة .

فذهب الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة ، وأذنت الشمس بالمغيب وهم في الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلى العصر قبل أن تغيب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلين العصر إلا في بني قريظة . فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بني قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرك وهو رسول الله ، فأقر هذا ، وأقر هذا ، لأن النص محتمل .

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفاً له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولا بد أن نصلى العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلى إلا في بني قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرك الأعلَمَ أقر هؤلاء وأقر هؤلاء .

إذن فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه . وإن كان الله قد تركه موضعاً للاجتهاد فيه فهو يأتي لنا بالنص غير المحكم . ومن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، ولذلك بقى لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض . نجد الواحد منهم يقول : الذي ذهب إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذي ذهب إليه مقابلي خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذي أبقى مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفى ولا تدرن بها ، والحمد لله أنكم لا تدرن بها .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ بِإِِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

ونحن إذا سمعنا كلمة « ثم » نعلم أنها من حروف العطف ، وحروف العطف

كثيرة ، وكل حرف له معنى يؤديه ، وهنا ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتي قوله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ فالتوراة جاءت ثم الإنجيل ، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم . فكيف جاءت العبارة هنا بـ « ثم » ؟ . مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل مجيء قوله الحق : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ؟

ونقول لأصحاب هذا الفهم : أنت أخذت « ثم » لترتيب أفعال وأحداث ، ونسيت أن « ثم » قد تأتي لترتيب أخبار . فقد يأتي من يقول لك : لماذا لا تسأل عن فلان ولا تؤدى الحق الواجب عليك له ؛ كحق القرابة مثلا ، فنقول : كيف ، لقد فعلت معه كذا ، ثم أنا فعلت مع أبيه كذا ، ثم أنا فعلت مع جدّه كذا .

إذن ، فأنت تقوم بترتيب أخبار . وتتصاعد فيها ، وترقى ، ولذلك قال الشاعر العربى :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدّه

فالسيادة جاءت أولاً للجد ، ثم جاءت للأب ، ثم انتقلت للابن . و « ثم » فى هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخبارى أى يكون وقوع المعطوف بها بعد المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما لا بحسب زمان وقوع الحدث على أحدهما فالمراد الترقى فى الإخبار بالأحداث .

وانظر إلى القرآن بكمال أدائه يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

ونعلم أن الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم كان من البداية . فسبحانه فى هذا القول الكريم يريد أن يرتب حالنا ، إنه - سبحانه - خلقنا بعد أن صورنا ، وصورنا ، بعد أن قال للملائكة اسجدوا لآدم .

ولله المثل الأعلى ، تجد من يقول لابنه : لقد اعنتيت بك فى التعليم العالى ،

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٤٠٠٥

ثم لاتنس أنى قد اعتنيت بك فى التعليم الثانوى ، ثم لاتنس أننى قد اعتنيت بك فى التعليم الإعدادية ؛ ثم لاتنس أننى قد اعتنيت بك من قبل كل ذلك فى التعليم الابتدائى . وأنت بذلك ترتقى إخبارياً لا أحداثياً . فقد يكون الحدث بعد ولكن ترتيب الخبر فيه يكون قبل .

[سورة الأنعام]

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١٥٤) ﴾

طبعاً مادام جاء بسيرة موسى فالكتاب هو التوراة وإذا أطلق الكتاب من غير تحديد ؛ فإنه ينصرف إلى القرآن ، لأنه هو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب ، والمهيمن على كل ما فى الكتب . أما لو قيل مثلاً : أنزلنا على موسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو التوراة ، أو أنزلنا على عيسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو الإنجيل .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بَلِقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) ﴾

[سورة الأنعام]

والتمام هو استيعاب صفات الخير ، ولذلك يقول الحق :

[سورة المائدة]

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. (٢) ﴾

و«أكملت» فلا نقصان ، وأتممتها فلا استدادك . ولماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى ﷺ ؟ . جاء ذلك لأن الذين تصدوا للجاج والجدل معه ﷺ هم اليهود .

وأنتم تعلمون أنهم صوروا فى مصر هنا فيلماً سينمائياً اسمه « الوصايا العشر » عن قصة سيدنا موسى ﷺ . والوصايا العشر هى التى أقر « كعب الأخبار » أنها موجودة فى التوراة وجاءت فى الآيات السابقة التى تناولناها وشرحناها . فمن المناسب أن يأتى هنا ذكر موسى ﷺ .

وحيثما جاء موسى عليه السلام بالثورة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما فى الثورة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا . أما الذين استمرت حياتهم إلى أن جاء رسول الله ، فكان من المطلوب منهم أن يؤمنوا به ؛ لأن الحق أوضح لهم فى الثورة أن هناك رسولا قادمأ ، ولا بد أن تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ، لأنكم وإن كنتم مؤمنين بموسى ، وعاملين بمنهجه فلا بد من الإيمان بمحمد عليه السلام . والسابقون لكم أحسنوا فى زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة فإن أردتم أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلا بد أن تعلنوا الإيمان بمحمد عليه السلام ، منكم من أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتم لهم الحسن : ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

«وتفصيلاً لكل شيء» أى أنه مناسب لزمنه ، ولله المثل الأعلى ، عندما يكون لك ولد صغير السن فتقول : أنا فصلت له ملابسه ، أى فصلت له الملابس التى تناسبه . وحين يكبر لن تظل ملابسه القديمة صالحة لأن يرتديها . «وتفصيلاً لكل شيء» أى القيم التى تناسب الوقت الذى يعيشونه ، فإذا ماجئنا بتفصيل جديد فى القرآن فهو مناسب لوقته ، ولقائل أن يقول : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفرق بين تفصيل وتفصيل ؟ . نقول : إن كل تفصيل مناسب لزمنه ، وآيات القرآن مفصلة جاهزة ومعدة لكل زمن وللناس جميعا إلى أن تقوم الساعة .

والآفة - دائماً - فى القائمين على أمر التشريع ، فحينما تأتيهم حالة لذى جاه وسلطان يحاولون إعداد وتفصيل حكم يناسبه ، فنقول لمثل هذا الرجل : أنت تفصل الحكم برغم أن الأحكام جاهزة ومعدة وظاهرة ، إننا نجد القوالب البدنية تختلف فيها التفصيلات للملابس بينما القوالب المعنوية نجد فيها التساوى بين الناس كلها ، فالصدق عند الطفل مثل الصدق عند اليافع ، مثل الصدق عند الرجل ، مثل الصدق عند المرأة ، مثل الصدق عند العالم ، مثل الصدق عند التاجر . وليس لكل منهم صدق خاص ، وكذلك الأمانة . ورحمنا الإسلام بالقضية العقدية وكذلك بالقضية الحكيمة الجاهزة . المناسبة لكل بشر ، وليست هناك آية على مقياس واحد تطبق عليه وحده ، لا ، فالآيات تسع الجميع .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٤٠٠٧

[سورة الأنعام]

﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. (١٥٤) ﴾

والهُدَى هو ما يدل على الغايات ، لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء في أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التي يجب أن تسود. والآفة أن الأب يعلم ولده كيف يأكل ويشرب ، وينسى أن يعلمه أمور القيم ، لكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ؛ فشرع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً ، وهدياً جديداً ليذكرنا .

[سورة الأنعام]

﴿ .. لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

إن كل آفة تنبع من العزوف عن تشريعات الله ، وهم ينسون أن يضعوا في أذهانهم لقاء الله ، لكن لو أن لقاء الله متضح في أذهانهم لاستعدوا لذلك ؛ لأن الغايات هي التي تجعل الإنسان يقبل على الوسائل . والشاعر يقول :

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات هي بعد المذاهب

ونقول لهذا الشاعر: قولك: ألا من يريني غايتي قبل مذهبي كلام صحيح ، أما قولك: ومن أين والغايات بعد المذاهب ، هذا كلام غير دقيق ، فالغاية هي التي تحدد المذهب ، وكذلك شرع الله الغاية أولاً ، بعد ذلك جعل لها السبيل . وقد شرع الله لكل شيء ما تقضيه ظروف البشر الحياتية ، ولذلك لاستدراك عليه لأن فيه تفصيلاً لكل شيء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

واللهذا إشارة وعادة ماتأتى وترد على متقدم ، ولكن إذا لم يكن لاسم

الإشارة متقدم أو حاضرة يشار إليه فهذا دليل على أنك إن أشرت لا ينصرف إلا إليه لأنه متعين ينصرف إليه الذهن بدون تفكير لوضوحه . وكلمة «كتاب» تدل على أنه بلغ من نفاسته أنه يجب أن يُكْتَبَ ويسجل ؛ لأن الإنسان لا يسُجَل ولا يكتب إلا الشيء النافع ، إنما اللغو لا يسأل عنه ، وقال ربنا عن القرآن : إنه «كتاب» ، ومرة قال فيه : «قرآن» فهو «قرآن» يتلى من الصدور ، و«كتاب» يحفظ في السطور . ولذلك حينما جاءوا ليجمعه أتوا بالمسطور ليطباقوه على ما في الصدور .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُكٌ .. (١٥٥) ﴾ [سورة الأنعام]

و«أنزلناه» أى أمرنا بإنزاله ، ونزل به الروح الأمين ، وكلمة مبارك مأخوذة من «البركة» أى أنه يعطى من الخير والثمرة فوق ما يُظَنُّ فيه ، وقد تقول : فلان راتبه مائتا جنيه ، ويربى أولاده جيداً ويشعر بالرضا ، وتجد من يقول لك : هذه هى البركة . كأن الراتب لا يؤدى هذه المسئوليات أبداً . وكلمة «البركة» تدل على أن يد الله ممدودة فى الأسباب ، ونعلم أن الناس ينظرون دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا ينظرون إلى الرزق الأوسع من الإيجاب وهو رزق السلب ، فرزق الإيجاب يأتى لك بمائتى جنيه ، ورزق السلب يسلب عنك مصارف لاتعرف قدرها . فتجد من يبلغ مرتبه ألفاً من الجنيهات ، لكن بعض والده يمرض ، ويحتاج ولد آخر إلى دروس خصوصية فتتبدد الألف جنيه ويحتاج إلى مافوقها .

إذن فحين يسلب الحق المصارف وإنفاق المال فى المعصية أو المرض فهذه هى بركة الرزق ، وتجد الرجل الذى يأتى ماله من حلال ويعرق فيه يوفقه الله إلى شراء كل شىء يحتاج إليه ، ويخلع الله على المال القليل صفة القبول ، وتجد آخر يأتى ماله حرام فيخلع الله على ماله صفة الغضب فينفقه فى المصائب والبلايا ويحتاج إلى ما هو أكثر منه .

وأنت حين تقارن القرآن بالتوراة فى الحجم تجده أصغر منها ولكن لو رأيت البركة التى فيه فستجدها بركة لاتنتهى ؛ فكل يوم يعطى القرآن عطاء الجديد ولاتنقضى عجائبه ، ويقراه واحد فيفهم منه معنى ، ويقراه آخر فيفهم منه معنى جديداً . وهذا دليل على أن قائله حكيم ، وضع فى الشىء القليل الفائدة الكثيرة ،

وهذا هو معنى ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ ؛ فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة ، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولاً . والمهم أن القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح البشرى ، وحضارتها وارتقاءاتها في العقول ؛ لذلك كان لا بد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له سبق دائماً ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة .

وكلنا يعلم أن القرآن قد نزل على رجل أُمى ، وفي أمة أُمّية ، ولذلك حكمة بالغة لأن معنى « أُمى » أى أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدته أمه ، وجاءت ثقافته وعلمه من السماء .

إذن فالأمية فيه شرف وارتقاء بمصادر العلم له . ونزل القرآن في أمة أمية ؛ لأن هذا الدين وتلك التشريعات ، إنما نزلت في هذه الأمة المتبدية المتقلة من مكان إلى آخر وليس لها قانون بل يتحكم فيها رب القبيلة فقط ، وحين تنزل إليها هذه القيم الروحية والأحكام التشريعية ففي ذلك الدليل على أن الكتاب الذى يحمل هذه القيم والأحكام قادم من السماء . فلو نزل القرآن على أمة متحضرة لقليل نقلة حضارية ، لكنه نزل على أمة لا تملك قوانين مثل التى كانت تُحكم بها الفرس أو الروم .

ومادام الكتاب له هذه الأوصاف التى تريح الخلق من عناء التشريع لأنفسهم ويضم كل الخير ، لذلك يأتى الأمر من الله :

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

وساعة تأتى به « لعل » فاعلم أن فيها رجاء ، وقد ترجو أنت من واحد وتقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والرجاء هنا من واحد ، ومن يفعل العمل المرجو إنسان آخر ، وقد يفعل الآخر هذا العمل ، وقد يغضب فلا يفعله ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، بل ومن يدري أنه ساعة يريد أن يفعل فلا يقدر . وإذا قلت : « لعلى أفعل لك كذا » ، وهنا تكون أنت الراجى والمرجوف فى آن واحد ، ولكنك أيضاً ابن

للأغيار ، فأنت تتوقع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تيسر لك مثل هذه القدرة .

ولماذا أنزل الحق هذا الكتاب ؟ . يأتي الحق هنا بالتمييز للأمة التي أراد لها أن ينزل فيها القرآن فيقول :

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ
مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

فالكتاب يصفى العقائد السابقة التي نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد غفلتم عن دراسة التوراة والإنجيل ؛ لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذراً وتقولوا : إن أميتنا منعتنا من دراسة الكتاب الذي أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكان الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم .

﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا
أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا
سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قد يحتج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من

اليهود والنصارى ، وفي هذا القول مايعنى أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل عذر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .. (١٥٧) ﴾ [سورة الأنعام]

و«صدف» من الأفعال التي تُستعمل متعدية وتُستعمل لازمة ، ومعنى «الازمة» أنها تكتفى بالفاعل ولا تتطلب مفعولاً ، فمثلاً إذا قيل لك : جلس فلان . تفهم أن فلاناً قد جلس ويتم لك المعنى ولا تتطلب شيئاً آخر . لكنك إن قيل لك : ضُربَ زيد ، فلا بد أنك تتنظر من محدثك أن يبين لك من الذى ضُربَ ، أى أنك جئت بفعل يطلب شيئاً بعد الفاعل ليقع عليه الفعل . وهذا اسمه فعل «متعد» أى يتعدى به الفاعل إلى مفعول به .

و«صدف» فيها الخاصتان . وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين ؛ الغرض الأول : أن تكون «صدف» بمعنى انصرف وأعرض فكانت لازمة أى ضل في ذاته ، والأمر الثانى : أن تكون صدف متعدية فهى تدل على أنه يصرف غيره عن الإيمان ، أى يضل غيره ، ويقع عليه الوزر ؛ لضلال نفسه أولاً ثم عليه وزر من أضل ثانياً ، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذى يصلح للثنتين «صدف عنها» أى انصرف ، ضلالاً لنفسه ، وصدف غيره أى جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره ، وبذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه :

﴿ .. سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) ﴾

[سورة الأنعام]

فكأن المسألة يرتكبها : الذين صدفوا أنفسهم ، وصدفوها عن الإيمان ، ويصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغالوا فى ذلك فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقروا الوجود الذى يعايشونه لوجدوا الموت يختطف كل يوم قوماً على غير طريقة رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انقضاء الأجل ، ولا الأسباب تحكمه ،

ولا المرض أو العافية تحكمه ، فالموت أمر شائع في الوجود. ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يترقب نهايته ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن يصدقون؟ وماذا ينتظرون من الكون؟ . أروا خلوداً في الكون لموجود معهم؟ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

فهل ينتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم إلا أن تأتيهم الملائكة التي تقبض الروح؟ والملائكة تأتي هنا مجملة . وفي آيات أخرى يقول :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ .. (٢٨) ﴾ [سورة النحل]

ولن يتأبى أحد على الملائكة ؛ لذلك يلقون لهم السلم وتنتهى المسألة .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ووقف العلماء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يفسروا الإتيان من الرب على ضوء الأتيان منا ، والأتيان منا يقتضى انخلاعاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه ، وهذا الأمر لا يصلح مع الله . ونقول : أفسرت كل مجيء على

ضوء المجيء بالنسبة لك ؟ بالله قل لى : ما رأيك فى قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة ق)

كيف جاءت سكرة الموت وهى المخلوقة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجىء الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجىء الله ؟ . عليكم أن تفسروا كل شىء بالنسبة لله بما يليق بذات الله فى إطار « ليس كمثلته شىء » ولتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كل شىء منسوباً لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجىء يختلف بأقدار الجائين ، فمجىء الطفل غير مجىء الشاب ، غير مجىء الرجل العجوز ، غير مجىء الفارس ، فما بالنا بمجىء الله سبحانه ؟ !! إياك - إذن - أن تفهم المجىء على ضوء مجىء البشر . وأكررها دائماً : عليك أن تأخذ كل شىء بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه فى إطار « ليس كمثلته شىء » ، ولذلك قل : له سمع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، فى إطار « ليس كمثلته شىء » . وإياكم أن تسمعوا مناقشة فى قوله : « يأتى ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه « ليس كمثلته شىء » ﴿ أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾ .

و « بعض آيات ربك » ، هى العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالذُّخَانَ ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ ، وَالذُّجَالَ ، وَخُوصِيصَةَ أَحَدِكُمْ وَأَمْرَ الْعَامَّةِ »^(١) .

و « خُوصِيصَةُ أَحَدِكُمْ » تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت التى تخص الإنسان ، وصغرت لاستصغارها فى جنب سائر العظام من بعث وحساب وغيرهما وقيل : هى ما يخص الإنسان من الشواغل المقلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و « أمر العامة » : أى القيامة ؛ لأنها تعم الخلائق ، أو الفتنة التى تعمى

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة .

وتنصم ، أو الأمر الذى يستبد به العوام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى ؛ فكل أمر مشهدى مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ؛ فأنت لا تقول : أنا أو من باني أقرأ الآن فى كتاب خواطر الشيخ الشعراوى حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالفعل تقرأ هذه الخواطر الآن . وأنت لا تقول : أنا أو من بأن النور يضىء الحجرة ؛ لأن هذا أمر مشهدى ، وليس أمراً غيبياً . والإيمان يكون دائماً بأمر غيبى ، ولكن إذا جاءت الآيات فإننا نتنقل من الإيمان بالأمر الغيبى إلى الإيمان بالأمر الحسى ، وحينئذ لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والخير بعد أن تبلغ الروح الحلقوم وتقول : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مالك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذى لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات الستة التى قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدي الساعة أو قبل مجيء الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لن يقبل منك أن تقول : آمنت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر الغيبى ، وظهور الآيات هو أمر مشهدى فلن يقبل بعده إعلان الإيمان . والحق هو القائل :

﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

أى أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات ، وألا يكون المانع له من العمل القصور ، كأن يكون الإنسان - والعياذ بالله - مجنوناً ولم يفق إلا بعد مجيء العلامة ، أو لم يبلغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من ينفعه الإيمان .

وقد عرض الحق لنا من هذه الصور ما حدث فى التاريخ السابق ، فهو القائل :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٤٠١٥

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ
الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

[سورة يونس]

وماذا كان رد الله عليه ؟ لقد قال سبحانه :

[سورة يونس]

﴿ ءالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ .. ﴿٩١﴾ ﴾

إذن : إذا بلغت الروح الحلقوم ، وهذه مقدمات الموت فلا ينفع حينئذ إعلانك
الإيمان .

ويذيل الحق الآية بقوله :

[سورة الأنعام]

﴿ .. انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

هم منتظرون الخيبة ونحن منتظرون الفلاح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّا لَنَدِينُ فِرْعَوْنَ وَكُنُوزَهُمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كُنَّا يُكَفِّرُونَ ﴾
﴿ إِنَّا لَنَدِينُ فِرْعَوْنَ وَكُنُوزَهُمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كُنَّا يُكَفِّرُونَ ﴾
﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

هذه الآية تشرح الآية التي سبقت خواطرننا عنها ، وهي قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيكُمُ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ

[سورة الأنعام]

وَصَّكُمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لا يفرق ، والدين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهي فى الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أى خلاف ، بل الخلاف يكون فى المباحات فقط ؛ إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، ومالم يرد فيه أفعال ولا تفعل ؛ فهو مباح .

إذن الذين يفرقون فى الدين إنما يناقضون منهج السماء الذى جاء ليجمع الناس على شىء واحد ؛ لتتساند حركات الحياة فى الناس ولا تتعاند ، وإذا كان لك هوى ، وهذا له هوى ، وذلك له هوى فسوف تتعاند الطاقات ، والمطلوب والمفروض أن الطاقات تتساند وتتعاقد .

والشيعة هم الجماعة التى تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان ضلالاً . وهناك تشيع لمعنى نافع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن تجتمع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شراً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾

[سورة الأنعام]

إذن هم بعيدون عن منهجك يا محمد ، ولا يصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود . ونعرف أن الماء لا يأخذ لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف . وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ؛ فهذا أمر يضر الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإسلام لون واحد .

﴿ .. إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾ [سورة الأنعام]

إن شاء سبحانه عاجلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء آجلهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا
يُظَلَّمُونَ ﴾ ١٦٠ ﴿

هناك « حسن » ، و « حسنة » ولا تقل : إن حسنة هي مؤنث حسن ، لأن فيها تاء . كأنها تاء التانيث ، ولكن اسمها « تاء المبالغة » تأتي على اللفظ الذي للذكر ، مثلما تقول : « فلان علامة » ، و « فلان راوية للشعر » وفلان نسابة . هذه هي تاء المبالغة .

والحسنة هي الخير الذي يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أعمق وأعمق كانت الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

فـ « أمثالها » جمع « مثل » ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود مذكراً تأتي له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً نحذف التاء . لأن أصل الأعداد مبني على التاء ، لأنك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبني على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت العدد مع الأصل وهو المذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : « ثلاثة رجال » . وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : « ثلاث نسوة » ، والحق هنا يقول : ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ ، و « مثل » - كما قلنا - مذكر . والحق لم يجعل الأصل في العطاء هو « المثل » ، بل جعل الأصل هو الحسنة :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذا هو مطلق الرحمة والعفو . ولذلك ورد الحديث القدسي .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى - « إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرأ إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك » (١) .

ونعرف أن الحق يجزى الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص فى نفاذه ، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله . وقد وضع الحق هذا النظام ؛ لأنه جل وعلا يريد للحسنة أن تُفعل ، ويتنفع الغير بها ، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة ، ويقول الحق لنا :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ، وَهُوَ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (١)

(سورة الحديد)

ويقول أيضاً :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ، أضعافاً كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ

وَيَبْصِطُ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

ويحدد هناجزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها ، ونية معطى الحسنة هى التى يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد . والحق سبحانه وتعالى يعطى مثلاً لذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ

سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى .

وإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة فماذا يعطى خالق الأرض؟ إن عطاءه غير محدود ولا ينفد، ولذلك يقول سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ويتابع الحق سبحانه:

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيَّةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

مادام لا يجزى إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

و«ديناً قيمياً» أى تقوم عليه مسائل الحياة، وهو قائم بها، و«قيماً» مأخوذة من «القيمة» أو من «القيام» على الأمر، وقام على الأمر أى باشرة مباشرة من يصلحه، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم، وهو قائم عليهم أيضاً: ﴿ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً﴾.

وفى كل أمر مهم له خطره ومزته يأتى لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه القدر المشترك الذى يجمع كفار مكة، وأهل الكتاب الذين يتمحكون فيه. فقالت اليهود: إبراهيم كان يهودياً، وقالت النصارى: إن إبراهيم كان نصرانياً، وربنا يقول لهم ولنا:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة آل عمران)

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففي بيئتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجاربتهم ونفعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح . يقول الحق :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

فسيدنا إبراهيم هو الذي رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذي عمل لهم مهابة جعلت تجاربتهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالرزق الوفير . وحين يقول الحق :

﴿ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأنعام)

المقصود هو الدين الذي تعيشون في كنف خيراته آثاره ، و« الحنف » هو اعوجاج في القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً عن الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم الاستقامة . ونعرف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف ؛ فهو معتدل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾

و« صلاتي » مقصود بها العبادة والركن الثاني في الإسلام الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهي الركن الذي لا يسقط أبداً ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - كما قلنا سابقاً - يكفي أن تقولها مرة في العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تزكى لأنه ليس لك مال ، وقد لا تستطيع

الحج ، وتبقى الصلاة التي لا تسقط أبداً عن العبد . وهي - كما نعلم - قد أخذت التكليف حظها من الركنية .

إن كل تكليف من التكليف جاء بواسطة الوحي إلا الصلاة فإنها جاءت بالباشرة ، تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . وحين يقول الحق : « إن صلاتي » ، فهو يذكر لنا عمدة الأركان والتي اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإنسان إذا كان راقداً في مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يخطر أعمال الصلاة على قلبه . ويقول الحق : ﴿ ونسكى ﴾ . و « النسك » يطلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الحج)

« النسك » إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرة في الحج ، مثل نسك الطواف ونسك السعى ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمي ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة « النسيكة » وهي السبيكة من الفضة التي تصهر صهراً يخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير غاية في النقاء . فسميت العبادة نسكاً لهذا ، أى يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التي تخالطها : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي ﴾ .

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل في قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لا يدخل أى منهما في قانون الاختيار ؛ إنها في يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصلى إلا لأنك آمنت بالأمر بالصلاة ، أو أن الجوارح ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تفعل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المخلوقة لله لتأدية المنهج الذي أنزله الله . إذن إن أردت نسبة كل فعل فانسبه إلى الله .

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختياري ؟ ؛ لأنه إن كان في ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكل هذا الاختيار نابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذي وضع

المنهج فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتي لله ونسكى لله ، أى أن تخلص فيها ، ولا تشرك فيها ، ولا تصلى مرثياً ، ولا تصنع نسكاً مرثياً ، ولا تذهب إلى الحج من أجل أن يقولوا لك : « الحاج فلان » أبدأ ، بل اجعلها كلها لله ؛ لأنك إن جعلتها لغيره فليس لغيره من القدرة على الجزاء ما يجازيك الله به ، إن جعلتها لغيره فقد اخترت الخيبة فى الصفة ؛ لذلك اجعل الصلاة والنسك للذى يعطيك الأجر .

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام]

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة فى غير ما يرضى الله . فينبغى أن يكون حياتك لله لالشهوتك ، ومماتك لله للورثتك ، وتذكر ذلك جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

وهذا القول يدل على أن بعض الخلق قد يجعل لله شريكاً فى العبادة فيجعل صلاته ظاهرية رياء ، ومناسكه ظاهرية رياء ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للورثة وللذرية ؛ لذلك عليك أن تتذكر أن الله لا شريك له .

﴿ .. وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته ﷺ ، والأوامر التى صدرت عن الرب هى لصالحك أنت . فسبحانه أهل لأن يُحب ، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأنا لأدعيه لنفسى بل هو عطاء من ربكم وربى الذى أمر . وإنما فالحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله ﷺ مشغول بأمر أمته أبلغنا :

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

وفي كل شيء كان صلى الله عليه وسلم يقول : أمتي أمتي أمتي أمتي ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يطمئن رسوله على محبوبة أمته فقال له : « إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك »^(١) .

والحديث بتمامه كالآتي :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ﴾ الآية .

وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي أمتي » وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسأله ما يُيكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله وأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك »^(٢) ونزل قوله الحق :

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالَّذِينَ فِيهِنَّ يُرْسِلُ الرِّسَالَاتِ وَلَهُ يَرْجِعُ الْأَنْفُسَ إِلَىٰ رَبِّهِ فَیُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَضَّيْ ۝٤٠﴾

(سورة الضحى)

روى عن علي رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار »^(٣) .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان .

(٣) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري .

ويذيل الحق الآية بقوله: ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

وحين يقول ﷺ : وأنا أول المسلمين في أمته فهذا قول صحيح صادق لأنه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام ، وكل رسول أول المسلمين في أمته ، لكن هناك أناس يقولون : لناخذ العبارة هكذا ، ونقول : إن الرسول ﷺ له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلى في أنه أخذ العهد على غيره له ، ولم يؤخذ العهد عليه لأحد . فإن كان أول المسلمين في أمته ، فهو أول المسلمين بين الرسل أيضاً ، وإن لم تأخذها حدثاً خذها للمكانة . وأضرب هذا المثل : هب أن كلية الحقوق أنشئت مثلاً سنة كذا وعشرين ، لكل سنة لها أول من التلاميذ ثم جاء واحد وحصل على ١٠٠٪ هذا العام فنقول عنه : إنه الأول على كلية الحقوق من يوم أن أنشئت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِثْمًا وَلَا يُزْرُ وَلَا يُزْرُ وَزَرَ
أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ

تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

معنى الرب أنه هو الذى تولى التربية ، وله السيادة ، وكل شىء فى الوجود مربوب لله ، فكيف أخذ شيئاً من الأشياء التى هو ربها وخالقها ليكون شريكاً له !!؟ إن ذلك لا يصح أبداً . ﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ رَبِّيَ﴾

وهذا إنكار يأتى فى صورة استفهام من كل سامع . وكأن الحق يقول لكل منا : أعرض هذا على ذهنك عرضاً غير متحيز ، وأنا سأثمنك على الجواب . ولاتقال

ذلك إلا وقد تأكد أن الجواب يكون : لا ، فلو كان الجواب يحتمل هذه أو تلك لما آمنك على الجواب . وكأنه يقول : إن أى عاقل يجيب على هذا السؤال سيوافقنى فى أنه لا ينبغى أن يتخذ غير الله رباً .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

و «أبغى» أى أطلب ، و«تكسب» مأخوذة من مادة «كسب» ، و«اكتسب» ، و«كسب» دائماً تأتى فى الخير - كما علمنا من قبل - ، و«اكتسب» تأتى فى الشر . لكن هناك أناس يعتادون على فعل السيئات ولم تعد تكلفهم شيئاً ، فكانها سهولة ذلك عليهم تعتبر كسباً . ومن الحمق أن تقول هذا كسب ، وهو عليك وليس لك ؛ لأنك حين تنظر إلى التسمية نفسها تفهم أنها ليست رصيذاً لك بل عليك .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

والوزر هو الحمل الشاق ، وإن اشتق منه شيء فإن المشقة والصعوبة تلازمه ؛ ككلمة «وزير» ، والحق هو القائل :

﴿ وَأَجْعَلْ لِي وِزيراً مِّنْ أَهْلِى ۚ هَٰرُونَ أَخِى ۖ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِى ۗ ﴾

(سورة طه)

كان موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى اليهود عملية شاقة فقال لله : أعطنى أخى يساعدى فى هذه المشقة .

والحق هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ ﴾

(سورة الشرح)

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أول استقباله للوحى قد عانى من وقع هذه

العملية وكان أمرها شاقاً عليه ؛ لأن المسألة تقتضى التقاءات ملكية بشرية ، ولا بد أن يحدث تفاعل ، وهذا التفاعل الذى كان يظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمر وجهه ، ويتصبب منه العرق ، وبعد ذلك يقول : زملونى زملونى ودثرونى ، وإن كان قاعداً وركبته على ركة أحد بجانبه فيشعر جاره بالثقل ، وإن كان على دابة تئط وتئن تعباً ، لأن التقاء الوحي برسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى أمرين : إما أن يتحول الوحي وهو حامل الرسالة إلى بشرية مماثلة لبشرية الرسول ، وإما أن الرسول ينتقل إلى ملائكية تتناسب مع استقباله للملك . وهكذا كان التقاءه بالملكية يتطلب انفعالاً وتفاعلاً .

لكن لما أنس صلى الله عليه وسلم بالوحي عرف حلاوة استقباله نسي المتاعب ، ولذلك عندما فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق إليه . وكان الوحي من قبل ذلك يتعبه ، ويجهدده ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبقى فى نفسه حلاوة ما أوحى به إليه ، وتمهداً نفسه وترتاح ويشتاق إلى الوحي ، فإذا ما استقبل الوحي بشوق فلن يتذكر المتاعب .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

إذن مادة الوزر هى الثقل بمشقة ، أى لا يحمل إنسان مشقة ثقيلة عن آخر ؛ فالمسئولية لا تتعدى إلا إذا تعدى الفعل ، وعرفنا من قبل الفارق بين من ضل فى ذاته ، ومن أضل غيره ليحمل أوزاره مع أوزارهم لتعديه بإضلالهم . وسنعود جميعاً إلى ربنا لينبئنا بما كنا فيه نختلف .

ويقول جل وعلا بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم خَلْتِيفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُمُ
 إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

وهناك قول كريم في آية أخرى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة فاطر)

وهنا يقول الحق : ﴿ خلائف الأرض ﴾ .

ومعنى « خليفة » أى الذى يخلف غيره ؛ فإما أن يخلفه زماناً ، وإما أن يخلفه مكاناً . وخليفة الزمان أن يأتى عصره بعد عصره ، ويومه بعد يومه ، وخليفة المكان أى أن يكون جالساً ثم يرحل ليأتى آخر ليستقر مكانه ، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده فى شبابه قوياً ، ثم يرحل عنه الشباب ليأخذه آخره ، ويذهب إلى الشيخوخة . وكذلك نجد إنساناً يملك مكاناً ثم يتركه ويأتى واحد آخر يملكه . أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان فى الأرض ؛ لأن كل شىء منفعل لله قهراً ، والحق سبحانه وتعالى منح بسعة عطائه ؛ فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبةً منه سبحانه ، فإذا أوقدت النار - على سبيل المثال - تنفعل لك ، وإذا حرثت فى الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك ، وإذا شربت تترتوى ، وإذا أكلت تشبع . من أين أخذت كل ذلك ؟

إنك قد أخذته من أن الحق الذى سخر لك ما فى الكون ، وجعل أسباباً ومسببات ، فكأنك أنت خليفة إرادات ؛ لكى يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد ، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة ، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أى إنسان ولو كان كافراً ويريد أن يقوم من مكانه ، وتنفعل له جوارحه فيقوم ، فأى جارحة أمرها أن تفعل ذلك ؟ . إنه لا يعرف إلا أنه بمجرد أنه أراد أن يقوم قد قام . وحتى لا تفهم أنك أخذت كل ذلك بشطارتك فهو يجعل بعضاً من الأمور

مشاعراً عالمياً ، مثل الموت والحياة إنهما أمران ، لا يختلف فيهما الإنجليزي عن الفرنسي ، عن العربي ، وكذلك الضحك والبكاء ، وهل هناك فرق بين ضحكة إنجليزية ، أو ضحكة شيوعية أو ضحكة رأسمالية؟ . طبعاً لا ، فكلها ضحك وهو لغة عالمية ، ولذلك قال :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي﴾ (٤٣)

[سورة النجم]

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود في الناس كلها ، فأنت تتكلم وتعمل علي الصورة والكيفية التي تريدها ، لكنك ساعة تضحك فهو سبحانه الذي يضحك . وأنت حين تود مجاملة أحد وتضحك له فتفاجأ بأن ضحكك صناعية .

والحق يوضح لك : إن زمام كوني في يدي ، أجعل القوم مختارين في أشياء ، وأجعلهم مرغمين ومتحدين علي رغم أنوفهم في أشياء ؛ فأنا الذي أضحك وأبكي . ولا يوجد بكاء إنجليزي أو بكاء فرنساوي أو بكاء ألماني ، وكل البشر شركاء في مثل هذه الأمور .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقَ الْأَرْضِ ..﴾ (١٦٥)

[سورة الأنعام]

إن إرادتك علي أعضائك ، وعلى جوارحك-أيها الإنسان- موهوبة لك من الواهب الأعلى والمريد الأعلى ، وسبحانه يسلب ذلك من بعض الأفراد ، فيأمر المخ : إياك أن ترسل إشارة لتلك الجارحة لتتفعل . فيصاب هذا الإنسان بالشلل .

ولو كان الأمر شطارة من الإنسان لقاوم ذلك .

أنتم -إذن- خلقت الأرض ؛ تتفعل لكم الأشياء بقدر ما أراد الله أن تتفعل لكم ، فإذا سلب انفعالها عنكم فلكني يثبت أنكم لم تسخروها بقدراتكم ، بل به هو ، إن شاء أطلق الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة . ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾

كأن من الخلافة أننا لانكون متماثلين متطابقين ، بل أرد سبحانه أن نكون متكاملين في المواهب ، وفي الكماليات ؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب ، لفسدت الحياة ، فلا بد أن تختلف مواهبنا ، لأن مطلوبات الحياة متعددة ، فلو أصبحنا كلنا أطباء فالأمر لا يصلح ، ولو كنا قضاة لفسد الأمر ، وكذلك لو كنا مهندسين أو فلاحين . إذن فلا بد من أن تتحقق إرادة الله في قوله سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ۖ لِيُعْلِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا كِبْرَ عَذَابِ اللَّهِ وَلِيُعْلِمَ الَّذِينَ آمَنُوا كِبْرَ عَمَلِهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

أى أن البعض قد رُفِعَ ، والبعض الآخر رُفِعَ عَلَيْهِ ، فمن هو البعض المرفوع ؟ ومن هو البعض المرفوع عليه ؟ . إن كل واحد فيكم مرفوع في جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون ، ولا ينشأ التكاتف تفضلاً ، وإنما ينشأ لحاجة ، فلا بد أن تكون إدارة المصالح في الكون اضطراراً ، وهذه هي هندسة الكون الأعلى سبحانه التي تتجلى في أنك وضعت خريطة لمن دخلوا معك في مرحلة التعليم الابتدائي . ومن ترك منهم الدراسة ومن استمر ليدخل الدراسة الإعدادية . إنك تجدهم أقل ، ومن درس في المرحلة الثانوية أقل ، ومن تعلم التعليم العالي أقل ، ومن نال الدكتوراه أقل .

وهكذا نجد أن البعض يتساقط من التعليم لأن هناك أكثر من مهمة في الكون لا تحتاج إلا إلى حامل الابتدائية فقط ، أو حامل الإعدادية ، أو إلى حامل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ولو ظل كل واحد منهم في التعليم العالي ، فلن نجد لتلك المهام أحداً . لذلك جعل الله التكاتف في الكون احتياجاً لا تفضلاً .

والخطوا جيداً : أن الإنسان إذا عضه جوع بطنه أو جوع عياله فهو يقبل أى عمل ، وإن رضى بقدر الله فيما وضعه فيه ، ولم يحقد على سواه فسيثقن هذا العمل ، وسيتفوق فيه وسيرزقه الله الرزق الحلال الطيب . ولذلك قال الإمام على : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، فإن أحسن الإنسان عمله ، فهو إنسان ناجح في الوجود .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يجعلنا أشخاصاً مكررين ، ولكن جعلنا متفاضلين متفاوتين ، فرفع بعضاً على بعض ، وكل منا مرفوع فيما يجيد ، ومرفوع

عليه فيما لايجيد ، حتى يحتاج الإنسان منا إلى غيره ليؤدي له العمل الذى لايجيده
وبذلك يرتبط العالم ارتباط مصلحة وحاجة لا ارتباط تفضل .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَلْوَكُمُ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [سورة الأنعام]

كأن هذا الرفع هو اختبار للبشر فيما أعطاهم الله من المواهب . ليعلم علم الإلزام
للعبد ؛ فسبحانه يعلم أولاً كل مايصدر عن العبد ، ولكنه يترك للعبد فرصة أن يؤدي
العمل ليكون ملتزماً بما فعل . وتكون حجة عى العبد . وحينما يقول الحق :

﴿ لِّيَلْوَكُمُ ﴾ فالمقصود ليختبركم اختبار إقرار على نفوسكم ، لا إخبار آله .

﴿ .. لِّيَلْوَكُمُ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام]

وسبحانه «سريع العقاب» ، وإياك أن تستبطن الآخرة ؛ فالثواب والعقاب سيأتى
بعد أن تنتهى ونموت . وليس للموت سبب ؛ فكل إنسان عرضة لأن يموت ، وبذلك
تكون قيامته قد قامت ، وإن قامت قيامة الإنسان فلن يقوم بأى عمل آخر . إذن
فسبحانه سريع العقاب . ولكن البعض من القوم يغيرهم حلم الله ويستبطنون
الآخرة . لذلك يقول أحد العارفين : اجعل شركك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل
طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فكل صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها فى المخلوق هبة من الله له ،
فأنت إذا أردت أن تقف ، مثلاً ، لاتعرف ماهى العضلات التى تحركها لتقف ،
ولكنك بمجرد إرادتك أن تقف تقف ، وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول
له كن فيكون .

ومادنا خلائف فلا بد أن نتكامل ولاننتكر ، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص
من الآخر ، وفى الآخر موهبة تنقص فى غيره ، ليضطر كل مخلوق فى الأرض أن
يتعاون مع آخر ، ليأخذ ثمرة مواهب غيره ، ويعطى هو ثمره مواهبه . ولا يريد الحق منا
أن نعطى ثمرات المواهب تفضلاً ، وإنما يريد أن يجعلها حاجة . فأنت تحتاج إلى موهبة
من لا موهبة لك فيه ، إنك تحتاج إلى الغير ، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عمالك .

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا في ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض ، لذلك يوضح سبحانه : أنا فضلت بعضكم على بعض ، لكني لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضولاً عليها ، ولكن كل مفضل في شيء لأن له فيه مواهب ، ويكون مفضلاً عليه في شيء آخر لا مواهب له فيه ، وهكذا يتساوى الناس جميعاً .

إننا جميعاً عيال الله ، وليس أحد منا أولى بالله من أحد ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ولذلك إن حاولنا إحصاء المواهب في البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدنا أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان آخر ، ولكن أنت تأخذ في موهبة ما تفوقاً ، وفي الموهبة الأخرى لا تجد نفسك قادراً عليها ، وفي موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها ، واجمع الدرجات كلها في جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوي الآخر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضُكَ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوكَ فِي

مَاءِ أَنْتُمْ إِنْ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إذن فكل واحد منا يقدر أن يقول : أنا مرفوع ، ولكن عليه ألا يغتر ؛ لأنه مرفوع عليه أيضاً . والتوازن يأتي من هذه الناحية ، فلا غرور برفعتك في درجة ، ولا مذلة بانخفاضك في درجة ؛ لأن هذا مراد الله وذلك مراد له - سبحانه - والذي يحترم قدر الله في توزيع مواهبه على الخلق يعطيه الله خير موهبته ، فلا يتميز ذو موهبة أخرى عليه أبداً .

ولكن أينجح الناس جميعاً في هذا ؟ . لا ، فهناك أناس يتساقطون ، وهناك من يرى واحداً أغنى منه وهو فقير ، فيبدأ في الغل والحقد والحسد ، ونقول له : انظر إلى قوتك فقد تكون أقوى منه ، وقد تكون أسعد منه في أمور كثيرة . خذ الموهبة التي أعطها الله لك ، والموهبة التي أعطها لغيرك وستجد مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان ، فالذي ينجح في هذه المعادلات التفاضلية يكون له من الله ثواب . فيتجاوز له سبحانه عن بعض سيئاته ، ويغفر له . والذي لا يحترم قدر الله في خلق الله يعاقبه الله ؛ لذلك أوضح سبحانه : أنا أبلوكم وأختبركم ، فمن ينجح

فله غفران ورحمة ، ومن لا ينجح فله عقاب ، ولا تظنوا أن عقابي بعيد ؛ لأن ما بين الإنسان والعقاب أن يموت ، وليس هناك سبب معروف للموت ؛ فمن الممكن أن يموت الإنسان لوقته ، فيبدأ عقابه .

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٦٥)

[سورة الأنعام]

وبذلك ختمت سورة الأنعام ، التي استهلها الله بقوله سبحانه : ﴿ الحمد لله ﴾ .

وختمها بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فالحمد لله في الأولى .

والحمد لله في الآخرة .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ (٧)
مَكِّيَّةٌ



قبل أن نبدأ خواتمنا في سورة الأعراف لا بد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة في كتاب الله ، الله يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مَرِيْعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

ونقرأ الكلمة الأخيرة في سورة الأنعام «رحيم» ، ونجدها مبنية على الوصل ؛ لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل آيات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك تجد ﴿ غفور رحيم ﴾ وعليها الضمة وبجوارها ميم صغيرة ؛ لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن تقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وتصبح القراءة :
« غفور رحيم » « بسم الله » .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكأن القرآن ليس أبعاضاً . وكان من الممكن أن يجعلها سكوناً ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن كان في بعض الآيات إقلاب ، وفي بعضها إدغام ، وهذا بغنة ، وهذا بغير غنة ، ويقول الحق :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْمَصَّ ﴾

وفي هذه الآية فصل بين كل حرف ، فنقرأها : « ألف » ثم نسكت لنقرأ « لام » ثم نسكت لنقرأ « ميم » ثم نسكت لنقرأ « صاد » . وهنا حروف خرقت القاعدة لحكمة ؛ لأن هذه حروف مقطعة ، مثل « الم ، حم ، طه ، يس ، ص ، ق ، وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن أَلِفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، ومِيمٌ حرف » (١) .

والرسول ﷺ أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها ، فهمها من فهمها ، وتعبد بها من تعبد بها ، وكل قارئٍ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وينطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فواتح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق :

﴿ اَلَمْۤ اَرَآ ﴾

(سورة البقرة)

ونقرأ هنا في أول سورة الأعراف :

﴿ اَلْمَصَّ ﴾

(سورة الأعراف)

وهي حروف مقطعة . نظقت بالإسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول : كتب ، لا تقول « كاف » « تاء » « باء » ، بل تنطق مسمى الكاف كَ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسمها فهو « كَ » . إذن فكل حرف له مسمى ، أى الصوت الذى يقوله الإنسان ، وله اسم ، والامى ينطق المسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذى يفهم أنه حين يقول : « كتب » أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، أما الامى فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : أَلِفٌ لام ميم ، وهو امى لم يتعلم . فمن قال له انطق مسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

لا بد أنه قد عَلَّمَهَا وتلقاها ، والحق هو القائل :

[سورة القيامة]

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾

فالذى سوف تسمعه يا محمد ستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد «ألم» فى أول البقرة ، وفى أول سورة آل عمران ، ولكنك تقرأ الآية الأولى من سورة الفيل :

[سورة الفيل]

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾

ما الفرق بين الألف واللام والميم فى أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران وغيرهما ، والحروف نفسها فى أول سورة الفيل وغيرها كسورة الشرح ؟ أنت تقرأها فى أول سورة البقرة وآل عمران أسماء . وتقرأها فى أول سورة الفيل مسميات . والذى جعلك تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ فى أول البقرة وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ فى أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ، وليس لأحد أن يجترىء ليقرا القرآن دون سماع من معلم . لا ، لا بد أن يسمعه أولاً حتى يعرف كيف يقرأ .

ونقرأ «الْمَص» فى أول سورة الأعراف ، وهى حروف مقطعة ، ونعرف أن الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور ، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل :

[سورة ق]

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾

وكذلك قوله الحق :

[سورة ص]

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾

وكذلك قوله الحق :

[سورة القلم]

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾

ومرة يأتي من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق :

[سورة الأحقاف]

﴿ حَمَّ ﴿١﴾ ﴾

ومرة تأتي ثلاثة حروف مقطعة مثل :

[سورة البقرة]

﴿ أَلَمَ ﴿١﴾ ﴾

ومرة يأتي الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

[سورة الأعراف]

﴿ أَلَمَصَّ ﴿١﴾ ﴾

ومرة يأتي بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

[سورة مريم]

﴿ كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ﴾

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدتها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فبعضها منشور ، أو مهموس ، أو مخفى ، أو مستعل ، ومن كل نوع تجد النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعل ، أو مفخم ، أو مرقق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذى قاله يعلم ما ينتهى إليه خلقه فى هذه الحروف المقطعة وله فى ذلك حكمة ، وكان رسول الله ﷺ أمياً ، ولم يجلس إلى معلم ، فكيف نطق بأسماء الحروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم؟! فهو إذن قد تلقنها، وإننا نعلم أن القرآن جاء متحدثاً العرب؛ ليكون معجزة لسيد الخلق، ولا يُتحدَّى إلا من كان بارعاً فى هذه الصنعة. وكان العرب مشهورين بالبلاغة، والخطابة

والشعر، والسجع وبالأمثال؛ فهم أمة كلام، وفصاحة، وبلاغة، فجاء لهم القرآن من جنس نبوغهم، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسل قرآناً لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، فالمادة الخام - وهي اللغة - واحدة، ومن حروف اللغة نفسها التي برع العرب فيها. وبالكلمات نفسها التي يستعملونها، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله؛ لأنه جاء من رب قادر، وكلام العرب وبلاغتهم هي من صنعة الإنسان المخلوق العاجز.

وهكذا نعلم سر الحروف المقطعة التي جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملأ الأعلى لأنه أمى لم يتعلم شيئاً، لكنه عرف أسماء الحروف، ومعرفة أسماء الحروف لا يعرفها - كما قلت - إلا المتعلم، وقد علمه الذي علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم، ويمكن للعقل البشري أن يحوم حول هذه الآيات، وفي هذه الحروف معان كثيرة، ونجد أن الكثير من المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا في مجال جلال وجمال القرآن الكثير، فتجد متصوفاً يقول إن «المص» جاءت هنا لحكمة، فأنت تنطق أول كلمة ألف وهي الهمزة من الحلق، واللام تنطقها من اللسان، والميم تنطقها من الشفة، وبذلك تستوعب مخارج الحروف من الحلق واللسان والشفة .

قال المتصوف ذلك ليدلك على أن هذه السورة تتكلم في أمور الحياة بدءاً للخلق من آدم. إشارة إلى أولية خلق الإنسان، ووسطاً وهو المعاش، ونهاية وهو الموت والحساب ثم الحياة في الدار الآخرة، وجاءت «الصاد» لأن في هذه السورة قصص أغلب الأنبياء .

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها، أنردها عليه؟ لانردها بطبيعة الحال، ولكن نقول له: أذلك هو كل علم الله فيها؟ لا؛ لأن علينا أن نتعرف على المعاني التي فيها وأن نأخذها على قدر بشريتنا، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها فلن نستوعب كل آفاق مرادات الله؛ لأن أفهامنا قاصرة .

ونحن البشرنضع كلمات لاعمنى لها لكى تدل على أشياء تخدم الحياة، فمثلا نجد فى الجيوش من يضع «كلمة سر» لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف

الكلمة . من يعرف «كلمة السر» يمكنه أن يدخل . وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها ، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها .

[سورة الأعراف]

﴿الْمَصْرَ ١﴾

ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب ، فيقول سبحانه :

﴿كُتِبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ

لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾

وساعة تسمع «أنزل» فافهم أنه جاء من جهة العلو أى أن التشريع من أعلى . وقال بعض العلماء : وهل يوجد في صدر رسول الله حرج ؟ . لنتبّه أنه ساعة يأتي أمر من ربنا ويوضح فيه ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ، فالنهي ليس لرسول الله (ﷺ) وإنما النهي للحرج أو الضيق أن يدخل لرسول الله ، وكأنه سبحانه يقول : يا حرج لا تنزل قلب محمد .

لكن بعض العلماء قال : لقد جاء الحق بقوله سبحانه : ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ؛ لأن الحق يعلم أن محمداً قد يضيّق صدره ببشريته ، ويحزن ؛ لأنهم يقولون عليه ساحر ، وكذاب ، ومجنون . وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب ؛ لأنك لم تكذب ولم تسحر ، وتريد هداية القوم ، وقوله سبحانه : ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ قد جاء لأمر من اثنين : إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله ، وإما أن يكون الأمر للرسول طمأنة له وتسكيناً ، أى لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله ، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خلقه وصرافاً مستقيماً لهم ، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء ؟ لا ، لا يمكن ، فاطمئن تماماً .

﴿.. فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ [سورة الأعراف]

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ؛ لأن الإنذار يكون إخباراً بشرٍ ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل في سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسائل تقتضى مُرْسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرْسَلاً وهو الرسول ، ومُرْسَلاً إليه وهم الأمة ، والمرسل إليه إما أن يستمع ويهتدى وإما لا ، وجاءت الآية لتقول : ﴿ كتاب أنزل ﴾ من الله وهو المرسل ، و«إليك» لأنك رسول والمرسل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٣

ومادام العباد سينقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذى جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أى طلب الهداية فيقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وحينما يأتى الحق سبحانه فى مثل هذه الآيات ويقول : « وذكرى » . أو « وذكركم » إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المطبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشىء إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذى أخذ علينا أيام كنا فى عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسِبْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف]

هذا هو الإقرار في عالم الذر ، إذن فحين يقول الحق : ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فنحن نلتفت إلى ما نسى الآباء أن يبلغوه للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب أن يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التي تلقوها ؛ لأن آدم وحواء أول ما نزلوا إلى الأرض قال لهما الحق :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ .. ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة طه]

وهكذا نعلم أن هناك «هدى» قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم أن يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب أن يظل هذا «الهدى» منقولاً في سلسلة الحياة كما وصلت كل أفضية الحياة . ويأتي سبحانه لنا بحيثيات الاتباع .

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿٣﴾﴾ [سورة الأعراف]

فالمنهج الذي يأتي من الرب الأعلى هو الذي يصلح الحياة ، ولا غضاضة على أحد منكم في أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربي القادر . الذي ربى ، وخلق من عدم ، وأمد من عدم ، وهو المتولى للتربية ، ولا يمكن أن يربى أجسادنا بالطعام والشراب والهواء ولا يربى قيمنا بالأخلاق . ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ .

ومادام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتي لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر . فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيفرضها البشر . بالسيف . وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التي تلائمه . وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذاك أن نأخذ مما لا نستنكف أن نكون عبيداً له .

﴿ .. وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣)

[سورة الأعراف]

وتذكر أيها المؤمن أن عزتك في اتباع منهج الله تتجلى في انك لا تخضع لمساو لك ، وهذه ميزة الدين الذي يجعل الإنسان يحيا في الكون وكرامته محفوظة ، وإن جاءت مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذي ليس له رب فساعة أن تأتي له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد ينتحر .

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت الغفلة على البشر أرسل الله رسولا ينبههم . ويوظف القيم والمناعة الدينية التي توجد في الذات ، بحيث إذا مالت الذات إلى شيء انحرفى تنبه الذات نفسها وتقول : لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هي النفس اللوامة . فإذا ما سكنت النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أماراة بالسوء طوال الوقت ؛ فالمجتمع الذي حوله يعدله .

وهذه فائدة التواصي بالحق والصبر ، فكل واحد يوصى في ظرف ، ويوصى في ظرف آخر ؛ فحين تضعف نفسه أمام شهوة يأتي شخص آخر لم يضعف في هذه الشهوة وينصح الإنسان ، ويتبادل الإنسان النصح مع غيره ، هذا هو معنى التواصي ؛ فالوصية لا تأتي من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان موصياً فيما هو فيه قوى ، ويوصى فيما هو فيه ضعيف ، فإذا فسد المجتمع ، تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديدة ، لكن الله أمن أمة محمد على هذا الأمر فلم يجيء رسول بعده لأننا خير أمة أخرجت للناس . والخيرية تتجلى في أننا نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، فالتواصي باق إلى أن تقوم الساعة .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (١١٠)

[سورة آل عمران]

وهذه خاصية لن تنتهي أبداً ، فإن رأيت منكراً فلا بد من خلية خير تنكره وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً خاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتي رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا
أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وساعة تسمع «كم» فاعرف أن المسألة خرجت عن العد بحيث تستوجب أن تستفهم عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً فلا يستفهم عنه ، بل يعرف . والقرية اسم للمكان المعد إعداداً خاصاً لمعيشة الناس فيه . وهل القرى هي التي تهلك أم يهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها تأتي مرة ويراد منها المكان والمكين : أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك قوله الحق في سورة يوسف :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ .. (٨٦) ﴾ [سورة يوسف]

وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المبانى ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل الحق : أسأل أهل القرية ؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية بسكانها ومبانيها .

﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾

وأيهما يأتي أولاً : الإهلاك أم يأتي البأس أولاً فيهلك ؟ . الذي يأتي أولاً هو البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات فى الأحداث لا يأتي أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أولاً ، وكأن الحق يقول هنا : وكم من قرية حكمنا أن نهلكها فجاءها بأسنا ليتحقق ما قلناه أولاً ، أى أن تأتي الأحداث على وفق المرادات ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للذى يتكلم عنه الحق .

ونعلم أن القرية هي المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم أولاً أنه سيفعل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتى به فى قرآن يتلى ؛ ليأتى السلوك موافقاً ما أخبر به الله .

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والبأس هو القوة التى لا ترد ولا تقهر ، و « بيئاتاً » أى بالليل ، « أو هم قائلون » أى فى القيلولة . ولماذا يأتى البأس فى البيات أو فى القيلولة ؟ . ونجد فى خبر عَمَّنْ أَهْلَكُوا مثل قوم لوط أنه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقوم شعيب حدث لهم الهلاك فى القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة وتفاجئهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستعدوا .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى يأتهم الدمار فى وقت هم نائمون فيه ، ولأقوة لهم لمواجهة البأس .

﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

وإذا قال سبحانه: ﴿ بيئاتاً أو هم قائلون ﴾ فيصح أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون الوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هى الوقت الذى ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة . ولكن كيف استقبلوا ساعة مجيء البأس الذى سيهلكهم ؟ .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا

إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

بهذا القول اتضحت المسألة ، ومن قوله ﴿ دعواهم ﴾ نفهم أن المسألة ادعاء .
ونحن نقول : فلان ادعى دعوى على فلان ، فيما أن يقيم بينة ليثبت دعواه ، وأما
الآ يقيم .

والدعوى تطلق أيضاً على الدعاء :

﴿ وَانْحِرْ دَعْوَهُمْ أَنْ أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠ سورة بونس)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَاءِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

ويشرح ربنا هذا الأمر في آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقترافهم الظلم
وقيامهم عليه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا

لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

(سورة الملك)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ

الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

والحق يسأل الرسل بعد أن يجمعهم عن مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال
إنما يأتي للإقرار ، ومسألة السؤال وردت في القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها
متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منفكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن

القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْسَاءُ لُونٌ ﴾ (١١)

(سورة المؤمنون)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا يُسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ (١٠)

(سورة المارج)

ويقول جل وعلا :

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٦)

(سورة الرحمن)

ثم يقول هنا :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٦)

(سورة الأعراف)

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن بالقرآن - والعياذ بالله - متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بغير ملكة البيان في اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد استقبله قوم لسانهم عربى ، وهم باقون على كفرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وجدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أليكون القرآن معجزاً وهو متعارض ؟ ! لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريد قائل القرآن . وفي أعرافنا نورد السؤال مرتين ؛ فمرة يسأل التلميذ أستاذه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليقرر .

إذن فالسؤال يأتي لشيئين اثنين : إما أن تسأل لتتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصحح الحجّة الأزّم للمسئول ، فإذا كان الله سيسأله ، أى يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ فى الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا

لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

(سورة الملك)

وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيدا الأدلة ؛ لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار واعتراف .

إذن إذا ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فإما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقول أبعاضه ؛ لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَقَالُوا جُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿١٠﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

والحق هنا يقول : ﴿ فلنستثن الذين أرسل إليهم ولنستثن المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة المائدة)

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد أدوا رسالتهم فيكون ذلك تقریباً للمرسل إليهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿٧﴾ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أى أنه مع الجميع ، وما دام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول : خذ ذلك فى إطار قوله : ﴿ ليس كمثلته شىء ﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين تحدثنا عن مجيء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثلته شىء ، وما كان غائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿٨﴾ وَالْوِزْنَ يُومِذِ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

﴿٨﴾ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يخافون النار ، ولم يؤدوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهنا قول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

هذه الموازين هي عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هي عدل في ذاتها . وهنا يقول الحق : ﴿ وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقِّ ﴾ . نعم ، الميزان في هذا اليوم حق ودقيق ، ولنذكر أنه قال من قبل :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ

لَا يَظْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والميزان الحق هو الذي قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شيء فيه موزون ، وسبحانه هو الذي يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التي يؤدي بها كل كائن المطلوب منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ولم نر السماء قدفت وألقت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون له نظام دقيق . والوزن في يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففي هذا اليوم تبطل موازين الأرض التي كانت تعاني إما خللاً في الآلة التي يوزن بها ، وإما خللاً في الوزن ، وإما أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجرى فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقِّ ﴾ .

فكان الميزان في الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المملك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثاني يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان في هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتي اليوم الآخر فلا ملك لأحد :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ . سورة غافر)

فالأمر حيثئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك في الدنيا قد استخلف فيه الحق

عباده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا آدْرَبْتَ مَاهِيَةَ ﴿١٠﴾ نَارًا حَامِيَةً ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الفارعة)

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلاحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الذين تخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه - سبحانه يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شىء فيه ، فحينما يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينما يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف

يجلسون ؛ لا هم في الجنة ولا هم في النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العقلية في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان . وقال بعض العلماء عن الميزان : إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التي أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موازين ، فهل لكل واحد ميزان أول لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام . الخ ، وهل سيحاسبنا ربنا تبعاً . أو أن هناك موازين متعددة ، بدليل أن سيدنا الإمام علياً عندما سأله : أيحاسب الله خلقه جميعاً في وقت واحد ؟ فقال : وأي عجب في هذا ؟ أليس هو رازقهم في وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جداً . وهينة فسبحانه لا يتأبى عليه شيء .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأعراف)

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتع بها نفسه ، ويأتى اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسرت كل شيء ، وكما يقول المثل العام : خسرت الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتي الإجابة من الحق : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المُمْكِن هو الذى يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال : مَكْتَنك من كذا . أى أعطيتك المكان ولا ينازعك أحد فيه . وقد مكنتنا سبحانه فى الأرض وجعل لنا فيها وسائل استبقاء الحياة ، وترف الحياة ، وزينة الحياة ، ورياش الحياة ، ولم تبخل الأرض حين حرثناها ، بل أخرجت لنا الزرع ، ولم تُغب الشمس عنا بضوئها وإشعاعها وحرارتها . ما فى الدنيا يؤدى مهمته ، ولم نُمكن فى الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله . وكان يجب ألا يغيب ذلك عن أنظارنا أبداً . فلا أحد منا مسيطر على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض ، ولكن الذى خلقها وجعلها مسخرة ، هو ربك وربها ؛ فأنت مُمكن ، وكل شىء مستجيب لك . بتسخير الله له .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكَ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « معاش » جمع معيشة ، والمعيشة هى الحياة ، فالعيش هو مقومات الحياة ، ولذلك سماوا الخبز فى القرى عيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مقوم أساسى فى الحياة .

وقول الحق : ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ دل على أن هناك من يشكر ، ومن الناس من يشكر نعم الله شكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصاً عند كل نعمة ، ومنهم من يشكر شكراً خاصاً لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة ، فعندما يبدأ فى الأكل يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويقول بعد الأكل : « الحمد لله » ؛ وهناك من يقول عند تناول لقمة واحدة : « بسم الله » وعندما يمضغها ويبلعها يقول : « الحمد لله » لأنها لم تقف فى حلقه ، وأيضاً حين نشرب علينا أن نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : « بسم الله » . وننتهى منها فنقول : « الحمد لله » وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة . ومن يفعل ذلك فلا تتأق منه معصية ، مادامت آثار شربة الماء هذه فى جسمه ؛ لأنها كلها « بسم الله » . فتحرسه من الخطيئة ؛ لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدت فيها نعماً كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تضيقون عليكم أبواب النعم من الله ؛ لأنكم

لوشكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ومن الحمق
ألا نشكر.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَتَكُنَّ مِنَ
السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت في سورة البقرة : خلق آدم ، والشيطان ، والقضية
تتوزع على سبع سور ، في سبعة مواضع موجودة في سورة البقرة ، وسورة
الأعراف ، وسورة الحج ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طه ، وسورة ص ،
إلا أن القصة في كل موضع لها لقطات متعددة ، فهنا لقطه ، وهناك لقطه ثانية ،
وتلك لقطه ثالثة ، وهكذا ؛ لأن هذه نعمة لا بد أن يكررها الله ؛ لتستقر في أذهان
عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تُنسى ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من
مرة . وإذا أراد الله استحضار النعم والتنبيه عليها في أشياء ، فهو يكررها كما كررها
في استحضار النعم في سورة واحدة في قوله سبحانه : ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ﴾ .

إنه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول :

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ
آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ
﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ ﴿٢١﴾
يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾

سُورَةُ الْاِنْعَامِ

٤٠٥٥

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴿سورة الرحمن﴾

وكل نعمة يقول بعدها: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الأذان لتستقر في القلوب حتى
في الأذان الصماء؛ فمرة يأتي بها في شيء ظاهره أنه ليس نعمة، مثل قوله:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿سورة الرحمن﴾

وجاء الحق بذكر كل ذلك؛ لأنه ساعة يجلى لنا الأمور على حقائقها ونحن في دار
التكليف فهذه رحمة ونعمة منه علينا؛ لأن ذلك يدعونا إلى اتقاء المحظورات والبعد
والتنحي عن المخالفات .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد، فحين يدخل الابن إلى المدرسة نقول له: إن
قصرت في كذا فسوف ترسب، وأنت بهذا القول ترحمه بالنصيحة، فلم تتركه دون
أن تبصره بعواقب الأمور، وأيضاً ساعة ترى شرأ يحيق بالكافرين، فإن هذا الأمر
يسرك، لأنه لو تساوى الكافرون مع المؤمنين لما كان للإيمان فضل أو ميزة، فالعذاب
نقمة على الكافر، ونعمة على المقابل وهو المؤمن .

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل جوانبها في القرآن سبع مرات؛ لأنها قصة بدء
الخلق، وهي التي تجيب عن السؤال الذي يبحث عن إجابته الإنسان؛ لأنه تلفت
ليجد نفسه في كون معد له على أحسن ما يكون. ولم يجيء الكون من بعد
الإنسان، بل طرأ الإنسان على الكون، وظل السؤال وارداً عن كيفية الخلق،

والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان في الكون ، فأنت تستقرىء أجناساً في الكون ، وكل جنس له مهمة . ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب في خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكي يغذى الحيوان ، والحيوان ينفعلك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب في خدمتك . أما أنت أيها الإنسان فما عملك في هذا الكون ؟ ؛ لذلك كان لا بد أن يتعرف الإنسان على مهمته . وأراد الحق سبحانه أن يُعرّف الإنسان مهمته ؛ لأنه جل وعلا هو الصانع ، وحين يبحث الإنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله في كل ما صنع . وكان لا بد أيضاً أن يستقبل الإنسان خبراً من الخالق . إنه - سبحانه - يُنزل لنا المنهج من السماء ويصاحب هذا المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول يخبر ، ثم نستدل بالمعجزة على صدق خبره . فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بآية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة في سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله . وكان لا بد أن نبحت لنثبت من صدق البلاغ عن الله بالتعقل في دعواه ؛ فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هي من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تتفجر عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لاننا نعلم أن العبقريات تأتي في آخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، وولتفت فنجده يتكلم كل الكلام البلاغي المعجز . وليس من المعقول أن يأتي بأخبار الكون وهو الأُمى الذي مات أبوه وهو في بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو في السادسة ، وكذلك مات جده . ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذي أدراه - إذن - أنه سيمهل ويمد في أجله إلى أن يصل إلى الأربعين لنبليغنا بمعجزته ؟

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، فيقول :

﴿ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا

أَوْبِدَلَّهُ قُلٌّ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ
إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(سورة يونس)

وهكذا تتجلى الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يوحى إليه ، ويتأكد ذلك مرة ثانية في قوله الحق :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَسُكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ
قَبْلِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبين لهم : هل علمتم عنى خلال عمري أنى قلت شعراً أو حكمة أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت عليه من السماء .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُنْتُ لِلْمَلَائِكَةِ آتِدُوا لِأَذَمِّ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
لَرَبِّكَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشرى أن يبحث فيها ، ليعلم مهمته في الوجود . وحين يبحث فيها ليعلم مهمته في الوجود يجب عليه أن يترك كل تخمين وظن ؛ لأن هذه المسألة لا يمكن أن تأتي فيها بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لأى شيء ومهمة خلقنا ! فكيفية الخلق كانت أمراً غيبياً وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك . وقد حكم الله في قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسماوات والأرض وما بينهما أم للإنسان ، وقد حكم سبحانه في هاتين القضيتين ، ولا مصدر لعلم الأمر فيهما إلا من الله سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل بحث بشرى في هذا المجال بأنهم ضالون مضللون ، ولذلك قال ليحكم هذه

القضية وبحسبها ، ويريح العقول من أن تبحث فيها ؛ قال :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَذَلُونَ ﴾

الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

(سورة الكهف)

فكان الذى يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإنسان هو مضل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن هذا القائل عضداً لله ولا سنداً ولا شريكاً له .

وقص سبحانه علينا قصة خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائياً ويرجع إلى الوراثة فلا بد أن يجد أن الأمر منطقي ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرثى ، وليس التكاثر فى البشر فقط ، بل فيمن يخدمون البشر من الأجناس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالى وهو خمسة آلاف مليون ، وكلما عدنا ورجعنا إلى الزمن الماضى يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتى من اثنين ، وحل الله لنا اللغز فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صحيح يثبت الإحصاء وبيقته ؛ لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلاً .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

وأبلغنا سبحانه بقصة خلق حواء ، وكيفية خلق حواء فهل أخذ جزءاً من آدم وخلق منه حواء؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها؟ وذلك يصح أيضاً ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حواء ، وأعطانا النموذج في واحد ، وقال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ .

و ﴿ منها ﴾ في هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبعية ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها « محمد » ، بل جعل محمداً صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم هنا يقول للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

وهذا هو أول بلاغ ، ثم أتبع ذلك :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢٦)

(سورة الحجر)

إذن فقبل النفخ في الروح ستوجد تسوية ، فلمن تحدث التسوية ، ومن هو « المسوى منه » ؟ . إن التسوية لآدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه من تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : « من ماء » نقول : نعم ، وإن قال « من طين » فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ ، فهذا جائز ؛ لأن الحمأ طينٌ اختمر فتغيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن فهي مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ .

وهكذا تكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ .

ويقول العلماء : إن المراد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذي نعرفه ، وأن آدم كان كالقابلة مثل الكعبة التي نتجه إليها عند الصلاة . ولكن لنا هنا ملاحظة ، ونقول : إننا لا نسجد إلا لله ، ومادام ربنا قد قال : اسجدوا فالسجود هنا هو امتثال لأمر خالق آدم . والنية إذن لم تكن عبادة لآدم ، ولكنها طاعة لأمر الله الأول . والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ؛ لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مندبرات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من هو بين يدي الله ، فلم يكن السجود للملائكة خضوعاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكن الملائكة المقربون لا يدرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لإبليس :

﴿ .. أَسْتَكْبِرُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾

[سورة ص]

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته والذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مَعْقِلَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [سورة الرعد]

وهناك الرقيب ، والعنيد والقعيد . وفي كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك ملك مخصوص بها ، ونبيلنا الحق بمسألة الخلق ، والخطاب لنا ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهذا ترتيب اخباري ، وليس ترتيباً للأحداث . أو أن الحق سبحانه وتعالى طمير الخلق جميعاً في خلق آدم ، والعلم الحديث يعطينا أيضاً مؤشرات على ذلك ، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة ، وكذلك الحيوان المنوى توجد فيه كل صفات الإنسان . ولذلك نجدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياة كل منا تتسلسل عن آخر ، فأنت من ميكروب أبك ، وقد نزل من والدك وهو حي ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حي ، وعلى ذلك فكل كائن الآن فيه

سورة الأعراف

٤٠٦١

كائن الآن فيه جزىء حى من لدن آدم، لم يطرأ عليه موت فى أى حلقة من الحلقات .

إذن فكلنا كنا مظمورين فى جزئيات آدم، وقال ربنا سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ .. (١٧٢) ﴾

[سورة الأعراف]

ونقول : صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرجنا من ظهر آدم، وهكذا كان الخلق أولاً والتصوير أولاً، وكل ذلك فى ترتيب طبيعى، وهو سبحانه له أمور يبيدها ولا يبتديها، أى أنه سبحانه يظهرها فقط، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكأنه يخاطبنا جميعاً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) ﴾

[سورة الأعراف]

وعرفنا من هم الملائكة من قبل، وماهى علة السجود . ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ .

والحق سبحانه يستثنيه بأنه لم يكن من الساجدين . وهذا دليل على أنه دخل فى الأمر بالسجود، ولكن هل إبليس من الملائكة؟ لا؛ لأنك إذا جئت فى القرآن ووجدت نصاً يدل بالالتزام، ونصاً يدل بالمطابقة والقطع فاحمل نص الالتزام على النص المحكم الذى يقطع بالحكم . وقد قال الحق فى ذلك :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾

[سورة الكهف]

وفى هذا إخراج لإبليس من جنس الملائكية، وتقرير أنه من الجن، والجن كالإنس مخلوق على الاختيار، يمكنه أن يعصى يمكنه أن يطع أو أن يعصى، إذن فقوله الحق : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ .

يعنى أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريد الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص . . أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار . ولذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة ، أى الذى يزهو فى محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفذها ، فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأن يطيع ، وصالحاً - أيضاً - لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة . فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف ذلك . وهب أنه دون الملائكة ومادام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ

خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ أَءَأْحَدٌ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

وهكذا كان الموقف استكباراً واستعلاءً . وقوله الحق :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله ﴿ ما منعك ﴾ أى ما حجزك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ . وهذا يعنى أن الأسلوب الأول جاء بـ « لا » النافية ، والأسلوب الثانى جاء على عدم وجود « لا » النافية . وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعنى : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ هى التى تحتاج لوقفه . لذلك قال العلماء : إن « لا » هنا زائدة ، وَمَنْ أَحْسَنَ الْأَدَبِ مِنْهُمْ قَالَ : إن « لا » صلة . لكن كلا القولين لا ينفع ولا يناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفطن إلى مادة « منع » ولأى أمر تأتى ، وأنت تقول : « منعت فلاناً أن يفعل » ، كأنه كان يهيم أن يفعل فمنعته .

إذن ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كأنه كان عنده تهيؤ للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتى « منع » للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين ممنوع ، وممتنع ؛ فممنوع هى فى ﴿ منعك أن تسجد ﴾ ، وممتنع تعنى أنه امتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلى وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب فى وجود التكرار فى القرآن . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أُمِرْتَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة ، وعلى أى وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال فى الرد على ربه :

﴿ .. أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٢)

[سورة الاعراف]

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله وهو يعلم ألا أن إبليس قد امتنع باقتناع لا يقهر ، ولذلك قال إبليس : أنا خير منه ، فكان المسألة دارت في ذهنه ليوجد حثية لعدم السجود . ولا يصح في عرفة الإبليسى أن يسجد الأعلى للأدنى ، فما دام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لماذا ؟ لأنه قال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فكان النار لها علو ، وهو في ذلك مخطيء تماماً لأن الأجناس حين تختلف ؛ فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تقدر أن تؤدي مهمة الطين ، فلا يمكن أن نزرع في النار .

إذن فالخيرية تتأني في الأمرين معاً ما دام كل منهما يؤدي مهمته ، ولذلك لا تقل : إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شيء في الوجود حين يوضع في منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا تقل عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطاف : إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضى أن يكون أعوج ، وعوجه هو الذي جعله يؤدي مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأني في مساوى المهمة ، ولكن إبليس قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ .. ﴾ (١٢)

[الاعراف]

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله في أمره ، وكأنه يخطيء الحق في أمره ، ويرد الأمر على الأمر . فما كان جزاء الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٣)

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٠٦٥

والهبوط يستدعى الانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التي وصفها الله بأنها عالية هي في السماء ، ونقول : لا ، فالهبوط لا يستدعى أن يكون هبوطاً مكانياً ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لنوح ﷺ :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ .. (٤٨) ﴾

[سورة هود]

أى اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تنفيذ النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أو من مكانة . ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ .

وهذا تنزيل من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون في محضر الملائكة ؛ فقد كان في محضر الملائكة ؛ لأنه الزم نفسه بالطاعة ، وهو مخلوق على أن يكون مختاراً أن يطيع أو أن يعصى ، فلما تخلت عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون في هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ .. (١٣) ﴾ [سورة الأعراف]

أى ما ينبغى لك أن تتكبر فيها .

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هو لون من الكبرياء على الأمر ، والملائكة جماعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فمادمت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فلست أهلاً لها ، فكأن العمل هو الذى أهله أن يكون فى العلو ، فلما زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون فى الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفى هذا هبوط لقيمة كلامه فى أنه من نار و آدم من طين ؛ لأن المقياس الذى توزن به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق

أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنس ، مثل السرعة ، واختراق الحواجز ، والتغلب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجدار أو من الجسم ، وكما قال الرسول ﷺ :

« إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم »^(١) .

وهو ذلك مثل الميكروب ، لأن هذه طبيعة النار ، وهي المادة التي خُلِقَ منها . وهي تتعدى الحواجز . والجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن ينفذ من أي شيء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن : لا تعتقد أن عنصرتك هي التي أعطتك هذا التميز ، وإنما هي إرادة المَعْنَصِر ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه - سبحانه - يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان مخدوماً لك أيها الجنى ، إنه يسخرك ويجعلك تخدمه . وأنه في مجلس سليمان ، جعل الذي عنده علم من الكتاب ، يأتي بقوة أعلى من قوة « عفريت » من الجن . فالحق هو القائل :

﴿ قَالَ عَفْرَيْتٌ مِّنَ الْجِنِّ . . (٣٩) ﴾

[سورة النمل]

وهذا يدل على أن هناك أذكفاء وأغبياء في عالم الجن أيضاً . وجاء الذي عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفريت الجن في الزمن ، فقد قال هذا العفريت :

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ . . (٣٩) ﴾

[سورة النمل]

والمقام هو الفترة الزمنية التي قد يقعد بها سليمان في مجلسه ، فماذا قال الذي عنده علم من الكتاب - وهو إنسان - ؟

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . (٤٠) ﴾

[سورة النمل]

(١) رواه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى السلام ، وأبو داود فى السنة ، وابن ماجه فى الصوم ، ورواه أحمد ٣/ ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٣٧ .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٠٦٧

كانه سياتى بعرش بلقيس قبل أن ينته سليمان من ردّ طرفه الذى أرسله ليصربه شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك نجد عبارة القرآن معبرة :

﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

كان المسألة لا تتحمل . بل تم تنفيذها فوراً . إذن فالحق يوضح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بعناصركم ، إننى أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعل الأدنى يتحكم فى الأعلى ؛ لأنها إرادة من عَنَصَرَ العناصر .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاَنْجِرْ إِنَّكَ مِنْ

الضَّالِّينَ ﴿١٣﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة ﴿ فاهبط ﴾ تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى أنك لست أهلاً لهذه المنزلة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاهبط ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والضَّغَار هو الذل والهوان ؛ لأنه قَابِل الأمر باستكبار ، فلا بد أن يجازى بالضَّغَار . وبذلك يكون قد عومل بضد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتهديب والتعليم ؛ مثلما يقرر الشرع أن الذى يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليعجل الإرث منه ، ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ؛ فبارتكابه القتل صار محجوباً عن الميراث .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾

ومعنى ﴿ أنظرنى ﴾ أمهلنى أى لا تمتنى بسرعة ، ولا تجعل أجلى قريباً ،
بدليل قوله سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ ١٥

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكي يشفى غليله من بنى آدم وأدم ؛ لأنه جاء له بالصغار والذلة والطرْد والهبوط ، ولذلك أصبر على أن يجتهد في أن يغري أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكان إبليس في هذا الطلب أراد أن يتخذ من الموت وأن يبقى حياً إلى يوم البعث الذي يبعث فيه كل من مات . وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فأوضح الحق : أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصى من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد بإبهام زمان الموت أن يشيع زمانه في كل وقت . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ ٢٨

(سورة الحجر)

والوقت المعلوم هو النفخة الأولى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ

فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ ۗ ﴿٢٩﴾

(سورة الزمر)

وكان إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النفخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لا بد أن يكون قبل النفخة الأولى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الغي وهو : الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

[سورة مريم]

﴿ .. فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

وحين نقرأ ﴿ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي ﴾ أى فبإغوائك يا الله لى سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوى ربنا أو يهدى ؟ . إن الله يهدى دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يخلقه مرغماً ومسخرأ كالملائكة ، ولأنه قد خلق مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذى أعطاه سبب العصيان . ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً . وأنت أيها الشيطان الذى اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي ﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغو ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوى وإنما يهدى ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» ، واختار هو ألا يفعل إلا المعصية .

[سورة الأعراف]

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضجعاً نائماً. وأريح الحالات أن يكون نائماً مضجعاً ؛ لأن الجسم في هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه : « أقعد حتى ترتاح » ولو قعد وكان متعباً فيقال له : « مضجع قليلاً لترتاح ».

ولماذا اختار الشيطان أن يقول : ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يتعب من الوقفة ، أيضاً وهو في حالة القعود يكون متبهاً متيقظاً ، والحق يقول :

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ۖ﴾ [سورة التوبة]

ولم يقل : «قفوا» حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالنهوض . والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضجع أقرب إلى التراخي والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذي يحفظ له قوته ، ويبقى له انتباهه : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

ومادام الشيطان سيغوى ، وسيضل الغير ، فسيختار للغواية من يكون في طريق الهداية . إنما من غوى باختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريد ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون في الطاعة ؛ فالشباب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخايله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب . إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة في كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلى يأتي له الوسواس ، ويشككني في الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتي لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية في الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس . لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله :

[سورة الأعراف]

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴾ (٢٠٠)

لماذا؟ لأن الله خلقك وخلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجرى منك مجرى الدم في العروق وينفذ إليك بالخواطر والمواجيد التي لا تضبطها ؛ ويأتي إليك بمهام الأشياء في وقت الصلاة ؛ فتتذكر الأشياء التي لم تكن تتذكرها ، ويأتي لك بأعقد المسائل وأنت تصلى ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿ لَاقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان في مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو في المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل في هذه الحال؟ . يدلنا الحق سبحانه أن نستعيد : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾

فمعنى ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ أى فالتجىء منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أن يتغلغل فيك ، وفى دمك ، وفى خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بفرع والتجاء إليه - سبحانه - فإنه - جل شأنه - ينقذك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقل : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فإذا قلت هذا فكأنك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزعة : مرة واثنين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق فطن وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شهر عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول : ضاع منى مال فى أرض كنت قد دفته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه . دلنى عليه أيها الشيخ ؟ . وبطبيعة الحال كان هذا السؤال فى غير العلم ، فقال أبو حنيفة : يا بنى ليس فى ذلك شىء من العلم ، ولكنى احتال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدى ربك مصليا هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً مبتسماً قائلاً : يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشیطان لا یدعک لتتم لیلتک مع ربک ، وسیأتی لیُخبرک ، فهلاً أتممتها شکراً لله ، هیا قم إلی الصلاة .

إذن فقد عرف الشیطان کیف یقعد : وکیف یقسم ، لأنه فی آیه أخرى یقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لقد استطاع أن یأتی بالقسم الذی یعینه علی مهمته ؛ فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ أى بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إلیهم فأنت الغالب الذی لا یقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعتُ أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن یختار :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾

(من الآیه ٢٩ سورة الکهف)

فأقسم ، ومن هذا الباب یدخل الشیطان علی الإنسان : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

واستدرك علی نفسه أيضاً وقال :

﴿ إَلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

لأن الذی یریده الله مهدياً لا يستطيع الشیطان أن یغويه ؛ لأنه لا یناهض ربنا ولا یقاومه ، إنما یناهض خلق الله ، ولا یدخل مع ربنا فی معركة ، إنما یدخل مع خلقه فی معركة لیس له فیها حجة ولا قوة ؛ لأن الذی یغلب فی المعارك إما أن یرغمك علی الفعل ، وإما أن یقنعك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل یملك إبليس واحدة من هذه ؟ لا ، ولذلك سیأتی فی الآخرة یقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآیه ٢٢ سورة إبراهيم)

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٤٠٧٣

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَا تَنْبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ
وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١٧)

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الورا ،
﴿ عن أيمنهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و ﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار .
والشئ الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى
الشيطان من الأمام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى البعث . ويحاول
أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بقاء الله ،
ويشكون فى وجود دار أخرى سيجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .
وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَوْ ذَا مِمَّا وُكِّرَ تَرَابًا وَعِظْمًا أَوْ نَا لِمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ آبَاءُ نَا الْأَوْلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح
لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة
بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من
عدم ، إنه - سبحانه - عندما يبين للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم
بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلا فالله - جل شأنه - تستوى لدى طلاقة قدرته
كل الأعمال فليس لديه شئ سهل وهين وآخر صعب وشاق ويبلغنا - سبحانه -
بتمام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَبِيطٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أن لكل واحد كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجزائه .

والشيطان - أيضاً - يأتى من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سنه ، ويقبل على الله بشرى ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن إن كنت تخاف عليهم حقاً فأمن عليهم فى يد ربهم ، ولا تؤمن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا

قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٦﴾

(سورة النساء)

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مستغيثاً ومستجيراً بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

ويقول تعالى :

﴿ ثُمَّ لَا يَنْبَغُ مِنْ بَيْنِ أَيْمَانِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٧﴾

(سورة الاعراف)

ويأتى الشيطان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية . ونلاحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿ عن أيمانهم ﴾ و ﴿ عن شمائلهم ﴾ ولم يأت بـ « على » لأن « على » فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع . ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غوايتهم . ولذلك يقول الحق تذييلاً للآية :

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٠٧٥

[سورة الأعراف]

﴿ .. وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١٧)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٨)

لقد بلغ الغرور بالشیطان أن تخيل أنه ذكي ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل :

[سورة النساء]

﴿ .. إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦)

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطاني . وهنا يقول الحق :

[سورة الأعراف]

﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا .. ﴾ (١٨)

وقال له الحق من قبل :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٢)

[سورة الأعراف]

إذن فهناك هبوط وخروج بصغار ومجاوزه المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيد بأنه في حالة الخروج سيكون مصاحباً للذم والصغار والطرده واللعن . ويقول الحق
سبحانه :

﴿ .. لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٨) [سورة الأعراف]

وفى هذا اخبار لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجهنم ، ولم يعدّها سبحانه لتسع الكافرين فقط ، لكنه أعدّها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعدّ الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده ضيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه - جل شأنه - قد أعد الجنة لاستقبالهم جميعاً ، وإن كفروا جميعاً فقد أعدّ النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

[سورة المؤمنون]

وقوله الحق :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾ (٩٨) [سورة الأنبياء]

وبهذا نكون قد شرحنا مسألة إبليس الذى امتنع عن طاعة أمر الأمر الأعلى بالسجود لآدم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَتَادَمُّ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١)

ويعاود القرآن الحديث عن آدم بعد أن تناول مسألة إبليس فيقول : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هي جنة الآخرة والخلود ، واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل إبليس جنة الخلود ؟ . وكيف يخرج منها ؟ . وهل الذى يدخل الجنة يخرج منها ؟ . وهؤلاء العلماء الذين قالوا : إن الجنة هي جنة الآخرة ، لم يفتنوا إلى مدلول كلمة « جنة » ؛ فساعة تطلق كلمة جنة ، تأخذ ما يسمى فى اللغة « غلبة الاستعمال » ، أى تأخذ اللفظ من معانيه المتعددة إلى معنى واحد يستقل به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف الذهن إليه ، فانت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هي التي تعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن والمتكلم هو الله ، فلا بد أولاً أن ندرس اللفظ واستعمالاته فى اللغة ؛ لأن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، فمن الجائز أن يوجد اللفظ فى اللغة وله معانٍ متعددة . وعندما يتعلق الأمر بالدين والفقه فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوى ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعى الاصطلاحى .

مثال ذلك كلمة « الحج » فانت ساعة تسمع كلمة « الحج » تقول : هو قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة فى أشهر معلومة ، على الرغم من أن « الحج » فى اللغة هو القصد ، فإذا قصدت أى شىء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله فى الحج بالمعنى الشرعى ، وهو قصد البيت الحرام للنسك ، وكذلك كلمة « الصلاة » إنها فى اللغة الدعاء ، فقوله تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ أى ادع لهم ، ولما جاء الإسلام أخذ الكلمة من اللغة ، وجعلها تطلق على معنى اصطلاحى جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهى الأقوال والأفعال المخصوصة ، المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بشرائطها الخاصة .

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنى اصطلاحياً أن هذا يكون تركاً لمعناه الأصيلي ؟ . لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله فى معناه الأصيلي فلك ذلك ، ولكنك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة الشرعية لأن كلمة « صلاة » أصبحت هى الصلوات الخمس المعروفة لنا ، مع أن معناها الأصيلي كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة « الجنة » ساعة تطلق ينصرف الذهن إلى جنة الخلود . ونقول : المعنى اللغوى للجنة أنها المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعلوها فتستر

الإنسان وتُجَنِّه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الثمار والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خارجها ويكتفى بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجرى بالجنة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيُودُ أُهْدُكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن تَحْتِهَا وَأَعْنَابٌ ﴾

(من الآية ٢٦٦ سورة البقرة)

وكذلك يقول سبحانه :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وقوله الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَيِّئٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وأقول : إن علينا أن نبحث في آفاق مرادات الله حين يُتَلَمَّنَا من لدنه ويقفنا على المعنى المراد ، إننا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة في الأرض :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق للجنة ، وكنا سنعيش فيها لكنه عصى وأُنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله في الأرض خليفة . والذي كان يجب أن نسأل

عنه : مادام قد جعله الله خليفة في الأرض فما الذي جاء بحكاية الجنة هذه ؟!

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله التكاليف محصورة في « افعل » و « لا تفعل » ؛ لأنك إن لم تمثل سيظهر الفساد في المجتمع ، أما الذي لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مباحاً ؛ لذلك فكل ما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » لا يفسد به المجتمع . إذن فـ « افعل » و « لا تفعل » هي مقياس ضمان الصلاح في الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون منغصات تفسد عليه منهج الله ؟ . لا ، فمادام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأغوى ؛ فسيزين لك في « افعل » ، و « لا تفعل » ويأتيك الأمر بالصلاة فينزغك الشيطان حتى لا تصلى . ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » ، وكذلك يحاول أن يزين لك « أن تفعل » ما هو في مجال « لا تفعل » فترتّبك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة في الأرض أن تؤدي مهمتها أداءً يسعد الإنسان فيها في الدنيا وينعم في الآخرة ؛ لذلك كان لا بد أن يدرّب الحق سبحانه خليفته في الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقياً نظرياً ، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألا يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة في « افعل » و « لا تفعل » . وحذره من العقبات التي تعترض « افعل » ؛ حتى لا تجيء في منطقة « لا تفعل » ، وكذلك من العقبات في منطقة « لا تفعل » حتى لا تجيء في منطقة « افعل » ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب في أي شيء أبداً في أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هي الجنة وهي بستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : كل من كل شيء فيها ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة .

« كل » هذا هو الأمر ، و « لا تقرب » هذا هو النهي . وأوضح سبحانه لآدم أن الذي سيعكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذي ثبتت عداوته إنه « إبليس » ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأقسم وقال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢)

(سورة ص)

كان الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لأدم بصنع الله - سبحانه - وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذي يعطى المقوم بلا فضلات تتعبه ، ولا ينتفخ ولا يعاني من متاعب في الصحة . . . إلخ ؛ لأنه سبحانه يعطى لأدم القدر المقوم . وسبحانه قادر على كل شيء بدليل أنه يرعى الجنين في بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ؛ لأن الغذاء الذي يدخله الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذي يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن فالجنة التي وُجد فيها آدم بداية ليست هي جنة الجزاء ؛ لأن جنة الجزاء لا بد أن تأتي بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم - كما علمنا - مخلوق للأرض ، إذن وجود الجنة هنا يعني أنها مكان التدريب على المهمة في الخلافة أمراً متمثلاً في ﴿ فَكَلَّأ ﴾ ، ونهياً متمثلاً في ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ ، لم يقل لها : لا تأكلها ، بل قال : ﴿ لَا تَقْرَبَا ﴾ لأن القربان مظنة أنه يؤدي إلى الغواية ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقرب لما أكل منها .

فكان الله جعل لأدم في جنة التدريب والتمرين رمزين : الرمز الأول : لـ « افعل » ، والرمز الثاني : لـ « لا تفعل » ، ونجد أن الذي نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به . وهذا من رحمة الله بالعباد ، فيفعل المؤمن ما يؤمر به ، ولا يحوم حول ما حرمه الله ؛ لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأى منظر . ولذلك في كثير من الأشياء التي يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفي قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب ، فسبحانه هو القائل :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ولم يقل : «لا تعبدوا الأوثان» ، بل قال : «فاجتنبوا» ، والشأن في «الخمر» أيضاً جاء بالاجتناب . لكن بعضاً من السطحيين يقولون : لم يرد في الخمر تحريم بل قال بالاجتناب ، ونقول له : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الخمر . لكن الاجتناب يقتضى الا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد في المكان الذى توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها .

﴿ .. وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) [سورة الاعراف]

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أنا لم أجعل لكما حقاً فى أن تقربا ناحية هذه الشجرة ، فإن قربها أى منكما ، فهو قد خالف ما شرعته لكما ، «فتكونا من الظالمين» أى تدخلنا فى اطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطى نفسك شهوة قليلة فى زمن يسير ، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً فى زمن طويل وبشكل أشد . وهذا ظلم لنفسك ، كما أنه دليل على أنك غير مأمون عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا

مِنْ سَوَاءٍ تَهُمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ

إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢٠)

كلمة «وسوس» تدل على الهمس فى الإغواء ، ونعرف أن الذى يتكلم فى خير لا يهمه أن يسمعه الناس . لكن من يتكلم فى شرّ فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكان كل شر لا بد أن يأتى همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحى منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشيء ،

« وسوس » مأخوذة من الصوت المغرى ، لأن الوسوسة هي صوت رنين الذهب والحلى ، إذن فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام مغرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقوله الحق ﴿ فوسوس لهما ﴾ يعطينا حيثيات البراءة لحواء ؛ لأن الشائع أن حواء هي التي ألحت على آدم ليأكل من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً .

﴿ فَوَسَّوَسَ لهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وهل وسوس الشيطان لهما ليبدى لهما ما وورى من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟ . لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشيء الذى حرمه ربنا ستظهر سوءاتهما ، و « السوءة » هي ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على العورة ، والفطرة تستكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة . وكأنهما فى البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه لأن الحق يقول : ﴿ ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ﴾ .

والسوءات أربع : اثنتان للرجل واثنتان للمرأة ، فكان كل إنسان منهما لا يرى سوءتيه ، وكذلك لا يرى سوءتي الآخر ، لأن السوءات كلها لها ما يخفيها عن الرؤية ، وهذا كلام معقول جدا . ألم نقل سيدتنا أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - : « ما رأيت ولا رأى منى » ، وفى هذا القول تتجلى قمة الأدب لأنها لم تجئ حتى باللفظ ، لأن العضو مادام سوءة فهو مبنى على الستر . وذلك حين حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين »^(١) ، تعجبت السيدة عائشة فقال لها : « الأمر أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد » .

﴿ لِيَبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءٍ تِهَمًا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وبماذا ووري؟ . لا بد أن هناك لباساً كان على كل منهما ، وقال العلماء الكثير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إن أظافر الإنسان هي بقية اللباس الذي كان موجوداً عند آدم وحواء ، وهو ما كان يوارى السوءات ، ويقال : إن أي إنسان يكون في غاية الضحك والانبساط ، ويريد أن يكتفم نفسه ، ويمنعها ويحول بينها وبين الضحك إنه يحدث له ذلك لو نظر إلى أظافره ، عندئذ لا يمكنه أن يضحك لأنها بقية لحظة الندم على كشف السوءة . وجربها في نفسك ، تجد نفسك قد منعت من الضحك ، وهذا من عمل الإله .

أو أن الستار الذي كان يوارى السوءة هو النور الإلهي الذي كان يلفهما ، والنور الساطع جداً حين يلف لا يبين ، صحيح أنك بالنور ترى الأشياء ، لكنه إن اشتد عمى على الأشياء فأخفاها فلا تراها ؛ لأن أي أمر إذا زاد على حدّه انقلب إلى ضده ، فإما أن يكون الثوب الأظافر ، وإما أن يكون النور الإلهي الذي كان يغشاهما ويوارى السوءة ، وقد سميت «سوءة» و«عورة» ، لأنها تسوء ، فلماذا تسوء؟ وما الفرق بين فتحتين : فتحة في الفم ، وفتحة في العورة؟ .

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها . وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا - كما قلنا - في حاجة إلى إخراج فضلات ؛ لأن إعداد الله يعطى كلاً منهما على القدر الكافي للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها . لكن حينما يخرجان عن مرادات الله في الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ، ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات في الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة ، فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمشيئ الله سواء أكان ذلك في القيم والمعنويات أم في الأمور المادية؟ .

نعم ؛ لأن كل شيء يُخَالَف فيه منهج الله لا بد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيت أي عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل . وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة :

﴿ وَقَالَ مَآنتَهُمَا رَبُّمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق : أراد ألا تقربا هذه الشجرة لأن من يأكل منها يصير ملكاً ، أو خالداً . ولم يمحص أى منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيدَه كان ضعيفاً واهياً وغيباً ؛ لأنه مادام قد عرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين فلماذا لم يخطف منها ما يجعله ملكاً أو خالداً ؟ وفي هذا درس يبين لنا أن مَنْ يُزَيِّن له ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحص إلى أى غواية يسير ، وأن يدقق فى نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴾ (١٤)

(من الآية ١٤ سورة الأعراف)

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهى المسألة ؟ . إذن كان ما يقوله الشيطان كذباً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٥١)

« قاسم » مادة فاعل ، تأتى للمشاركة ، أى أن هناك طرفين اثنين ، كل منهما فاعل فى ناحية ومفعول فى ناحية أخرى ، مثل شارك زيد عمراً ، وهى تعنى أيضاً أن عمراً شارك زيدا ، وهكذا تكون مادة فاعل وتفاعل ، فكل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة . وفى المعنى نجد الاثنين فاعلاً ومفعولاً ، إذن « قاسم » تحتاج إلى عملتين اثنتين . . فهل جلس إبليس يقسم لآدم ولزوجته ، وهما يقسمان ؟ . ونقول : لا ؛ لأنها تأتى مرة لغير المفاعلة ، أول للمفاعلة اللزومية ، والمفاعلة اللزومية تتضح فى قوله الحق :

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وواعدنا ، مثلها مثل فاعل ، من الذى واعد ؟ . إنه الله الذى واعد موسى عليه السلام ، ودخل موسى فى الوعد بقبوله الوعد وتوفيته به .

إذن « قاسمهما » أى قبل القسم ودخلا فيه .

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُلَّ لَيْلَةٍ لَنَنْصِبَنَّ﴾

(سورة الأعراف)

و « قاسم » ، أى أقسم ، ولذلك حينما عاتب ربنا سيدنا آدم أوضح سبحانه : أنا قلت إنه عدوك ولزوجك ، وسوف يخرجنكما من الجنة لتتعب وتشقى ، فقال آدم : ياربى ما كنت أعتقد أن خلقاً من خلقك يقسم بك على الباطل . ولم يأت على الباطل أن خلقاً يقسم بالله على الباطل . وكانت هذه أول خديعة فى المخلوق . ولذلك نجد قتادة - رضى الله عنه - يقول : « المؤمن بالله يُخدع » .

والنبي عليه الصلاة والسلام عقد على امرأة ودخلت به ، ومن كيد النساء وهن زوجات للنبي صلى الله عليه وسلم وقد خفن أن يشغف بها حباً ، فقلن لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه الكلمة ، فإذا دخل عليك فقوليها ! ، قولى : « أعوذ بالله منك » ، ولحظة أن دخل عليها سيدنا رسول الله ، قالت له : « أعوذ بالله منك » . فقال لها : استعذت بمعاذ . ولم يقربها الرسول ، وهذا ما يشرح لنا كيف يُخدع المؤمن بالله . وها هو ذا سيدنا عبدالله بن عمر كان يعتق من العبيد من يحسن الصلاة ويتقنها ويؤديها فى مواعيدها ، ويقف فيها خاشعاً ، وحين عرف العبيد ذلك احترفوا إقامة الصلاة أمام المكان الذى يجلس فيه وكانوا يؤدونها بخشوع ، وكان رضى الله عنه يعتقدهم ، وذهب له من يقول : إن العبيد يخدعونك ، فيقول : من خدعنا بالله ، انخدعنا له .

والنصح هنا : إغراء بمخالفة أمر الله ، وكان يجب ألا تكون هناك غفلة من آدم ، وكان لا بد أن يقارن بين الأمرين ، بين غواية الشيطان له بالأكل ، وبين أمر الحق سبحانه الذى قال له ولزوجه : لا تقربا . لكنه لم يفعل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجِرَةَ بَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجِرَةِ
وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

﴿ فدلاهما بغرور ﴾ أى فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى درك المعصية والذنب مما غرهما به وخدعهما من القسم. و « دلاً » مأخوذة من دلّى رجله في البركى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو دلّى جبل الدلول ليتزله في البئر ، ومعناها : أنه يفعل الشيء مرة فمرة ، و « بغرور » أى باغراء لكى يوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصح وأبطن لهما الغش .

وهنا وقفة تدل على الاضطراع بين الحق والباطل فى النفس ، ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكر أن النزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذهما فقط كان مجرد المذاق ، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجِرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

و « الخصف » أى تأتى بشيء وتلذقه على شيء لتدارى شيئاً . وقديماً حينما كان يبلى نعل الحذاء ، ويظهر به خرق فالإسكافى يضع عليه رقعة من الجلد تكون أوسع من الخرق حتى تتمكن منه .

وهكذا فعل آدم وحواء ؛ أخذوا من ورق الجنة ووضعوا ورقة على ورقة ليداريا السوءة . وقوله الحق : ﴿ وطفقاً ﴾ يعنى وجعلا من ورق الشجر غطاء للسوءات .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ لَكُمَا وَعَدُوٌّ مَبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

لقد كان التكليف هنا في أمر واحد ، والإباحة في أمور متعددة ، وسبحانه لم يكلفهما إلا بأمر واحد هو عدم الاقتراب من الشجرة ، والمباح كان كثيراً ؛ لذلك لم يكن من اللائق أن يتوها عن التكليف . ولم يكن هذا التكليف بالواسطة ولكن كان بالمباشرة ، ولذلك سينفعنا هذا الموقف في الفهم في لقطة للقصة في سورة غير هذه وهو قوله الحق :

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

ولم يأت الحق هنا بسيرة المعصية ، وقال لهما :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ لَكُمَا وَعَدُوٌّ مَبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لا يجرم إلا بنص ، وسبق أن قال سبحانه : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وأوضح : أن هناك عنصراً إغوائياً هو إبليس وعداوته مسبقة في أنه امتنع عن السجود ، وقد طرده الحق لهذا السبب . إذن إن أخذهما وعاقبهما الله بهذا الذنب فهو العادل ، وهما اللذان ظلما أنفسهما . وكان لابد أن يكون الجواب : نعم يارب نهيتنا ، وقلت لنا ذلك . وهذا إيراد للحكم بأقوى الأدلة عليه ؛ لأن الحكم قد يأتى بالإخبار ، وقد يأتى بالاستفهام بالإيجاب ، ويكون أقوى لوجاء بالاستفهام بالنفي .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ لَكُمَا وَعَدُوٌّ مَبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

ونحن نعلم أن العدو هو الخصم الذي يريد إلحاق الضرر والإيذاء بك، و«مبين» أى محيط، وهذا دليل يظهر عدواة الشيطان وإحاطتها؛ لأنه قد سبق أن أوضح أنه سيأتى من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم. أو بين العداوة وشديد الخصومة .

ويأتى الإقرار بالذنب من آدم وحواء :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٧)

وتلك هى الكلمات التى قال الله عنها فى سياق آخر :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٧) [سورة البقرة]

فكان الحق سبحانه وتعالى قدّر غفلة خلقه عن المنهج؛ فشرّع لهم وسائل التوبة إليه، ووسائل التوبة ثلاث مراحل: تشريعها رحمة، ثم الإقبال عليها من المذنب اعترافاً وإنابة، وقبولها منه سبحانه رحمة، فالتشريع يطلب منك أن تفعل، وحين تتوب يتوب الله عليك .

تشريع التوبة - إذن - رحمة، لا بالمذنب فقط، بل وبغيره أيضاً؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة، كان الذى يعمل معصية، ولا يجد مغفرة، يستشرى فى المعاصى، وإذا استشرى فى المعاصى تعب المجتمع كله .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٧)

[سورة الأعراف]

وهذا هو الموقف بعد الذنب من آدم وزوجته، وهو يختلف عن موقف إبليس بعد الذنب؛ فإبليس أراد أن يبرر المخالفة :

﴿ قَالَ أَتَسْبِّحُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

فماذا قال آدم وحواء ؟ :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّآ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الاعراف)

ولذلك كان جزاء إبليس - وهو المتأبى على أوامر الله وحكمه - أن يطرد من رحمته . وجزاء المعترف بأنه أذنب ، وأنه ظلم نفسه أن تُقبل توبته . إذن لا يصح للناس الذين يقيمون على معصية أن يقول الواحد منهم : « هذه هي ظروفى » ، ويبرر ويحلل ما يفعله من المعاصى ، بل على الواحد منهم ألا يطرد نفسه بنفسه من منطقة الرحمة ، وعليه أن يقول : « ما أفعله حرام ، لكن لا أقدر على نفسى » وبذلك لا يكون قد ردّ الحكم ، بل اتهم نفسه بالتقصير واعترف بالذنب ، فصار أهلاً للمغفرة وأهلاً للتوبة .

وهنا نسأل : ما الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم ؟ . ونقول : إبليس عصى وجاء بحيثية رفض الأمر ، لكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة .

وحين قال آدم وزوجته حواء : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ معاً وفى نفس واحد ، ونغمة حزينة نادمة ، ألا يدل ذلك على أنهما قد تعلماهما ؟ . إن كلا منهما لو اعتذر لله بمفرده لاختلغا فى أسلوب الاعتذار .

وهذا دليل على أنها ملقنة ، ولهذا قال ربنا .

﴿ قَتَلْنَا نَافِلًا أَدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

وهما قد قالوا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ، وأنفسنا جمع نفس ، ولم يقلوا « نفسينا » ، بل قالوا ﴿ أنفسنا ﴾ أى أن قلوبهما أيضاً قد صفيا وخلصا من أثر تلك المعصية ، وأن ذلك مطمور وداخل فى نفوس ذريتهما .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢٤)

ونلتفت لنجد أن هناك أمراً قد سبق لإبليس بالهبوط ، وهنا أمر آخر بالهبوط ، وبالله لو كانت جنة الخلود هي محل إقامتهما ، وأدم مخلوق لها ثم عصى ثم تاب لما خرجا منها أبداً . لكنه سبحانه أمر آدم بأن يهبط إلى الأرض التي جعله خليفة فيها ، لياشر مهمة الخلافة في إطار التجربة التي وقعت له ، وعليه أن يحترم أمر الله في كل تكليف ، وأن يحترم نهى الله في كل تكليف ، وليحذر عداوة الشيطان فإنه سيوسوس له . وقد جرب ذلك بنفسه ، فلينزله مزوداً بالتجربة ، وليس له عذر من بعد ذلك . ﴿ قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

والأمر هنا للجماعة ؛ ولم يقل لهما اهبطا . وفي آية ثانية قال :

﴿ قَالَ أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وذلك لنعرف أن ورود القصة في أماكن متعددة جاء لتعطي لقطات كثيرة . والأمر هنا جاء بقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة ؛ آدم وحواء ، وإبليس . . والعداوة مسبقة ولا ندعيها . العداوة بين طرفين : اثنان في طرف هما آدم وحواء ، وواحد في طرف هو إبليس . ويريد الحق لنا بيان الحقائق وأن المتكلم إله ، إن كل حرف عنده بميزان ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول لنا :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

أى إياك أن تأخذ واجهة النص ، ولكن ابحث في خلفيات النص ، ولا تأخذ واجهة اللفظ ، بل انظر إلى ما وراء الألفاظ .

﴿ قَالِ أَهْلُ طُورٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

وكلمة «عدو» تعنى وجود صراع ، ومعارك سوف تقوم بين اولاد آدم بعضهم مع بعض ، أوتقع العداوة بينهم وبين أعدائهم من سكان الأرض من جن وغيرهم ، لكنها لمدة محدودة ، ولذلك قال : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

أى أن لكم استقراراً فى الأرض ومتاعاً إلى حين . وصراع صاحب الحق فى الحق يجب أن يأخذه على أنه متاع فى الدنيا ولا يأخذه على أنه معركة بلا جزاء ، لا ، فأنت تجاهد وتأخذ جزاء كبيراً على الجهاد وهذا متاع .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالِ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

كأنه قال : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فأحب أن يعطينا الصور لرحلة الحياة ، ويرسم لنا علاقتنا بالأرض التى قال فيها :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فقد ربطنا بالأرض . إيجاداً من طينها ، ومتعة بما فيها من ميزات ، وخيرات وثمرات ، ثم نموت لنعود لها ونبعث من بعد ذلك . فالإنسان منا من الأرض ، منها يحيا وفيها يموت ، ويذهب إلى أصله ومرجعه ، إلى الأم الأرض ، فهى تكفته وتضمه وتأخذه فى حضنها فهى الحانية عليه وبخاصة فى وقت ضعفه . وساعة ما يكون الإنسان فى حالته الطيبة ، وله أخ حالته عكس ذلك فإن قلب الأم إنما يكون مع الضعيف ، ومع المريض ، ومع الصغير .

والأرض هى التى تأخذ كل البشر ، تأخذ الإنسان وتمص منه الأذى ، وتدارى

رائحته ، أمّا أحبّاه في الدنيا وإخوانه ، فقد سارعوا بمواراته التراب تفادياً لرحلة التحلل . وبمجرد أن يموت الإنسان ، أول ما يُنسى هو اسمه ؛ فيقولون : « أين الجثة » ، ولا يقولون : « أين فلان » . وبعد الكفن يوضع الجثمان في النعش ، ليوارى في التراب ويدمدم للحداد عليه برجليه .

وينتقل الحق بعد ذلك بالخطاب إلى أبناء آدم فيقول :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تِكُمْ
وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وكلمة ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ لفت إلى أن تتذكروا ماضى أيكم مع عدوكم السمين ، إبليس ، أنتم أولاد آدم ، والشيطان موجود ، فانتبهوا . لقد أنزل الحق عليكم لباساً يوارى سوءاتكم ؛ لأن أول مخالفة حدثت كشفت السوء ، والإنزال يقتضى جهة علو لنفهم أن كل خير في الأرض يهبط مدده من السماء ، وسبحانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذى أنزل المطر ، والمطر روى بذور النبات فخرجت النباتات التي غزلناها فصارت ملابس ، وكأنك لو نسبت كل خير لوجدته هابطاً من السماء . ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول :

﴿ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا .. ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الزمر]

نعم هو الذى أنزل من الأنعام أيضاً لأن السببية فى النبات من مرحلة أولى ، والسببية فى الحيوان من مرحلة ثانية ، فهو الذى جعل النبات يخرج من الأرض ليتغذى عليه الحيوان ، ويقول سبحانه أيضاً :

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٠٩٣

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .. ﴾ (٧٥)

[سورة الحديد]

نعم فسبحانه هو من أنزل الحديد أيضاً ؛ لأننا نأخذه من الأرض التي خلقها الله ،
وهذا دليل على أن التنزيلات إنما أراد الله أن يحمى بها كل منهج .

﴿ يَسْبِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْرِي سَوْءَتِكُمْ .. ﴾ (٧٦)

[سورة الأعراف]

فإذا كنا قد أنزلنا اللباس الذي يوارى سوءات الحس وسوءات المادة ، كذلك
أنزلنا اللباس الذي يوارى سوءات القيم . فكلما أنكم تحسّون وتدركون أن اللباس
المادى يدارى ويوارى السوءة المادية الحسية فيجب أن تعلموا أيضاً أن اللباس
الذى ينزله الله من القيم إنما يوارى ويستتر به سوءاتكم المعنوية . ولباس الحياة
المادية لم يقف عند موازنة السوءات فقط ، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضاً .
لذلك قال الحق :

﴿ .. قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْرِي سَوْءَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢٦)

[سورة الأعراف]

والريش كساء الطير ، وقديماً كانوا يأخذون ريش الطير ليزينوا به الملابس .
وكانوا يضعون الريش على التيجان ، وأخذ العوام هذه الكلمة وقالوا : فلان
مريش أى لا يملك مقومات الحياة فقط ، بل عنده ترف الحياة أيضاً ، فكان هذا
القول الكريم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك فى حل . وقيل أن يلفتنا
الحق سبحانه وتعالى إلى مقومات الحياة لفتنا إلى الجمال فى الحياة ، فقال سبحانه :

﴿ وَالخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرْكُبُوهَا وَزِينَةً .. ﴾ (٨)

[سورة النحل]

والركوب لتجنب المشقة ، والزينة من أجل الجمال .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الاعراف)

بل سبحانه طلب زيتتنا في اللقاء له في بيته فيقول :

﴿ يٰبَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الاعراف)

إذن فهذا أمر بالزينة ، وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول

سبحانه :

﴿ وَرِبَاسًا وَّلِيَّاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الاعراف)

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله ؛ لأن اللباس المادى يستر العورة المادية ، وقصاره أن يكون فيه مواراة وستر لفضوح الدنيا ، لكن لباس التقوى يوارى عنا فضوح الآخرة .

أو لباس التقوى هو الذى تتقون به أهوال الحروب ؛ إنه خير من لباس الزينة والرياش لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل ، أو ذلك اللباس - لباس التقوى - خير من اللباس المادى وهو من آيات الله ، أى من عجائبه ، وهو من الأشياء اللافتة ؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية ، وهناك أمور قيمة لا تنتظم الحياة إلا بها ، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية ، وزينة الحياة المادية ، وأعطاك ما تحيا به فى السلم والحرب ، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزايا . فخذ الآيات مما تعلم وما تحس لتستنبط منها ما يغيب عنك مما لا تحس .

﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ
أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يُرِيدُ بِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُنَّهُمْ
إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشیطان ، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإغواؤه له .

والفتنة في الأصل هي الاختبار ، وتُطلق - أحياناً - على الأثر السيئ حيث تكون أشد من القتل ، لكن هل يسقط الإنسان في كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هي الاختبار ، وفي الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإما أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطه شراً .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة في الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقى الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة في الأرض ؛ فله منهج يحكمه في كل حركاته ، ومادام له منهج يحكمه في كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعي على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف في الأرض ، وحذره من الشيطان الذي أبقى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة في التكليف . وكل تكليف محصور في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له في الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشراً مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، وأوضح له : أن كل من كل ما في الجنة ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة . و ﴿ كل ﴾ أمر ، و ﴿ لا تقرب ﴾ نهى . وكل تكليف شرعى هو بين « لا تفعل » وبين « افعل » .

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذي يضع ويجعل له العقبات في تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها ؛ خالفا أمر الله في ﴿ولا تقربا﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لا بد أن ينشأ عنها عورة تظهر في الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر عورات الأرض وعورات المجتمع ، فأمره الله : أن اهبط إلى الأرض مزوداً بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه في قوله : ﴿ولا تقربا﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئ ، وتدركه الغفلة ، وقد يخالف منهج الله في شيء ، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبياً ؛ جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى في تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآني :

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

إن هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة ، ولا بد أن نفطن أيضاً إلى قوله الحق : ﴿ثم اجتباه ربه﴾ .

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ؛ لأن عصيانه كان أمراً طبيعياً لأنه بشر ، يخطئ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبياً ورسولاً ، ومادام قد صار نبياً ورسولاً فالعصمة تأتي له :

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١٢٢)

(سورة طه)

إذن لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصى آدم وهو نبي؟! نقول : تنبه إلى أن

النبوة لم تأت إلا بعد أن عصى وتاب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر مبلغون عن الله ، وأنبياء يبلغون عن الله ، فله في البشرية أنه عصى ، وله في النبوة أن ربه قد اجتباها فتاب عليه وهداه .
والذين يقولون : إن آدم كان مخلوقاً للجنة ، نقول لهم : لا . افهموا عن الله ، لأنه يقول : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ .

إن أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض . انها كانت تدريجياً على المهمة التي سيقوم بها في الأرض ، والا فلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجته ، الا أن الله قد قبل منه توبته ، ومادام قبل توبته فكان يجب أن يبقيه في الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض . ويعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع علينا التجربة لأدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألا نقع في الفتنة كما وقع آدم .

﴿ يَسْبِي آدَمَ لَا يَفْتَنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا .. ﴾ (٢٧)

[سورة الأعراف]

وهذا نهى لبنى آدم وليس نهياً للشيطان ، وهذا في مكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل ، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شيء ليس في مكنته ، بل ينهيه عما في مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ . فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ؛ لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم فلا يفتنكم كما أخرج أبويعكم من الجنة ، ويتساءل البعض : لماذا لم يقل الله : لا يفتنكم الشيطان كما فتن أبويعكم ، وقال : « لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويعكم من الجنة » ؟ . ونقول : هذا هو السمو والافتنان الراقى في الأداء البياني للقرآن .

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف . فما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة . ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك ،

وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر قصد الاختصار. وهذا هو الأسلوب الذي يؤدي المعنى بمتهى الإيجاز؛ لئيبه ذهن السامع لكلام الله. فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء، وعدم الفضول في الأساليب.

﴿ لَا يَفْتِنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبُويَكُم مِّنَ الْجَنَّةِ .. ﴾ (٢٧) [سورة الأعراف]

والفتنة - كما علمنا - هى فى الأصل الاختبار حتى ننقى الشىء من الشوائب التى تختلط به ، فإذا كانت الشوائب فى ذهب فنحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر ، وحين نريد أن نأخذ الذهب خالصاً نفتنه على النار حتى ينفذ ويزيل عنه ما علق به . كذلك الفتنة بالنسبة للناس ، إنها تأتى اختباراً للإنسان لينقى نفسه من شوائب هذه المسألة ، ولينذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء . فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن ؛ لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن الحققت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء . والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن ، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر . فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونُ ذَلِكَ .. ﴾ (١١) [سورة الجن]

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً ، وقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَتَحِدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِّن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. ﴾ (٥٠) [سورة الكهف]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .. ﴾ (٢٧) [سورة الأعراف]

و«قبيله» هم جنوده وذريته الذين ينشرهم فى الكون ليحقق قسمة :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان في قمة الطاعة صار عاصياً لأمر الله معصية أدته وأوصلته إلى الكفر ؛ لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أوغر صدره وأحنقه ، وجعله يوغل ويسرف في عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

﴿ إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ولن يكتفى بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وجد شياطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وكلمة « زخرف القول » تعنى الاستمالة التي تجعل الإنسان يرتكب المعصية وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول . وكل معصية في الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دعائه ، ومروجوه ، ومعلنوه ، إنهم يزينون للإنسان بعض شهواته التي تصرفه عن منهج الله ، ونلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان في البشر ، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة إيمان في نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكتلوا جهودهم حتى يحرّموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرّموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا

غرضهم في العداوة للإسلام . ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ .

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ؛ فقال قوم : ﴿ إنهم جنوده وذريته ﴾ . ويقصدون جنوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق : ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ فلا بد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية ؛ لأننا نرى البشر ، وفي قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبيه ؛ لأن العدو الذي تراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذي يراك ولا تراه عداوته شديدة وكيدته أشد ، والجن يرانا ولا نراه ، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهي شفيفة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر في الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر في الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنفوذ الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يُرى ، ولكن إذا كان ثبت في الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئي وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاثنان كل منهما جنس خفي مستور ، وقد تشكل المَلَكُ بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »^(١) .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكتيته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيتمثل لهم مادة .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : « إن عفريتاً من الجن جعل يفتك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة ، وإن الله أمكنني منه فدَعَّتهُ فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون »^(٢) .

(١) رواه مسلم في الإيمان .

(٢) رواه مسلم في المساجد ، والبخارى في الصلاة ، وأحمد ، ومعنى : « فدَعَّتهُ » : أى خفتته .

وذلك من أدب النبوة . إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته ، فإذا ما أردك أن تراه . . فهو يظهر على صورة مادية . وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله ، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره ، فقال بعضهم : حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، لا بد أن نقول : إننا لن نراه .

وأقول : إن الإنسان إن رأى الجنى فلن يراه على صورته ، بل على صورة مادية يتشكل بها ، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان ؛ لأن الجنى لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان ، وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه ، هل هو الشيء الذى نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به ؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضرورى لحركة الحياة ، وحركة المجتمع ؛ لأنك لا تعطف على ابنك الا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك ، ولا تثق فى صديقك الا إذا عرفت أنه صديقك . ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به . وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه ، وهنا سيسحك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذى يتمثل فى صورته . وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء ، فما الذى يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق فى علمه ، ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله ؟ .

إذن فالشيطان لا يتمثل ، هكذا قال بعض العلماء ، ونقول لهم : أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل ، يتمثل تمثلاً استمرارياً ، لا . هو يتمثل تمثل الومضة ؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمته الصورة التى انتقل اليها ، وإذا حكمته الصورة التى انتقل اليها فقد يقتله من يملك سلاحاً ، انه يخاف منا أكثر مما نخاف منه ، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً ؛ لذلك يختار التمثل كومضة ، ثم يختفى ، والإنسان إذا تأمل الجنى المشكل . سيجد فيه شيئاً مخالفاً ، كأن يتمثل - مثلاً - فى هيئة رجل له ساق عنزة لتلتفت إليه كومضة ويختفى ؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التى يتشكل بها تحكمه . وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٧)

[سورة الأعراف]

والشياطين من جعل الله ، وسبحانه خلّى بينهم وبين الذين يريدون أن يفتنوهم والاول لو أراد الله منعهم من أن يفتنوهم . لفعل . . إذن فكل شيء في الوجود ، أو كل حدث في الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، وداع لفعل الفعل . فإذا ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل ، والداعى إلى الفعل ، فإبراز الفعل في الصورة النهائية نستمدّها من عطاء الله من الطاقة التي منحها الله للإنسان . فأنت تقول : العامل النساج نسج قطعة من القماش في غاية الدقة ، ونقول : إن العامل لم ينسج ، وإنما نسجت الآلة ، والآلة لم تنسج ، لكن الصانع الذي صنعها أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها إلا بالعالم الذي ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجّه الطاقة المخلوقة للمهندس في أن تعمل ، واعتمد على طاقة المهندس الذي صنعها في المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم الذي ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفي مادة خلقها الله .

إذن فكل شيء يعود إلى الله فعلاً ؛ لأنه خالق الطاقة ، وخالق من يستعمل الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت : العامل نسج يصح قولك ، وإذا قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذي نسج صح قولك . إذن فالمسألة كلها مردّها في الفعل إلى الله . وأنت وجهت الطاقة المخلوقة لله بالقدرة المخلوقة لله في فعل أمر من الأمور . فإذا قال الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ ﴾ أى خلّينا بينهم وبينهم المفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا الا يفتنوا أحداً لما فتنوه . وهذا ما فهمه إبليس .

﴿ .. لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ (٨٣)

[سورة ص]

إذن من يريد الله معصوماً لا يستطيع الشيطان أن يغيوه، وتعلم الشياطين أن الله خلق بينهم في الاختيار، وهذه اسمها تخلية؛ ولذلك لا معركة بين العلماء. فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله، ونسب كل فعل إلى الله، ومنهم من رأى أن موجّه الطاقة من البشر فينسب الفعل للبشر، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله في أنه الفاعل لكل شيء، ومنهم من قال: إن الإنسان هو الذي فعل المعصية. . . أى أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له، فرينا يعذبه على توجيه الطاقة للفعل الضار ولاخلاف بينهم جميعاً.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (من الآية ٢٧ سورة الأعراف

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن، ولكن الذى آمن لا يتخذه الشيطان ولياً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا
وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَنْتُمْ لَوْنُ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

والفاحشة مأخوذة من التفحش أى التزديد فى القبح، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون خاص من الذنوب، وهو الزنا، لأن هذا تزديد فى القبح، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنتهى بأثرها، لكن الزنا يخلف آثاراً. . . فإما أن يواد المولود، وإما أن تجهض المرأة، وإما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً، ويعيش طريداً فى المجتمع لا يجد مسئولاً عنه، وهكذا تصبح المسألة ممتدة امتداداً أكثر من أى معصية أخرى. وتصنع هذه المعصية الشك فى المجتمع. ولنا أن نتصور أن إنساناً يشك فى أن من ينسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه، وهذه بلوى

كبيرة للغاية. والذين قالوا: إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله

سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٣٢)

[سورة الإسراء]

أو الفاحشة هي ما فيه حد ، أو الفاحشة هي الكبائر ، ونحن نأخذها على أنها التزويد في القبح على أى لون من الألوان.

فما هي الفاحشة المقصودة هنا ؟ . إنها الفواحش التي تقدمت في قوله :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَاءِبَةٍ .. ﴾ (١٠٣)

[سورة المائدة]

وكذلك ما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ .. ﴾ (١٣٧)

[سورة الأنعام]

وكذلك في قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا

[سورة الأنعام]

لشركاءنا .. ﴾ (١٣٦)

أو أن المقصود أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فيطوف الرجال نهاراً ، والنساء يطفن ليلاً ، لماذا؟ . لأنهم ادَّعَوْا الورع . وقالوا : نريد أن نطوف إلى بيت ربنا كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نتجرد من متاع الدنيا ، ولا نطوف ببيت الله في ثياب عصينا الله فيها .

وقولهم : «وجدنا عليها آباءنا» تقليد ، والتقليد لا يعطى حكماً تكليفياً ، وإن

أعطى علماً تدريجياً ، بأن ندرج الأولاد على مطلوب الله من المكلف ليستطيعوا ويألفوا ما يكلفون به عندما يصلون إلى سن التكليف . وما يدل على أن التقليد لا يعطى حقيقة ، أنك تجد المذهبين المتناقضين - الشيوعية والرأسمالية مثلاً - مقلدين ؛ لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون . فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبحان حقيقة ؛ لأنهم - كما يقولون - الضدان لا يجتمعان ، هذا هو الدليل العقلي في إبطال التقليد . ولذلك نلاحظ في أسلوب الأداء القرآني أنه أداء دقيق جداً ؛ فالذي يتكلم إليه .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت في مسألة التقليد برداً لأنه بدهاه لا يؤدي إلى حقيقة ، بل قال :

﴿ قُلْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بِأَمْرِ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها . وأين الرد على قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ؟ ﴾ .

نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ؛ لأنه أمر يرفضه العقل الفطري ، ولذلك ترك الله الرد عليه ؛ لوضوح بطلانه عند العقل الفطري ، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فالله لا يأمر بالفحشاء . ثم كيف كان أمر الله لكم ؟ . أهو أمر مباشر . بمعنى أنه قد أمر كل واحد منكم أن يرتكب فاحشة ؟ ألم تنبهوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلًّا وَحَيًّا أَوْ مِنْ وَرَآيَ جِبَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

أم بلغكم الأمر بالفاحشة عن طريق نبي فكيف ذلك وأنتم تكذبون مجيء الرسول ؟ . وهكذا يكون قولكم مردوداً من جهتين : الجهة الأولى : إنه لا طريق

إلى معرفة أمر الله إلا بأن يخاطبكم مباشرة أو يخاطبكم بواسطة رسل ؛ لأنكم لستم أهلاً للخطاب المباشر ، والجهة الثانية : أنكم تنكرون مسألة الأنبياء والرسل . فأنتم لم يخاطبكم الله بالمباشرة أو بواسطة الرسل فلم يبق إلا أن يقال لكم :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

ولا جواب على السؤال إلا بأمرين : إما أن يقولوا : « لا » فقد كذبوا أنفسهم ، وإما أن يقولوا : « نعم » ؛ فإذا قالوا : نعم نقول على الله ما لا نعلم ؛ فقد فضحوا أنفسهم وأقروا بأن الله لم يأمر بالفاحشة ، بل أمر الله بالقسط ، لذلك يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

والقسط هو العدل من قسط قسماً ، وأما قاسط فهي اسم فاعل من قسط قسماً وقسوطاً أى جار وعدل عن الحق ، والقاسطون هم المنحرفون والمائلون عن الحق والظالمون ، وكلمة العدل هي التسوية ، فإن ملت إلى الحق ، فذلك العدل المحبوب . وإن ملت إلى الباطل ، فذلك أمر مكروه ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ . وهذه جملة خبرية .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

وهذا فعل أمر ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا من عطف الأمر على الخبر ، ولكن نلتفت أن الحق يعطفها على « قل » ، فكان المقصود هو أن يقول : « قل أمر ربى بالقسط ، وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » .

والوجه هو السمة المعينة للشخص ؛ لأن الإنسان إن أخفى وجهه لن تعرفه إلا إن كان له لباس مميز لا يرتديه الا هو . والوجه أشرف شيء في التكوين الجسمي ، ولذلك كان السجود هو وضع الوجه في الأرض ، وهذا منتهى الخضوع لأمر الله بالسجود ؛ لأن السجود من الفاعل المختار وهو الإنسان يكون بوضع الجبهة على الأرض . وكل شيء خاضع لحكم الله نقول عنه : إنه ساجد .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [سورة الحج]

والشجر يسجد وهو نبات ، والدواب تسجد وهي من جنس الحيوان ، والشمس والقمر والنجوم والجبال من الجماد وهي أيضا ساجدة ، لكن حين جاء الحديث عن الإنسان قسمها سبحانه وقال :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [سورة الحج]

لأن الإنسان له خاصية الاختيار ، وبقية الكائنات ليس له اختيار . إذن فالسجود قد يكون لغير ذى وجه ، والمراد منه مجرد الخضوع ، أما الإنسان فالسجود يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلف وكل الكائنات مسخرة لخدمته وطائفة وكلها تسبح ربنا ، فإذا كان السيد الذى تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ، ونباتاً ، وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضع من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. (٢٩) ﴾ [سورة الاعراف]

والإقامة أن تضع الشيء فيما هيء له وخلق وطلب منه ، وإن وجهته لناحية ثانية تكون قد ثبتته وأملته وحنيته ، وعوّجته . إذن إقامة الوجه تكون بالسجود ؛ لأن الذى سخر لك هذا الوجود وحكمك بمنهج التكليف هو من جعلت وجهك فى الأرض من أجله ، وإن لم تفعل ذلك فأنت تختار الاعوجاج لوجهك ، واعلم أن

هذا الخضوع والخشوع والسجود لله لن يعطيك فقط السيادة على الأجناس الأخرى التي تعطيك خير الدنيا ، ولكن وضع جبهتك ووجهك على الأرض يعطيك البركة في العمل ويعطيك خير الآخرة أيضاً . والعاقل هو من يعرف أنه أخذ السيادة على الأجناس فيتقن العبودية لله ، فيأخذ خيري الدنيا والآخرة حيث لا يفوته فيها النعيم ولا يفوت هو النعيم ، أما في الدنيا فأنت تقبل عليها باستخلاف وتعلم أنك قد يفوتك النعيم ، أو تفوت أنت النعيم ، وحين تتذكر الله وتكون خاضعاً لله فأنت تنال البركة في حركة الاستخلاف .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. (٢٩) ﴾ [سورة الأعراف]

والمسجد مكان السجود ، وقال الرسول ﷺ : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»^(١) .

إذن فكل موضع في الأرض مسجد ؛ فإن دخلت معبداً لتصلي فهذا مسجد . والأرض كلها مسجد لك . يصح أن تسجد وتصلي فيها . وتزاول فيها عملك أيضاً ، ففي المصنع تزاول صنعتك فيه ، وحين يأتي وقت الصلاة تصلي ، وكذلك الحقل تصلي فيه ، لكن المسجد الاصطلاحي هو المكان الذي حُبس على المسجدية وقصر عليها ، ولا يزاول فيه شيء آخر . فإن أخذت المسجد على أن الأرض مسجد كلها تكن ﴿ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ في جميع أنحاء الأرض . وإن أخذتها على المسجد ، فالمقصود إقامة الصلاة في المكان المخصوص ، وله متجه وهو الكعبة . وكذلك يكون اتجاهك وأنت تصلي في أي مكان . والمساجد نسميها بيوت الله ولكن باختيار خلق الله ، فبعضنا يبني مسجداً هنا أو هناك . ويتجهون إلى بيت باختيار الله وهو الكعبة . ولذلك كانت كعبة ومتوجهاً لجميع بيوت الله .

(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .

وقصارى الأمر أن نجعل قبلة المسجد متجهة إلى الكعبة وأن نقيم الوجه عليها ،
أى على الوجه الذى تستقيم فيه العبادة . وهو أن تتجهوا وأنتم فى صلاتكم إلى
الكعبة فهى بيت الله باختيار الله .

وساعة ما تصادفك الصلاة صل فى أى مسجد ، أو ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل
مسجد ﴾ يقصد بها التوجه للصلاة فى المسجد ، وهنا اختلف العلماء ، هل أداء
الصلاة وإقامتها فى المسجد ندباً أو حتماً ؟ . والأكثرية منهم قالوا ندباً ، والأقلية
قالوا حتماً . ونقول : الحتمية لا دليل عليها .

من قال بحتمية الصلاة فى المسجد استدل بقوله صلى الله عليه وسلم :

والذى نفس بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم
أمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم^(١) .

ونقول : هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أو لم يفعل ؟ لم يفعل
رسول الله ذلك ، إنما أراد بالأمر التغليظ ليشجعنا على الصلاة فى المساجد عند
أى أذان للصلاة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الاعراف)

والدعاء : طلب من عاجز يتجه به لقادر فى فعل يحبه الداعى : وحين تدعو
ربك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لا يكون فى بالك الأسباب ؛ لأن الأسباب إن
كانت فى بالك فأنت لم تخلص الدين ، لأن معنى الإخلاص هو تصفية أى شىء
من الشوائب التى فيه ، والشوائب فى العقائد وفى الأعمال تفسد الإلتقان
والإخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتى له هذه المسألة ، فرسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول :

« إِنِّي لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ »^(١) .

إذن فالإخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعو الله ادعه دائماً عن اضطرار ، ومعنى اضطرار . أن ينقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها . فذهبت للمسبب ، ومادمت مضطراً سيحبب ربنا دعوتك ؛ لأنك استنفدت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله عن ترف ، فالإنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقني ، ويكون له سكن طيب ويقول : أريد بيتاً أملكه . إذن فبعضنا يدعو بأشياء الله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار . وأنا أتحدى أن يكون إنسان قد انتهى به أمر إلى الاضطرار ولا يجيبه الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَمَا بَدَأُنَّكَ تَعُودُونَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والله سبحانه يخاطب الإنسان ، ويحننه ، مذكراً إياه بـ « افعل كذا » و « افعل كذا » و « افعل كذا » . وسبحانه قادر أن يخلقه مرغماً على أن يفعل ، لكنه - جل وعلا - شاء أن يجعل الإنسان سيداً وجعله مختاراً ، وقهر الأجناس كلها أن تكون مسخرة وفاعلة لما يريد ، وأثبت لنفسه - سبحانه - صفة القدرة ، ولا شيء يخرج عن قدرته ؛ فأنت أيها العبد تكون قادراً على أن تعصي ولكنك تطيع ، وهذه هي عظمة الإيمان إنها تثبت صفة المحبوبة لله ، فإذا ما غر الإنسان بالأسباب وبخدمة الكون كله ، وبما فيه من عافية ، وبما فيه من قوة ، وبما فيه من مال ، تجاء الحق يلفته : لاحظ أنك لن تنفلت مني : أنا أعطيت لك الاختيار في الدنيا ، لكنك ترجع لي في الآخرة ولن تكون هناك أسباب ، ولن تجد إلا المسبب ، ولذلك اقرأ :

﴿ لَعْنِ الْمَلِكِ الْيَوْمِ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار ، وأبو داود في الصلاة ، والنسائي في عمل اليوم ، والإمام أحمد ٢١١/٤ . ومعنى (لَيَغَانُ) : ما يتغشى القلب ، وقيل الفترات والغفلات عن الذكر ، أو همه بسبب أمته فيستغفر لها ، وقال المناوي : هو غين أنوار لاغين أغيار ولا حجاب ولا غفلة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

كَانَ الْمَلِكُ قَبْلَ ذَلِكَ - أَى فِى الدُّنْيَا - كَانَ لِلْبَشَرِ فِى شَىءٍ لِمَبَاشَرَتِهِمُ الْأَسْبَابُ هَذَا يَمْلِكُ ، وَذَلِكَ يَمْلِكُ ، وَآخِرُ يُوْظَفُ ، لَكِنْ فِى الْآخِرَةِ لَا مَالِكَ ، وَلَا مَلِكٌ إِلَّا اللَّهُ ، فَيَاكُمْ أَنْ تَعْتَرُوا بِالْأَسْبَابِ ، وَأَنْهَا دَانَتْ لَكُمْ ، وَأَنْكُمْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَتَحَكَّمُوا فِيهَا ؛ لِأَنَّ مَرْجِعَكُمْ إِلَى اللَّهِ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ
اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل : إن الله هدى الكل . . . بمعنى أنه قد بلغهم بمنهجه عبر موكب الرسل ، وحين يقول سبحانه : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة ، لكن دلالة المعونة . وقد فرقنا بين هداية الدلالة وهداية المعونة .

وقوله الحق ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ أى هداية المعونة ؛ لأن هذا الفريق أقبل على الله بإيمان فخفف الله عليه مؤونة الطاعة ، وبغضه فى المعصية ، وأعاناه على مهمته . أما الذى تأتى على الله ، ولم يستجب لهداية الدلالة أيعينه الله ؟ لا . إنه يتركه فى غيِّه ويخلى بينه وبين الضلالة ، ولو أَرَادَهُ مَهْدِيًّا لَمَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَغَيِّرَ مِنْ ذَلِكَ . وسبحانه منزه عن التجنى على أحد من خلقه ، ولكن الذين حق عليهم الضلالة حصل لهم ذلك بسبب ما فعلوا .

﴿ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الاعراف)

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية ، أما من يقول إنها

هداية فهذا تبجح وكفر ؛ لأنه يرد الحكم على الله . وخير للذين يرتكبون المعاصي أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصي حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ؛ لأنه ينتقل من مرتبة عاص إلى مرتبة كافر والعياذ بالله .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الاعراف)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرّم ، وأنهم لم يقدرُوا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية في الفعل . وهذا الأمر يشيع في معاص كثيرة مثل الربا ، فنجد من يقول : إنه حلال ، ونقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر على نفسي ، فتدخل في زمرة المعصية ، ولا تدخل في زمرة الكفر والعياذ بالله ، ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ، ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال !! فهذا هو الخطر ؛ لأنك تتعد وتخرج عن دائرة المعصية وتردى وتقع في الكفر ، اربأ بنفسك عن أن تكون كذلك واعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدّر أن عبده يخطئون ويصيبون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فلماذا تخرج من حيز يمكن أن تخرج منه إلى حيز يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا

وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

والزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء ، وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الاعراف)

هذا يعني أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة . أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون في مهمات حياتهم ، وكل مهمة في الحياة لها زيتها ولها هندامها ؛ فالذي يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل في « الجِدَادَةِ » له زي خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبت إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً في لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يُضايق غيره ، فإن كانت ملابس العمل في مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يُؤذَى أحد بالوجود بجانبك ؛ لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله في بيت الله ، فلا بد أن تحتفى بهذا اللقاء .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الاعراف)

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذي أحل لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة ، فهي حلال لك بشرط ألا تسرف . ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك في الحلال ما يغنيك عن الحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمُسرفون هم المتجاوزون الحدود . ولا سرف في حل ، إنما السرف يكون في الشيء المحرم ، ولذلك جاء في الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً في جِلٍّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً في محرّم لاعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى كل نعمة حقها

بشرط ألا يؤدي بك ذلك إلى البطر، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون، وقد أراد أن يترهب، ويتنسك، ويسبح في الكون، وقال لرسول الله: يا رسول الله، إنني أردت أن اختصي؛ أي يقطع خصيتيه؛ كي لا تبقى له غريزة جنسية، فقال ﷺ: يا عثمان خصاء أمتى الصوم. لذلك قال ﷺ في شأن من لم يستطع الزواج: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

وقد روى أن رسول الله ﷺ ذكر الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم: أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد وسليمان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن في بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ويجبوا مذاكيرهم^(٢). فكان التوجيه النبوي أن حمد الرسول ﷺ ربه وأثنى عليه وقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ولكني أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٣).

ويتابع الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفِّصُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ٢٢

وما دام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم، وما ينفع منها للإناث جعلتها السنة

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) فتح الباري .

(٣) رواه مسلم .

للإناث ، وما يصلح منها للذكور أحلتها السنّة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات . ولنلاحظ دقة الأسلوب هنا في قوله تعالى :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ثم يتابع سبحانه :

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

فكأننا أمام حالتين اثنتين : حالة في الدنيا ، وأخرى في يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة في الحياة الدنيا غير خالصة ؛ لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهي من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن وللکافر ، وربما كان الكافر أكثر حظاً في الدنيا من المؤمن ، ولكن في الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركونهم فيها الكافرون .

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطى اليقظة الإيمانية في المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنى والفقر والقوة والضعف . وهكذا يكون الإنسان في الدنيا ؛ فهي دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ؛ لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوؤك . إنها تسوؤك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبت شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك لَلْفَتِكَ اللهُ إِلَى حِكْمَتِهِ .

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها في قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى : أنها غير خالصة للمؤمنين في الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها

فى الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأتى لهم فيها الأغيار .
ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ كَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

معنى « نفصل الآيات » أى لآتأتى بالآيات مجملة بل نفصل الآيات لكل مؤمن ، فلا نترك خللاً ، ونأتى فيها بكل ما تتطلبه أفضية الحياة ، بتفصيل يفهمنا قضاياها فهماً لا لبس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بغيرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ ٣٢

والحق سبحانه - قد بدأ الآية بـ « إنما » التى هى للحصر : أى ما حرم ربهى إلا هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حراماً ، لأنها لا تدخل فى هذه ، وقول الله فى الآية السابقة : ﴿ قل من حرم زينة الله هو على صيغة استفهام لكى يجيبوا هم . ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله . لأن الحق قد وضع وبين ما حرم فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بغيرِ الْحَقِّ وَأَنْ
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٣٢

(سورة الأعراف)

ونتأمل الخمسة المحرمات التي جاءت بالآية ؛ فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة في الأرض ليبقى الإنسان خليفة فيها نرى أنه لا بد من صيانة أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شيء أن يسلم للمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أى الإنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ؛ لأن الإنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه ، ويرعاه ويربيه . أما إذا تشكك في هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يريه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث من أن شكاً طراً على الأب في أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالي إن رآه أم لم يره ، ولا يبالي أهو في البيت أم شرد ، لا يبالي أكل أم جاع ، لا يبالي تعرى أم لا .

إذن فطهارة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع ؛ لأن المجتمع سيكون بين مربٍ يقوم على شأن وصغير مربى ، المربى قادر على أن يعمل ، والمربى صغير يحتاج إلى التربية . ولذلك حرم الله الفواحش والفحش - كما قلنا - ما زاد قبحه ، وانتهوا على أنه هو الزنا ؛ لأن أثره لا يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع . بل يتعدى إلى الأنسال . وما تعدى إلى الأنسال فهو تعد إلى المجتمع ، ويصير مجتمعاً مهملًا لا راعى له .

والإثم : أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ . لقد انتهى العلماء على أن الإثم هو الخمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص :

﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة في الإنسان وهو العقل وأن

الخمر تغيب العقل، والإنسان مطالب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة لمواجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تزيده صلاحاً ولا تتعدى على الإنسان. فإذا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة. والذين يأتون ويشربون ويقولون: نريد أن ننسى همومنا نقول لهم: ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهم؛ لأنه إن نسي كل واحد ما أهمه فلن يحتاط أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التي تضمن السلامة.

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التي تعاني منها مضاعف لتزيلها. أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك. فإن كانت المشكلة، قد نشأت من أنك أهملت في واجب سببي أي له أسباب وقد قصرت في الأخذ بها فأنت المعلوم. وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس في قدرتك، أي هبطت عليك قضاء وقدرأ؛ فاعلم أن مجريها عليك له فيها حكمة.

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها، لأن كل ذي نعمة محسود، وحتى لا تتم النعمة عليك؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها، وأنت ابن الأغيار وفي دنيا الأغيار، وإن تمت لك فقد تتغير النعمة بالنقصان.

إذن فالتفكير في ملافاة الأسباب الضارة وتجنبها يأتي بالعقل الكامل، والتفكير في الأشياء التي ليس لها سبب يأتي من الإيمان، والإيمان يطلب منك أن ترد كل شيء إلى حكمة الحكيم. إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب الخمر؛ لأن العقل يدير حركة الحياة.

البغي زهره أنه مجاوزة الحد ظلماً أو أكبر، أو بخلاً. والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيزهد في العمل؛ لذلك يحرم الحق أن يبغى أحد على أحد. لا في عرضه، ولا في نفسه، ولا في ماله. ويجب أن نصون العرض من الفواحش؛ لأن كل فاحشة قد تأتي بأولاد من حرام. وإن لم تأت فهي تهدر أعرض، والمطلوب صيانتها، كذلك لا يبغى أحد على محارم أحد، وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل.

ويصمون الحق المال فيمنع عنه البغى فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً، ومظاهر البغى كثيرة. ومن البغى أن تأخذ سلطة قسراً بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق، فإن كنت - على سبيل المثال - تركب سفينة، ثم قامت الرياح والزواجع، وأنت أمهر في قيادتها أتترك الريان يقودها وربما عرفت بمن فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتتقدها ومن فيها، إنك في هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس، وهذا بغى بحق، وهو يختلف عن البغى بغير الحق. وحتى تفرق بين البغى البغى بحق والبغى بغير الحق نقول. إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفينة منه للحفاظ عليه وصيانته وتثمينه له، فنكون قد أخذنا من صاحبه رعاية لهذا الحق، فهو وإن كان في ظاهره بغياً على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغى بحق أو أنه سمي بغياً؛ لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلماً، ويسمى هذا في علم البلاغة مشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير، ونقرأ أيضاً قول الله:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. (٤٠)﴾

[سورة الشورى]

فهل جزاء السيئة يكون سيئة؟ لا. وإنما هي سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه؛ لأنه لما عمل سيئة واختلس مالا - مثلاً - وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعبته ولذلك فالحق يقول:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾

[سورة النحل]

ومن بغى بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه، أن يتوقع أن يناله بغى ممن هو أكثر قدرة منه .

وينبهننا الحق إلى العمل الذي لاغفران له: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ .

ومحال أن ينزل الحق الذي نعبده شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة

على أنه شريك له - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ؛ لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفي هذا الشرك بأدلة العقلية وأدلة النقلية .
وإذا كان الحق قد قال لنا في هذه الآية :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، في إطار إيجازي ومع المقابل أيضاً ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

لقد جاء بالفحشاء في هذه الآية ليؤكد طهارة الأنسال ، وجاء أيضاً بتحريم المنكر والبغى ، وزاد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها الإثم فقط . وكان الإثم في آية الأمر بالعدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، مطمور في « المنكر » ، والمنكر ليس محرماً بالشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصي تعود عليه بالضرر ، هنا يقول : أعود بالله منها . وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيع لنفسه أن يفتح عينيه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة . لكنه ساعة يرى إنساناً آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلاً إنه يرى في ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لا بد أن تجعل للمنكر حداً يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذي تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حدد بصرى من أن يتمتع بجسم يسير أمامى ، إنه - سبحانه - كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جميعاً أن ينظروا إلى محارمك ؛ وفي هذا صيانة لك .

وبعد أن حلل هذه الطيبات والزينة ، وحرّم الفواحش والمنكر والبغى والإثم يقول سبحانه :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

نحن هنا أمام نص قرآني تثبته قضايا الوجود الواقعي ؛ فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم في طغيانهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجري الحق هذا الانتقام من الطغاة لصيانة سلامة المجتمع . فإن رأيت فساداً أو طغياناً إياك أن تيأس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلاً ، بداية ونهاية ، ففي أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاغية يجب أن يتمثل هذه الآية :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

(سورة الأعراف)

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عضّة تجعلهم يصرخون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه ، والألم وسيلة العافية لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعي ، وعلى ذلك فالمسائل التي تحدث في الكون وهذه الأمم التي تظلم . وتضطهد . ولها جيروت وطيغان إنما تفعل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تيأس ، ولكن عليك أن تستشرف إلى الحق . وإلى جناب الله فتلوذ به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا وإحة الإيمان بالله ؛ ففروا إلى بيته حجاجا وإلى مساجده عمّاراً وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وننظر إلى هذه الأمور ونقول : إن الطاغية الفاجر مهما فعل فلا بد أن يسخره الله لخدمة دينه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأخنى عليهم كان سلط عليهم ظالماً لما فروا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

إن في واقع حياتنا يعرف كل منا أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يصلي ولا يصوم ولا يذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائداً به ملتجئاً إليه ، ولذلك نقول للظالم : والله لو عرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لندمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصبية ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتي به طغيانك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعتته أنت ، إن لكل أمة أجلاً ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

وانظر إلى التاريخ تجد بعض الدول أخذت في عنفوانها وشدتها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الخيبة وتأتي السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل . إن الحق يعمى بصائرهم في تصرف ، يظنون أنه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف يغلبهم ويسيطر عليهم . وإذا جاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيره ؛ لأن التوقيت في يد قيوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، ونلاحظ هنا وجود كلمة « ساعة » ، والساعة لها اصطلاح عصرى الآن من حيث إنها معيار زمنى لضبط المواقيت ، ونعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكبر من الساعة هو اليوم . ومن يدري فقد يخترع البشر آلات لضبط الجزء من الثانية .

وكذلك تطلق الساعة على قيام القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِينَكُمُ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

هنا ينادى الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أنه أحل لهم الطيبات والزينة وحرّم

عليهم المسائل الخمسة من الفاحشة والمنكر والبغى والإثم والشرك، ووضع لهم نظاماً يضمن سلامة المجتمع، وطمأنهم بأنه منتقم من أى أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً. فعليكم يا بنى آدم أن تأخذوا أمور حياتكم فى إطار هذه المقدمات .

﴿ يَبْنِي آدَمَ إِمًّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي . . (٣٥) ﴾ [سورة الأعراف]

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال الملهوف المستشرف المتطلع إلى ما يحميه وإلى ما ينفعه؛ لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ما أحله الله من طيبات الحياة وملاذها، ويبين لكم ما حرم الله ليحيا المجتمع سليماً.

كان المظنون أن ساعة يأتى الرسول نجد المجتمع يحرض على ملازمته وعلى تلقى البلاغ منه، لا أن يظل الرسول يدعو باللين بينما المجتمع يتأبى عليه . لكن من رحمة الله أن يتأبى المجتمع ويلح الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كى يأخذ كل إنسان ما يساعده على أمر حياته ويهتدى إلى الصراط المستقيم، وأنت إذا ما أصبت فى عافيتك تلح على الطبيب وتبحث عنه، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول ليلبغنا منهج الله فى إدارة حركة الحياة أن نشوق إليه ونتطلع، لا أن نعاديه، وعادة ما يسعد بالرسول أهل الفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول : أنه رسول ومعه آية صدقه . ويقيس أهل الفطرة السليمة قول الرسول بماضيه معهم ، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم . وهذه فائدة قوله الحق :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

[سورة التوبة]

رَعُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾

فلم يأت لكم إنسان لاتعرفونه بل لكم معه تاريخ واضح وجلى، لذلك نجد الذين آمنوا برسول الله أول الأمر لم ينتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن، لكنهم آمنوا به بسوابق معرفتهم له ؛ لأنهم عايشوه، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه . ومثال ذلك : عندما أخبر محمد ﷺ سيدتنا خديجة -رضوان الله عليها- نبأ

رسالته وأسرها بخوفه من أن يكون ما نزل إليه هو من أمور الجن أو مسها ،
أسرعت إلى ورقة بن نوفل ؛ لأنه عنده علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله
صلى الله عليه وسلم : « إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق
وتكسب المعدوم » .

وكل هذه المقدمات تدل على أنك - يارسول الله - في حفظ الله ورعايته ؛ لأنك
كنت مستقيم السلوك قبل أن تُنبأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقول أن
من يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟! وكذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق
بمجرد ما أن قال رسول الله : أنا رسول ، قال له : صدقت .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صدق الفطرة ، وهذه هي فائدة ﴿ رسول
من أنفسكم ﴾ أو من جنسكم البشري حتى نجد فيه الأسوة الحسنة . ولو جاء لنا
رسول من الملائكة وقال لنا : هذا هو المنهج ولكم أسوة بي ، كنا سنرد عليه الرد
المقنع السهل اليسير : وهل تقدر أن تفعل مثلك وأنت ملك مفطور على الخير ؟ .
لكن حين يأتينا رسول من جنسنا البشري ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ،
وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموجودة ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن
قالوا ما جاء به القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۗ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه الغباء وقصر النظر والغضب ؛ لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل
كانوا يريدون ملكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طبائع
البشر ؟ . ولذلك يرد الحق الرد المنطقي :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا

رَسُولًا ﴿٦٥﴾

(سورة الإسراء)

وذلك حتى تتحقق لنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يقتحم وجودكم التكليفي ، ولم يُدخلكم في أمر يشد ويشق عليكم لكنه جاء لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه . ولم يأت به من جنس آخر .

﴿ يَبَيِّنُ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكَ رُسُلٌ مِنْكَ يَقَصُّونَ عَلَيْكَ آيَاتِي ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

وانظر قوله : ﴿ يَقَصُّونَ عَلَيْكَ آيَاتِي ﴾ ، لقد جاء بكلمة « يَقَصُّونَ » لأن القصص مأخوذة من مادة « القاف » و « الصاد المضعفة » ؛ وهذا مأخوذ من « قص الأثر » ، وكان الرجل إذا ما سرقت جماله أو أغنامه يسير ليرى أثر الأقدام . إذن ﴿ يَقَصُّونَ عَلَيْكَ آيَاتِي ﴾ أى أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا ينحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثر فى الأثر .

﴿ فَمَنْ آتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

و « التقوى » هو أن تجعل بينك وبين شىء يضرك وقاية . ولذلك يقول الحق : ﴿ اتقوا النار ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بالعمل الصالح لهيب النار . وإذا قيل : ﴿ اتقوا الله ﴾ أى اتقوا متعلقات صفات الجبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بفعل الأوامر وتلتزموا أيضاً بترك النواهي . والأمر بالتقوى هنا يعنى ألا ننكر ونجحد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإنقاذ البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمنهج الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فمَنْ آتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

و « أصلح » تدل على أن هناك شيئاً غير صالح فجعله صالحاً ، أو حافظ على صلاح الصالح ورقي صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود بئر نشرب منه ، فإن كانت البئر تؤدي مهمتها لا نردمها ، ولا نلقى فيها قاذورات ، وبذلك نبقي الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نزيد من صلاح البئر بأن نبني حول فوهتها سوراً ، أو أن نقوم بتركيب مضخة تمتص الماء من البئر لضخه إلى البيوت . وبذلك نزيد الصالح

صلاحاً ، والآفة في الدنيا هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فحين تقدم على أى عمل لابد أن تعرف مقدمات هذا العمل ، وماذا ستعطيه تلك المقدمات ، وماذا سوف تأخذ منه . وأبق الصالح في الكون على صلاحه أوزده إصلاحاً ، وهنا لا خوف عليك ولن تحزن على شىء فاتك ليتحقق قول الحق :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

وما المقابل لمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ أى هؤلاء الذين أصلحوا واتفقوا؟ المقابل هو ما يأتى فى قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين ؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا فى حسابهم أن يكون لهم نصيب فى الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية ، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ ۗ

مِنْهَا وَمَالُهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٠﴾

(سورة الشورى)

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ في الدنيا ، فلماذا نسي أنها موقوتة العمر ؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن في الآخرة ؟ . عليك أن تعلم أنك في هذه الدنيا ، خليفة في الأرض ، ومادنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلا بد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شيء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هي لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية في الكون هي الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذي يستكبر عن آيات الله هو من دخل في صفقة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان في الدنيا قليل ، وزمن الآخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان في الدنيا مظنون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله .

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠﴾﴾

(من الآية ٣٦ سورة الاعراف)

وأصحاب النار . يعنى أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على إلف بالعاصين ، وهى التى تتساءل: ﴿هل من مزيد ؟﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ
أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّا لَمَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

اللَّهُ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا

كٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿فمن أظلم﴾ تأتي على صيغة السؤال الذي لن تكون إجابته إلا الإقرار . ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولاً ظلم نفسه ، وظلم أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلا أنه سيأخذ أوزار ما يفعلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً . ﴿أو كذب بآياته﴾ .

أى قول الله ما لم يقوله ، أو كذب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للآخر . والآية - كما نعلم - هي الأمر العجيب ، والآيات أطلقت في القرآن على معانٍ متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿كُنْتُ فَصَلْتُ آيَاتِي﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وكذلك أطلقت على المعجزات التي يرسلها الله تأييداً لرسوله .

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فلايات هنا هي المعجزات أي الأمور العجيبة .

وحدثنا القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

فلاية إذن هي الشيء العجيب وهي تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون

كله تقول لنفسك : هذا شيء عجيب ؛ لأن الذي جاءت على لسانه هذه الآيات نبي أمي ، ما عرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً ، أوله رياضة في كلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، ومادرس تاريخ الأمم حتى يستنبط القوانين التي أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهب بمنهجها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجيء الرسالة مع سيدنا رسول الله ﷺ يتخلص في نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته ﷺ جاء بنظام يجمع أم العالم كلها ، ثم ينجح في إدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التي نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل في فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب .

إذن فالعجائب في الآيات هي آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ . ألا ينظرون إلى الكون . وما فيه من دقة صنع وهندسة بناء تكويني لاتضارب فيه ؟ وهي آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا في آيات الكون ليستنبطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التي جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقيمتها آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ، تساءل : كيف تقولون . إنه سحر الناس فآمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنت ؟ . وحينما قالوا :

قال الحق :

﴿ .. لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[سورة النحل]

وقالوا :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾

[سورة الفرقان]

فيعلم الحق رسله أن يقول :

[سورة يونس]

﴿ .. فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وهنا يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشيء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ أنهم خلق الله ، والله استدعاهم إلى الوجود ، لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب الكون أن تكون خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هي في خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه خلق فلا بد أن يرزق ، والنواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصي ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلاً .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذي قَدَّرَ لهم ، من الرزق والحياة ، ما هو مسطر في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

[سورة الأعراف]

﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾

أوينالهم ، أى يصيبهم عذاب مما هو مبين فى الكتاب الذى أرسلناه ليوضح أن الطائع له الثواب ، والعاصى له العقاب ، فيقول الحق هنا :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

وساعة تسمع ﴿ يتوفونهم ﴾ تفهم أن الحياة تنتهى ، وتنفصل الروح عن الجسد فهذا هو « التوفى » ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة ينسب إلى المَلِك ، ومرة يراد منه أتباع المَلِك أى جنوده يقول - سبحانه - : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة ملتقمة ؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أخذ التلقى من الله ، فالأمر الأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسول .

و « التوفى » على إطلاقه هو استيفاء الأجل ؛ فإن كان أجل الحياة فهو توفية بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التى بين القبر والحساب . إلى أن يجىء ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفى أجلهم الثانى ؛ لأن كل إنسان له أجلان : أجل ينهى هذه الحياة ، والأجل الذى يأخذه فى البرزخ إلى أن يجىء الحساب . وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتى بموته ؛ لأن للقيامة مراحل بدءاً من القبر ونهاية بالخلود فى الجنة أوفى النار .

وحين تسألهم الملائكة :

﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختفوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأُنَا لَمْ نَخْلُقْ جَدِيدًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة النجدة)

وهم - إذن - يقرون غياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن في دار قهر لكل ما يريد الله ؛ ففي دار التكليف كان الإنسان حراً أن يفعل أو ألا يفعل ، ولكن في الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذي يصيهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا
حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبْتُهُمْ
لَأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا
مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨)

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿ كن ﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمة قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذي يذهبون إليه ، وهم أمة خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقي كله في الجزاء .

إن الاقتداء بالأمة التي سبقت هو الذي قادهم إلى الكفر ؛ فالأمة التي سبقت كانت أسوة في الضلال للأمة التي لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنواهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يغربه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان في السجن
ألا يلعن الأول الثاني ؟

﴿ كَلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَعَنْتَ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِهِمْ
لَأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا
تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ [سورة الأعراف]

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أُخْرِهِمْ لَأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .. ﴿٣٨﴾

[سورة الأعراف]

فإن قلت الأخرى أى التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القدوة فى الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ ﴾ ، أى أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا . ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ .

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاطبوا ؛ لأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ فهؤلاء ، هذه رشارة إليهم ، فكان القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون لربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق :

[سورة الأعراف]

﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .. ﴿٣٨﴾

فقال الله لهم جميعاً : ﴿ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ .. ﴿٣٨﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت . ونفهم أن الضعْف معناه «شئ مساوٍ لمثله» ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتكم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتكم الناس باتباعهم .
ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتهم أيضاً ، وأنتم لاتعلمون أن من يحاسبكم دقيق في الحساب ، ويعطى كل إنسان حقه تماماً .
وماذا تقول أولاهم لآخرهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَهُمْ لَأُخْرِنَهُمْ فَأَمَّا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا
مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٢٩)

أى مادتمم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس «فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ومعلوم أن التذوق في الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ لا ، إن الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، والحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو في الجسم حساسية الذوق كالتى فى اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ

بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢) [سورة النحل]

وهذه هي الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد . (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) .
ولم يقل الحق : بما كنتم تكسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعي في التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنع ، وفي السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعي ، وهذا هو الخطر الذي يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٤١)

والحق يريد أن يعطى حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليعرف بجريمته ، وهي جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأن من يرتكبها يلقي حكماً وعقاباً . (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) .

وقد عرفنا من قبل معنى الايات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الايات الكونية ، وأي إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمامته ، وهذا الانسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً ﷺ لم يكن له من الجاه ولا سلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) [سورة الزخرف]

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يكذب الايات ويستكبر عن اتباع الرسول لاتفتح له الأبواب السماء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف]

وبذلك نعرف من هم الذين لاتفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء . . إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملاء الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) .

و«سم الخياط» هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوفة وأطرافها مستوية فهى لا تدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين نأتى بالجمل ونقول له : ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بعض الناس قالوا : وما علاقة الجمل سم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضاً على الحبل الغليظ المقطول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجد سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوفه إليه وصبايته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

ولو أن ما بى من جوى وصبابة
على جمل لم يدخل النار كافر

لان الجوى والصبابة التى يعانى منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف
ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل فى سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا : إن دخل
الجمل فى سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة .

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الاعراف)

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجزموا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هى الغطاء ، أى أن فرش هذا المهاد
وغطاءه جهنم . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الزمر)

إذن الظلل والغواشى تغطى جهتين فى التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى :
الأمم والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ،
والغواشى تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم
تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .
وجهنم مأخوذة من الجهرمة وهى الشئ المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتى بالمقابل ليشحن النفس بكرهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ
نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ، ويضع لنا الحق تشبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو فى مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك فى حدود وسع المكلف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال فى أهل النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَأُفَتِّحَنَّ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق :

﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٤١) [سورة الأعراف]

فى الأولى قال :- سبحانه- (وكذلك نجزي المجرمين).

وفى الثانية قال : (وكذلك نجزي الظالمين).

فكان الإجماع كان سبباً فى ألا يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من فوقهم غواش ، لهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التى تكرهنا فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وسبب بشاعة جزائهم ثانياً ؛ أن تتلطف على المقابل . فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤٢) [سورة الأعراف]

وقول الحق سبحانه وتعالى : «لأنكلف نفساً إلا وسعها» جء بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضى ؛ لأن أسلوب يقتضى إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت «لأنكلف نفساً إلا وسعها» بين العمدين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع «والذين آمنوا» فهذا عمل قلبى ، ونسمع بعده «وعملوا الصالحات» وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أى بعمل القلب مععمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو سهل دائماً السلوك الإيمانى ويجعل مشاق التكاليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أنى قد كلفتكم فوق طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا ما فى الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات» هو رغبة فى إرهاب نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأننى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد . وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف الآلة الصماء فوق ما تطيق ، أى يكلف الذى خلق البشر فوق ما يطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن غلق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فأحكم بأن ذلك في الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أن غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجدد غيرك لا يشرب الخمر امثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لا يمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لالصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ«فعل» و«لا تفعل» وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا إذا كان قادراً على أن يؤدي مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، لذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذي يضع في موضع الشطط . فقال :

﴿ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ۖ ﴾ (٧) [سورة الطلاق]

«قدر على رزقه» أى ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۗ ﴾ (٧) [سورة الطلاق]

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش في حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوى دخلك ؛ لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك .

ولننظر إلى ما آتانا الله ؛ لذلك لا تدخل في حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق .

ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتاني الله ، لا ، عليك ألا تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت في نطاق ما أحل الله يعينك الله علو كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التي تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك - على سبيل المثال - وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا في حدود ما في طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما في طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا في حدود ذلك .
ولذلك قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤٧)

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب صاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت في الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تترك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفي ذلك لفت لقضايا الله في كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغنى قد صار فقيراً ، فلا شيء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتي إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذي لا يتأبى على قدر الله في رزقه وفي عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفي الجنة يُخلى الله أهلها من الأغيار .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ
الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ

وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله الحق: « ونزعنا ما في صدورهم من غل » ينطبق - أيضا - على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم في الدنيا ، واختلفوا ، هؤلاء يعيشون يوم القيامة وليس في صدر أحدهم غل ولا حقد . ولذلك تجد سيدنا الإمام علياً - كرم الله وجهه - حين يقرأ هذه الآية يقول : « اللهم اجعلني أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء . لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف في مسألة الخلافة ، وكل منهم صحابي ومبشر بالجنة ، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم في دار الجزاء في الآخرة ؛ لأن الله يقول : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك في أغيار الدنيا شيء من عمل القلب ، وأوضح سبحانه : إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم في الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله ، وفي الآخرة لا اجتهاد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله في الزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، أو لأن والدها له جاه أو غنى ، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغنى شيئاً من ماله فيقول : غشني وزوجني ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقي فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهاها ، ونقول لمثل هذا الرجل : مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار .

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبحاً ، فلن يصحبه هذا القبح في الآخرة ، ولذلك تجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها في الأبناء أو في البنات ، بل في الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة . فبين للرجل : إياك أن تتخيل أن المرأة التي غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة ستصاحبها في الآخرة ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التي كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

﴿ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة : « تجرى تحتها الأنهار » ومرة يقول : « تجرى من تحتهم الأنهار » ، ونجد « من » فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر في قصر ونجد الماء مناسباً حوله وتحت يسر العيون ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء في الدنيا سنسر به أضعاف ذلك في الآخرة . وقد تجرى المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجری من تحت جناتكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ؛ لأن كل شيء ممسوك لا بالأسباب كما في الدنيا ، ولكن بـ « كن » التي هي لله . ولذلك يقول العباد في جنة الآخرة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هي عبادة يقولها المؤمنون في الآخرة ؛ لأنهم أدوا حق الله في تكاليفه في الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون في الآخرة . ونعيم الآخرة لا قيد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما في الجنة ؛ لأن الشيء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك . (وقالوا الحمد لله) .

وهذا الحمد لله كان في الدنيا عبادة تكليف ، أما في الآخرة فهو « عبادة غبطة وسرور وتلذذ . (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

يقولها المؤمن ؛ لأن الله لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصي لما وصل إلى الجنة . والهداية - كما قلنا - هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لا بد أن تعرف الغاية أولاً ثم تضع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : « وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهج المنزل على رسوله .

ومادامت الهداية من الله فسيحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه ينزل الرسل يتلون علينا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتي الحق في الآية نفسها بقوله الحكيم :

﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَّبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَلَكَوا الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

أنت في الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فانا أنصحك أن تمشي إلى المكان الفلاني واذهب إليه عن الطريق الفلاني ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته ونفذت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لا بد أن يشكروا الله وأن يقولوا : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم . (ونودوا أن تتكلم الجنة أورتتموها بما كنتم تعملون) .

وكان الحق يوضح لنا ونحن في دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من منهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا - جزاهم الله خيراً - وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَنُودُوا أَنْ تَتَلَكَوا الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لن يدخل أحداً عمله الجنة

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة^(١) .

وأقول: ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق عليه السلام الذي بلغ عن الله سبحانه، بل بينهما تأييد؛ فالحق ساعة ما شرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه، بل هو الذي يعطيه لنا فضلاً منه؛ فليس لأحد حق على الله؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة على الله، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بفضل من الله. وينبهن القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لاتعارض بين نص حديثي ونص قرآني. يقول:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾

[سورة يونس]

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنه يأخذ مكافأته على فعله، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء الفعل فهي من الفضل؛ لأن الحق هو القائل:

[سورة الطور]

﴿ .. كُلُّ امْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢٦) ﴾

وسبحانه أيضاً هو القائل:

[سورة النجم]

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) ﴾

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة ناضحة تقول: هذه «اللام» للملك. وتفيد أنه لاحق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله، وأن هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل.

(١) رواه البخارى فى الرقاق والمرضى ومسلم فى صفات المنافقين والترمذى فى الجنائز وأبو داود فى الجنائز، والنسائى فى الجنائز، وابن ماجه فى الزهد، وأحمد فى مسنده ١٢٥/٦ .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨) ﴾ [سورة يونس]

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئاً زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن صلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهي صلاة على ميت مسلم ، وأسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ .. (٢١) ﴾ [سورة الطور]

أى أن الآباء والأبناء يشتركون معاً في الإيمان وفي العمل ، قوله تعالى :

﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [سورة الطور]

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكل قد اشتركوا في الإيمان ، وكان الآباء يتحرون الحلال في إطعام الأبناء ولا يبرونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناء جاره يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعيشون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة .

﴿ .. وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [سورة الأعراف]

و«أورثتموها» من «الإرث» وتدل على أن هناك شيئاً آلاً إلى الغير . ونعلم أن الله ، علم أزلاً كيف سيسلك كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه في الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل

واحد من خلقه مكاناً في النار على أساس أنه سيكفر .
 إذن فقد أعد سبحانه جناتاً بعدد خلقه ، وأعد أماكن في الجحيم بعددهم ، فليست هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و- والعياذ بالله - إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار؟ إن الحق بفضل منه يمنحها المؤمنين .
 إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام في الجنة والجزاء وفي حمد التلذذ والسرور والغبطة وفي عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدَّوَجَدْنَا
 مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا
 نَعَمْ فَإِنَّ مُؤَدِّينَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لنا الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا التراثي من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن بمنهج الله من عاداه وقهره وآذاه وهو في النار فهذا من تمام اللذة . والآخر حين يرى مخالفه في الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لا بد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة . فهل - يا أهل النار- وجدتم ما وعدهم ربكم حقاً؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقي واحد؛ فأهل الجنة يقولون : « قد وجدنا ما وعدهم ربنا حقاً » ، ولم يأت بالكاف في كلمة ما وعدهم (الثانية) بل قال : « فهل وجدتم ما وعدهم ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله . فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم في الجنة فضلا من الله ، وأهل النار في النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله . وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم) .

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدي الذي عاشوه واقعاً بعد أن كان وعيداً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين في غير مشهد ، وهم في الدنيا قبل أن يوجد المشهد كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم في النار .

﴿ قَاذِنٌ مَّوَدِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأعراف)

أى فينادى مناد من الملائكة يُسمع أهل الجنة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

والذي يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أى ضل في ذاته ثم أضل غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويذمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ لينصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عما شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَبِينُهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلِمًا
بِسْمِئِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ
لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يتراءون من خلاله ، وبينه الحق سبحانه فقال :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْتَسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ
أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِاطْنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وَوَظَّيَرَهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النار فيه العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمئنتهم في أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتسمون الهدى في غير موطن الهدى ؛ فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب في نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله في الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به . وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس في مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

﴿ وَيَبِينُهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلِمًا بِسْمِئِهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

و«كَلِمًا» المعنى بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقدم عندنا فريقان ؛

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و«الأعراف» جمع «عُرف» مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شئ فيه ، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلاً لاستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل في منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه . وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة - أصحاب الأعراف - يقول للأعلى - أصحاب الجنة - سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم في ميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾

[سورة القارعة]

﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين . . فريق ثقلت موازينه ، وفريقاً خفت موازينه ، ومنتهى المنطق في القياس الموازيني أن يوجد فريق ثالث هم الذين الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فیدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فیدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على « لجنة الرحمة » فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوا ، لكنهم يطعمون في أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤١٥١

﴿ .. وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (٤٦)

[سورة الأعراف]

وبطبيعة الحال ليس في هذا المكان غش ولا خداع .

وماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا

لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧)

انظر إلى التعبير القرآني « صرفت أبصارهم » أي لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكان في « صرفت أبصارهم » لونا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء » أي جهة أصحاب النار يقولون : (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف : يارب جنبنا أن نكون معهم . إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعيذون به ألا يدخلهم معهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجًا لَّا يَعْرفُونَهم بِسْمِئِهِمْ

قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

﴿ ٤٨ ﴾

وكان أصحاب الأعراف قد صرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين ، فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق ومع الحق ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) .

وكانهم يقولون لهم : إن اجتماعكم على الضلال في الدنيا لم ينفعكم بشيء . . . شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئاً ؟ لا . لم يغن عنكم شيئاً .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ اقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبي جهل والوليد بن المغيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله ؟ هم إذن-أهل الأعراف- قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكانهم نسوا حالهم أن يقفوا في انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار ، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفصل في هذه المسألة ، وهنا يدخل الحق سبحانه أصحاب الأعراف جنته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم :

﴿ .. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وهؤلاء-كما قلنا-هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ هي الطائفة التي جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، لم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا
عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّا
لِللَّهِ حَرَمٌ مَعَالَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم في الجنة ، فيقول أهل الجنة : نحن مربوطون الآن بـ « كن » ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أى شيء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . وحين يطلب أهل النار الماء ، فهم يطلبون أوليات الوجود ، في نار أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة :

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ
يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية من هم الكافرون الذين حرم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هي اللعب ثم تأتي له مرحلة اللهو . ونعلم أن كل فعل تُوجَّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن تُوجَّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كي يحدد الغاية من الجهد . وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضرراً . وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً ، فهو لعب .

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضرر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له ؟ لا ؛ لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لَعْبَهُ . والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة . ولكن حين تُوجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كان يكون المطلوب منك شيئاً وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذي يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا .

ولذلك نجد النبي ﷺ يطلب من الأهل أن يدرّبوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر في زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقب ؛ لأن الحكم يرقب المباراة ، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأتساءل : لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهي الطاولة ويترك الشغل الذي ينتج له الرزق ، وليت هذا اللهو مقصوداً على اللاهي ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهي ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذي كان يجب أن يُستغل في طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتي من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن فاللهو طاقة معطلة . (اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا) .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتي من الأسباب التي خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرّتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذي يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ قَالِيَوْمَ نَسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأعراف)

فهل يعني قوله عز وجل : « نساهم » أنه يتركهم لما يفعلون ؟ لا ، بل تاخذهم

جهنم اتشويهم ، ونسيانهم هنا هو أنه - سبحانه - لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلفح وجوههم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هي المكان الذي يعد فيه الإنسان مكانه في الآخرة ، فإن أراد مكاناً في عليين فعليه أن يؤدي التكليف الذي يعطيه مكانه في عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدي العمل الأقل . كان الإنسان بعمله هو الذي يحدد مكانه في الآخرة ؛ لأن الحق لا يجازى الخلق استبداداً بهم وافتياتاً أو ظلاماً ، ولكنه يجازى الإنسان حسب العمل ؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذي يُنزله لنا الحق قرآناً يندرنا ويشيرنا هو دليل لكل مسلم حتى تتنافس على أن تكون مواقعنا في الآخرة مواقع مشرفة .

﴿ الَّذِينَ آتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وحين يقول الحق سبحانه : « وما كانوا بآياتنا يجحدون » فالآيات إما آيات كونية :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وإما آيات قرآنية كقوله سبحانه :

﴿ كَذَّبُ فُضِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وإما أن تكون آيات معجزات لإثبات النبوة كقوله سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

هم إذن جحدوا الآيات كلها ، وكان أول جحود هو جحود بالآيات الكونية التي

شاهدوها قبل أن يأتي التكليف، فهم عاشوا الليل والنهار. وتنفسوا الهواء، واستمتعوا بدفء الشمس، وروى المطر أراضيهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطى الإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة، وكان يجب أن تلفتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً هو الحق الأعلى. وحين جاء لهم الموكب الرسالي جحدوا آيات المعجزات التي تدل على صدق الرسل. وحين جاء القرآن معجزاً جحدوا الآيات التفصيلية التي تحمل المنهج. إذن فلا عذر لهم في شيء من ذلك لأن الحق يقول:

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أى لا عذر لهم في شيء من هذا الجحود؛ لأن الكتاب مفصل، وقد يقولون: إن الكتاب طارئ علينا، وكذلك الرسول الذي جاء به. إذن فما موقفهم من الآيات الكونية الثابتة؟ لقد جحدوها أيضاً. (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم).

و«فصلناه» أى أنه سبحانه لم ينزل كلاماً مجملاً أو مبهماً، لا، بل فيه تفصيل العليم الحكيم، أنه فصل أحكامه ومعانيه ومواعظه وقضضه حتى جاء قيماً غير ذي عوج، وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان.

إنه حينما يأتي إلينا من يستفتينا في أى أمر ويحاول أن يلوى فى الكلام لناأتى له بفتوى تبرر له مايفعله، فنحن نقول له: ليس لدينا فتوى مفصلة؛ لأن الفتاوى التي عندنا كلها جاهزة، ولك أن تدخل بمسألتك فى أى فتوى.

﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف]

وهناك أناس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واهتدوا، فلماذا اهتدى هؤلاء وضل هؤلاء؟ لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا فى سورة البقرة:

[سورة البقرة]

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾

إذن فقد آمن بالقرآن من اهتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع . وأيضاً هناك من لا يلمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا .. (١٦) ﴾ [سورة محمد]

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك تجرد الحق يرد عليهم بقوله سبحانه :

﴿ .. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [سورة محمد]

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [سورة فصلت]

سبق أن ضربنا المثل بأن الفعل فى بعض الحالات واحد ، لكن القابل للفعل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال : إذا كنت فى الشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً ، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد ، فتضم قبضتيك معاً وتنفخ فيهما ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة من كل تدفى يديك . وكذلك حين يأتى لك كوب من الشاي الساخن جداً ، وتحب أن تشرب منه ، فأنت تنفخ فيه لتأتى له بالبرودة . والنفخة من فمك واحدة ؛ تأتى بحرارة ليديك ، وتأتى بالبرودة لكوب الشاي ، وهكذا فالفعل واحد لكن القابل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان عنده استعداد للإيمان فهو يهتدى به ، ومن لا يملك الاستعداد فقلبه غلف عن الإيمان .

وموقف هؤلاء العاجزين عن استقبال الرحمة موقف غير طبيعي ، وماذا ينتظرون بعد هذا الكفر ، وبعد الافتئات وبعد الاستكبار وبعد التأبى وبعد اتخاذ الدين لهواً ولعباً ، ماذا ينتظرون ؟

ها هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ
الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

وما معنى التأويل ؟ .. التأويل هو ما يؤول إليه الشيء ، هو العاقبة التى يعدها الحق ، فالرحمة والجنة لمن آمن ، والنار لمن كفر ، والحق هو من يقول ويملك قوله لأن الكون كله بيده .

وهنا يقول سبحانه وتعالى : (هل ينتظرون إلا تأويله) .

أى هل ينتظرون إلا المرجع الذى يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتى تأويل وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتى يوم القيامة ويتضح الحق ويظهر صدق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذا سيكون قولهم ؟ .. سيقولون ما أورده سبحانه على ألسنتهم : (يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) .

أى أنهم سيعلنون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا فى دار التكليف ، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك .

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَةٍ
فَيَشْفَعُونَ لَنَا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

هم إذن يقولون بأن الرسل حملت المنهج الحق ويتساءلون عن الشفيع . ونعلم أن الشفيع لا بد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن في الدنيا نجد من يبحث لنفسه عن من يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيراً وعزيزاً لديه ، أو يكون له كلمة وفضل عليه فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتي يوم القيامة بالشفاعة لهؤلاء ؟ .. لا أحد ، وسنجدهم يتخذون الشفعاء من الذين اتخذوهم أنداداً لله . وسيعلمن هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ، ولو مكنتهم الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ؛ ففي الدنيا كان هؤلاء مؤتمرين بأمر البشر وضلالانهم . أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإرادة أحد ، حتى الجوارح لا تخضع لإرادة صاحبها ، بل هي خاضعة للحق الأعلى . وفي الآخرة لا مرادات لأحد .

وقد ضربنا من قبل المثل وقلنا : هب أن سرية في جيش ما وعليها قائد صغير برتبة ضابط ، ومفروض في جنود السرية أن ينفذوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الضابط الصغير أوامر خاطئة بما له من فرض إرادة عليهم فنفذوا ما أمروا به . ولحظة أن يعودوا ويحاسبهم القائد الأعلى فيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الضابط المكلف بقيادتنا ، وكذلك ستأتى الجوارح فى الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم وجلودهم .

إذن فالأبعاض سترفع شكواها إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملك سواء ، ويومئذ سيقول المكذبون الصدق الذى لن يفهم .

﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

وسوف يبحثون عن شفاعة ، لكنهم لن يجدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم .

ولذلك نجد قوله الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَكُرُّ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾ (٩٨)

(سورة الأنبياء)

وما ذنب المعبود ؟ .. إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن يشفى نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعطوه غير حقه . ولذلك نجد أن الأحجار التي عُبدت تقول : عبدونا ونحن أعبد الله من القائمين بالأسحار ؛ لأن القائم في الأسحار من الأعيار قد يختار أمراً غير هذا ، ولكننا كنا مقهورين على الطاعة ، وقد اتخذوا صمتنا علينا دليلاً .

إن الأحجار تعلن أنها لم تكن تملك قدرة رفض أن يعبدها أحد أو أن تبعده عنها وتعلن له غبائه .

والشاعر يقول :

قد تجنوا جهلاً كما قد تجنوا على ابن مريم والحواري
للمغالي جزاؤه والمغالي فيه تنجيهِ رحمة الغفار
وهكذا يأتيهم الحق واضحاً يوم القيامة .

إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا ، وهذا من الخيبة ؛ لأن مثل هذا الإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالغيب لا في المشهد . وحتى ولو عادوا ، فلن يؤمنوا !
والحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأنعام)

وكانهم نسوا لحظة إقرارهم أنهم من الأعيار ، وأتى فيهم القول الفصل من الله .

﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

لقد جاء لهم الخسران بعد أن غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله في الدنيا ، إنهم

رفضوا عبادته- سبحانه- وعبدوا غيره أصناماً صارت وقوداً للنار التي سيصلونها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْيَلَّ النَّهَارَ
يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ
بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ



هنا ربوبية ، وهنا ألوهية : «ربكم الله» ولا أحد يختلف في مسألة الربوبية لأن الحق يقول على ألسنة الكافرين والمشركين :

﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٨)﴾ [سورة الزمر]

وكذلك إن سألتهم من خلقهم ؟ سيقولون : الله ، ولم يدع أحد نفسه مسألة الربوبية ، لأن الربوبية جاءت بنفع لهم ، لكن الألوهية دخلت بمنهج هو : «افعل ولا تفعل» ؛ لأن التكليف من الإله الرب ، والتكليف نعمة منه وهو لمصلحتكم أنتم ، فلا شيء في التكليف يعود على الله . وفعلكم الحسن أو السيء لن يعطى الله صفة لم تكن له ؛ لأن صفات الكمال أو جدكم . وإن كنتم أنتم في شك في هذه الربوبية فربكم هو الله -ولله المثل الأعلى- منزه عن التشبيه ، كأن تقول الأم للولد : قال لك أبوك لا تسهر خارج المنزل ليلاً ، فيتأبى الولد . وتبته الأم ولدها : إن أباك هو الذي يأتي لك بالأكل والشرب ، والملابس ويعطيك مصروف اليد . . إلخ .

وقد ضربت هذا المثل لأشرح كيف أن المكلف هو الرزاق ولا أحد سواه يرزق ، لذلك كان يجب أن تقبل تكاليفه لأنه سبق لك بالفضل بأن أعطى لك وسخر لك الدنيا .

ومن قبل فصل الحق سبحانه لنا خلق الإنسان ، ويفصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود الإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتي له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألتان ينشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لا يقبل ؛ لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا ممن خلق الخلق ليقول لكم كيف خلق الخلق .

هو سبحانه يقول :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

[سورة الأعراف]

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض - كما أوضحت - وهو الظرف الوجودي للإنسان الخليفة وطراً الإنسان على هذا الكون بكل مافية من قوى ونواميس ، فكأن الله أعد الكون للخليفة قبل أن يُخلق الخليفة ليحيى الخليفة فيجد كوناً مسخراً له ؛ ولا يستطيع أى كائن منه أن يخرج عن مراد الله فى شىء (إن ربكم الله الذى خلق).

ومعنى «خلق» أى أوجد شيئاً كان معدوماً وبرأه على غير مثال سبقه . فربنا سبحانه قدر كل شىء بنظام دقيق غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة «الخلق» مادتها الفاعلة هى : خالق ، وسبحانه وتعالى يجمعها مع أنه الخالق الوحيد فيقول :

﴿.. فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾

[سورة المؤمنون]

إذن فهناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضاً أشرك خالقاً غيره معه فقال

جل وعلا : (فتبارك الله أحسن الخالقين) . كيف ؟ ؛ لأن الخلق إيجاد شيء معدوم ، والذي صنع الميكرفون يقال خلقه ، والذي صنع الكوب يقال خلقه ، والذي صنع المصباح يقال خلقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأوجده . لكن الفارق أن الخالق من البشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتي بمادة جديدة ؛ فمن أخذ المواد الموجودة في الكون وصمم منها المصباح وصهر الرمل وفرغ الهواء داخل الزجاج يقال له : خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود .

لكن الخالق هو خير الخالقين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجدون شيئاً معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شيء ، وايضاً فإنكم حين تخلفون أى صنعة تظل جامدة على هيئة صناعتها ، فمن صنع الكوب من الرمل المصهور يظل الكوب هكذا ، ولا نستطيع - كما سبق أن قلت قديماً - أن نأتي بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، ونضعهما معاً في مكان ونقول لهما : أنجبا لنا أكواباً صغيرة .

لكن ما يخلقه ربنا يعطى له سر الحياة ويجعله بالقانون ينتج غيره وينمو ويكبر . إذن فهو أحسن الخالقين .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض . وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جاءت مجموعة . أما الأرض فجاء بها مفردة . لكنه جل وعلا قال في آية أخرى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الطلاق)

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضي ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ . لماذا لم يقل : سبع أراضي ؟ ؛ لأن كلمة « أراضي » ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها ويسر نطقها .

والسماء هي كل ما علاك فأظلك ، هذا معنى السماء في اللغة . لكن هل السماء التي يريدنا الله هي كل ما علاك ؟ . إن النجم هو ما علاك ؛ وقد يقال : إن الشمس علتك ، والقمر علانا جميعاً . ونلفت الانتباه هنا ونقول للناس الذين أحبوا أن يجعلوا

السَّمَاوَاتِ هِيَ الْكَوَاكِبُ إِنَّهَا لَيْسَتْ دَائِمًا مَا عَلَانَا ؛ فَالشمسُ تَعْلُو وقتًا وَتَخْفِضُ وقتًا
آخَرَ . وَكَذَلِكَ الْقَمَرُ .

إِذْنِ فَالوصفُ مَنْحَسِرٌ عَنِ الشَّمْسِ أَوِ الْقَمَرِ بَعْضُ الْوَقْتِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَوْصَفَ أَى
مِنْهُمَا بِأَنَّهُ سَمَاءٌ دَائِمًا . وَشَيْءٌ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّهُمْ حِينَمَا قَالُوا عَلَى الْكَوَاكِبِ الَّتِي كَانَتْ مَعْرُوفَةً
بِأَنَّهَا كَوَاكِبٌ سَبْعَةٌ وَقَالُوا : إِنَّ هَذِهِ هِيَ السَّمَاءُ ، إِنَّهُمْ بِقَوْلِهِمْ هَذَا قَدْ وَقَعُوا فِي خَطَأٍ .
وَأَوْضَحَ الْحَقُّ لَنَا بِالْعِلْمِ أَنَّ لِلشَّمْسِ تَوَابِعَ أُخْرَى . فَمَرَّةٌ رَأَى الْعُلَمَاءُ ثَمَانِيَةَ تَوَابِعَ ، وَمَرَّةً
تِسْعَةً ، وَأُخْرَى عَشْرَةَ تَوَابِعَ ، وَهَكَذَا انْهَدَمَتْ فِكْرَةٌ أَنَّ التَّوَابِعَ هِيَ السَّمَاءُ ، وَبَقِيَتْ
السَّمَاءُ هِيَ مَا فَوْقَ هَذَا كُلِّهِ ، وَالْحَقُّ هُوَ الْقَائِلُ :

﴿ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الصافات)

هَذِهِ - إِذْنِ - زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَالسَّمَاءُ الَّتِي يَقْصِدُهَا رَبُّنَا لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي يَقُولُونَ
عَلَيْهَا ، بَلِ السَّمَاءُ خَلَقَ آخَرَ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ الْجَنُّ قَدِيمًا يَقْعُدُونَ مِنْهَا
مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ « فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شَهَابًا رَصْدًا » . وَحَدِثَ هَذَا بَعْدَ بَعْثِهِ ﷺ
وَالْحَقُّ هُوَ مَنْ قَالَ لَنَا ذَلِكَ . وَلَمْ يَوْضَحِ الْحَقُّ لَنَا حَقِيقَةَ هَذِهِ السَّمَاءِ وَنِظَامِهَا ، أَى أَنَّ رَبَّنَا
يُرِيدُ لِعَقُولِنَا أَنْ تَفْهَمَ هَذَا الْقَدْرَ فَحَسْبُ ، وَسُبْحَانَهُ خَالِقِ السَّمَاءِ الَّتِي فَوْقَنَا ، وَهُوَ جَلُّ
وَعَلَا خَالِقِ أَرْضَيْنِ . وَأَيْنَ هِيَ هَذِهِ الْأَرْضَيْنِ ؟ .. أَهِيَ أَرْضَيْنِ مَبْعُوثَةٌ ؟

وَلَقَدْ أُثْبِتَ الْعِلْمُ أَنَّ كُلَّ مَجْرَةٍ مِنَ الْمَجْرَاتِ فِيهَا مِلْيُونٌ مَجْمُوعَةٌ شَمْسِيَّةٌ ، وَكُلُّ
مَجْمُوعَةٍ شَمْسِيَّةٍ فِيهَا أَرْضٌ ، إِذْنِ فَهَنَّاكَ أَرْضٌ عَدِيدَةٌ ، وَنَلْحِظُ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ حِينَ
يَتَكَلَّمُ عَنِ الْأَرْضِ فَكُلُّ مَخَاطَبٍ بِالْأَرْضِ الَّتِي هِيَ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ
فِي هَذَا الْعَالَمِ الْعَالِي تَوْجِدَ أَرْضٍ ، وَكُلُّ أَرْضٍ أُرْسِلَ لَهُمُ الْحَقُّ رَسُولًا .
وَالْحَقُّ هُوَ الْقَائِلُ :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِنَّ مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا

يَسَاءٌ قَدِيرٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هي كل ماعلاك والأرض كل ماأقلك . ومادامت سبع سموات والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء ، وتأتى بعدها السماء الثانية تُظِلُّ السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى . ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التي نحن عليها مخلوقة لله .

والحق يقول :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . (٥٤) ﴾ [سورة الأعراف]

وقوله : «في ستة أيام» هو ظرف للخلق . واليوم نعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لا بد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية .

فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ .. سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سورة سبأ]

أى هناك ليل وهناك يوم ، إذن فالיום عند الحق غير اليوم عندنا ؛ لأننا نطلق على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم في العرف الفلكي : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ .

يعنى أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد أن وجدت الشمس ؟ . . وإذا كانت الشمس هي التي تحدد اليوم فكيف عرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خلقتا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم . ألم تقرأ قول الله سبحانه :

﴿ .. وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾ [سورة مريم]

وليس في الآخرة بكرة ولاعشى ، إذن سبحانه قد قدر البكرة وقدر

العشى، وكذلك «فى ستة أيام» وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمان الخلق ؛ ستة أيام ، ولكن آية التفصيل للخلق ، جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام . اقرأ معى :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ اللَّسَائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . . ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة فصلت]

والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول : إنها أيام ، ومن النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا زوراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحالوا أن يجعلوها ضجة عالية . ونقول : إنه - سبحانه - خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تمة أربعة أيام ويضم إليها خلق السموات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المفصل على المجرى ، فحين يقول الحق :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . ﴿٥٤﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

فهل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد ؟ . . إن ربنا يخلق بـ«كن» ، ونجن البشر نعالج على حسب قدرتنا لنخلق شيئاً ، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمناً ، لكن من يخلق بكلمة «كن» فالأمر بالنسبة له هين جداً - سبحانه وتعالى - لكن لماذا جاء بخبر الخلق فى ستة أيام ؟

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشيء وبين تهيئته للميلاد . وكنا قد ضربنا المثل سابقاً - ولله المثل الأعلى - بصانع الزبادى ، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافىء ، ثم يضع

في كل منها جزءاً من خميرة الزبادى ، ويضع تلك الأكواب فى الجو المناسب . فهل يؤدى هذا الرجل عملاً لمدة اثنتى عشرة ساعة فى كل كوب ، وهى المدة اللازمة لتخمير الكوب ؟ . . طبعاً لا ، فقد اكتفى بأن فى كل كوب عناصر التخمير لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج .

ولنظر إلى خلق الجنين من تزواج بويضة وحيوان منوى . ويأخذ الأمر تسعة شهور وسبحانه جل جلاله لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لايعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : «كن» وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام . وفى القرآن آية من الآيات أعطتنا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (٢٨)

أى خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لايعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر «كن» فكانت السموات والأرض . والآية التى بعدها فوراً تقول : (فاصبر على مايقولون) .

وكأن قوله سبحانه هنا جاء لتسلية الرسول ﷺ موضعاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب فى أن نأخذهم أخذ عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام . ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إن ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

إذن كان ربنا هو القادر على أن ينجز خلق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر «بكن» وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكل ذلك ليعلمنا التأنى ، وألا نتعجل الأشياء ؟ لأنه وهو القادر على إبراز السموات والأرض فى لحظة ، خلقها فى ستة أيام ، لذلك قال سبحانه :

[سورة ق]

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. (٣٩) ﴾

أى لا ترهق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يؤخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

وهناك من يتساءل : كيف خلق الكون بما فيه من الرواسى والكائنات ؟ . . . ونقول : إنه الإنجاز الذى أخبر به سبحانه مرة واحدة ، وانفعلت الكائنات للقدرة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع لقدرة الله ، فى كل جزئية من جزئيات الفعل ، وأخذ الأمر ستة أيام . واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول :

[سورة الأعراف]

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٥٤) ﴾

ولابد أن نعرف العرش ماهو . وسبحانه يقول فى ملكة سبأ :

[سورة النمل]

﴿ .. وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾

فالعرش إذن هو سرير الملك ؛ لأن الملك لا يجلس على العرش إلا بعد إن تستقر الأمور .

فكان قوله : «استوى على العرش» كناية عن تمام الأمور ؛ وخلقها وانتهت المسألة . لكن العلماء حين جاءوا فى «استوى» ، اختلفوا فى فهمها ؛ لأن العرش لو كان كرسيًا يجلس عليه الله ، لكان فى ذلك تحييز لله ووضع وضمه فى جرم ما . وسبحانه منزه عن أن يحيزه شىء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معانى لكلمة «استوى» منهم من قال : إن معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استعلى وارتفع أمره ، ومنهم من قال : «صعد» أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق :

[فصلت]

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١) ﴾

وكلها معانٍ متقاربة . وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات ؛ فقالوا : المقصود بـ « استوى » أنه استولى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا ندخل في متاهات التشبيهات ، أو متاهات التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شيء منسوب إلى الله في إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

فحين يقول سبحانه :

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

ونحن نفهم أن لليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يخاطبنا بها سبحانه ، فالقول أن الله يدٌ فهذا دليل على قدرته . واستخدام الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة . والإنسان عليه أن يأخذ كل شيء منسوب إلى الله مما يوجد مثله في البشر ، في إطار « ليس كمثل شئ » ، فنقول : سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر . وله وجه ليس كوجه أحد من البشر . ولذلك حينما سئل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأله : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » وأراك رجل سوء ! أخرجوه . نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بنا في متاهة التشبيه ومتاهة التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن معنى الاستواء ؟ .. لا ؛ لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلق شيء من معناها في أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ . إنهم فهموها بفطرتهم التي فطرهم الله عليها في إطار ما يليق بجلال الله وكماله .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ .. إن كان يعلم لأخبرنا بها ، وإن لم يخبرنا فقد أراد أن يكتبها . وإن لم يكن قد علم الأمر .. فهل تطلب لنفسك أن تعلم ما لم يعلمه ﷺ ؟

أو أنه ﷺ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن في إطار « ليس كمثل شئ » والذين

يؤمنون التأويل يقولون : إياك أن تؤول اليد بالقدرة ؛ لأنه إن قال : إن له يداً ، فقل ليست كأيدينا في إطار « ليس كمثله شيء » ؛ لأنه سبحانه له حياة ، وأنت لك حياة ، أحياته كحياتك ؟ . لا ، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك ؟ . . إذن لا بد أن ندخل على كل صفة لله فننفي عنها التعطيل وننفي عنها التشبيه . ثم إن من يؤول التأويل نقول لكل منهم : أنت ستضطر أخيراً إلى أن تؤول ؛ لأن الحق يقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومادام « كل شيء هالك إلا وجهه » فكل ما يطلق عليه شيء يهلك ، ويبقى وجهه سبحانه فقط ، فلو أنت قلت الوجه هو هذا الوجه ، فكان يده تهلك ورجله تهلك وصدرة يهلك ، وحاشا لله أن يحدث ذلك . وتكون قد دخلت في مائة ماله من آخر . لذلك نقول : لنأخذ النص وندخله في إطار « ليس كمثله شيء » . وآية الاستواء على العرش هذه ، مذكورة في سور كثيرة ، وهي تحديداً في « سبعة مواضع » ؛ في سورة الأعراف ، التي نحن بصدددها ، وسورة يونس ، وسورة الرعد ، وسورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة السجدة ، وسورة الحديد .

وهنا يقول الحق بعد الحديث عن الاستواء على العرش : (يغشى الليل النهار)

الله - سبحانه - قد خلق السماء والأرض للخليفة في الأرض وهيا له فيها أصول الحياة الضرورية ودلّه على ما يحتاج إليه ، فماذا سيفعل هذا الخليفة ؟ . . لا بد أن يقوم بكل مقومات الحياة ، وإذا ما عمل فسيبذل جهداً ، والجهد يقتضى راحة . ومن يشتغل ساعة لا بد أن يرتاح ساعة ، وإن اشتغل ساعتين ولم يسترح ساعة غلب على نفسه .

ونحن نرى في الآلة التي تعمل ثلاث ورديات يومياً أى التي تعمل لمدة الأربع والعشرين ساعة دون توقف أنها تستهلك أكثر من الآلة التي تعمل ورديتين ، والآلة التي تعمل وردية واحدة أى لمدة ثماني ساعات يطول عمرها أكثر . وكل إنسان يحتاج إلى الراحة . فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن الليل والنهار متعاقبان من أجل هذا الهدف :

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾

[سورة القصص]

أى لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا الفضل فى النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فلن تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة فى الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل . لذلك أوضح سبحانه لنا : أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً أى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا :

﴿ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٥٤) ﴾ [سورة الأعراف]

ويكون المعنى هنا أن النهار يغشى الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تتابع الليل والنهار لنستنبط منها الدليل على أن الأرض كرة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٧) ﴾

[سورة الفرقان]

والليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، وفى مصر نكون فى نهار مثلاً ، ويكون هذا الوقت فى بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذى كان خلفه للثانى ؟ فلن نجد ؛ لأن كلا الاثنين خلقا معاً . ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطیح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سيأتى أولاً ثم تطلع الشمس على السطح ليوجد النهار . والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خليفة للأخرة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة . كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليغشى النهار الجزء المواجه للشمس ، وليغشى الليل الجزء غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتى النهار خليفة ليل ، ويكون الليل خليفة للنهار .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٧) ﴾

[سورة الفرقان]

(يغشى الليل النهار) ويغشى النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة التي منها قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. (٤٠) ﴾ [سورة يس]

أى أن الليل لا يسبق النهار وكذلك النهار لا يسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما خلُقا دفعة واحدة .

والحق يقول هنا : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ، ولذلك تجدد النواميس الكونية التي لا تدخل للإنسان فيها ولا لاختياراته دخل فى أمورها تسير بنظام دقيق ، ففى الوقت الفلانى ستأتى الأرض بين الشمس والقمر ، وفى الوقت الفلانى سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ .. (٥٤) ﴾ [سورة الأعراف]

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد أن خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون لأحد ، بل - سبحانه - له الأمر بعد ذلك . وقيوميته ؛ لأنه لم يزاول سلطانه فى ملكه ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فبأمره يُعطل النواميس أحياناً ، ولذلك شاء الحق أن تكون معجزات الأنبياء لتعطيل النواميس ؛ لفهم أن الكون لا يسير بالطبع أو بالعلة . لذلك يقول : (ألا له الخلق والأمر) .

وإذا نظرت إلى كلمة «الأمر» تجد الحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ .. (١٥٤) ﴾ [سورة آل عمران]

والمقصود هو الأمر الكونى ، أما الأمور الاختيارية فله فيها أمر يتمثل فى المنهج ،

وأنت لك فيها أمر إمام أن تطيع وإمام أن تعصى ، وأنت حر .

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وحين يقول سبحانه : « تبارك الله » وقال من قبل : « أحسن الخالقين » ، فكل لفظ له معنى ، ففي خلقه من البشر مواهب تخلق ولكن من موجود وأوضحنا ذلك .
وفي قول آخر يصف الحق نفسه :

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأنعام)

والناس تتعلم الحساب وخلقوا آلات حاسبة ، وهي آلات تتم « برمجتها » وإعدادها وتهيتها للجمع والطرح والضرب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة . لكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة . لذلك فهو أسرع الحاسبين ؛ لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد بتعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل ينطبق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سئل على كرم الله وجهه :
— أيحاسب الله خلقه في وقت واحد؟

قال : وما العجب في ذلك ألم يرزقهم في وقت واحد؟

وانظر إلى القرآن تجد الحق « أسرع الحاسبين » و« أحسن الخالقين » ، و« أرحم الراحمين » و« خير الوارثين » . وهذه هي الألفاظ التي وردت ، والله فيها مع خلقه صفة ، لكن صفة الله دائماً في إطار « ليس كمثل شيء » . (تبارك الله رب العالمين) .

و« تبارك الله » أى أنه - تعالى - تنزه ؛ لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة - وهي قدرة الله - والانفعال للقدرة المطلقة بالإرادة و« كن » وهذا هو الانفعال والانقياد - وللإرادة والأمر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ ﴾

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يعينه عليه . وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة . إذن فإن كنت تظنى أو تتكبر فأعرف مكانتك ومترلتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرض زائل ، والدعاء هو تضرع ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون . واستحضار عجزك وقدره ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيماني . وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويتكر ويخترع فقد يأخذ الغرور ، فيأتى له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو . ومن كان متكبراً وعنده صلف وغطرسة يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد تجرد من الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ويقول له : أستحلفك برسول الله أن تدعولى لأنى فى أزمة والذي يسأل الغلبان الزاهد هو رجل عزيز فى قومه لكنه يظن أن الغلبان الزاهد أقرب إلى الله منه .

إذن الدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكى يستديم اليقين الإيماني .

﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

وإياك أن تدعوفى بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء ، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قدر لها ، والدعاء هو إظهار للخشوع ، وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه منزه أن يكون موظفاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من يطلب بالدعاء أشياء ضارة .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مُجُولًا ﴾ (١١)

(سورة الإسراء)

والإنسان قد يتعلق قلبه بأماني قد تضره ؛ لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً

لأمنيات قد تكون شراً عليك ، والحق العليم ينظم لنا أمورنا ، وإياك أيضاً أن تياس حين لا تجاب دعوتك التي فى بالك ؛ لأن الله يحقق الخير لعباده . ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتى منها الشر ، ويترك الله لأقضيته أموراً تبين لك هذا ، وتقول : إن الشيء الفلانى الذى كنت أتمناه تحقق وجاء شراً على . مثال ذلك قد تحجز لطائرة لكنك لا تلحق بها فقد أقلمت قبل أن تصل إليها وحزنت لأن بعضاً من مصالحك قد فاتك ولم يتحقق وتفاجأ بأن هذه الطائرة سقطت فى البحر .

إذن ، اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير . واسمع قول الله :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ١١١ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فحين يقول الحق : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » فسبحانه يطلب منا أن ندعوه لأننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، بدلاً من أن تظل مقهوراً بصفة المعجز عن الشيء اذكر أن لك رباً قويا مقتدراً ، وساعة تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان . وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل همماً للحياة ، فإذا كان الذى له أب لا يحمل همماً لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستحي ويعرف أن ربه سيوفر له الخير ؛ لذلك يوضح سبحانه : إذا أعجزتكم الأسباب فاذكروا أن لكم رباً . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا تظن أن حظك من الدعاء أن تجاب إلى ما طلبت ، بل ليكن حظك من الدعاء إظهار التذلل والخشوع لله ؛ فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اغتررت بنفسك . وقد سبق « قارون » إلى الغرور ، فماذا حدث له ؟ . لقد هزمه الحق وأنزل به شر العقاب . وقد يجعل الحق من تأبى الأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله ، لكن لفتتك لله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس لفتتك لله أن تظهر المعجز أمامه والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن فى بالك حين تدعو .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الاعراف)

خفية لها معنى وهو أن يكون الدعاء دعاءً مستوراً مختبئاً ، ولها معنى آخر وهو أن تكون من الخوف أى أدعو ربكم خوفاً من متعلقات صفات الجلال كالجبار والقهار أو خوفاً من أن يردها الله عليك فلا يقبلها منك .

ادعوا ربكم تضرعاً بذلة وانكسار وخضوع خفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجعله عملاً الوحيد لأن النبي صلى الله عليه وسلم علمنا حينما كان فى غزوة غزاهما فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال :

(أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصمً ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم)^(١)

والدعاء إلى الله خفية يبتعد بك عن الرياء وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك لأنه حين يوضح لك : ادعنى فى سرِّك لأننى سميعٌ عليم ؛ أعلم كل ما ظهر منك وما باطن ، ادع بالخضوع والخشوع والتذلل لتكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة الغطرسة ، وشهوة الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :
— نعرف قوماً يقرأون القرآن فى محضرتنا وما عرفنا لشفاهم حركة ، وعرفنا قوماً يستنبطون الأحكام من كلام الله وما رأينا منهم انفعلاً يصرفهم عنا . إذن فالمسألة تعبير عن شغل باطنى داخلى .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعثنا عن الرياء ويريد أن يستر علينا مطلوباتنا ؛ لأن الإنسان قد يطلب من الله سبحانه وتعالى ما يستحى أن يسمعه آخر .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الاعراف)

ولو نظرت إلى هذه الآية لوجدت أن كثيراً من الناس يخالفونها مخالقات جماعية ؛ فى

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ورواه البخارى ، ومعنى : (اربعوا) ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم .

الليل مثلاً تجد من يصعدون على المآذن أو يصيحون في مكبرات الصوت التي أغتتهم عن صعود المآذن، ويكون الواحد من هؤلاء نائماً طال النهار لأن رفع الأذان هو عمله ليس غير، وبعد ذلك يظل يصرخ ويستغيث ويقول: «أن هذه ابتهالات». بينما من الناس من هو نائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدي عمله نهاراً، ولا أحد يطلب من هذا النائم إلا أنه وإذا جاء الفجر يستيقظ ويؤدي الصلاة. فلماذا نقلق الناس بهذا؟ إننا لا بد أن ننبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤذي أحداً؛ فسبحانه يقول: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية).

والتضرع والخفية تقتضى ألا أقلق الناس، أو أن أعلن الأمور التي أريدها لنفسي خاصة بصوت عال مثل من يأتي في ختام الصلاة ويقول دعاءه بصوت عال وهو رافع يديه، ومثل هذا أقول: إن الله سبحانه وتعالى جعل لنا القنوات لندعو فيه، وترك كل مسلم أن يدعو بما يفعل له. وأنت حين تدعو في ختام الصلاة قد يوجد مُصل مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته. وتشغله بمنطوق من عندك وبكلام من عندك عن شيء واجب عليه. ومن يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية، لكنه يسىء إلى عبادة آخر.

إذن فلا بد أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مطلوبات، هذه المطلوبات قد تخالفها النفس لغرض ترى أنه حسن، لكن خذها في إطار:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١١٢) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١١٣) ﴾

[سورة الكهف]

فلا بد أن نتنبه إلى مثل هذه المسائل، وعلينا أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلى الصبح ويذهب إلى عمله؛ لذلك لا داعي أن يفتح إنسان «الميكروفون» ويعلو صوته بالدعاء، ومن يفعل ذلك يظن أنه يحرص على أمر مطلوب فيزعج النائم، بل ويزعج من يصلى بالليل أو «يشوش» على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم. إن على من

يفعل ذلك أن يترك كل إنسان لانتفالاته ، وأن يكون ملك نفسه وملك اختياره .
ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً كهذه فيقول :

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۖ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ۖ ﴾

(الآية ٣ ومن الآية ٤ سورة مريم)

إذن كلمة « خفى » موجودة في القرآن ، ولا بد أن نتنبه إلى الدعاء الخفى .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۗ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

إذن إن لم يكن تضرعاً وخفية فهو اعتداء في الدعاء ؛ لأنك مكلف والله هو المكلف ، وهو يقول لك : ادعوني تضرعاً وخفية . فإن فعلت غير هذا تكن معتدياً ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم معتدون فيما أن يكون الاعتداء في أسلوب الطلب وإما أن يكون الاعتداء في المطلوب .

لأن الحق حدد أسلوب الطلب فأوضح : ادعوني بخفاء ، فإن دعوت في غير الخفاء تكن معتدياً على منهج الله . وكذلك قد يكون الاعتداء في المطلوب فلا يصح مثلاً أن تقول : إننى أدعوك يارب أن تجعلنى نبياً . إن ذلك لا يصح وربنا سبحانه وتعالى علمنا فيما سرده عن نوح . فقال :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۖ ﴾

﴿ ٤٥ ﴾ قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمَعَنَّ مَالِيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنَّي أَخَذْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۗ ﴾

﴿ ٤٦ ﴾

(سورة هود)

وهنا نه الحق نوحاً إلى الاعتداء في المطلوب فقال الحق :

﴿ فَلَا تَسْمَعَنَّ مَالِيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

ولذلك نجد نوحاً يستغفر لأنه سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف ذنبه استغفر الله وقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة هود)

وقال له الحق سبحانه :

﴿ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

إذن فالذي لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه في الدعاء يكون معتدياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تُلْفَسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

الأرض هي مكان الخليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصلية لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كل مسخر لك . ولا تحتاج إلى تكليف فيه ، فلا أنت تقول : « يا شمس أشرفي » أو « يا هواء هب » فكل ذلك مسخر لك . وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار ؛ لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الرياح ، وأنت لن تستطيع إصلاح ما لا يمكن أن تقترب من إفساده ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه . وإنما يأتي الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك ، ولم يتركنا الله أحراراً فيها ، بل حددها بمنهج يحمي حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآناً ،

والقرآن فيه منهج يحمي اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك :

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

وهنا يعود الحق مرة أخرى للحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء تضرعاً وخفية ، وهنا يوضح الحق سبباً ثانياً للدعاء : (وادعوه خوفاً وطمعاً) . خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعاً في صفات غفرانه ورحمته ؛ لأن الله صفات جمال وصفات جلال ، وادعوه خوفاً من متعلقات صفات الجلال ، وطمعاً في متعلقات صفات الجمال . أو خوفاً من أن تُرد وطمعاً فيما أنت ترجو .

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

إذن من الذي يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحسن قربت منه الرحمة والزمم في يد الإنسان ؛ لأن الله لا يفثت ولا يستبد بأحد . فإن كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .
ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

(لا أمل حتى تملؤا) .

(من حديث قدسى)

وأنت تدخل بيوت الله تصلى في أى وقت ، وتقف في أى مكان لتؤدى الصلاة ، إذن فاستحضارك أمام ربك في يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها في يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدي الله في أى لحظة . وسبحانه يقول :
(ومن جاءني يمشى أتيته هرولة) .

(من حديث قدسى)

وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت وسأتي لك أنا ؛ لأن الجرى قد يتعبك لكنى لا يعتريني تعب ولا عى ولا عجز . وكان الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه . إذن فالمسألة كلها في يدك ، ويقول سبحانه :
(من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه) .

(من حديث قدسى)

وهكذا يؤكد لك سبحانه أن رحمته في يدك أنت وقد أعطاهها لك ، وعندما تسلسلها تجدها تفضلاً من الله ، ولكن في يدك أنت . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات (الله) وهو واهب الوجود ، وله كل صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ؛ الرحمة لها متعلق ، والبعث له متعلق فمن أسمائه سبحانه « الباعث » ؛ وإياك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسيحاً لذاته العلية دائماً . وقد تقول : يارب أريد أن ترحمني في كذا ، وقد لا ينفذ لك ما طلبت ، لكن ذلك لا يجعلك تبتعد عن التسبيح للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو في مصلحتك وخير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة « قريب » هذه ، وتساءل بعضهم عن سرّ عدم مجيء تاء التانيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ يستوى فيها التذكير والتانيث ، وما يقال للمذكر مثلما يقال للمؤنث ، فنقول : « رجل صبور » ، و « امرأة صبور » ، ولا نقول : صبورة ونقول : « رجل معطار » أى يكثر استخدام العطر ، و « امرأة معطار » أى تكثر استخدام العطر . ونقول : قريب مثلما نقول : قتيل بمعنى مقتول . فيقال : « رجل قتيل » و « امرأة قتيل » ، ولا يقال : « قتيلة » إلا إذا لم يذكر معها كلمة امرأة أو ما يدل على التانيث ، لأن القتيل للمذكر وللأنثى .

هذه هي ألفاظ صحيح اللغة . وقد صنعت اللغة ذلك بأسانيد ، فأنت حين تقول : « رجل صبور » أو « امرأة صبور » فالصبر يقتضى الجلد والعزم والشدة ؛ لذلك لا نقول : « امرأة صبورة » بل نأتى بالوصف المناسب للجلد والشدة . وإياك أن تضعفها بحكاية التانيث ، وكذلك « رجل معطار » و « امرأة معطار » ، والرجل المعطار هو من تعرفه الناس من نفاذ رائحة عطره ، والمرأة مبنية على الستر . فإن تعطرت فهي قد تشبهت بالرجل ويقال لها : « امرأة معطار » ، وحين ننظر إلى كلمة « قريب » فهي من صيغة « فعييل » التى يستوى فيها المذكر والمؤنث ؛ بدليل أن الله قال :

﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ

ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿

والملائكة لفظها لفظ مؤنث، ولم يقل الحق «ظهيرة»، لأن «ظهير» يعنى مُعين، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدل على القوة وهو «ظهير». وكذلك قوله الحق:

﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦) [سورة الأعراف]

و«قريب» بوزن «فعليل» بمعنى مفعول، ولعل بعض الناس يفهم أن «قريب» بمعنى فاعل أى قارب. مثل رحيم وراحم. أى أن رحمة الله هى التى تُقرب من المحسنين، والأمر ليس كذلك، فإن الرحمة هى المقروبة، والإحسان هو الذى يقرب إليها فيكون فعليل هنا بمعنى مفعول الذى يستوى فيه المذكر والمؤنث، أن يكون جاءت كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة لموصوف محذوف أى شىء قريب، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى، أو أن الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِمَلِكٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ نُنْجِيُ الْمُؤْمِنِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۗ ﴾



وتصريف الرياح إهاجة للهواء فى الكون، والإهاجة للهواء فى الكون تأتى منها فوائد كثيرة للغاية، ونحن حين نجلس فى مكان مكتظ وممتلىء بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة: «لنهورى الغرفة قليلاً. وإن لم يكف هواء النافذة تأت بمروحة

لتأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير . إذن فأرسال الرياح ضرورة حتى لا يظل الهواء راكداً . ويتلوث الجو بهذا الركود، ولو أن كل إنسان سيستقر في مكان مكتوم الهواء لامتلاً المكان بثاني أكسيد الكربون الخارج من تنفسه، ثم لا يلبث أن يخنق، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة في كل شيء، وهى أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمقومات الحياة من نفس وماء وطعام، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذى نتنفسه، وكذلك تكوين الماء .
لأنه سبحانه القائل عن الرياح .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سَفَنَهُ لِبَلَدٍ مَّيَّتٍ .. (٥٧) ﴾ [سورة الأعراف]

والرياح هى التى تساعد فى تكوين الأمطار التى تنزل على الأرض فتروى التربة التى نحرثها، هكذا تكون الرياح بشرى فى ثلاثة أشياء: الشيء الأول تحريك طبقات الهواء وإلا لفسد الجو فى الماء، لأن الرياح هى التى تحمل السحاب وتحركه وتنزل به هناك فرقاً بين بشرى، وبشرأ؛ فالبشرى مفرد، وقد وردت فى قوله الحق :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ .. (٦٩) ﴾ [سورة هود]

أى التبشير . لكن بشرأ جمع بشير وهى كلمة مخففة، والأصل فيها بشر .

والحق يقول : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ .

وجمع البشير «بُشْرٌ» مثل : « نذير » و« نُذْرٌ »، بضم الشين فسكنت تخفيفاً، فتنتطق بُشْرًا وِبُشْرًا . (بشرأ بين يدي رحمته) .

هى بين يدي رحمته لأنها ستأتى لنا بالماء، وهو الرحمة فى ذاته، وبواستطه يعطينا رى الأرض، ونحن نرتوى منه مباشرة أيضاً . ونلاحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهى تأتى للخير، أما حين يكون فيها شرفياتى بكلمة « ريح » مفردة، مثل قوله :

[سورة الحاقة]

﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) ﴾

فإذن عندما ترى كلمة «رياح» فاعلم أنها خير ، أما كلمة «ريح» فاعلم أنها شر لماذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً في حجرة فيها فتحة نافذة يأتي منها الهواء ، ويتسلط التيار على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتي من مكان واحد ، لكن حين تجلس في الخلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعب ؛ لأن الرياح متعددة . ولكن الريح تأتي كالصاروخ .

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدي رحمته ؛ حتى إذا أقلت أي حملت يقال : « أقل فلان الحمل » أي رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهد ، أقلت أي حملت ، وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته ، وإذا كان الجهد أقل من الذي حملته لا بد أن ينزل إلى الأرض . وأقلت سحاباً أي حملت سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر ؛ ونرى ذلك في الماء المقطر الذي يصنعونه في الصيدلية ؛ فيأتي الصيدلي بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلي الماء فيخرج البخار ليسير في الأنابيب التي تمر في تيار بارد فيتكثف البخار ليصير ماء . (حتى إذا أقلت سحاباً ثقلاً سقناه لبلد ميت) .

وقال الحق : « سقناه » بضمير المذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب في اسم جنسه ، أو نظر إلى لفظه ، وجاء بالوصف مجموعاً فقال : « ثقلاً » نظراً إلى أن السحاب جمع سحابة فرق بينه وبين واحدة بالتاء ، وما دامت السحب كلها داخلة في السُّوق فليس لها تعددات فكانها شيء واحد .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثر من مكان . لكن الحق سبحانه وتعالى يقول : (سقناه لبلد ميت) .

والميت هو الذي لا حراك فيه وانتهى اختياره في الحركة ، كذلك الأرض ، فالماء

ينزل من السماء على الأرض وهي هامة ليس بها حركة حياة أى أن الله يرسل السحاب ويزجيه إلى البلد الميت فى أى مكان من الأرض .

﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

إذن فالأرض التى لا يأتيتها الماء تظل هامة أى ليس بها حركة حياة مثل الميت .

﴿ سُقِّنَهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا وينبهنا إلى القضية اليومية التى نراها دائما فى صور شتى ، وهى أن الأرض تكون فى بعض الأحيان جديداً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل ، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل فى اليوم الثالث وهو مخضر ، فمن الذى بذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه . وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة فى الأرض فيها مقومات الحياة .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

فالماء الذى ينزل على الأرض الميتة يحيى الأرض ؛ لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، وحين يوضح لنا سبحانه أنه سيعثنا من جديد فليس فى هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله القضية الكونية مرئية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ؛ لأنها أمر حسى مشاهد ، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي

خَبْتٌ لَا يُخْرَجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصَّرِفُ الْأَيْتِ

لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إذن الآية السابقة عالجت قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة ؛ فالرياح التي تحمل السحاب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع . والأرض كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية ، ويأتي في هذه الآية بقضية دينية أيضا : (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً) .

والبلد الطيب هو البلد الخصب الذي لا يحتاج إلا إلى المياه فيخرج منه الزرع ، أما الذي خبث ، فمهما نزل عليه الماء فلن يخرج نباته إلا بعد عناء ومشقة وهو مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يخدم الحق قضية دينية مثلما خدم القضية الدنيوية في البعث أولاً . وقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء وأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »^(١)

إذن فالمنهج ينزل إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسمع فينفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فينفع غيره مثل الأرض الخصبة شربت الماء وقبلته ، وأنبتت الزرع ، وقسم يحملون المنهج ويبلغونه للناس ولا يعملون به وينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ لَرَّ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

صحيح سينتفع الناس من المنهج ، ولذلك قال الشاعر :
خذ بعلمي ولا تركزن إلى عملي واجن الثمار واخل العود للنار

ويقول صلى الله عليه وسلم : (من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة)^(١) .

فستر المؤمن على المؤمن مطلوب وستر المؤمن على العالم أكد وأشد طلبا ؛ لأن العالم غير معصوم وله فلتات ، وساعة ترى زلته وسقطته لاتذعها لأن الناس سينتفعون بعلمه . فلا تشككهم فيه ، والقسم الثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسقيه لغيره أى الذى لا ينتفع هو ، ولا ينفع غيره .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَسْكُرُونَ ﴾

(الآية ٥٨ سورة الأعراف)

إذن منهج الله مثله مثل المطر تماما ؛ فالمطر ينزل على الأرض ليرويهها وتخرج النبات وهناك أرض أخرى لا تنتفع منه ولكنها تمسكه فينتفع غيره ، وهناك من لا ينتفع ولا ينفع ، فكذلك العلم الذى ينزله الله على لسان رسوله . (والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات) .

قلنا من قبل : إن الآيات تطلق على معانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى نراها واقعة فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وآيات هى آيات القرآن ، والآيات التى تكون هى المعجزات للأنبياء .

﴿ كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأعراف)

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح

على شرطهما .

الآيات هنا فى الكونية كالماء الذى ينزل ، إنه مثل المنهج . من أخذه به فاز ونجا ، ومن تركه وغوى وكل آيات الله تقتضى أن نشكر الله عليها ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِ أَعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥١﴾﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن العصاة فى الدنيا ، وتكلم عن مواقف الآخرة الجزائية فى أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والاعراف أراد أن يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه أهل الأرض لا بد أن تلقى عنتاً وتضييقات ، وتلقى إعراضاً ، وتلقى إيذاء ، إنه سبحانه يريد أن يعطى المناعة لرسوله ﷺ ، فيوضح له : لست أنت بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل بالاضطهاد ، وقوبل بالكذب ، وقوبل بالنكرات ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كل رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدوداً ، ومكاناً محصوراً فأنت يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهاً لمصاعب تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت فى قمة الرسل ، وستكون الإيذات التى تنالك وتصيبك قمة فى الإيذاء ، فلست بدعاً من الرسل ، فوطن نفسك على ذلك . وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتمال فى الله ، وقص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قص القصص بقول :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . . (١٢٠)﴾ [سورة هود]

فكأننا القصص تثبت لفؤاده ﷺ ، فكلما أهاجه نكران ، أو كلما أهاجه جحود ، قص عليه الحق سبحانه قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ليثبت به فؤاده ﷺ وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شىء ويوطنون أنفسهم

على هذا العنت ؛ فلم يقل الحق لأتباع محمد : إنكم مقبلون على أمر والأرض مفروشة لكم بالورود ، لا . إنما هي متاعب لتجابهوا شر الشيطان في الأرض . والقصاص له أكثر من هدى يثبت به فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم وبين له أنه ليس بدعاً من الرسل ، ويقوى نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجمع وولىّ الدبر ، وأنهم منصورون دائماً فهذا يقوى يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين مثلما قال الحق عن واحد من أكابر قريش . (سنسمة على الخرطوم) .

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرّون حينئذ أن يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمن يحميه ، وينزل قوله الحق بعد ذلك في الوليد بن المغيرة « سنسمة على الخرطوم » ، والوليد بن المغيرة سيد في قومه ، ويأتى يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله :

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فمن - إذن - يحدد ضربة قتال بسيف في يد مقاتل قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

وأيضاً فقصاص الرسل إنما جرى بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ؛ لأنه رسول أمي ؛ والأمة أمية ، ولم يدع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتاباً ، فمن أين جاءت هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى في الآيات التي يأتي فيها : « ما كنت » مثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُضْطَلُونَ ﴾ (٤١٩)

(سورة العنكبوت)

ومثل قوله :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته .

وقصة سيدنا نوح من القصص التي وردت كثيراً في القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر في بعض السور ، لكن السورة التي سميت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التي تعتبر من عيون القصة ، إنها تعالج لقطات أخرى ؛ تعالج إلحاحه في دعوة قومه ، وأنه ما قصر في دعوتهم ليلاً ونهاراً ، وسراً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب في سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها في سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح في سورة « نوح » وقد خلت من عناصر مهمة في القصة ، وجاءت هذه العناصر في سورة « هود » أو في سورة « الأعراف » التي نتاولها الآن بالخواطر الإيمانية .

إذن ، كل قصة من القصص القرآني تجدها قد جاءت تخدم فكرة ، ومجموعها يعطي كل القصة ؛ لأن الحق حين يورد القصص فهو يأتي بلقطة في سورة لتخدم موقفاً ، ولقطة أخرى تخدم موقفاً آخر وهكذا . وحين شاء أن يرسل لنا قصة محبوكة تماماً ، جاء بقصة « يوسف » في سورة يوسف ولم يكررها في القرآن ، لأنها مستوفية في سورة يوسف ، اللهم إلا في آية واحدة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ كُرَيْسُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيْتِ قَارِئًا لَكُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ

قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة غافر)

لقد وردت في سورة يوسف حياة يوسف منذ أن كان طفلاً حتى أصبح عزيز مصر ، وهكذا نرى أن الحق حين يشاء أن يأتي بالقصة كتاريخ يأتي بها محبوبكة ، وحين يريد أن يلفتنا إلى أمور فيها مواقف وعظات ، يوزع لقطات القصة على مواقع متعددة تناسب وتتوافق مع تلك المواقع لتأكيد وخدمة هدف .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الاعراف)

وساعة ترى « اللام » و « قد » فاعرف أن هذا قسم ، وكأن الحق يقول : وعزتي وجلالي لقد أرسلت نوحاً . وهو بهذا يؤكد المقسم عليه .

والقوم لهم الرجال خاصة من المعشر ؛ لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتاجة ؛ تسمع من أبيها أو من أخيها أو من زوجها ، ولذلك قالت النساء للنبي : غلبنا عليك الرجال .

أى أننا لا نجد وسيلة لنقعد معك ونسألك ، فاجعل لنا يوماً من أيامك تعظنا فيه ، فجعل لهم يوماً ؛ لأن المفروض أن تكون المرأة فى ستر ، وبعد ذلك ينقل لها الزوج المنهج . إن سمع من الرسول شيئاً ، وكذلك الأب يقول لابنته ، والأخ يقول لأخته .

فإذا تكلم الرسول يقال : إن الرسول واجه القوم ، من قولهم هو قائم على كذا . وقيم على كذا . ولذلك الشاعر العربى يقول :

وما أدرى ولست أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
وجاء هنا بالقوم ، والمراد بهم الرجال ، والقرآن يقول :

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن

يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن فالنساء لا تدخل فى القوم ؛ فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتى المتاعب والتصلب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم .

وسيدنا نوح عليه السلام دعا قومه ونبههم إلى ثلاثة أشياء : عبادة الله ، فقال : « يا قوم اعبدوا الله » ، وبين لهم أنه ليس هناك إله سواه فقال : « مالكم من إله غيره » ، وأظهر لهم حرصه وإشفاقه عليهم إذا خالفوا وعصوا فقال : « إن أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

وهكذا تكلم عن العقيدة في الإله الواحد المستحق للعبادة ، وليس آلهة متعددة ، ونعبده أى نطيع أمره ونهيه ، ولأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهو يخاف عليهم من عذاب يوم عظيم ، وهو عذاب يوم القيامة . أو أنّ الله كان قد أوحى له بأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وعذاب يوم عظيم أى يوم الإغراق ، و« الخوف » مسألة تتعب تفكير من يستقبلها ويخاف أن يلقاها . فمن الذى يفرع بهذا ؟

إن الذى يفرع هم الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان ووجوه القوم ، وكانوا قد جعلوا من أنفسهم سادة ، أما سائر الناس وعامتهم فهم العبيد والمستضعفون . والذى يهاج بهذه الدعوة هم السادة لأنه ليس هناك إلا إله واحد ، والأمر لواحد والنهى لواحد والعبادة والخضوع لواحد ، ومن هنا فسوف تذهب عنهم سلطتهم الزمنية ، لذلك يوضح الحق لنا موقف هؤلاء من الدعوة حين يقول :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّدَكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٦﴾

والملا هم سادة القوم وأعيانهم وأشرافهم ، أو الذين « يملأون » العين هيئة و يملأون القلوب هيئة ، و يملأون صدور المجالس بنية .

إنهم خائفون أن تكون دعوة نوح هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وكلامه هو الهداية ؛ فيمتنوا أنفسهم بأن هذا ضلال وخروج عن المنهج الحق : (إنا لترك في ضلال مبين) .

أى غيبة عن الحق ، أو فى تيه عن الحق ، و« مبين » أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ويرد نوح ﷺ :

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ

مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾

هم قالوا له : « إنا لنراك فى ضلال مبين » ، المتبادر أن يكون الرد : ليس فى أمرى ضلال ، لكنه قال هنا : « ليس بى ضلالة » ، أقول ذلك لنعرف أن كل حرف فى القرآن موزون لموضعه . هم قالوا له : إنا لنراك فى « ضلال » ، فيرد عليهم : ليس بى ضلالة ؛ لأن الضلال جنس يشمل الضلالات الكثيرة ، وقوله يؤكد أنه ليس عنده ضلالة واحدة . وعادة نفى الأقل يلزم منه نفى الأكثر ، مثلاً عندما يقول لك صديق : عندك تمر من المدينة المنورة ؟ تقول له : ليس عندى ولا تمر واحدة . أنت بذلك نفيت الأقل ، وهذا أيضاً نفى للأكثر . (قال يا قوم ليس بى ضلالة) .

وحين ينفى نوح عن نفسه وجود أدنى ضلالة فذلك لأنه يعرف أنه لم يأت من عنده بذلك ، ولو كان الأمر كذلك لآتهم نفسه بأن هواه قد غلبه ، لكنه مرسل من عند إله حق .

﴿ .. وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقوله : « ولكنى » استدراك فلا تقولوا : أنا فى ضلال ؛ فليس فى ضلالة واحدة ، لكن أنا رسول يبلغ عن الله ، والله لا يعطى غير الهدى .

(رسول من رب العالمين) أى من سيد العالمين ومن متولى تربية العالمين ، ومن يتولى التربية لا يُنزل منهجاً يضل به من يريهم ، بل ينزل منهجاً ليصلح من يريهم ، وسبحانه قبل أن يأتى بهم إلى الوجود سخر لهم كل هذا الكون ، وأمدهم بالأرزاق حتى الكافرين منهم ، ومن يعمل كل ذلك لن يرسل لهم من يضلهم .

ويستمر البلاغ من نوح عليه السلام لقومه فيقول :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ
مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٦٤

والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ؛ فيقال : بلغت المكان الفلاني . . أى انتهيت إليه .
و « البلاغة » هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة ، و « أبلغكم » أى أنبى إليكم ما حملنيه
الحق من منهج هداية لحركة حياتكم . (أبلغكم رسالات ربى) .

وكان يكفى أن يقول : « رسالة ربى » إلا أنه قال : (رسالات ربى) لأن أى رسول يأتى
بالمنهج الثابت كما جاءت به الرسالات السابقة حتى لا يقول أحد : إنه جاء ليناقض ما جاء
به الرسل السابقون ، فما قاله وجاء به أى رسول سابق يقوله ، وتعلم أنه كانت هناك
صحف لشيت وإدريس . فقال : إنه يبلغ رسالته المتضمنة للرسالات السابقة سواء رسالة
إدريس وهو اخنوخ ، وكذلك شيت وغيره من الرسل .

أى أبلغكم كل ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة ، مثلما قال
سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وهو الأمور المستقرة الثابتة العقديّة ، والأحكام التى لا تتغير . أو « رسالات ربى » ، لأنه
كرسول يتلقى كل يوم قسطاً من الرسالة ؛ فالיום جاءت له رسالة يبلغها ، وغداً تأتى له
رسالة يبلغها ، ولو قال : « الرسالة » لكان عليه أن ينتظر حتى تكتمل البلاغات من الله له
ثم يقولها ، ولكن نوح كان يبلغ كل رسالة تأتية فى وقت إبلاغه بها ؛ لذلك فهى
« رسالات » . أولأن موضوع الرسالات أمر متشعب تشعباً يماثل ما تحتاج إليه الحياة من
مصالح ؛ فهناك رسالة للأوامر ، ورسالة للنواهى ، ورسالة للوعظ ، ورسالة للزجر ،

ورسالة للتبشير ، ورسالة للإنذار ، ورسالة للقصص ، وهكذا تكون رسالات .

أو أن كل نجم - أى جزء من القرآن وقسط منه - يعتبر رسالة ، فما يرسله الله فى يوم هو رسالة للنبي ، وغداً له رسالة أخرى وهكذا .

وقوله: « أنصح لكم » لأن البلاغ يقتضى أن يقول لهم منبج الله ، ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأن يرقق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادىء وينصحهم ، والنصح أمر خارج عن بلاغ الرسالة .

ولنلتفت إلى فهم العبارة القرآنية . (وأنصح لكم) .
والنصح أن توضح للإنسان المصلحة فى العمل ، وتجرد نيتك مما يشوهه . وهل أنت تنصح آخر بأمر يعود نفعه عليك ؟ إنك إن فعلت ذلك تكون النصيحة متهمه ، وإن نصحته بأمر يعود عليه وعليك فهذه نصيحة لك وله ، ولكن حينئذ تقول : « نصحت لك » أى أن النصيحة ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح من تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحتك » و « نصحت لك » .

﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الاعراف)

وكان سيدنا نوحاً يخاطب قومه : إياكم أن تظنوا أن ما أقوله لكم الآن هو كل العلم من الله ، ولا كل علم الله ، ولا كل ما علمنى الله ، بل أنا عندى مسائل أخرى سوف أقولها لكم إن اتقيتم الله وامتلكتم الاستعداد الإيماني ، وهنا سأعطيكم منها جرعات . أو قوله : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » يعنى أنه سيحدث لكم أمر فى الدنيا لم يحصل للأمم السابقة عليكم وهو أن من يكذب الرسول يأخذه الله بذنبيه . وتلك التجربة لم تحدث مع قوم شيت أو إدريس .

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ۖ فَنُهِمُ مِّنْ أُرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ

خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

ولم يحدث مثل هذا العقاب قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يكذب سيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

أو « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، أى أن الله أعلمنى لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمنى أن لكل إخبار بالخير ميلاً وميعاداً .
ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« أوعجبتهم » وكان من الممكن أن يقول : « أعجبتهم » ، لكن ساعة أن يجيء بهمزة الاستفهام ويأتى بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة ؛ أى أنه يقول : أكذبتهم بى ، وعجبتهم من أن الله أرسل على لسان « ذكر من ربكم » . والذكر ضد النسيان ، وأنه الشيء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويجرى على اللسان .

وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعانى وقمتها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن :

﴿ ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكذلك فى قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن يطلق الذكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الزخرف)

أى أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى في القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن « العربى » ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبطا بالقرآن ، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفا جديدا .
أى إن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه :

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾

(من الآية ١٠ سورة الانبياء)

أى فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم ، ويأتى الإسلام الذى ينسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلهم سواسية كأسنان المشط .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتموى) .

وسيظل القرآن عربياً ، وهو معجزة فى لغة العرب ، وبه ستظل كلمة العرب موجودة فى هذه الدنيا . إذن فشرف القوم يجيء من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول :

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ﴾

(سورة ص)

أى أن شرفه دائم أبداً . حين يأتى إلى الدنيا سبق علمى ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق العلمى فى القرآن ، ونجد غير المسلمين يعتنون بالقرآن ويطبعونه فى صفحة واحدة ، وعلى ورق فاخر قد لا يستعملونه فى كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن بعض المسلمين ينحرفون قليلاً عن المنهج ، وقد يتناساه بعضهم ، لكن فى

مسألة القرآن نجد الكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد تجد امرأة كاشفة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد تجد من لا يصلى ويركب سيارة يضع فيها المصحف ، وكل هذا ذكر . وتجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، ومجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرفنا أن « الذكر » قد ورد أولاً بمعنى القرآن ، وورد باسم الضيت والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٢) [سورة الأنبياء]

أى أن كل ما نزل على الرسل ذكر .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٨) [سورة الأنبياء]

إذن فالمراد بالذكر - أيضاً - كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

ومرة يُطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار . والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رُجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ .. ﴾ (٩١) [سورة المائدة]

والمراد هنا بالذكر : الاعتبار والتذكر وأن تعيش كمسلم في منهج الله . ومرة يراد

بالذكر : التسييح ، والتحميد . انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦)

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤١٩٩

رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. ﴿٣٧﴾

[سورة النور]

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالغدو والآصال وهم رجال موصوفون بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويراد منه خير الله على عبادة ويراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ؛ فسبحانه يذكرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة . اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩٠) [سورة النحل]

وفى آية أخرى :

﴿ .. إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

[سورة العنكبوت]

تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

وما دام قد قال جل وعلا : « ولذكر الله أكبر » أى ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فذكره فضل وإحسان وهو الكبير المتعال . فهناك إذن ذكر ثان ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة ، هنا يقول الحق :

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ

[سورة الأعراف]

تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾

ما وجه العجب هنا؟ نعلم أن العجب هو إظهار الدهشة وانفعال النفس من حصول شيء علي غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة ونتساءل كيف حدث هذا؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثت تلك الدهشة وذلك العجب .

وعجبتُم لماذا؟ اقرأ - إذن - قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [سورة ق]

موضع العجب هنا أن جاء لهم منذر ورسول من جنسهم ؛ فمن أى جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من غبائهم أنهم أرادوا الرسول ملكاً .

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة ق)

وجاء العجب أيضاً في البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبنا وغبنا في الأرض وصرنا تراباً بعد الموت يجمعنا البعث مرة ثانية ؟!

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات .

العجب عندهم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها لأن نوحاً عليه السلام يزيد منهم أن يبحثوا في الإيمان بوجود إله . وكان المنطق يقتضى أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطراً عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون منسقاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإنسان عن خلق هذا الكون وأن يلحّ في أن يعرف من صنع الكون ، وحين يأتي الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟!

كان القياس أن تتلهفوا على من يحركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان في خدمتك أيها الإنسان . لا بقوتك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارئ على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وقلت قديماً : هب أن إنساناً وقعت به طائفة في مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شيء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وقهره التعب ، فنام ، ثم أفاق من هذه الإغفاءة ؛ وفوجيء بمائدة أمامه عليها أطيب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً في المكان ، بالله قبل أن يأكل ألا يتساءل عن أحضرها ؟! كان الواجب يقتضى ذلك .

إذن أنتم تتعجبون من شيء تقتضى الفطرة أن تبحث عنه ، وأن تؤمن به وهو الإله

الذى لا ينتفع بطاعتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشيء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتعقل وتمنع من المعاصي والمحرمات ، ولكن يُقابل ذلك الثواب في الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون متاعب التكليف ؟ مادام لا يستفيد . إنَّ العقل كاف ليدلنا - دون منهج - إلى ما هو حسن فنفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذى لا نعرفه أهو حسن أم سيء . ونضطر له نفعله ، وإن لم نكن في حاجة له لا نفعله .

ونقول لهذا القائل : لكن من الذى أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إلى الأمر الحسن ، هل حسن لك وحدك أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك في الكون . ولنفترض أن هناك قطعة قماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها . لكن الحُسن الحقيقي أن يفصل في مسألة ملكية هذه القطعة من القماش من يعدل بينك وبين غيرك دون هوى . وألّا يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لا بد أن يوجد إله يعصمنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيء ؛ لأن الحسن بالمنطق البشرى ستصطدم فيها أهواؤنا .

ومثال آخر : افرض أننا دخلنا مدينة ما ، ورأينا مسكنا جميلا فاخرا وكل منا يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ؛ لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير . فالحسن عند بعض الرجال إذا ما رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبيها أو زوجها ؟ . لا .

إنَّ الذى تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطبيعى الفطرى الذى تستلزمه المقدمات . فقد جاءكم البلاغ على لسان رجل منكم . ولماذا لم يقل الحق : لسان رجل ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق :

﴿ رَبَّنَا وَعَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة آل عمران)

كانه يقول لهم : إن الوعد الذي وعده الحق لكم قد جاء لكم بالمنهج الذي نزل على الرسل . ومهمة الرسل صعبة ؛ فليست مقصورة على التبليغ باللسان لأن مشقاتها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليدلله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم - كما تعلمون - لم يشبع من خبز شعير قط ، وأولاده وأهله - على سبيل المثال - لا يأخذون من الزكاة ، والرسل لا تورث فجميع ماتركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة على الرسول ، وهذه هي الفائدة في أنه لم يقل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما « على رجل منكم » تعطى البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل .

﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأعراف)

ما هو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردوا الألوهية والنبوة . وبعضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة النبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ؛ لأن الملائكة لم تعص ولها هبة ولا يُعرف عنها الكذب . لكن كيف يصح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضى المواجهة ، ولا بد أن يراه القوم ويكلموه ، والملك أنت لن تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل بهيئة رجل . إذن أنتم تستعجبون من شيء كان المنطق يقتضى ألا يكون .

﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٦٤)

(سورة الإسراء)

وقولهم هذا في قمة الغباء . فقد كان عليهم أن يتهافتوا ويقبلوا على الإيمان ؛ لأن الرسول منهم . وقد عرفوا ماضيه من قبل ، وكذلك أنسابه ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً لحزى واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . ومادام هو منكم وتعرفون تاريخه وسلوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن تقولوا لأنفسكم : إنه لم يكذب في أمور الدنيا فكيف يكذب في أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلا بد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (٦٥)

(سورة الأنعام)

وهنا في الآية التي نحن بصددھا يقول الحق : (على رجل منكم لينذرکم ولتتقوا ولعلکم ترحمون).

إذن فمهمته أن ينذر ، والأنذار لقصد التقوى ، والتقوى غايتها الرحمة ، وبذلك نجد هنا مراحل : الإنذار وهو إخبار بما يسوءك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف لأنه سيتبعك ويضايقك . والبشارة ضد الإنذار ، لأنها تخبر بشيء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يجند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم . وأن يتعد عن الشيء المخيف .

وهكذا يكون التبشير والإنذار لتتقى الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان في التقوى التي تؤدي إلى الرحمة .

إذن فمواطن تعجبهم من أن يجيئهم رسول مردودة ؛ لأن مواطن التعجب هذه كان يجب أن يلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس إليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول ولم يأت ملكاً ليكون قدوة .

وكذلك لم يرسله الله من أهل الجاه ومن الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لا يقال إن الرسالة قد انتشرت بقهر العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين على الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، فمخافة أن يقال : إن كل تشريع من الله أزره المبتطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدي الذين ليس لهم أتباع ولا هم من أصحاب الجاه والسلطان . ولقد تمنى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٢١) ﴿ [سورة الزخرف]

ولقد كان تمنيهم أن ينزل القرآن على رجل عظيم بمعاييرهم ، وهذه شهادة منهم بأن القرآن في ذاته منهج ومعجزة . ولم يتساءلوا : وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذي يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ مَا نُرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نُرَاكَ أَتْبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ .. ﴾ (٢٧) ﴿ [سورة هود]

وهذه هي العظمة ؛ لأن أتباع محمد ﷺ لم يكونوا من الذين يفرض عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم وبقتوتهم ، ويفرضوا الدين بقوة سلطانهم ، لا ، بل يمر على أتباع رسول الله فترة ضعاف مضطهدون ، ويؤذون ويهاجرون ، فالمهمة في البلاغ عن الله تأتي لينذر الرسول ، ويتقى الأتباع لتنالهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتقوى جاءت نتيجة الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ
وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (٦٤)

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإنجاء ، ونعلم المقدمة الطويلة التي سبقت إعداد سيدنا نوح ﷺ للرسالة ، فقد أراد له الله أن يتعلم النجارة ، وأن يصنع السفينة .

﴿ وَكَلَّمَا مَرْءًا عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. ﴾ (٢٨) [سورة هود]

ولم يجيء الحق هنا بسيرة الطوفان التي قال فيها في موضع آخر من القرآن :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ (١١) [سورة القمر]

وجاء الحق هنا بالنتيجة وهي أنهم كذبوه .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. ﴾ (٦٤)

[سورة الأعراف]

وكانت هذه أول حدث عقابي في تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح ﷺ هي أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، وكان الرسل السابقون لنوح عليهم البلاغ فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا في حرب أو صراع ، والسماء هي التي

تؤدب ، فحينها علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستبلغ الإنسانية رشدًا صار أتباع محمد مأمونين على أن يؤدبوا الكافرين .
وفي تكذيب نوح عليه السلام يأتي الحق هنا بالنتيجة .

(فأنجيناهم والذين معه) ولم يقل الحق : كيف أنجاه ولم يأت بسيرة الفلك ، بل أخبر بمصير من كذبوه ، ويأتي بالعقاب من جنس الطوفان .

﴿ وَأَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف) .

هناك « أعمى » لمن ذهب بصره كله من عينيه كليهما ، وهناك أيضا عمه وأعمه ، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر . . أى ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير .

ثم انتقل الحق إلى رسول آخر . ليعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة فيه أيضا . فبعد أن جاء بنوح يأتي يهود .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

﴿ ٦٥ ﴾

وساعة ما تسمع : (وإلى عاد أخاهم هوداً) أى أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، و « أخاهم » موقعها الإعراب « مفعول به » ويدلنا على ذلك قوله في الآية السابقة : (أرسلنا نوحاً) ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً . وكلمة « أخاهم » تُشعرُ بأشياء كثيرة ؛ إنه من جنسهم ، ولغته لغتهم ، وأنسهم به ، ويعرفون كل شيء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك إشارات تعطى الأنس بالرسول ؛ فلم يأت لهم برسول أجنبي عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا : لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة علينا . بل جاء لهم بواحد منهم وأرسل إليهم « أخاهم » وهذا الكلام عن « هود » .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأى يقول : إن هوداً لم يكن من قوم عاد ، ولأنَّ

الأخوة نوعان : أخوة في الأب القريب ، أو أخوة في الأب البعيد ، أى من جنسكم ، من آدم ؛ فهو إما أخ من الأب القريب ، وإما أخ من الأب البعيد . وقد قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل بالباب ، يقول إنه أخوك ، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه : ألا تعرف إخوة أمير المؤمنين ؟ وقال له : أدخله ، فأدخله . قال معاوية للرجل : أى إخوتك أنت ؟

قال له : أخوك من آدم .

فقال معاوية : رحم مقطوعة - أى أن الناس لا تنتبه إلى هذه الأخوة - والله لا يكون أول من وصلها .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلاحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه :

﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد ، لكن قول هود لقوم عاد يأتى : (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

وهنا « قال » فقط من غير الفاء ؛ وجاء في قول نوح : « فقال » . وهذه دقة الأداء لنتنبه ؛ لأن الذى يتكلم إله ورب ، فتأتى مرة بـ « فاء » وتأتى مرة بغير « فاء » رغم أن السياق واحد ، والمعنى واحد والرسول رسول ، والجماعة هم قوم الرسول . ونعلم أن « الفاء » تقتضى التعقيب ، وتفيد الإلحاح عليهم ، وهذا توضحه سورة نوح ؛ لأن الحق يقول فيها :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٦٦﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦٧﴾ وَإِنِّي

كَلَّمَا دَعَوْتَهُمْ لَتُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشِرُوا شِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا

وَأَسْتَكْبِرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴿

(سورة نوح)

إذن فالفاء مناسبة هنا ، لكن في مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة أو اثنتين أو ثلاث مرات ، لكن بلا استمرار وإلحاح ، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضى أن يأتي في سياق الحديث عنه بـ : « فقال » وألا تأتي في الحديث عن دعوة سيدنا هود . وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإيضاح بزمن رسالة سيدنا نوح في قوله الحق :

﴿ قَلْبَتْ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

ظل سيدنا نوح قرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سراً وعلانية ، لكنهم كانوا يفرّون من الإيمان ، لذلك يأتي الحق في أمر دعوة نوح بالفاء التي تدل على المتابعة . أما قوم عاد فلم يأت لهم « بالفاء » . بل جاء بـ « قال » :

﴿ وَإِنِّي أَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠١﴾ قَالُوا أَتَقَوْمُ هُدُودًا قَالَ بِرَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَن تَقْرُبُوا إِلَهًا غَيْرَهُ ﴿١٠٢﴾ ﴿

(من الآية ٦٥ سورة الأعراف)

وقال نوح من قبل :

﴿ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٠١﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٢﴾ ﴿

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وفي مسألة قوم عاد قال : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

ومع أن الأسلوب واحد والمعاني واحدة ، وكان ذلك يقتضى الإنذار ، لكن لم يقل الحق ذلك ؛ لأن نوحاً كان عنده علم بالعذاب الذي سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب .

العملية التي حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ؛ فالله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك ألمح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

أى أن العذاب قد ينتظركم وينالكم مثل قوم نوح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

في هذه الآية جاء قوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وفي قصة نوح قال سبحانه : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكنتم إيمانه وأخفاه ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكنتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى في شأنهم : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قد جاء مناسباً للمقام ، لأن فيهم مؤمناً لم يقل ما قالوا من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأعراف)

أما قوم نوح فقد قالوا :

﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأعراف)

فقال لهم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَلْقَوْمٍ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبة حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ، وأضافت عاد اتهاماً آخر لسيدنا هود : ﴿ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ، ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن . على حد قوله سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

أى يتيقنون ، وجاء بالرد من سيدنا هود :

﴿ قَالَ يَلْقَوْمٍ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

وفي هذا القول نفى للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبلغ عن الله بمنهج تؤديه الآية التالية وهي قوله الحق :

﴿ أَلْبِغْكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾

وسبق أن قال سبحانه على لسان نوح :

﴿ أَلْبِغْكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

فلماذا قال في قوم نوح : ﴿ أنصح لكم ﴾ ، وقال هنا في عاد : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ؟

لقد قال الحق : ﴿ أنصح لكم ﴾ في قوم نوح لأن الفعل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلح على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسراً ، لذلك جاء الحق بالفعل : ﴿ أنصح لكم ﴾ ليفيد التجدد ، ولكن في حالة قوم هود جاء سبحانه بما يفيد الثبوت وهو قوله : ﴿ ناصح أمين ﴾ ؛ لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه في دعوتهم إلى الإيمان كما كان يفعل نوح عليه السلام .

ويقول سبحانه على لسان سيدنا هود :

﴿ أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً
مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً
فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال : ﴿ لينذركم ﴾ فقط ، وليس كما قال في قوم نوح : ﴿ ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل ليرتدع ونتقى ، لكي نرحم ، إذن فحين يأتي بأول الحلقة وأول الخيط وهو الإنذار فنحن نستنتج الباقي وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

وهذا كلام جديد ؛ لأن قوم نوح هم أول قوم عذبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يبلغهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه :

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا

ءِ الْآءِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الاعراف)

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ، ويقال : إن الطويل منهم كان يبلغ طوله مائة ذراع ، والقصير منهم كان يبلغ طوله ستين ذراعاً ، ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أى نعمه عليهم ، وأول النعم أن أرسل إليهم رسولاً يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير .

فماذا كان ردهم ؟

يقول الحق :

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ

مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا إِنَّمَا بَعَدْنَا إِن كُنْتَ

مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لأن يعبدوا الشركاء الذين لا يتفوعونهم ولا يضررونهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتنكسر رقبتة ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود : نحن نقلد آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير . وإن كان إلهك ينذرنا بعذاب فأتنا به إن كنت من الصادقين . وهكذا وضع أنه لا أمل في اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجيء القول الفصل على لسان سيدنا هود :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ
وَعَظِبٌ أَلْتَجِدَلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا
أَنْتُمْ وَعَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (٧١)

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قالوا له : اثنتا بالعذاب ، فقال لهم : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس و عصب ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ لقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . و « وقع » فعل ماض ، لكننا نعلم أن كلام الله مجرد عن الزمان ماضياً كان أو حاضراً ، أو مستقبلاً ، لقد قال سيدنا هود : « وقع » والعذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنه يؤكد وقوع العذاب حتماً ؛ لأن الذي أخبر به قادر على إنفاذه في أى وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك . والذي وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أى التقدير ، ضد التزكية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لا بد أن له شكلاً سيقع به .

ويسائلهم هو ساخراً : ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموا أنتم وآبائكم ﴾ ، وكل اسم يكون له مسمى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الآلهة ، وهل لها مسميات حقيقية لتعبد ؟ . لا ، بل أنتم خلعتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا مسميات ، وأنتم فى حقيقة الأمر مقلدون لآبائكم . وما تعبدونه أسماء بلا سلطان من الإله الحق .

﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الاعراف)

أى ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون فى الجاهلية إلهاً باسم « العزى » وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ؛ لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وقيوماً على غيره ؟ وكذلك سما « اللات » أى الله ومضاف له التاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب :

﴿ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فانظروا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضي ، ولكن لتقرأ قوله الحق :

﴿ أَنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

وه « أتى » فعل ماضٍ ، وفي الظاهر أنه يناقض قوله : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ لأن الاستعجال يدل على أن الحدث لم يأت زمنه بعد . ولكن لنا أن نعلم أن الذي أخبر هو الله ، ولا توجد قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون .

يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

ونلاحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فكذبوه فانجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ .
أما هنا في مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب . وكان العرب قديماً إذا حزبهم أمر ، أودعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم يذهبون إلى بيت الله ؛ ليضرعوا إلى الله أن يخلصهم منه ، حتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هوداً نبياً فكذبوه وازدادوا عتواً تجبراً فأصابهم جذب وظل ثلاث سنوات فما كان منهم إلا أن فزعوا إلى الكعبة لكي يدعوا ربهم أن يخفف عنهم العذاب ، وذهب واحد منهم اسمه « قيل بن عنز » ، وآخر اسمه « مرثد بن سعد » الذي كان يكتنم إسلامه على رأس جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من العماليق ؛ من أولاد عمليق بن لاوث بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة في هذا الوقت ، وعلى رأسهم واحد اسمه « معاوية بن بكر » ، فنزلوا عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقة العرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ، فاستمرأوا الأمر ، وظلوا شهراً ، فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقذوا قومهم من الجذب ومافكروا أن يذهبوا إلى الكعبة، ولافكروا في أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سنة في . وأخذ يفكر في الأمر . وكان عنده مغنيتان اسمهما « الجرادتان » . فقالت المغنيتان : قل في ذلك شعراً ، ونحن نغنيه لهم ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يمطرنا غماماً
فيسقى أرض عاد إن عاداً قد أمسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا ، والغناء فيه ترديد وخصوصاً إذا كان غناءً موجهاً « ألا يا قيل ويحك قم فهينم » وهينم : أى ادعوا الله ، ألم تحضر من أجل الدعاء لعل الله يمطرنا الغمام على أرض عاد ، وينتهي الجذب ، وقد بلغ منهم الجهد أنهم لا يبينون الكلام ، فتنبه القليل ، وتنبه مرثد بن سعد ، وكان قد نسي إلى علم « القليل » أن مرثد بن سعد مؤمن بهود عليه السلام ، ففرض أن يصحبه معه ، وبالفعل ذهب قيل وأخذ يدعو الله ، فسمع هاتفاً يقول له : « اختر لقومك » وقد رأى سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين الثلاثة ، فاختر السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٢١٥

اختار السحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدوا السحابة السوداء فقال لهم : أنا اخترت السحابة السوداء لأنها توحى بماء كثير منهمر ، وقال الحق فى هذا الأمر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأحقاف)

أى أن هذه هى السحابة التى قال عليها: « قيل » سوف تعطينا المطر .

فيرد الحق عليهم ويقول لهم :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥ سورة الأحقاف)

إذن فقولهم السابق لسيدنا هود الذى أورده الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ فَاتَّبَعْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأعراف)

أى أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذى جاء به قول سيدنا هود هنا فى سورة الأعراف : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ .

ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لقد يسر الحق الانقاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتفاً يؤكد له أن فى هذا السحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْمِيمُ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَمٍ ﴾ (٧٣)

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

إذن فالإنذار للتقوى وللوصول إلى الرحمة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً : إن القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتي به مفصلاً ولكن سياقه يوحي بالمراد منه ، ولا يكرر وذلك ليربي فينا ملكة الاستيقاظ إلى استقبال المعاني . والمثال على ذلك في قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (٢١)

(سورة النمل)

ويهدد سيدنا سليمان الهدهد قائلاً :

﴿ لَا عَذِيبَ لِعَذَابِي شَدِيدًا أَوْ لَا أَذِيبَنَّ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النمل)

ثم جاء الهدهد ليقول :

﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَّامٍ بَنِيانٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النمل)

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدهد إلى قوم سبأ قائلاً :

﴿ أَذْهَبَ بِكِنْيَتِي هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَلِيٌّ إِلَىٰ كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

وكان الهدهد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبأ ، وقالت هي الرد مباشرة . إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متراً للفهم من السياق .

وكذلك هنا في قوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وكلمة « أخاهم » هنا تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مأنوساً به عند ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، وسوابقه في القيم والأخلاق معروفة لهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود .

﴿ قَالَ يَنْقُومِ الْعَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ

نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

والبينة هي الدان على الصدق في البلاغ عن الله ، وهي الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل خسران لهم بناقة ونسب ملكيتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لا بد أن تكون لها قوتها في الحياة . لا أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوة ثمود من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بالهتنا ، وأنت تستنجد بإلهك ، وإن غلبت آلهتنا تبعتنا ، وإن غلب إلهك

تبعك ، وجلسوا يدعون آلهتهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح : إن كنت صادقاً في دعوتك ، هذه صخرة مفردة أمامك في الجبل اسمها « الكائبة » فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هي عشاء كالبخت - أحسن أنواع الإبل - ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، وانشقت الصخرة عن الناقة ، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً من الشك في أنها آية من الله ظهرت أمامهم . إنها البينة الواضحة . لقد انشقت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشاء ، وبراء - أي كثيرة الوبر - يتحرك جنيها بين جنيها ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تتأكد الآية الإلهية دون أن يجروا أحد على التشكيك فيها ، وهي ناقة من الله وهو القائل :

﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشمس)

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وترونها رؤية مشهدية وهذه الناقة لها يوم في الماء لتشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه . وكان الماء قليلاً عندهم في الآبار .

﴿ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الشعراء)

أي لا بد من تخصيص يوم لتشرب فيه هذه الناقة ، ولكم أنتم وإبلكم وحيواناتكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الناقة أن تقف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماءً ، وهي كمية من المياه كانت تكفي كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التي شربتها في ضرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة منعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذي يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لا بد أن تأخذ هيكلًا وحجمًا يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقييم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعامها وحجمها ، فمادامت منسوبة لله فلا بد أن فيها مواصفات إعجازية ، وكان الفصيل الذي ولدته معها ، وكان إذا ما جاء الحر في الصيف تسكن الناقة في المشارف العالية ، وبقيّة النوق تنزل في الأرض الوطيئة ، وحين يأتي الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة .

والمعروف أن مدائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة أو « تبوك » أن يمر عليها .

كانت الناقة حرة في اختيار المكان الذي تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد بقادر أن يمسه بسوء . وكانت هناك امرأتان لها نياق . وناقة الله تغلب نياق المرأتين في المراعى والماء . فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه : « أحيمر ثمود : واسمه قدار بن سالف » ليقتلها ، فقتل الناقة ، فلما قتلت الناقة ، طلع ابنها الفصيل على جبل يسمى « قارة » وخار ثلاثة أصوات ، فنادى سيدنا صالح : يا قوم أدركوا هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فراحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبي أن العذاب قادم ، ففي اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة ، وفي اليوم الثاني تكون محمرة ، وفي اليوم الثالث تكون مسودة ، فقد كانت الناقة هي ناقة الله المنسوبة له سبحانه ، وقد تأكدوا بالأمر المشهدى من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة للشىء الموعود به . لكنَّ الغباء أنساهم أنها ناقة الله .

﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أحيمر ثمود الناقة .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ الْآءِ

اللَّهُ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

ومن قبل قال الحق لقبيلة عاد :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

وهنا قال الحق : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصتهم ما زالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهي بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل لهم في الأرض منازل يسكنونها ، فاتخذوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المنبسط الذي لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهدم مرتين في العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن يتخذوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة في الجبل فهي فرصة لأن يتأمل عظمة الحق في تنبيه الخلق إلى ما يفيدهم وهي بالفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه :

﴿فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأعراف)

وآية الله - كما عرفنا - هي نعمه التي لا تحصى ، وبنهبهم إلى عدم نشر الفساد في الأرض .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنْ صَلَحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلَ بِهِءٍ مُّؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاه لهم ولا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فأقبلوا عليها ، أما الملا وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يملأون العين هيبة ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين - لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر - قال هؤلاء الملا من المستكبرين لِمَنْ آمَنَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ :

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءٍ مُّؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأعراف)

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . فماذا قال الملا المستكبرون ؟
يقول الحق :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ
بِهِءَ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾

إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه بالعمل وهو قتل الناقة ،
ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
وَقَالُوا لَا يَصْلِحُ إِلَتِنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧٧)

والعقر: هو الذبح بالنسبة للثوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ .. ائْتْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧٧)

[سورة الأعراف]

و«الصادقين» تؤول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كئيب
مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهي خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل
عليهم غضب الله المتمثل في قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جِثْمِينَ ﴾ (٧٨)

والرجفة هي الهزة التي تحدث رجة في المهزوز . ويسمى القرآن مرة بالطاغية .
في قوله الحق :

[سورة الحاقة]

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾

والتي أصبحوا من بعدها «جاثمين» ، وهو التعبير الدقيق الذي يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه . أو كما نقول : «انسخطوا على هيئاتهم» .

«فالجاثم» هو من لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرجفة يقول الحق :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ

رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ

النَّصِيحَاتِ ﴿٧٩﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء لذمته ، مثلما يقع واحد في ورطة فيقول له صديقه : لا أملك لك شيئاً الآن : فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قتل ، فتقول له : «ياما نصحتك» . وأنت تتكلم لكي تعطى لنفسك براءة العذر ، أو كما فعل ﷺ مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم في قليب بدر ، وقال ﷺ : يا أهل القليب ، يافلان ، يافلان ، يافلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فقال الصحابة :

- أو تكلمهم يارسول الله وقد جيّفوا . قال : والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم

ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

وكان سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد بغضب عليه .

وبعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ

مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتي باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات .

وما هو زمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال . وهي الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلغ الرسالة لا يتوانى لحظة في أداء المهمة ، فكان تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له : « بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكان الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف) -

وكلمة « قومه » تعني أنه منهم ، ولماذا لم يقل : « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقبام الذين أرسلوا إليهم ؛ فعاد كان « هود » من بيئتهم ، و « ثمود » كان صالح من بيئتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلنلاحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً

لم يكن من هذا المكان ، لأن لوطاً وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوطاً طارىء على هذا المكان ، ولم يكن أخاهم المقيم معهم في البيئة نفسها . ولكنهم « قومه » لأنه عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لنتبه إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسبحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربي نهاكم عن هذه العملية القذرة وهي إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استفهاماً قد يردعهم عن العملية ويقبحها .

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تفرّيع ، واستفهام إنكار ، فلم يقل لهم : إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل ، بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للفطرة ، واستنكار فطري .

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكارياً ليحرجهم ، لأن العقل الفطري يابى هذه العملية : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقدرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشتهيها النفس غير السوية . ولكنها عملية قدرة تاباها الفطرة السليمة .

وكلمة « فاحشة » تعطينا معنى التزويد فى القبح ؛ فهى ليست قبحاً فقط ، بل تزويد وإيغال وتعمق فى القبح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أتى الرجل أنثى معدة لهذه العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجاً ، وعندما يتزوجها تصير حلالاً له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزويد فى الفحش . وإذا كان هذا الأمر محرماً فى الأنثى التى ليست حلالاً له ويعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق

لمثل هذا الفعل ولا يمكن أن يصير حلالاً ، يكون إتيانه فاحشة بمعنى مركب .

﴿ .. أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠) [سورة الأعراف]

وقلنا من قبل : إن «من» قد تأتي مرة زائدة ، ويمكنك أن تقول إنها زائدة في كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك في كلام ربنا . وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى ما سبقكم أحد من العالمين ، و«أحد» هى الفاعل ، وجاءت «من» لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، مثلما قلنا قديماً ، حين تأتي لواحد لتقول له : «ما عندى مال» . فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يعتد به . وقد يكون معك من بداية ما يقال له أنه مال ، وقوله الحق :

﴿ .. مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨١) [سورة الأعراف]

يعنى أنه لم يسبقكم أى أحد من بداية ما يقال له أحد ، وسبحانه يريد بذلك أن ينفىها أكثر ، و«من» التى فى قوله : ﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ هى تبعيضية أى ما سبقكم بها أحد «من بعض» العالمين . فما هذا الأمر ؟ لقد سماها فاحشة ، وهى تزيد فى القبح ووصفة لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقلياً نجد أن الإنسان مخلوق كخليفة فى الأرض وعليه استبقاء نوعه ؛ لأن كل فرد له عمر محدود ، ويخلف الناس بعضهم بعضاً ، ولا بد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله للإنسان الأقوات التى تبقيه ، وحلل له الزواج وسيلة لإبقاء النوع ، ومهمة الخليفة تفرض أن يخلف بعضنا بعضاً .

وكل خليفة يحتاج إلى اقتنيات وإلى إنجاب . و«الاقتنيات» خلقه الله فى الأرض التى قدر فيها أقواتها .

والنوع البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ومنهما يأتى الإنجاب الخلاقى ؛ فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفة ، ثم فى أمه جنيناً ثم تضعه لترعاه مع والده ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ،

فحمل الأم في الطفل تسعة شهور هو أمر شاق ؛ لأن الإنسان منا إن حمل شيئاً طوال النهار سيصاب بالتعب ، لكن الأم تحمل الجنين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسيابياً بمعنى أن الجنين في نشأته الأولى لا يبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وببطء لمدة تسعة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجنين كان صغيراً في بدء تكوينه ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلو جرام في يوم ولادته ، وبين بدء تكوينه إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمنية ينمو فيها هذا الجنين تدريجياً ، وبشكل انسيابي ، فهو لا يزيد في الوزن كل ساعة ، بل ينمو في كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يناسب هذا الجزء من الثانية ، وهذا يعني أن الجنين ينمو انسيابياً بما يناسب الزمن .

نلاحظ ذلك أيضاً في أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لا يدربون اللاعب الناشئ على حمل مائة كيلو جرام من أول مرة بل يدربونه على حمل عشرين كيلو جراماً في البداية ، ثم يزداد الحمل تباعاً بما لا يجعل حامل الأثقال في عنت ، ويسمون ذلك : انسياب التدريب ؛ لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى تعود ، ولهذا لا يتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لا يدرك الزمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأنت إذا نظرت إلى طفلك الوليد ساعة تلده أمه ، وسأقدر جداً أنك ظلمت تنظر إليه دائماً ، فهو لا يكبر في نظرك أبداً ؛ لأنه ينمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو غبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستدرك نموه ، وهذا النمو الزائد قد تجمع في الزمن الفاصل بين آخر مرة رأيته فيها قبل غيابك وأول مرة تراه بعد عودتك .

ومن لطف الله -إذن- في الحمل أن الجنين ينمو انسيابياً ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى الأم الحامل ، وهي تسير بوهن وتبطيء في حركتها ، ثم يأتي الميلاد مصحوباً بمتاعب الولادة وآلامها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، ويأخذ سنوات إلى أن يبلغ الرشد. ونعلم أن أطول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ولذلك نجد الأب الذي يريد الإنجاب يتحمل

مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهي أعنف شهوة تأتي من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل نجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

إذن كأن الشهوة هي الطعم الموضوع في المصيدة ليأتي بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لقبول عليها ، وبعد أن نقبل عليها ، وتورط فيها نتوفر وببذل الجهد لنربي الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أخللت وملت عن سنة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت خلافة الأرض ، والشئ الآخر أن الرجل في الجماع يلعب دور الفاعل ، وفي الشذوذ وهو العملية المضادة التي فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى متفعل بعد أن كان فاعلاً .

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

والفاحشة هي العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحددها سبحانه من البداية كدليل على أنها أمر معلوم بالفطرة ، فساعة يقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون الغباء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الواضح :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ
النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

والإسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعياً منجبا ، وحيث تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإنجاب ، وتعطيك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتعطيك الإنجاب ، وتشاركان من بعد ذلك في رعاية الأولاد . وأى خروج

عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوة فحسب لكى ينبغى أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإنجاب معا ؛ لبقاء النوع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط : ﴿ .. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٨١) . ويأتى الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيدنا لوط :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ
مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴾ (٨٢)

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشذوذ ؛ لذلك قالوا :
﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ .. ﴾ (٨٢) .

وما هى الحجة التى من أجلها إخراج لوط والذين آمنو معه من القرية ؟

﴿ .. أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴾ (٨٢) [سورة الأعراف]

فهل التطهر عيب ! لا ، لكنهم عاشوا فى النجاسة وألفوها ، ويرفضون الخروج منها ، لذلك كرهوا التطهر . والمثال على ذلك حين نجد شاباً يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة فى مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمر ، فنصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يغازلون النساء فحذرهم من مغبة الخوض فى أعراض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم المتزهّد المتقشف ، وكان هذه الصفات صارت سبباً فى نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذى يحيا فى القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ

الْغَابِرِينَ ﴾ (٨٢)

وهم حين أرادو طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازفون .

إنهم بذلك قد تعجلوا العقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لا يحتاج فيه سبحانه إلى حد ، وإذا تساءل أحد : ومن هم أهل لوط الذين أنجاهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل التدين والتبعية ؟ . إن كان أهله بالنسب فالحق يستثنى منهم « إمرأته » ، وهذا دليل على أن أهل البيت آمنوا بما قاله لوط وكذلك الأتباع أيضاً : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع الإنسان عن الرجس والسوء . ولذلك نجد سيدنا شعبياً حين ينصح قومه :

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ (٨٥) [سورة الأعراف]

ويتعجب القوم سائلين شعبياً :

﴿ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [سورة هود]

إنهم يتعجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أعمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفوا أن الصلاة تنهى عن كل شيء . وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله بأنه مجنون :

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٦) [سورة الحجر]

ومن قولهم يتأكد غياب تفكيرهم ، فماداموا قد قالوا : ﴿ نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ فمن الذى نزل هذا الذكر ؟ ، والذكر هو القرآن ، والذى نزله هو الله - سبحانه وتعالى - فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ، ثم يتهمون الرسول بأنه «مجنون» ؟ ، لأنهم ماداموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر ، وإنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون مجنوناً؟ إنهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها نجد الحق يقول سبحانه :

﴿ فَأَجْبِنُهُ وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٨٣)

[سورة الأعراف]

إن إمراة سيدنا لوط لم تدخل فى الإنجاء لأنها من الغابرين ، و«غبر» تأتى لمعان متعددة ، فهى تعنى إقامة ومكثا بالمكان ، أو تعنى أى شىء مضى ، كما يقال : هذا الشىء غبرت أيامه ؛ أى مضت أيامه ، ولسائل أن يقول : كيف تأتى الكلمة الواحدة للمعنى ونقيضه ؟ فغبر تعنى بقى ، وغبر أيضاً تعنى مضى وانتهى . نقول : إن المعنى ملتحق هنا فى هذه الآية ، فمادام الحق ينجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيت فى المكان الذى نزل فيه العذاب ، وبقيت فى الماضى ، وهكذا يكون المعنى ملتقيا . فإن قلت مع الباقين الذين آتاهم العذاب فهذا صحيح . وإن قلت إنها صارت تاريخاً مضى فهذا صحيح أيضاً :

﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

ونحن لاندخل فى تفاصيل لماذا كانت امراته من الغابرين ؛ لأن البعض تكلم فى حقها بما لا يقال ، وكأن الله يدلس على نبي من أنبيائه ، لا ، نحن لاناخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به .

ونلاحظ أيضاً أن الحق تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط فى مسألة الكفر ؛ فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

[سورة التحريم]

عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا .. (١٠) ﴾

ودقق النظر فى كلمة ﴿ تحت عبيدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ وتساءل البعض عن معنى الخيانة وهل المقصود بها الزنا ؟ . ونقول : ربنا لا يدلس على نبي له ، لكن أن تؤمن الزوجة أو تكفر ، فهذه مسألة اختيارية . وكان الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيماناً على امرأته ؛ فالمسألة هى حرية الاعتقاد . وانظر إلى التعبير القرآنى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ .

إياك أن تظن أن أيا منهما كانت متكبرة على زوجها ؛ لأن الحق يقول : ﴿ كانتا تحت عبيدين من عبادنا ﴾ أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كانتا تحت عبيدين ﴾ لكن الإيمان هو مسألة اختيار ، وهذا الاختيار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك فى مسألة ابن سيدنا نوح :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

وحاول البعض أن يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يجانبون الصدق ، إنه محض افتراء ، وقد نبهنا الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط :

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ولنفهم أن الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأن الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبى الزوجتين ؛ حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه ، ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

وَوَجِّئِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَوَجِّئِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذه زوجة فرعون المتجبر ؛ الذى « ادعى الألومية » ، لكنه لا يقدر أن يمنع

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٢٣٣

امراته من أن تؤمن بالله ، وهكذا نجد نبياً لا يقدر أن يقنع امرأته بالإيمان ، ونجد مدعى الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته كافرة مثله ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختياري محمى بكل أنواع الحماية ؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

وضرب الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

ونلاحظ أن الحق لم يأت بأسماء زوجتي نوح ولوط ، وكذلك لم يأت باسم امرأة فرعون ، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها . فلماذا كان الإبهام أولاً ؟ لنعلم أنه من الجائز جداً أن يحصل مثل هذا الأمر لأمراة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هي مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

(سورة الاعراف)

فكلمة « أنجيناه » تشير إلى أن عذاباً سيقع فى المكان الذى فيه قوم لوط ، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى ، فلا بد أن يدفع الجماعة التى كتب لها النجاة إلى الخروج . وهذا الخروج أراد له من يكرهونهم ، فقد قالوا :

﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الاعراف)

لكن ربنا هو الذى أخرجهم ، والإخراج كان من العذاب الذى نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإنجاء لوط وأهله مما نزل بهؤلاء الفجرة .

ويأتى العذاب من الحق :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

فهل كان ذلك المطر مثل المطر الذى ينزل عادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول :

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ (٣٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾

[سورة الذاريات]

يقول الحق : إنه سيعذبهم بالمطر ، فلننتبه أنه ليس المطر التقليدى ، بل إنه يعذبهم ويستأصلهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : «فانظر» أى فاعتبر يا من تسمع هذا النص ، وهذه القصة تبين وتوضح أن الله لا يدع المجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسله دون عقاب .

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْوِينًا مِنْ رَبِّكُمْ فَارْقُبُوا الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

و«مدين» هو ابن من أبناء سيدنا إبراهيم جاء واستقر في هذا المكان ، فهو علم على شخصه ، وعلم على المكان الذي أقام فيه وسمى المكان باسمه ، فلما تكاثر أبناؤه وصاروا قبيلة أخذت القبيلة اسمه . إذن ف«مدين» اسم عَلمٍ على ابن إبراهيم ، وأطلق على المكان الذي استقر فيه من طور سيناء إلى الفرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى هنا يكرر «أخ» ليبين لك ؛ أنه إن قسا عليهم مرة فسيحزنو عليهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوة له ومأنوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شيء ، وكان مدين قد تزوج من ربة ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثر الاثنان صاروا قبيلة ، ويبلغهم سيدنا شعيب بالقضية العقدية التي يبلغها كل رسول :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

والعبادة هي الطاعة للأمر والطاعة للنهي ، وأنت لا تطيع أمر أمر ولا نهى ناه إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساويا لك ، فبعد أن يقول لك : «افعل كذا» ستسأله أنت : لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شيء ستسأله أيضاً : لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفله : لا تفعل الشيء الفلاني ، فالابن لا يناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكبر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاتيته تتكون ، ويريد أن يعرف الأمر الذي سيقدم عليه .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يُقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ .. (٨٥) ﴾

[سورة الأعراف]

ومادام قد قال لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولا بد أن تكون معجزة يثبتها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبينة .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ .. (٨٥) ﴾ [سورة الأعراف]

لأن كل المعاصي والكفر تدفع إلى الإخلال في الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلا بد أن الإخلال في الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتي ليعالج الأمر الشائع . وهم كانوا يبخسون الكيل والميزان .

ويظن الناس في ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاختلاس فيها هين يسير ، فحين يبخس في الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه في آخر الأمر جزءاً كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك في من يشتري . وستذهب أنت بعد ذلك لتشتري من أناس كثيرين سيفعلون مثلما فعلت ، فإذا ما وفيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ما هو في مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكي بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصالحك كلها مع الآخرين .

إنك حين تباع أي سلعة ولو كانت بلحاً وتنقص في الميزان ، ستحقق لنفسك ربحاً ليس لك فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ماليس لك ، والقمح والبلح هما بعض من مقومات حياتك ؛ لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فلسوف يفعلون مثلما فعلت فيما يملكون لك ، وبذلك تخسر أنت ويصبح الخسران عاماً .

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [سورة الأعراف]

وإذا كانت الخسارة في الكيل والميزان طفيفة ومحتملة ، فمن باب أولى ألا نبخس الناس أشياءهم فلا نظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا تسرف لأن السارق يأخذ ما تصل إليه يده ، ولا تغضب ، ولا تختلس ، ولا ترتشي ، لأنه إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب الله منكم مع أن الخسارة فيه طفيفة ، إذن فبخس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٨٥) ﴾ [سورة الأعراف]

وبذلك نكون أمام أمر جاء بها نبي الله شعيب : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وهذه العبادة لتربي فيهم مهابة وتزيدهم حياءً واحتراماً للأمر الأعلى ،

وكذلك ليخافوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يبخسوا الناس أشياءهم ، ثم النهى والتحذير من الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ ، والإصلاح الذى يطلبه الله منا أن نستديمه أو نرقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العنصر الأول فى الحياة المسخرة لك ؛ يصرفه سبحانه حتى لا يفسد . والنعيم الثانى فى الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذى يخرجك لك من الأرض . والمواشى التى تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح فى الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد الغصب ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، فسيفسد كل شىء ، ولا يعدل كل ذلك ويقيمه ويجعله سوياً إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع الإفساد فى الأرض .

﴿ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكَ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا أَنْسَاءَ شَيْءِهِمْ

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الاعراف)

إذن فهذه الأشياء التى هى إيفاء الكيل والميزان يأتى الأمر بها ، ثم يتبعها بما ينهى عنه وهو ألا تبخس الناس أشياءهم وألا تفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المنهج . أوامر ونواهى ، وقد يبدو فى ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، فبقول : لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمعزل عن المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمراً واحداً ، وهذا الأمر الذى تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التى تحتاج إليها هى بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان . فذلك خير لك ؛ فالذى يقيس لك القماش لا يغشك ، والذى يزن لك ما ليس عندك لا يغشك ، والذى يكيل لك الذى ليس عندك لا يغشك ، إذن فأنت واحد منهى عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس منهيون أن يفعلوا ذلك معك ، وبذلك تكون أنت الكاسب .

وإذا جئت إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ، فأنت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم ، وكل الناس مأمورون ألا يبخسوك شيئاً ، وإذا أفسدت في الأرض بعد إصلاحها فالناس مأمورون أيضاً ألا يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون احظ منهم في كل شيء . ولذلك يجب على كل مكلف حين يستقبل تكليفاً قد يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه : إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك ، ولكن انظر إلى ما يؤديه لنفسه : إياك أن تنظر إلى انكشافك لك : لاتنظر إلى محارم غيرك ، فقد أمر غيرك ألا ينظر محارمك ، وفي هذا عزة لك . وإذا أمرك التكليف ألا تضع يدك في جيب غيرك وتسرق ، فقد أمر كل الناس ألا يضعوا أيديهم في جيوبك ليسرقوك ، وبهذا نعيش في أمان .

وإذا طلب التكليف منك وأنت غني أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول : مالي وتعبى وعسرتي ؛ لأن المال مال الله ، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا توجيه الحركة ، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله ، والعقل الذى خطط مخلوق لله ، والانفعال الذى انفعلك فى الأرض من خلق الله ، ولكن الحق احترام عملك وناتجه وفرض عليك أن تخرج منه زكاة مقدرة . فإياك أن تقول : إنه يأخذ منى ، لماذا؟ لأن عالم الأغيار باد وظاهر أمامك ، وكم رأيت من قوى ضعف ، ومن غنى افتقر ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطى الفقير وتقويه ، فإن افتقرت فسيقبل لك ذلك ، وفى ذلك تأمين حياتك ؛ لأنك تعيش فى مجتمع فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيماني لن يتركك ، أنت أو أولادك ، ويقول الحق :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

[سورة النساء]

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فانظر للأيتام فى مجتمعك وكن أباً لهم ، وحين تصير أنت أباً لهم ، وهذا أب لهم ، وذلك أب لهم ، سيسهر اليتيم أنه فقد أباً واحداً ، لكنه يحيا فى مجتمع إيماني أوجد له من كل المؤمنين

آباء ، فلا يحزن ، وكذلك لن تخاف أنت على أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن غادرتهم إلى لقاء ربك ؛ لأنك رعت اليتامى وعشت في مجتمع يرعاهم . ولكنك تحزن عندما ترى يتيماً مضيقاً في مجتمع لا يقوم على شأنه وتقول لنفسك : أنا إن مت سيضيع أبنائي هكذا .

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هي تأميناً للحياة . ومثال ذلك حين نقول للمرأة : تحجبي ، ولا تبدى زينتك لغير محارمك ، قد تظن المرأة في ظاهر الأمر أننا ضيقنا على حرمتها ، لأنها تنسى أن المنهج يؤمن لها قبح الشيخوخة ، لأنها حين تتزوج صغيرة ، ثم يصل عمرها فوق الأربعين ويتغير شكلها من متاعب الحمل وتربية الأبناء ، ثم يرى زوجها فتاة في العشرين وغير محتشمة قد تفتنه وتصرفه عن زوجته ، وينظر إلى زوجته نظر غير المكترث بها ، وغير الراغب فيها . فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهي صغيرة ؛ ليصون لها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها . فإن منعها وهي صغيرة فقد منع عنها وهي كبيرة ؛ كل ذلك إذن من تأمينات المنهج للحياة .

إذن فإيذاء الكيل ، وعدم إيخاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها خير للجميع في الدنيا ، بالإضافة إلى خير الآخرة ، ولذلك يذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٥)

[سورة الأعراف]

و«ذلكم» إشارة إلى ما سبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الأمر باستيفاء الكيل والميزان ، وإلى نبخس الناس أشياءهم ، وإلى نفسد في الأرض بعد إصلاحها ، ووضع الحق ذلك في إطار ﴿ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتي أيضاً لغير المؤمن ، وهكذا تكون كلمة «خير» تشمل خيراً في الدنيا ، وخيراً في الآخرة للمؤمن فقط . أما الكافر فسيأخذ الخير في الدنيا فقط ، ولا خير له في الآخرة ، فإن كنتم مؤمنين فسيضاعف الخير لكم ليصير خيراً دائماً في الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قِيَلًا فَكُذِّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ أى لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد
على الطريق قد يمنع من يحاول الذهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال :

﴿ لَا قُعْدَنَ لَكُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الاعراف)

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعياذ بالله ؛ لأن
الشيطان قال لربنا : ﴿ لَا قُعْدَنَ لَكُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وهنا ينهى الحق عن
القعود بكل صراط ؛ لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل لينهى عنها ،
إنما ليذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلاً واحداً يجب علينا أن نتبعه .
ولذلك يقول :

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الانعام)

إذن فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة
غوايات متنوعة ، فهذا طريق يغوى بالمال ، وذلك يغوى بالمرأة ، وذلك يغوى
بالجاه . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التى يدعو إليها كل رسول شائعة فى كل ما حوله ؛ فمن يأتى ناحية
أى هداية يجد من يصدّه . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ،
والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتى إجابة الحق : ﴿ وَتَبْغُونَهَا
عِوَجًا ﴾

إنهم يبغون ويودون شريعة الله معوجة ومائلة وزائغة عن الاستقامة ، أو تصفونها بأنها غير مستقيمة لتصدوا الناس عن الدخول فيها ، وينفروا منها ، مثال ذلك السخرية من تحريم الخمر والادعاء بأنها تعطى النفس السرور والانسجام . إن الواحد من هؤلاء إنما ينفر من شريعة الله ، ويدعى أنها شريعة معوجة ، فنجد من يحلل الربا ؛ لأن تحريم الربا في رأيهم السقيم المنحرف يضيق على الناس فرصهم . إنهم يبغون شريعة الله معوجة ليستفيدوا هم من اعوجاجها ، وينفروا الناس منها .

﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُ^ط وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الاعراف)

نعلم أن كل ردع ، وكل توجيه يهدف إلى أمرين اثنين : ترغيب وترهيب ، وعلى سبيل المثال نجد المدرس يقول للتلاميذ : من يجتهد فسنعطيه جائزة ، وهذا ترغيب ، ويضيف الأستاذ قائلاً للتلاميذ : ومن يقصر في دروسه فسنفصله من المدرسة ؛ وهذا ترهيب . وما دام الناس صالحين لعمل الخير ولعمل الشر بحكم الاختيار المخلوق فيهم لله فلا بد من مواجعتهم بالأمرين بالترغيب في الخير والترهيب من الشر .

والحق هنا يقول في الترغيب : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ .

وكانه يطالبهم بأن يكونوا أصحاب ذوق وأدب ، فنحن نعلم أن مدين تزوج وأنجب عدداً من الذرية وكانوا قلة في العدد فكثروهم حتى صاروا قبيلة ، وكانوا ضعافاً فقواهم ، وكانوا فقراء فأغناهم ، فمن صنع فيكم ولكم كل هذه المسائل ألا يصح أن تطيعوا أوامره . كان عليكم أن تطيعوا أوامره . وهذا ترغيب وتحسين .

ونعلم أن شعبياً هو خامس نبي جاء بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط . لذلك يذكرهم الحق بما حدث لمن كذبوا الأنبياء الأربعة السابقين . وقد يكون قوم نوح معذورين لأنهم كانوا البداية ، فلم يسبقهم من أخذ بالعذاب لتكذيب رسلهم ، ثم صارت من بعد ذلك قاعدة هي أن من يكذب الرسل يلقي العذاب ، مصداقاً لقوله الحق :

[سورة العنكبوت]

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ ۙ (٤٠) ﴾

فإذا كان شعيب يندرهم يان ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين ممن سبقوهم فهذا تذكير بمن أغرقهم ومن أخذتهم الصحية ، ومن كفاً وقلب ودمر ديارهم ، ومن جاء لهم بمطر من سجيل ، فإن لم يعرفوا واجبهم نحو الله الذى أنعم عليهم يان كانوا قليلاً فكثرهم ، فعليهم أن يخافوا عاقبة المفسدين . إذن فقد جمع لهم بين الترغيب والترهيب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي
أرْسَلْتُ بِهِ ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ
اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن طائفة آمنت ، وطائفة لم تؤمن ، ثم جاء الأمر للطائفتين ، فأمر المؤمنين بالصبر تأنيس لهم ، وأمر الكافرين بالصبر تهديد لهم .

وهذه دقة القرآن فى الأداء وعظمة البيان والبلاغة . إذن ، فكلمة : اصبروا نفعت فى التعبير عن الأمر بالصبر للذين آمنوا ، ونفعت فى كشف المصير الذى ينتظر الذين لم يؤمنوا ، فصبر الكافرين ماله وعاقبته ، إما أن يخجلوا من أنفسهم فيؤمنوا ، وإما أن يجدوا العذاب ، وصبر المؤمنين يقودهم إلى الجنة ، وأن الذى يحكم هو الله وهو خير الحاكمين ؛ لأن المحكوم عليهم بالنسبة له سواء ، فلا أحد منهم له أفضلية على أحد . ولا أحد منهم قريبه ، وإلا قرابة القربى والزلفى إليه ، وسبحانه هو العادل بمطلق العدل ، ولا يظلم أحداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَؤُ
كَتَاكِرْهَيْنِ ﴿٥٨﴾ ﴾

علمنا من قبل أن الملائم السادة، والأعيان الذين يملأون العيون هيبة، ويملأون
القلوب هيبة، ويملأون الأماكن تحيزاً. وقد استكبر الملائم من قوم شعيب عن الإيمان
به، وطغوا وهددوه بأن يخرجوه من أرضهم. وقالوا مثلما قال من سبقوهم. فقد
نادى بعض من قوم لوط بأن يخرجوا لوطاً ومن آمن معه من قريتهم. قال تعالى:

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِمَّنْ ذُرِّيَّتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة النمل]

وكلمة «قرية» تأخذ في حياتنا وضعاً غير وضعها الحقيقي، فالقرية الآن هي الموقع
الأقل من المدينة الصغيرة. لكنها كانت قديماً البلد الذي توجد فيه كل متطلبات
الحياة، بدليل أنهم كانوا يقولوا عن مكة «أم القرى». وقد وضع الملائم شعيباً ومن آمن
معه بين أمرين: إما أن يخرجوهم حتى لا يفسدوا من لم يؤمن فيؤمن، وإما أن يعودوا
إلى الملة.

وهنا «لفتة لفظية» أحب أن تنتبهوا إليها في قوله: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ لأن العود
يقتضى وجوداً سابقاً خرج عنه، ونريد أن نعود إلى الأصل، فهل كان شعيب والذين
آمنوا معه على ملتهم ثم آمنوا والمطلوب منه الآن أنهم يعودون؟

علينا أن نتبه إلى أن الخطاب هنا يضم شعيباً والذين معه. وقد يصدق أمر
العودة إلى الملة القديمة على الذين مع شعيب، ولكنها لا تصدق على شعيب
لأنه نبي مرسل، وهنا نتبه أيضاً إلى أن الذي يتكلم هنا هم الملائم من قوم مدين،

ووضعوا شعيباً والذين آمنوا معه أمام اختيارين : إما العودة إلى الملة ، وإما الخروج ، ونسوا أن الحق قد يشاء تقسيماً آخر غير هذين القسمين . فقد يوجد ويريد سبحانه أمراً ثالثاً لا يخرج فيه شعيب والذين آمنوا معه ، وأيضاً لا يعودون إلى ملة الكفر ، كأن تأتي كارثة تمنع ذلك .

لقد عزل الملا من قوم شعيب أنفسهم عن المقادير العليا ، لأن الله قد يشاء غير هذين الأمرين ، فقد يمنعكم أمر فوق طاقتكم أن تخرجوا ؛ شعيباً ومن آمن معه ؛ بأن يصيبكم ضعف لا تستطيعون معه أن تخرجوهم ، أو أن يسلط الله عليكم أمراً يفنيكم وينجي شعيباً والذين آمنوا معه . إذن أنت أيها الإنسان الحادث ، العاجز لا تفتش ولا تفتري وتختلق على القوة العليا في أنك تخير بين أمرين قد يكون لله أمر ثالث لا تعلمه ، ويأتي الرد على لسان من آمنوا مع شعيب :

﴿ قَالَ أُولَٰئِكَ كَٰرِهِينَ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة الاعراف)

لقد سأل شعيب والذين معه : أيمن أن يتم قهر أحد على أن يترك الإيمان إلى الكفر ، كأن الكافرين قد تناسوا أن التكليف مطبور في الاختيار ، فالإنسان يختار بين سبيل الإيمان وسبيل الكفر . ويتتابع القول من شعيب والذين آمنوا معه :

﴿ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا
اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ
رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَٰضِحِينَ ﴾ ٨٩

وقولهم : ﴿ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ أى أنهم يعلمون أن

العودة إلى مثل هذه الملة لون من الكذب المتعمد على الله . لأن الكذب أن تقول كلاماً غير واقع ، وتعلن قضية غير حقيقية إن أنت قلتها على مقتضى علمك فهذا مطلق كذب . لكن إن كنت عارفاً بالحقيقة ثم قلت غيرها فهذا افتراء واختلاق وكذب . والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة ملة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوة الإيمان بالله ؛ لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله . ويقولون بعد ذلك :

﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

قد عرفوا أن التكليف اختيار وهم قد اختاروا الإيمان ، وأقروا وأكدوا إيمانهم بأنه سبحانه له طلاقة القدرة ، فقالوا : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ . فمشيئته سبحانه فوق كل مشيئة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ يصرفه حيث شاء »^(١) .

والم يقل سيدنا إبراهيم وهو أبو الأنبياء والرسل :

﴿ وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة إبراهيم)

لم يقل : واجنبنا . بل قالها واضحة ودعا ربه أن يعده ويتأى به وبينه أن يعبدوا الأصنام ، لأنه يعلم طلاقة قدرته سبحانه . إذن فمن آمنوا مع شعيب احترموا طلاقة القدرة في الحق ؛ لذلك قالوا :

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

ولكن الله لا يشاء لمعصوم أن يعود ، وسبحانه يهدى من آمن بهداية الدلالة ويمده بالمزيد من هداية المعونة إلى الطريق المستقيم .

(١) رواه أحمد ، ورواه مسلم عن ابن عمر .

ويتابع أهل الإيمان مع شعيب .

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ

[سورة الأعراف]

خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

جاء قولهم: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لأن خصومهم من الملبأ بقوتهم وبجبروتهم قالوا

لهم: أنتم بين أمرين اثنين: إما أن تخرجوا من القرية، وإما أن تعودوا في ملتنا، وأعلن المؤمنون برسولهم شعيب: أن العود في الملة لا يكون إلا بالاختيار وقد اخترنا ألا نعود. إذن فليس أمامهم إلا الإخراج بالإجبار؛ لذلك توكل المؤمنون على الله ليتولاهم، ويمنع عنهم تسلط هؤلاء الكافرين .

﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

[سورة الأعراف]

وساعة نسمع كلمة «افتح» أو «فتح» أو «فَتَحْ» نفهم أن هناك شيئاً مغلقاً أو

مشكلاً، فإن كان من المحسّسات يكون الشيء مغلقاً والفتح يكون بإزالة الأغلاق وهي الأقفال، وإن كان في المعنويات فيكون الفتح هو إزالة الإشكال، والفتح الحسى له نظير في القرآن، وحين نقرأ سورة يوسف نجد قوله الحق:

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بَضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَابَانَا مَا نَبِيْهِ هَذِهِ

[سورة يوسف]

بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا .. ﴿٦٥﴾

وكلمة ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ ﴾ تعنى أن المتاع الذى معهم كان مغلقاً واحتاج إلى

فتح حسى ليجدوا بضاعتهم كماهى . وأيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴿٧٣﴾

[سورة الزمر]

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٢٤٧

ومادام هناك أبواب تفتح فهذا فتح حسى . وقد يكون الفتح فتح علم مثلما
نقول : ربنا فتح علينا بالإيمان والعلم ، ويقول الحق :

﴿ أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ .. ﴾ (٧٦) [سورة البقرة]

فما دام ربنا قد علمهم من الكتاب الكثير فهذا فتح علمى . ويكون الفتح بسوق
الخير والإمداد به . والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا .. ﴾ (٢) [سورة فاطر]

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٩٦)

[سورة الأعراف]

والبركات من السماء كالمطر وهو يأتى من أعلى ، وهو سبب فيما يأتى من الأسفل
أى من الأرض .

والفتح أيضاً بمعنى إزالة إشكال فى قضية بين خصمين ، ففى اليمن حتى
الآن ، يسمون القاضى الذى يحكم فى قضايا الناس «الفتاح» لأنه يزيل الإشكالات بين
الناس . وقد يكون «الفتح» بمعنى «النصر» ، مثل قوله الحق :

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٨٩) [سورة البقرة]

لقد كانوا ينتظرون النبى ﷺ ليتصروا به على الذين كفروا ، ومن الفتح أيضاً
الفصل فى الأمر من قوله الحق هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ .. ﴾ (٨٩) [سورة الأعراف]

وهذا القول هو دعاء للحق : احكم يا رب بيننا وبين قومنا بالحق بنصر الإيمان وهزيمة الكفر ، وأنت خير الفاتحين فليس لك هوى ضد أحد أو مع أحد من مخلوقاتك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا

إِنكُمْ إِذَا الْخَسِرُونَ ﴿١٠﴾

وهنا يقول الملأ من قوم مدين لمن آمنوا ولمن كان لديهم الاستعداد والتهيؤ للإيمان محذرين لهم من اتباع شعيب حتى لا يظل الملأ والكبراء وخدمهم في الضلال :

وساعة نرى « اللام » في « لئن » نعلم أن هنا قسماً دلت عليه هذه « اللام » . وهنا أيضاً « إن » الشرطية ، والقسم يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج كذلك إلى جواب ، فإذا اجتمع شرط وقسم اكتفينا بالإتيان بجواب المتقدم والسابق منهما ، مثل قولنا : « والله إن فعلت كذا ليكون كذا » : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴾ .

وماذا سيخسرون ؟ سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حقهم حين يطففون الكيل ويخسرون الميزان ، والقوى يأخذ من الضعيف ؛ فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل وبخس وخسران الميزان بمنهج . وهذه هي الخسارة في نظر المنحرف .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَحِيمِينَ ﴿١١﴾

والرجفة هي الهزة العنيفة التي ترج الإنسان رجاً غير اختياري ، وصاروا بها جاثمين أى قاعدين على ركبهم ؛ ولا حراك بهم ؛ ميتين ، وفي هيئة الذلة . وهذا يدل على أن كلا منهم ساعة أخذ تذكر كل ما فعله من كفر وعصيان ، وأراد استدراك ما فاته من مخالفاته للرسول ، وأخذ يوبخ نفسه ويندم على ما فعل ، ولم تأخذه الأبهة والاستكبار ، لأن هناك لحظة تمر على الإنسان لا يقدر فيها أن يكذب على نفسه ، ولذلك نجد أن من ظلم وطغى وأخذ حقوق الغير ثم يأتيه الموت يحاول أن ينادى على كل من بغى عليه أو ظلمه ليعطيه حقه لكنه لا يجده . ولذلك يسمون تلك اللحظة أنها التي يؤمن فيها الفاجر ، لكن هل ينفع إيمانه ؟ طبعاً لا . في هذه الحالة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

ويتابع سبحانه وصف ما حدث لهم إثر الرجفة :

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ
كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

وغنى بالمكان : أقام به ؛ فحين صاروا جاثمين وخلت منهم الديار ، كأنهم لم تكن لهم إقامة إذ استؤصلوا وأهلكوا إهلاكاً كاملاً ، وإذا كان هؤلاء المكذبون قد قالوا : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴾ فيكون مآلهم هو ما ذكره ربنا بقوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

ويتابع قوله الحق عن سيدنا شعيب :

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأَ عَلَى
قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

و«تولى عنهم» أى تركهم وسار بعيداً عنهم، وحدثهم متخيلاً إياهم ﴿لَقَدْ أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾، فكأن المنظر العاطفى الإنسانى حين رأى كيف أصبحوا، وتعطف عليهم وأسى من أجلهم، لكن يرد هذا التعاطف متسانلاً متعجباً ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾؟ إنهم نوع من الناس لا يحزن عليهم المؤمن. فما بالناس بنى ورسول؟ إنه يحدث نفسه وكأنه يقول: ما قصرت فى مهمتى، بل أبلغتكم رسالاتى التى تلقيتها من الله، والرسالات إذا جمعت فالمقصود منها رسالته ورسالة الرسل السابقين فى الأمور التى لم يحدث فيها نسخ ولا تغيير، أو رسالاته أى فى كل أمر بلغ به؛ لأنه كان كلما نزل عليه حكم يبلغه لهم. أو أن لكل خير رسالة، ولكل شر رسالة، وقد أبلغهم كل ما وصله من الله، ولم يقتصر على البلاغ بل أضاف عليه النصح، والنصح غير البلاغ، فالبلاغ أن تقول ما وصلك وينتهى الأمر، و«النصح» هو الإلحاح عليهم فى أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتبعوا نهج الله.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا
بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾

وعرفنا من قبل أن القرية هى البلد الجامع لكل مصالح سكانها فى دنياهم.

والمقصود هنا أن القرية التى يرسل إليها الحق رسولاً ثم تُكذَّب فسبحانه يأخذ أهلها بالبأساء والضراء. والبأساء هى المصيبة تصيب الإنسان فى أمر خارج عن ذاته؛ من مال يضيع، أو تجارة تبور وتهلك، أو بيت يهدم، والضراء هى المصيبة التى تصيب الإنسان فى ذاته ونفسه كالمرض، ويصيبهم الحق بالبأساء والضراء لأنهم نسوا الله فى الرخاء فأصابهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتعرفون إليه، ليكون معهم فى السراء والضراء. والحق يقول:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ .. ﴾ (١٢) ﴿

[سورة يونس]

وكان من الواجب على الإنسان أنه ساعة ماتمه الضراء أن يتجه إلى خالقه، ولقد جعل الله الضراء وسيلة تنبيه يتذكر بها الإنسان أن له ربا، وفي هذه اللحظة يجيب الحق الإنسان المضطر، ويغيثه مصداقاً لقوله الحق:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَائِلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٢) ﴿

[سورة النمل]

وإذا صنع الله مع المضطر هذا فقد يشوب إلى رشده ويقول: إن الإله الذي لم أجد لى مفزعا إلا هو، لا يصح أن أنساه.

وكان الحق سبحانه وتعالى يذكرنا بطلاقة قدرته حين يقول:

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ﴾ (٤٣) ﴿

[سورة الأنعام]

وكانه سبحانه يطلب منا حين تجيء البأساء أن نفرع إليه ولا نعتقد أننا نعيش فى الحياة وحدنا، بل نعيش فى الحياة بالأسباب المخلوقة لله وبالمسبب وهو الله، فالذى عزت عليه الأسباب وأتعبته يروح للمسبب، ولذلك يأخذ سبحانه أية قرية لاتصدق الرسل بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون وذلك رحمة بهم.

ويقول:

﴿ وَلَئِن كُنْتَ قَسْتَ قُلُوبَهُمْ .. ﴾ (٤٤) ﴿

[سورة الأنعام]

فهل يتركهم الله فى السراء والضراء دائماً؟ لا، فهو سبحانه يجيئهم ويبتليهم بالبأساء والضراء ليلفتهم إليه، فإذا لم يلتفتوا إلى الله، فسبحانه يبدل مكان السيئة الحسنة، لذلك يقول:

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا
وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَهُمْ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ويعطى سبحانه بعد ذلك لهم الرزق ، والعافية ، والغنى ؛ لأن الحق إذا أراد أن يأخذ جباً أخذ عزيز مقتدر فهو يمهل ، ويرخي له العنان ليتجر - كفرعون - من أجل أن يأخذه بغتة ، وكأنه يسقط من أعلى ، فيعليه ويعليه من أجل أن ينزل به - كما يقولون - على جذور رقبته : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفاوا ﴾ .

(عَفَاوا) أى كثروا عدداً ومالاً وقوة أى أنه ما أخذهم سبحانه بالبأساء والضراء إلا وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلتفتوا ، فيمددهم ويعطى لهم العافية وما يسرهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بغتة .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تكلم على خلافة الإنسان فى الأرض ، وأنه أمده بكل ما تقوم به حياته ، وأمده بالقيم بواسطة مناهج السماء ، وأنزل المنهج مبيناً ما أحل ، وما حرم بعد أن كانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، فبين لهم الحق أن الذى خلق الخلق عالم بما يصلحهم فأحله ، وعالم بما يفسدهم فحرمه ، فليس لكم أن تقترحوا على الله حلالاً ، ولا حراماً ، ولكن بعض المشككين فى منهج الله قالوا - وما زالوا يقولون - : إذا كان الله قد أحل شيئاً وحرم شيئاً فلماذا خلق ما حرم ؟ ونقول : لقد خلق سبحانه كل شيء لحكمة قد تكون لغير الطعام والشراب والكسوة ، فبعض الأشياء يكون مخلوقاً لمهمة وإن لم تكن مباشرة لك ؛ فالبترول مثلاً مخلوق لمهمة أن يوجد طاقة ، لذلك لا نشره والخنزير مخلوق لحكمة لا نعلمها نحن ، وإنما يعلمها من خلق ، لأنه من

الجائز أن يكون أداة لالتقاط الميكروبات التي تنشأ من عفن الأشياء التي يستعملها الناس في حياتهم، إذن فكل شيء مخلوق لحكمة، فلا تخرج أنت حكمة الأشياء من غير مراد خالقها؛ لأن صانع الصنعة هو الذي يحدد الشيء الذي يوجد وينشئ القوة لها. ونحن نعلم - مثلاً - أن أنواع الوقود كثيرة، فهناك «البنزين» النقي جداً ويرقمونه برقم (١) وهو مخصص للطائرة، ووقود السيارة وهو «البنزين» رقم (٢). فإذا استخدمنا وقود ماكينة وآلة بدل ماكينة أخرى أفسدناها. كذلك خلق الله الإنسان وسخر له كل المخلوقات وأوضح: هذا يصلح لك مباشرة، وهذا مخلوق ليعخدمك خدمة غير مباشرة فدعه في مكانه.

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى مواقف الجنة، ومواقف النار، ومواقف أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم؛ وبعد أن بين المنهج كله أراد أن يبين أن ذلك ليس نظرياً، وإنما هو واقع كوني أيضاً. ففرق بين الشيء يقسال نظراً، والشيء يقع واقعاً، فقص علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم، فمن كذب بالرسول أخذ الله أخذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع؛ فذكر نوحاً مع قومه، وذكر عاداً وأخاهم هوداً، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً، ومدين وأخاهم شعيباً، وقوم لوط وسيدنا لوطاً. وبين ما حدث للمؤمنين بالنجاة، وما حدث للكافرين بالعطب والإذلال، ويوضح الحق سبحانه وتعالى: أننى أخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، لأن الإنسان مخلوق أفاض الله عليه من صفات جلاله، ومن صفات جماله الشيء الكثير، فالله قوى، وأعطى الإنسان من قوته. والله غنى وأعطى الإنسان من غناه، والله حكيم وأعطى الإنسان من حكمته، والله عليم وأعطى الإنسان من علمه.

وإذا أردت أن تستوعب ما يقربك إلى كمال العلم فى الله، فانظر ما علمه لكل خلق الله. ومع ذلك فعلمهم ناقص. ويردون إلى العلم الذاتى فى الحق سبحانه وتعالى، وربما غر الإنسان بالأسباب وهى تستجيب له، فهو يحرق ويذرى ويروى، وإذا بالأرض تعطيه أكلها. وهو يصنع الشيء فيستجيب له. كل ذلك قد يغريه بأن الأشياء استجابت لذاتيته فيذكره الله: أن اذكر من ذللها لك.

وساعة ما يجد الإنسان أن كل الأسباب موالية له فعليه أن يذكر الله . إن الإنسان بمجرد إرادة أن يقوم من مكانه فهو يقوم . وبمجرد إرادة أن يصفع أحداً فهو يصفعه ؛ لأن الأبعاد التي في الإنسان خاضعة لمراده ، فإذا كانت أعضائك خاضعة لمراداتك أنت ، وأنت مخلوق ، فكيف لا يكون الكون كله مراداً للحق بالإرادة ؟ فإذا استغنى الإنسان بالأسباب ، فالحق يلفته إليه . فالقادر الذي كان بفتوته يفعل . يسلب الله منه القدرة بالمرض ؛ فيمد يده ليساعده إنسان على القيام والذي اعتر بشيء يذله الله بأشياء . لماذا ؟ حتى يلفته إلى المسبب ، فلا يُفتن بالأسباب .

ويدع لنا الحق سبحانه وتعالى في كونه عجائب ، ونجد العالم وقد تقدم الآن تقدماً فضائياً واسعاً ، واستطاع الإنسان أن يكتشف من أسرار كون الله ما شاء ، ولكن الحق يصنع لهم أحياناً أشياء تدلهم على أنهم لا يزالون عاجزين . فبعد أن تكتمل لهم صناعة الآلات المتقدمة يكتشفون خطأ واحداً يفسد الآلة ويحطمها ، وتهب زوبعة أو إعصار يدمر كل شيء ، أو يشتعل حريق هائل . فهل يريد الله بكونه فساداً وقد خلقه بالصلاح ؟ لا ، إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نغتر بما أوتينا من أسباب . فالذين عملوا « الرادار » لكي يبين لهم الحدث قبل أن يقع ، يفاجئهم ربنا - أحياناً - بأشياء تعطل عمل « الرادار » ، فيعرفون أنهم مازالوا ناقصي علم .

إذن فالأخذ بالبأساء ، والأخذ بالضراء ، سنة كونية ليظل الإنسان فاهماً وعالماً أنه خليفة في الأرض لله . وفساد الإنسان أن يعلم أنه أصيل في الكون ، فلو كنت أصيلاً في الكون فحافظ على نفسك في الكون ولا تفارقه بالموت . وإن كنت أصيلاً في الكون فدلل الكون لمراداتك . ولن تستطيع ؛ لأن هناك طبائع في الكون تتمرد عليك ، ولا تقدر عليها أبداً .

وترى أكثر من مفاعل ذري ينفجر بعد إحكامه وضبطه لماذا ؟! ليدل على طلاقة القدرة وأن يد الله فوق أيديهم ، إذن فأخذ الناس بالبأساء والضراء ، وبالشيء الذي نقول إنه شر إنما هو طلب اعتدال للإنسان الخليفة ، حتى إذا اغتر يرده الله سبحانه وتعالى من الأسباب إلى المسبب . وحين يأخذ الله قوماً بالبأساء التي تصيب الإنسان في غير ذاته : مال يضيع ، ولد يفقد ، بيت يهدم ، أو يأخذهم بالضراء

وهي الأشياء التي تصيب الإنسان في ذاته ، فذلك ليسلب منهم أبهة الكبرياء ، فلا يجدون ملجأ إلا أن يخضعوا لرب الأرض والسماء ، ولكي يتضرعوا إلى الله ، ومعنى التضرع - كما عرفنا - إظهار الذلة لله . وإذا لم يُجِدْ وينفع فيهم هذا ، وقالوا : لا ، إن البأساء والضراء مجرد سنن كونية ، وقد تأتي للناس في أى زمان أو مكان . نقول لهم : صحيح البأساء والضراء سنن كونية من مكوّن أعلى من الكون ، فإذا لم يرتدعوا بالبأساء والضراء ويرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه يبتليهم الله بالنعماء ، فهو القائل :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَفَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم

بَغْتَةً فَيَاذًا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة الأنعام)

فالمجمعات حين تبعد عن منهج السماء نجد الحق ينتقم منهم انتقاماً يناسب جرمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية ؛ لذلك يوسع عليهم في كل شيء حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضربة قوية قاصمة ويصيبهم اليأس والحسرة .

وقديماً قلنا تعبيراً ريفياً هو : إن الإنسان إن أراد أن يوقع بآخر لا يوقعه من على حصيرة ، إنما يوقعه من مكان عال . وربنا يعطى للمنكرين الكثير ويمدهم في طغيانهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقد دلت وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبار في الأرض والحق يملأ له في العلو ويمد له في هذه الأسباب ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ

فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة الأعراف)

وقد يضبط الإنسان أشياء تُعلمه بواقع الشر في مستقبله . مثلها مثل « الرادار » الذي يكشف لنا أى خطر في الأفق قبل أن يأتي ، وحين يقول سبحانه : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى ليس عندهم حساب ولا مقاييس تدلهم على أن شرّاً يحيق بهم .

وأنت لو نظرت إلى هذه المسألة لوجدت الإنسان بعقله وفكره الذي لم يسلك فيه طريق الله بل سلك فيه السبيل غير الممنهج بمنهج الله ، وبينما لا يلتفت الانسان إلى مجيء الكارثة ، ويتساءل : لماذا تجرى هذه الحيوانات ؟ ! إنه في هذه الحالة يكون أقل من الحيوانات ؛ لأن الحيوان من واقع الأحداث في بلد تحدث فيه الزلازل يكون أول خارج من منطقة الزلزال ، إن الله قد سلبه هذه المعرفة حتى تتمكن منه الضربة ، إننا نجد الحمار يجرى ليغادر مكان الزلزال ، بينما يظل الإنسان واقفاً حتى يحيق ويحيط به الخطر ، فأى إحساس وأى استشعار عند الحيوان ؟ إنه استشعار غريزي خلقه ربه فيه ؛ لأنه سلب منه التعقل فأعطاه حكمة الغرائز .

ومادام الحق قد نبه الإنسان بالبأساء فلم يلتفت ، وبالضراء فلم يتبته إلى المنهج ؛ لذلك يأتي له الحق ويمد له بالطغيان .
لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

أى أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً ونهياً تسلم الآتيم، لأن الصانع من البشر حين يصنع آلة من الآلات، يحدد ويبيّن الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاصا لتؤدي مهمتها ، فمابالنا بمن خلق الإنسان ، إذن فالبشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان في كل خير ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، تأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردتها بركات مادية تجدها في المطر الذي ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النبات ، وكذلك كنوزها التي تستنبط منها الكماليات المرادة في الحياة .

وما معنى البركة ؟ . البركة هي أن يعطى الموجودُ فوق ما يتطلبه حجمه ؛ كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجده يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة ، ودون ضيق ، فتساءل : كيف يعيش ؟ وبجيبك : إنها البركة . وللبركة تفسير كوني لأن الناس دائماً - كما قلنا سابقاً - ينظرون في وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويغفلون رزق السلب . رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه ويسلب عنك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .

إذن فقوله : ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ أي أن يعطى الحق سبحانه وتعالى من القليل الكثير في الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا ، ولذلك سمى المال الذي نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماه زكاة مع أن الزكاة في ظاهرها نقص ، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك في الظاهر . وإن أقرضت أحداً بالربا مائة جنيه فأنت تأخذها منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمى النقص في الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة في الثانية محققاً وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيائته من خالقه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جيروت من الخالق ، وإنما هي عدالة منه سبحانه ؛ لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فماذا يقول غير المفسدين ؟ . سيقول الواحد منهم : مادنا قد استوتينا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على ما يرام ، إذن فلافسد أنا أيضاً . وذلك يغري غير المفسد بأن يفسد ، ويعطى لنفسه راحتها وشهواتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكتسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضرربنا المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملاً عينيه منها ، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسنها ، فهو يناور ويتحايل ، وتتضارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف في ذلك عن صاحب الحلال الذي تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكن هؤلاء المفسدون تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فقال فيهم الحق : إنهم يكسبون الفساد ، ولا يجدون في ارتكابه عتاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلاحظ وجود « همزة استفهام » و « فاء تعقيب » في قوله الحق : ﴿ أَفَأَمِنَ ﴾ وهذا يعني أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل عليهما الاستفهام ، أى أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعث ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابنا بيانا أو ضحى كما صنع بمن كان قبلهم من الأمم السابقة ؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بغتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ؟ والبأس هو الشدة التي يؤاخذ بها الحق سبحانه الأمم حين يعزفون عن منهجه . وما الذى جعلهم يأمنون على أنفسهم أن تنزل بهم أهوال كالتى نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحيث يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما تتطلبه الأحداث من زمان

ومكان ؛ لأن كل حدث لا بد له من زمن ولا بد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان هنا هو القرى التي يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتي فيه البأس ، وهو قد يأتي لهم بيّاتاً وهم نائمون ، أو يأتي لهم ضحى وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان في مواجهة الشمس فالدنيا تكون بالنسبة له نهاراً . والمقابل له يكون الليل . وقد يجيء البأس على أهل قرية نهاراً ، أو ليلاً في أى وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما في الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفي كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمن يا صاحب النهار أن يأتي البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أن يكون البأس نهاراً أو ليلاً .

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم :

﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وما داموا قد كذبوا فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم بـ « افعل » و « لا تفعل » .

إذن فنهارهم هو حركة غير مجدية ، وغير نافعة ، بل هي لعب في الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفقد للحركة ، أو عبث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على غير منهج الله يقضى ليله نائماً أو لاهياً عاصياً ، ونهاره لاعباً ؛ لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل في الآخرة من الجزاء الحسن .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ ﴾

﴿ إِلَّا الْقَوْمَ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٩٩

و « الأمن » هو الاطمئنان إلى قضيه لا تشير مخاوف ولا متاعب ، ويقال: فلان

« آمن » ؛ أى لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول : وهل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة آل عمران)

والمكر أصله الالتفاف . وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة فى أعلى إلى غصن معين ؛ لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض ، وكذلك نرى هذا الالتفاف فى النباتات المتسلسلة ونجد أغصانها مجدولة كالحبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة . ولكى تتمكن من خصمك فانت تبيت له أمراً لا يظن إليه ، وإذا كان الإنسان من البشر حين يبيت لأخيه شراً ، ويفتنه فتناً يُعمى عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوى الذى يمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبيت لا يكتشفه أحد فهو مكر وتبيت الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير ؛ لأن الله يحمى الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم .

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

وهناك من يسأل : هل آمن الأنبياء مكر الله ؟ نقول نعم . لقد آمنوا مكر الله باصطفائهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟!

نقول : لقد جاء في منهج الرسل جميعاً أن الذي يأمن مكر الله هو الخاسر ؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذي أنزل المنهج ليختار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به يخسر طمأنينة الإيمان في الدنيا وإن كسب فيها مالا أوجاها أو علماً ، ويخسر الآخرة أيضاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ
أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

و « يهد » أى يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير ، ومعنى ﴿ يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقبهم . وحين يستقرىء الإنسان الوجود الحضارى فى الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما فى يدك وملكك جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذي يأتى على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، ومادتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل فى بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فالمسألة دُولٌ ، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى فى حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويعزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتى آخر من بعده . ولذلك يقال : لودامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسنت الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك ؛ فيجب أن تفتن وتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يعز عليك فراقه يوماً .

واحذر أن تحسن الدخول فى أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج

واستمع إلى قول الشاعر في هذا المعنى :

إن الأمير هو الذى يُسمى أميراً يوم عزله
إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطاناً فضله
وحين يقول الحق : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ .

نلاحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول ، فلم يقل : أو لم يهد للذين ، بل قال : « يهد للذين » ، فما الحكمة فى ذلك ؟ . نعرف أن « الهداية » هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أى أنك قد هديت غيرك لصالحك . وقد تكون الهداية وهى الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذى هدى وعلى المهدي معاً ، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على من هداك ، أتشك فى هدايته لك ؟ لا ، إن من حقت أن تشك فى الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هدى ، أو يعود أمرها على الاثنين ؛ ففى ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يهدى ويعود كله لمن يهدى فليس فى ذلك أدنى شك .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

« .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخطط إذا أدخل البحر » (١) .

إذن فحين يهديكم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذى يعود عليه سبحانه من صفات الكمال بهذا العمل ؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلن ينشأ خلقه

(١) رواه مسلم - واللفظ له - ورواه الترمذى .

لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا نرى أن كل هداية راجعة إلى المَهْدِيِّ . وبذلك يتأكد قوله : ﴿ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ ﴾ ما هو مصلحتهم .

﴿ أُولَئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطِّعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : ﴿ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هي أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، وسبحانه يقول :

﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

وما الذي يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً ؟ . لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة ، وذلك يثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعطى صفة المحبوبة للمشرع الأعلى ، ثم إنه - سبحانه - خلق خلقاً لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا .

فالمخلوق الذي اختصه سبحانه بقدرة الاختيار في أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصى ، ثم آمن بإيمانه دليلاً على إثبات صفات المحبوبة للإله .

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبة للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه في الآية نفسها :

﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطِّعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأعراف)

ونلاحظ أن الحق لم يقل أن لو نشاء أصبناهم لذنوبهم وذلك رحمة منه ، بل جعل العقاب بالذنوب التي يختارونها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا في أول سورة البقرة . عن كلمة « الطبع » ؛ وهو الختم :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

لأن القلوب وعاء اليقين الإيماني ؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر ، فهذا يعني أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده ؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له : أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطري الذي خلق الله الناس عليه . لأنك أنت قد سبقت ووضعت في قلبك قضية يقينية على غير إيمان ؛ لأن أصول الإيمان أن تُخرج ما في قلبك من أى اعتقاد ، ثم تستقبل الإيمان بالله ، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان .

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه : قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل للإنسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد حيز ، والحيز - كما قلنا - لا تداخل للمحيز فيه ؛ فحين نأتى بزجاجة فارغة ونقول: إنها « فارغة » فالذى يذل على كذب هذه الكلمة أننا حين نضع فيها المياه تخرج منها فقاقيع الهواء ، وخرج فقاقيع الهواء هو الذى يسمح بدخول المياه فيها ، لأن الزجاجة ليست فارغة ، بل يخيل لنا ذلك ؛ لأن الهواء غير مرئى لنا . ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق فى صناعتها لتلك المهمة لكان من الحتمى أن تنكسر . والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر - والعياذ بالله لا يسع الإيمان ، والعاقل هو من يطرح القضيتين خارج القلب ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مفيداً لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قلبى بالكفر فهذه عملية لا تؤدي إلى نتيجة .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَعُ

عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٩﴾

(سورة الأعراف)

أى أو لم يتبين للذين يُستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصى والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى السماع المؤدى إلى الاعتبار والاعتاظ فكانهم لم يسمعوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ

الْكَافِرِينَ ﴿١١٠﴾

هذا هو المراد فى سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوضحه الحق فى موضع آخر من القرآن فقال :

﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شىء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم . وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما فى رسالته من العلو فلا بد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوى ابتلاءات الرسل جميعاً .

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا

بِمَا كَذَبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦١﴾

(سورة الأعراف)

والطبع - كما قلنا - هو الختم ، لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ؛ لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا يفهمونه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، وردوا منهج الله الذي أرسله على السنة رسله . كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وقد يقف العقل في أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة في آدم ؛ لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عقْلنا ذلك أو لم نعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أى إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لأبائكم ، وهذا يدل على أن الإنسان وجد من حيوان منوى حتى انتقل إلى بويضة حية من أمه فنشأ هذا الإنسان . ولو طرأ على الحيوان المنوى موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء

من حياة أبيه ، وإن سلسلت ذلك فسنصل لآدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جزىء حتى من آدم . ومادام فيه جزىء حتى من آدم فقد شهد الخلق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سؤال التقرير ويقول : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ بلى ﴾ .

وضربنا المثل لتقرب وقلنا إن الذرة الشائعة في شيء ، تشيع في أضعاف الشيء ، وسبق أن قلنا : إننا إذا جئنا بمادة ملونة حمراء - مثلاً - في حجم ستمتر مكعب ، ثم أذبتها في قارورة ، وبذلك يصبح كل جزء في القارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت القارورة وألقيتها في برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جزىء من المادة الحمراء ، وإن أخذت ماء البرميل وألقيته في البحر فكل ذرة في البحر الواسع يصير فيها جزىء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من ذهن كل منا أن في كل إنسان جزئاً من آدم ، وقد شهد هذا الجزىء العهد الأول . ولقائل أن يسأل : كيف يخاطب الله الذر الذي كان موجوداً في ظهر آدم ؟ . نقول : كما خاطب الأرض وخاطب السماء ، فهو القائل :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٨١﴾

(سورة فصلت)

إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدر في أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذا بالنسبة للعهد الأول ، وبعده العهد الثاني الذي أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ؕ قَالَ ؕ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ ؕ إِصْرِي

قَالُوا ؕ اقْرُرْنَا ؕ قَالَ فَاشْهَدُوا ؕ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

(سورة آل عمران)

ثم هناك عهدود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُتِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾
(سورة يونس)

إنهم لا يسلمون أنفسهم للعطب ، ولا يغتروا بجاههم وبالأسباب التي عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا يغشون أنفسهم بل يلجأون صاغرين إلى الله قائلين :

﴿لَئِن أُتِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد في حادثة ، فلما أنجاهم الله أعرضوا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما أن يكون عهداً خاصاً .

والحق يقول : ﴿ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ .

أى أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد والخروج عنه ؛ لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من الموائيق ، وهو حر فى أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملزماً ووجب عليه أن ينفذ العهد باختياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته فى إطار هذا العهد ، فإن خرج بحركته عن إطار هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل فى الفسق

أنه خروج الرطوبة من القشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا تدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال: فسقت الرطوبة أي خرجت عن قشرتها . كان ربنا جعل التكليف تغليفاً لحماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطوبة عن الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث وللميكروبات ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفاسق ، لأنه خرج عن الإطار الذي جعله الله له ليحميه من المفسد ، ومن العطب الذي يقع عليه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما دار بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أراد أن يأتي بتاريخ رسول من أولى العزم من الرسل ، أي من الذين تعرضوا في رسالاتهم لأشياء لا يتحملها إلا جلد قوي . وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطاً وافراً في القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هي أطول قصص القرآن ؛ لأن انحرافاتهم ونزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبياءهم كثيرين ، ولذلك فهم يفتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا : نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم : إن كثرة أنبيائكم تدل على تأصل دائكم ؛ لأن الأطباء لا يكثرون إلا حين يصبح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولا واحداً لا يكفيكم ، بل لابد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ .

وكلمة «بعث» - كما نفهمها - توحى وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولا إلى فرعون ، واختيرت كلمة «بعث» للرسالات لأن البعث يقتضى أن شيئاً

كان موجوداً ثم انطمر ثم بعثه الحق من جديد ، والإيمان يتمثل في عهد لفطرة الأول الذي كان من آدم ؛ لأن الله خلقه بيديه خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للذرية ، وهذه الصورة الأصلية هي التي تضم حقائق الإيمان التي كانت لأدم ، وحين يبعث الله رسولاً جديداً ، فهو لا ينشئ عقيدة جديدة ، بل يحيى ما كان موجوداً وانطمر ، وحين يطم الفساد يبعث الله الرسول ، فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مقومات الحياة ممن سبقه لظل الإيمان مسألة رتيبة في البشر .

إننا نأخذ الأشياء التي أورها لنا أجدادنا وتنفعنا في أمور الدنيا نحتفظ بها ونحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم ؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها في إطارها الصحيح . والإنسان يريد أن ينفلت من تقييد حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه : « أرسل » الرسل ، ومرة أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يجيء بشيء جديد ، ولكنه جاء بشيء كان المفروض أن يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التي ورثها لكم أسلافكم وتتفجعون بها ؛ مثال ذلك : نحن نتفجع برغيف الخبز ونتفجع بخياطة الإبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية ونسبنا الأشياء المنهجية ؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهي تحارب الشهوات .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهي الأمر العجيب الذي يقف العقل عنده مشدوهاً . وتطلق الآيات ثلاث إطلاقات ؛ فهي تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبياً معبرة عن كل كمال يوجد في الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارئ لها يأخذ منها على قدر ذهنه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة في خلق الأرض والسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضى مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضى باعثاً وهو الله ، ومبعوثاً إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المنهج .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والآيات التي بعث الله بها موسى هي أدلة صدق النبوة ، وهي أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج ليشاهدها ويسمع لها فرعون وملؤه ، والملا - كما عرفنا من قبل - هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملا ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أى الأشراف والسادة . ولماذا حدد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط ؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اهتدى الكبار ، والغالب والعادة أن الذى يقف أمام منهج الخير هم المنتفعون بالشر ، وهم القادة أو من حولهم ، ولا يرغبون فى منهج الخير لأنه يصادم أغراضهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف فى وجه الذين عضوهم بمظالمهم وعضوهم بطغيانهم ، تصيح قلوبهم مع هذا المنقذ !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

وإن كانت الآيات هي الكلمات المؤدية للمنهج الموجودة فى التوراة ، أو كانت الآيات هي المعجزات التي تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضى إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التي أرسلها الحق مع موسى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ نَسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الإسراء)

ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها فى الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو علة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة « سنين » تأتي للجذب الشديد الذى يستمر لفترة من الزمن بحيث يلفت الناس إلى حدث فى زمان ، ولذلك نقول : كانت سنة عصيبة ؛ لأن السنة عضة من الأحداث ، تهدم ترف الحياة ، ثم تأتي لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيصييهم بنقص الثمرات ، وهو الجذب والقحط ، وسمى الجذب سنة ، وجمعه سنين ، لأنه شيء يؤرخ به ، فماذا كان استقبال فرعون وملئه للآيات التي مع موسى عليه السلام ؟ يقول الحق : ﴿ فظلموا بها ﴾ .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتي ؟ .

لقد ظلموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظلوا على فسادهم ، والمفسدون - كما نعلم - هم الذين يعمدون إلى الصالح في ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختياراته ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإنسان في الأشياء التي بها مقومات الحياة ، مما لا يدخل في اختياره يجدها على منتهى الاستقامة .

إننا نجد الإنسان لا يتحكم في حركة الشمس أو حركة القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريدنا الله ، ولا يأتي الفساد إلا في الأمر الذي للإنسان مدخل فيه ، والناس لا تشكو من أزمة هواء - على سبيل المثال - لأنه لا دخل في حركة الهواء لأحد ، لكنهم شكوا من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ونجد شكواهم من أزمة المياه أقل ؛ لأن مدخل الإنسان على الماء قليل .

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذي يدير حركتك الوقودية لك فيه بعض من الدخل ، فيجعل من جسمك - على سبيل المثال - مخزناً للدهون يعطيك لحظة الجوع ما كثرته فيه من طاقة . ومن العجيب أن الدهون هذه هي مادة واحدة وساعة نحتاج إلى التغذية منها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التي نحتاج إليها .

تحتاج مثلاً إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، تحتاج إلى كربون ، يعطيك لك الدهن الكربون ، تحتاج إلى فوسفور يعطيك فوسفوراً ، تحتاج إلى مغنسيوم يعطيك الدهن المغنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المخزون في أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر المخزون في هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شهييق وزفير ، ولو أن إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمنعه عنك لحظة الغضب ، لمت قبل أن يرضى عنك ، لكن إن منع عنك الماء فترة فقد يحن قلب عدوك أو يأتي لك أحد بالماء أو قد تسعى أنت بحيلة ما لتصل إليه .

إذن فالأمر الذي لا دخل للإنسان فيه نجده على منتهى الاستقامة ، ولا يأتي

الفساد إلا من الأمر الذى للإنسان فيه دخل .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٦﴾

(سورة الأعراف)

أى أن آخر الأمر سيعاقب الله المفسدين .
وأراد سبحانه أن يذكُر سلسلة القصة لا من بدء سلسلتها ، بل يبدأ من نهايتها ، فسبحانه لا يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، واللقطة التى يريدنا فى هذا السياق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه فى هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف أوحى لأمه أن تلقيه فى البحر ، ولم ترد حادثة ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

ويشرح لنا القرآن أمر بلاغ موسى لفرعون وقومه بأن الله واحد أحد وهو رب العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك يبلغهم موسى بأن الإله واحد :

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

(سورة الشعراء)

ونجد موسى يعدد كلمة الربوبية فى آيات أخرى ؛ ليأتى بالمظهر الذى دُست فيه دسيمة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ، فقال موسى : إننى أتكلم عن الإله الواحد الذى هو رب السماء والأرض معاً فلا إله إلا الله وحده . وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فأبلغهم موسى بأنه

إله واحد ، وكانوا يعتقدون أن للأحياء إلهاً ورباً ، وللأموات إلهاً ورباً ، فقال لهم موسى :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويبلغ هنا موسى فرعون وقومه :

﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأعراف)

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ

جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي

إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾

فأى هذه الأمور هو الذي يحتاج إلى بيينة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين ؟ إن هذا القول يدلنا على أن موسى اختلف مع فرعون أولاً في أن موسى رسول ، وأن للعالمين رباً واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه - إذن - ثلاث قضايا خلافية بين موسى وفرعون . ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا في قضية واحدة هي : هل هو رسول مبلغ عن الله بالقول الحق ؟ فماذا طلب منه ؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى .

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى في مسألة أن للعالمين رباً ، وأن هذا الرب

لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلا بد أن يرسل رسولاً ، بل وقف فرعون في مسألة : هل موسى رسول مبلغ عن الله أولاً ؟

ولذلك يقول موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ

بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾

(سورة الاعراف)

كان مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بني إسرائيل . ونعرف أن قصة بني إسرائيل ناشئة من أيام نبي الله يعقوب وابنه يوسف حين كاد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا في أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة لجب ، لقد جاء الحق بقصة بني إسرائيل على مراحل لتتدرج بالانفعال معها . نمرحل الانفعال النفسى أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين : صورة تدل على تصعيد الرحمة فى قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر فى قلبك ، مثال ذلك : لنفترض أن لك خصماً وصنع فىك مكيدة ، وتحكى أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فتقول : أريد أن انتقم منه بضربه صفتين ، ثم تصعد الشر فتقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخير فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصفعه أو أشتمه وأسبه فهذا تصعيد فى الخير . إذن . يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب طاقة الخير أو الشر التى فى النفس . وهكذا نجد إخوة يوسف وهم يكيدون له ، فقالوا :

﴿ لِيُؤْسِفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴿١٠٦﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

هم يعترفون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون على ذلك ، ويظهرون البيئة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر القرآن هذه البيئة لمعرفة أهميتها ، حتى لا يغفل أحد عنها . لقد كان قلب تبنى الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقوىاء أشداء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع فى قلب الأبوة والأمومة من الرحمة على قدر ضعف الوليد الصغير . فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون

قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب . ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بنيك إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن فقول إخوة يوسف : ﴿ وَنَحْنُ عَصَبٌ ﴾ . هو بينة ضدهم . وكان المنطق يقتضى أن يعرفوا أنهم ماداموا عصبه فلا بد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسباط وذرية أنبياء ، نجدهم يصعدون الخير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه في أرض بعيدة نائية ليستريحوا منه ويخلو لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقاءه في غياهب الجب ؛ بدأوا بالقتل في لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ، أى أن يتركوه في مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقاءه في غياهب الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن يضره ، أو كانوا يفكرون في نجاته ؟ . إذن فهذا تصعيد للخير .

وتوالت الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل في مصر وكثرت أعدادهم . وعندما نستقرىء التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم ملك ، فهناك فرعون وهناك ملك .

فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾

(سورة الفجر)

هكذا نجد الحق يسمي حاكم مصر « فرعون » وفي أيام سيدنا موسى أيضاً يسميه الحق فرعون . لكن في أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سماه ملكاً :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٢٧٧

وبعد أن اكتشف العالم الفرنسي شامبليون - حجر رشيد - عرفنا أن الفترة التي دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القران هذه الحقيقة التاريخية حين سمي حكام مصر قبل يوسف فراعين ، وفي الفترة التي جاء فيها سيدنا يوسف سماهم « الملوك » ، وهؤلاء هم من أغاروا على مصر وحكموها وساعدهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشر إلى من أعان الهكسوس ؛ فبدأوا في استدلال بنى إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس إبان حكمهم مصر . وأراد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول الحق على لسان موسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَافِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

كان موسى يريد أن يخلص بنى إسرائيل ، أما مسألة الألوهية وربوبية فرعون فقد جاءت عرضاً .
ويقول فرعون :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصّٰدِقِينَ ﴿١٦﴾

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يُظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن فرعون يعتقد أن لله آيات تثبت صدق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .

ويكشف موسى عليه السلام الآية :

﴿ فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٧)

وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مدين ورأى ناراً وبعد ذلك قال لأهله :

﴿ أَمْكُشُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة طه)

ثم سمع خطاباً :

﴿ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُتُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي

وَلِي فِيهَا مَعَارِبٌ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

(سورة طه)

وحين يقال له : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ ، كان يكفي أن يقول في الجواب : عصاى ، ولا داعى أن يقول : « هي » ولا داعى أن يشرح ويقول : إنه يتوكأ عليها وأن له فيها مآرب أخرى ؛ لأن الحق لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن فجواب موسى قد جاوز في الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من الواجب أن يعطى الجواب على قدر السؤال . لكن من يقول ذلك ينسى أنه لا يوجد من يزهد فى الأتس بخطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُتُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

ولقد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيئة المخاطب فكان تهافته على الخطاب حباً لأنسه فى الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ كان من الممكن أن يقول استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللعصا أكثر من إلقاء ، إلقاء الدربة والتمرين على لقاء فرعون حين أمره الحق :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾

(سورة طه)

فماذا حدث؟ قال له الله:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ (٢١)

(سورة طه)

فساعة خاف، دل على أن ما حدث للعصا ليس من قبيل السحر؛ لأن الساحر حين يلقي عصاه أو حبله يرى ذلك عصا أو حبلًا، بينما يرى ذلك غيره حية، ولذلك يقول الحق عن السحرة:

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن حقيقة الشيء في السحر تظل كما هي في نظر الساحر، لكن موسى أوجس في نفسه خيفة، فهذا يدل على أن العصا انتقلت من طبيعتها الخشبية وصارت حية.

وكان من الممكن أن تورق العصا وتخضر على الرغم من أنها كانت غصناً يابساً. ولو حدث ذلك فسيكون معجزة أيضاً، ولكن نقلها الله نقلتين: نقلها من الجمادية، وتعدى بها مرحلة النباتية إلى مرحلة الحيوانية.

وكان الحق العليم أزلاً يرد على من أراد اللغظ في مسألة إلقاء العصا، وقد ظن بعض الجاهلين أن ذلك تكرر في الكلام في قصة واحدة. ولم يلاحظوا أن جهة الإلقاء للعصا كانت منفكة، ففي القرآن ثلاثة إلقاءات للعصا: إلقاء التدريب حينما اصطفى الله موسى رسولا وأعلمه بذلك في طور سيناء:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وبعد ذلك قال له:

﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾

(سورة طه)

وإلقاء التدريب على المهمة هدفه طمأنة موسى ، حتى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو عليّ يقين أن العصا ستسجيب له فتقلب حية بمجرد إلقاءها ، ولو أن الله قال له خيراً « إذا ذهبت إلى فرعون فألق العصا فستقلب حية » ، فقد لا يطمئن قلبه إلى هذا الأمر . فأراد الله أن يدربه عليها تدريباً واقعياً ، ليعلم أن العصا ستسجيب له حين يلقيها فتقلب حية ، وكان ذلك أول إلقاء لها ، أما الإلقاء الثاني فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين ، وإعلامه بالبينة ، وهو ما نحن بصدد الآن في هذه الآية التي نتكلم بخواطرنا الإيمانية فيها .

ثم هناك إلقاء ثالث وهو إلقاء التحدي للسحرة ، ولأن لكل إلقاء موقعاً فلا تقل أبداً: أن ذلك تكرار . وإنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملابسات ، فلكل موقف ما يتطلبه ، فلا تغنى لقطه هنا عن لقطه هناك .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٠٧)

(سورة الأعراف)

ومرة يقول عن العصا : ﴿ كأنها جان ﴾ .

ويقول المشككون في كلام الله من المستشرقين : كيف يقول مرة إنها ثعبان مبين . ثم مرة أخرى يقول : ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ ، ومرة ثالثة يقول : ﴿ كأنها جان ﴾ . ونقول : إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، ومختلفات تتكامل ، فهي ثعبان مرة ، وهي حية مرة ثانية ، وهي جان ؛ لأن الثعبان هو الطويل الخفيف الحركة ، والحية هي الكتلة المخيفة بشكلها وهي متجمعة ، والجان هو الحية المرعبة الشكل . فكانها تمثلت في كل مرة بمثال يرعب من يراه ، وكل مرة لها شكل ؛ فهي مرة ثعبان ، ومرة حية ، وثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان ، وتكون حية عند من تخيفه الحية ، وتكون جانا عند من يخيفه الجان ، ولذلك تجد أن إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم .

ومثال ذلك إبهام الحق الأمر الموت ، فلا يحكمه سن ، ولا يحكمه سبب ، ولا يحكمه زمان ، وفي هذا إبهام لزمانه وإبهام لسببه مما يجعله بياناً شائعاً تستقبله

بأى سبب فى أى زمان أو فى أى مكان، وهكذا يأتى الإبهام هنا لكى يعطينا الصور المتكاملة ، وقال بعض المستشرقين : إن المسلمين يستقبلون القرآن بالرهبة وبالانبهار . ولا يحركون عقولهم لكى يروا المتناقضات فيه ، لكن غير المسلم إن قرأ القرآن يتبين فيه أشياء مختلفة كثيرة ، قالوا بالنص : « أنتم تعلمون بقضايا اللغة أن التشبيه إنما يأتى لتلحق مجهولاً بمعلوم » ، فيقال : أنت تعرف فلاناً ، فتقول : لا والله لا أعرفه . فيقول لك : هو شكل فلان ؛ فى الطول ، وفى العرض ، وفى الشكل ، إذن فقد ألحق مجهولاً بمعلوم ليوضحه . فكيف يلحق القرآن مجهولاً بمجهول ، إن هذا لا يعطى صورة مثلما تكلم القرآن عن شجرة الزقوم فقال :

﴿ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٥﴾ طَلْمَهَا كَأَنَّ رُءُوسَ الشَّيَاطِينِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فكيف توجد شجرة فى الجحيم ، إنها أشياء متناقضة ؛ لأن الشجرة فيها خضرة ، وتحتاج إلى رى ، ومائية ، والجحيم نار وجفاف ، ثم إن الشيطان غير معلوم الصورة للبشر ، وشجرة الزقوم غير معلومة لأنها ستأتى فى الآخرة ، فكيف يُشَبَّه الله مجهولاً بمجهول . واستخدم المستشرقون ذلك كدليل على أن المسلمين يأخذون القرآن بانبهار ولا يبحثون فيه ، ونرد عليهم : أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة ، بل عرفتموها صناعة ، ولم تفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب . وقد تخيلت لغة العرب أشياء رأت فيها البشاعة والقبح ؛ كأن قالوا : « ومسنونة زرق كأنياب أغوال » ، والغول كائن غير موجود ، لكنهم تخيلوا الغول المخيف وأن له أنياباً . . . إلخ .

إذن التشبيه قد يكون للأمر المُتَخَيَّل فى أذهان الناس ، والأصل فى التشبيه أن يلحق مجهولاً ليُعلم ، وشجرة الزقوم لا نعرفها ، ورءوس الشياطين لم نرها ، وهكذا ألحق الله مجهولاً بمجهول ، ولماذا لم يأت بها فى صورة معلومة ؟ . لأنه - سبحانه - يريد أن يشيع البيان ، ويعمم الفائدة ويرببها ؛ لأن الإخافة تتطلب مخيفاً ، والمخيف يختلف باختلاف الرائيين ، فقد يوجد شيء يخيفك ، ولكنه لا يخيف غيرك ، وقد تستقبح أنت شيئاً ، ولكن غيرك لا يستقبحه ، ولذلك ضربنا - سابقاً - مثلاً . وقلنا : لو أننا أحضرنا مجموعة من كبار رسامى الكاريكاتور فى

العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان تخيلوا الشيطان وارسموه ، أيتفقون على شكل واحد فيه ؟ لا ؛ لأن كل رسام سيرسم الشيطان من وحي ما يخيفه هو . ولقد قال الله في صورة : شجرة الزقوم ﴿ طلعتها كأنه رءوس الشياطين ﴾ ؛ ليتخيل كل سامع ما يخيفه من صورة الشيطان ، فتكون الفائدة عامة من التخويف من تلك الشجرة . لكنه لو قالها بصورة واحدة لأخاف قوماً ولم يخف الآخرين . ومثال ذلك أمر عصا موسى ، فهي مرة ثعبان ، ومرة جان ، ومرة حية ، وكلها صور لشيء واحد مخيف ، ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ فالتقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ .

وقوله : ﴿ فإذا هي ﴾ يوضح الفجائية التي أذهلت فرعون ، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخيم في لمح البصر بمجرد إلقاءها ، ومن فوائد تدريب سيدنا موسى على إلقاء العصا في طور سيناء أن موسى لن تأخذه المفاجأة حين يلقاها أمام فرعون ، بل ستأخذ المفاجأة فرعون . كأن التدريب أولاً لإقناع موسى وضمأن عدم خوفه في لحظة التنفيذ ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب ؛ لأن العصا صارت ثعباناً وحيّة حقيقية ، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا في عين الساحر ولا يخاف منها ، إذن خوفه منها إبان التدريب دليل على أنها انقلبت حقيقة ، لا تخيلاً ، وتلك هي مخالفة المعجزة للسحر ، فالمعجزة حقيقة والسحر تخييل ، وهذا هو الذي سيجعل السحرة يخرون ساجدين لأنهم قد ذهلوا مما حدث .

﴿ فَالتقى عصاهُ فإذا هي ثُعبانٌ مبينٌ ﴾ (١٠٧)

(سورة الأعراف)

و « مبين » أى بين ، وواضحة ملامحه المخيفة التي لا تخفى على أحد ، ويقدم موسى عليه السلام الآية الثانية ، فيقول الحق :

﴿ ونزع يدهُ فإذا هي بيضاءُ للناظرين ﴾ (١٠٨)

وهذه آية معجزة أخرى . وقوله : « ونزع » تعنى إخراج اليد بعسر ، كأن هناك

شيئاً يقاوم إخراج اليد ؛ لأنه لو كان إخراج اليد سهلاً ، لما قال الحق : « ونزع يده » لأن النزع يدل على أن شيئاً يقاوم ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن نَّشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن نَّشَاءُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

لأن نزع الملك ليس مسألة سهلة ؛ ففي الغالب يحاول صاحب الملك التثبيت بملكه ، لكن الحق ينزعه من هذا الملك . كذلك قوله : « ونزع يده » ، وهذا يدل على أن يده لها وضع ، ونزع يده وإخراجها بشدة له وضع آخر ، كأنها كانت في مكان حريص عليها . إذن ففيه لقطة بينت الإدخال ، ولقطة بينت النزع ، وهما عمليتان اثنتان . وقال سبحانه في آية ثانية :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النمل)

و « الجيب » هو مكان دخول الرأس من الثوب ، وإن كنا نسمى « الجيب » في أيامنا مطلق شيء نجعله وعاء لما نحب ، وكان الأصل أن الإنسان حين يريد أن يحتفظ بشيء ، يضعه في مكان أمامه وتحت يده ، ثم صنع الناس الجيوب في الملابس ، فسميت الجيوب جيوباً لهذا .

والحق قال في موضع آخر :

﴿ وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

إذن ففيه إدخال وإخراج ، وكل آية جاءت بلقطة من اللقطات ؛ فأية أوضحت دخول اليد في الجيب ، وأخرى أوضحت ضم اليد إلى الجناح ، وثالثة أوضحت نزع اليد ، وهذه لقطات متعددة ، تكوّن كلها الصورة الكاملة ؛ لفهم أن القصص في القرآن غير مكرّر ، فالتكرير قد يكون في الجملة . لكن كل تكرير له لقطة تأسيسية ، وحين نستعرضه نتبين أركان القصة كاملة . فكل هذه اللقطات تجمّع لنا القصة . وقلنا قبل ذلك : إن الصراع بين فرعون وموسى لا ينشأ إلا عن عداوة ، وحتى يحتدم الصراع لا بد أن تكون العداوة متبادلة ، فلو كان واحد عدواً

والثاني لا يشعر بالعداوة فلن يكون لديه لدد خصومة ، وقد يتسامح مع خصمه ويأخذ أمر الخلاف أحداً هينا ويسامحه وتنفض المسألة . لكن الذي يجعل العداوة تستعر ، ويشتد ويعلو لهيها أن تكون متبادلة . وتأتي لنا لقطة في القرآن تثبت لنا العداوة من فرعون لموسى ، ولقطة أخرى تثبت العداوة من موسى لفرعون ، فالحق يقول :

﴿ يَاخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

هذه تثبت العداوة من فرعون لموسى .

ويقول الحق :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهذه تثبت أن موسى عدو لهم . وكلتا اللقطين يكمل بعضها بعضاً لتعطينا الصورة الكاملة .

والحق هنا يقول :

﴿ وَتَرَعُ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

ونعرف أن موسى كان أسمر اللون ، لذلك يكون البياض في يده مخالفاً لبقية لون بشرته ، ويده صارت بيضاء بحيث ساعه يراها الناس يلفتهم ضوءها ويجذب أنظارهم ، وهي ليست بيضاء ذلك البياض الذي يأتي في سُمره نتيجة البرص ، لا ؛ لأن الحق قال في آية أخرى :

﴿ مَخْرُجٌ بَيْضَاءٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

وكل لقطة كما ترى تأتي لتؤكد وتكمل الصورة . إذن فقولهُ : ﴿ بَيْضَاءٌ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ يدل على أن ضوءها لامع وضئء ، يلفت نظر الناس جميعاً إليها ،

ولا يكون ذلك إلا إذا كان لها بريق ولمعان وسطوع ، وقوله : ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً .
ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحِرُ

عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

عرفنا أن الملأ هم القوم الذين يتصدرون المجالس ، ويملاونها أو الذين يملأون العيون هيبة ، والقلوب مهابة وهم هنا المقربون من فرعون . وكأنهم يملكون فكرة وعلماً عن السحر . وفي سورة الشعراء جاء القول الحق :

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا السَّحِرُ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

(سورة الشعراء)

إذن فهذه رواية جاءت بالقول من الملأ ، والآية الأخرى جاءت بالقول على لسان فرعون ، وليس في هذا أدنى تناقض ، ومن الجائز أن يقول فرعون : إنه ساحر ، وأيضاً أن يقول الملأ : إنه ساحر . وتتوارد الخواطر في أمر معلوم متفق عليه . وقد حدث مثل هذا في القرآن حينما نزلت آيات في خلق الإنسان وتطوره بأن كان علقه فمضغة إلخ فقال كاتب الوحي بصوت مسموع :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع : نزلت هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ﴾ الآية قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١) .

وعن زيد بن ثابت الأنصاري قال : أملى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله : ﴿ ... خلقاً آخر ﴾ فقال معاذ : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : ممّ تضحك يا رسول الله ؟ فقال : « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين »^(١) .

لقد جاءت الخواطر في الحالة المهيجة لأحاسيس الإيمان لحظة نزول الوحي بمراحل خلق الإنسان .

فما الذي يمنع من توارد الخواطر فيجىء الخاطر عند فرعون وعند الملائكة فيقول ويقولون ؟ أو يكون فرعون قد قالها وعلى عادة الأتباع والأذنان إذا قال سيدهم شيئاً كرروه .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾^(١١)

(سورة الأعراف)

ولم يصفوا فعل سيدنا موسى بأنه ساحر فقط بل بالغوا في ذلك وقالوا : إنه ساحر عليم . وأضافوا ما جاء على ألسنتهم بالقرآن في هذه السورة .

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾^(١١)

إنها نكبة جاءت لفرعون الذي يدعى الألوهية ، ونكبة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل في هيئته وهيبته ؛ قال عن موسى : إنه ساحر ، لكي يصرف الناس الذين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والافتناع به ، وأنه رسول رب العالمين ، وبعد ذلك يهيج فرعون وطنيتهم ويهيج ويشر غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكانهم فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ .

(١) رواه ابن أبي حاتم وأورده ابن كثير في تفسيره وقال : وفي إسناد جابر بن زيد الجمعي ضعيف

جدا ، ونرى أن خير سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصح .

اتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يخرج الناس بسحره من أرضهم ، وهذا القول من فرعون ومن معه له هدف هو تهيج الناس وإثارتهم ؛ لأن فرعون أقنع الناس أنه إله . وهاهي ذى الألوهية تكاد تنهدم فى لحظة ، فقال عن موسى إنه ساحر ، وبين قوم لهم إلف بالسحر ، وقوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ على لسان الملائ من قوم فرعون تدل على أن القائل للعبارة أدنى من المقول لهم ، فالمفروض أن فرعون هو صاحب الأمر على الجميع ، ومجىء القول : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يدل على أن الذى يأمر فى مسائل مثل هذه هو فرعون ، وهذا يشعر بأن فرعون قد أدرك أن مكانته قد انحطت وأنه نزل عن كبريائه وغطرسته . أو أن يكون ذلك من فرعون تطبيقاً لقلوب من حوله ، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، فكيف تشاور الناس يا فرعون وأنت قد غرست فى الناس أنك إله ؟ وهل يشاور الإله مألوها ؟ . إن قولك هذا يحمل الخيبة فيك لأنك تدعى الألوهية ثم تريد أن تستعين بأمر المألوه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (١١١)

و «أرجه» أى أخره مثل قوله الحق :

﴿ وَءَاخِرُونَ مَرْجُونَ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة التوبة)

أى أنهم مؤخرون للحكم عليهم وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فخلفوا وأرجىء أمرهم حتى نزل فيهم قوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ إلخ الآية .

وقولهم :

﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

وهكذا كان طلب الإرجاء لأن المسألة أخطر من أن يتصرف فيها تصرفاً سريعاً

بل تحتاج إلى أن يؤخّر الرأى فيها حتى يجتمع الملاء ، ويرى الجميع كيفية مواجهتها ، فهي مسألة ليست هينة لأن فيها نقض ألوهية فرعون ، وفي هذا ذلك لسطان الفرعون وإنهاء لانتفاعهم هم من هذا السلطان . فإذا كان قد قال لهم : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

فكأنه كان يطلب منهم الرأى فوراً ، لكنهم قالوا إن المسألة تحتاج إلى تمهل وبطء ، وأول درجات البطء والتمهل أن يُستدعى القوم الذين يفهمون فى السحر . فمادمنا نقول عن موسى : إنه ساحر ، فلنواجهه بما عندنا من سحر : وقبول فرعون لهذه المشورة هدم لألوهيته ؛ لأنه يدعى أنه إله ويستعين بمألوه هم السحرة ، والسحرة أتباع له . وقوله الحق على ألسنتهم :

﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

يدل على أن السحر كان منتشرأ ، ومنبثأ فى المدائن وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملاء بقوله :

﴿ يَا تَوَكُّبِكِ سَحَرِ عَلِيمِ ﴾ ١١٦

ولأن المستشرقين يريدون أن يشككونا فى القرآن قالوا : ولماذا قال فى سورة الشعراء : ﴿ يَا تَوَكُّبِكِ سَحَرِ عَلِيمِ ﴾ . وكان هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين ﴿ ساحر عليم ﴾ و ﴿ سَحَارِ عَلِيمِ ﴾ ؛ ولأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن « سَحَارِ » تفيد المبالغة من جهتين . فكلمة « ساحر » تعنى أنه يعمل بالسحر ، و « سَحَارِ » تعنى أنه يبالىغ فى إتقان السحر ، والمبالغات دائماً تأتي لضخامة الحدث ، أو تأتي لتكرار الحدث . فـ « سَحَارِ » تعنى أن سحره قوى جداً ، أو يسحر فى كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر ، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً . ومادام القائلون متعددين . فواحد يقول : ساحر ، وآخر يقول : سَحَارِ وهكذا . والقرآن يغطى كل اللقطات .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلَيْهِ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « حاشرين » تعنى من يحشر لك السحرة ويجمعهم لا يبارادتهم ولكن بقوة فرعون وبطش جنده .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا
إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وقوله : ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ يدل على بطش الأمر ، أى أنه ساعة قال الكلمة هُرع الجند بسرعة ليجمعوا السحرة . وقد ولغ بعض المستشرقين فى هذه اللقطة أيضاً فتساءلوا : ولماذا جاء بقول مختلف فى سورة أخرى حين قال :

﴿ أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

لقد جاء بها بهمزة الاستفهام ، وفى سورة الأعراف جاء بها من غير همزة الاستفهام ، وهذه آية قرآنية ، وتلك آية قرآنية . وأصحاب هذا القول يتناسون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد انفعّل انفعالاً أدى به مطلوبه ؛ فالذى يستفهم من فرعون قال : « أين » ، والشجاع قال لفرعون : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ . وفى القضية الاستفهامية لا يتحتم الأجر لأنه من الجائز أن يرد الفرعون قائلاً : أن لا أجر لكم ، ولكن فى القضية الخبرية « إن لنا لأجراً » أى أن بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الأجر ، وقد غطى القرآن هذا الاستفهام ، وهذا الخبر .

وتأتى إجابة فرعون على طلب السحرة للأجر :

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ ١١٤

و « نعم » حرف جواب قائمة مقام جملة هي : لكم أجر ، وأضاف أيضاً : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ .

وهذا دليل على أنه ينافقهم أو يبالغ في مجاملتهم ؛ لأنه يحتاج إليهم أشد الحاجة . وهكذا نجد ألوهية فرعون قد خارت أمام المألوهين السحرة . وقوله : ﴿ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ هذه تدل على فساد الحكم ؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء . لكن إذا ما كان هناك مقربون فالدائرة الأولى منهم تنهب على قدر قربها ، والدائرة الثانية تنهب أيضاً ، وكذلك الثالثة والرابعة ، فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناس مصنفين عند الحاكم .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه كان يسوى بين الناس جميعاً في نظره حتى يظن كل إنسان أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يدنى أحداً ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع بأنه مقرب . . . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ

نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ ١١٥

ونلاحظ أنهم لم يؤكدوا لموسى رغبتهم في أن يلقي هو أولاً عصاه . ولكنهم أكدوا رغبتهم في أن يكونوا هم أول الملقيين . فجاءوا بضمير الفصل وهو (نحن) الذي يفيد التأكيد .

ونعلم أن من يعقب ويكون عمله تالياً لمن سبقه ، فإن فعله هو الذي سيترتب

عليه الحكم . ولا بد أن يكون قوى الحجة . هم يريدون أن يكونوا هم المعقنين ، وأن موسى الذى يبدأ ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدأوا هم أولاً ؛ لذلك جاءوا بالعبارة التى تحمل المعنيين :

﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة الأعراف)

فعلم موسى أنهم حريصون ، على أن يبدأوا هم بالإلقاء فأتوا بكلمة (نحن) . وفكر موسى أن من صالحه أن يلقوا هم أولاً ؛ لأن عصاه ستلقف وتبتلع ما يلقون ؛ لذلك يأتى قوله سبحانه :

﴿ قَالَ الْقَوْمَ فَلَمَّا الْقَوْمَ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

هم - إذن - سحروا أعين الناس ، والسحر - كما نعلم - لطف حيلة يأتى بأعجوبة تشبه المعجزة . وكأنها تخرق القانون ، وهو غير الحيلة التى يقوم بها الحواة ؛ لأن الحواة يقومون بخفة حركة ، وخفة يد ، ليعموا الأمر على الناس . لكن « السحر » شىء آخر ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جنس بقانون ؛ خلق الإنس بقانون ، وخلق الجن بقانون ، وخلق الملائكة بقانونها :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

وكل قانون له خصائصه ومميزاته التى تناسب عنصر تكوينه ، فالإنسان - مثلاً - لأنه مخلوق من الطين له من الكثافة ما يمنعه من التسلل من خلال جدار ؛ لأنك لو كنت تجلس وهناك تفاحة وراء الجدار الذى تجلس بجواره فلن يتعدى ريحها ولا طعمها إلى فمك ؛ لأن الجدار يحول بينك وبين ذلك ، لكن لو كانت هناك جذوة من نار بجانب الجدار الذى تستند عليه لكان من الممكن أن يتعدى أثرها

لك ؛ لأن للنار إشعاعات تنفذ من الأشياء ، ولأن الجن مخلوق من نار ، لذلك نجد له هذه الخاصية .

﴿ إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فإذا كان الجن له قانون والإنس له قانون ، فهل القانون هو الذى يسيطر ؟ لا ، بل رب القانون هو الذى يسيطر لأنه جل وعلا فوق القانون . فيأتى الله للإنس ويُعَلِّمُ واحداً منهم بعضاً من أسرار كونه ليستدل الجن لخدمته ، برغم ما للجن من خفة حركة ، فسبحانه يوضح : لا تظن أيها الجن أنك قد أخذت خصوصيتك من العنصر الذى يكونك لأن هناك القادر الأعلى وهو المعنصر لك ولغيرك ، بدليل أن الإنسان وهو من عنصر آخر يتحكم فيك بعد أن علمه الله بعضاً من أسرار كونه . ولنتبه دائماً أن العلم بأسرار تسخير الجن هو من ابتلاءات الحق للخلق ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فكان هاروت وماروت وهما يعلمان الإنسان كيف يمارس السحر ، ينضحان الإنسان الذى يرغب فى أن يتعلم السحر أولاً ، ويوضحان له أنهما فتنة أى ابتلاء واختبار ويقولان له : ﴿ فلا تكفر ﴾ ، مما يدل على أن كل من يتعلم السحر ؛ إن قال لك : إني سأستعمله فى الخير فهو كاذب ؛ لأنه يقول ذلك ساعة صفاء نفسه تجاه الخلق ، لكن ماذا إن غافله إنسان من أى ناحية وغلبه على بعض أمره وهو يملك بعضاً من أسرار السحر ؟ هل يقدر على نفسه ؟ لقد قال إنه أمين وقت التحمل ، لكن هل يظل أميناً وقت الأداء ؟ إن من يتعلم السحر قد يستخدمه فى الانتقام من غيره ، وبذلك يضيع تكافؤ الفرص ، ونعلم أن تكافؤ الفرص هو الذى يحمى الناس ، ويعطى بعضهم الأمن من بعض ، ويلزم كل إنسان حده .

فإذا أخذ إنسان سلاحاً ليس عند غيره فقد يستخدمه ضد من لا يملك مثله ، والإنسى الذى يأخذ سلاح استخدام الجن إنما يأخذ سلاحاً لا يملكه أخوه

الإنسى ، وبذلك يكون قد أخذ فرصة أقوى من غيره وفي هذا ابتلاء ؛ لأن الإنسان قد ينجح فيه وقد يخفق فلا يظفر بما يطلبه ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا تكفر ﴾ يدل على أنهما علما طبائع البشر في أنهم حين يأخذون فرصة أعلى قد يُضْمَنُونَ وقت صفاء نفوسهم ، ولكنهم لا يُضْمَنُونَ يوم تعكير نفوسهم .

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۗ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

مادام الحق هو الذى أعطاهم هذه القدرة فهو سبحانه القادر على أن يسلبها منهم ، مثلما يمنح الله سبحانه وتعالى القدرة لإنسان ليكون غنياً وقادراً على شراء سلاح نارى ، وأن يتدرب على إطلاق النار ، فهذا الرجل ساعة يغضب قد يتصور أن يحل خلافه مع غيره أو ينهى غضبه مع أى إنسان آخر بإطلاق الرصاص عليه . لكن لو لم يكن معه « مسدس » فقد ينتهى غضبه بكلمة طيبة يسمعاها ، إذن فساعة ما يمنح الله أمراً فهو يريد أن يرحم ؛ لذلك يقول : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر ﴾ .

وفي هذا تحذير لمن يتعلم مثل هذا الأمر ، ويريد سبحانه أن يحمى خلقه من هذه المسألة ، ويكفى أن نعلم أنه سبحانه قد قال : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ .

فلو أنك تتبعت هؤلاء لاستدلوك ، واستترفوك ، وبتركك الله لهم لأنك اعتقدت فيهم ، أما إن قلت : « اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر ، ولكنك احتفظت لنفسك بإذن الضر ، فإني أعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه ، بحق قولك : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . هنا لن يمكنهم الله منك ، إنما إن استجبت وسرت معهم ، فهم يستترفونك ، وأراد الله أن يفصح مثل هذه العملية فقال على ألسنة السحرة الذين استدعاهم فرعون :

﴿ إِنْ لَنَا لَأَجْرًا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

وكانهم يعترفون بالنقص فيهم ، فعلى الرغم من ادعائهم القدرة على فعل المعجزات إلا أنهم عاجزون عن الكسب الذى يوفى حاجاتهم ؛ لذلك طلبوا الأجر من فرعون ، وهذا حال الذين يشتغلون بالسحر والشعوذة . هم يدعون القدرة ويعانون الفاقة والعوز . هكذا حكم الحق بضيق رزق من يعمل بالسحر ، ويفضحهم الحق دائماً ، وللعاقل أن يقول : ماداموا يدعون الفلاح فليفلحوا فى إصلاح أحوالهم . ومادام الساحر يدعى أنه يعرف أماكن الكنوز المخبوءة فلماذا لا يعرف كنوزاً فى الأرض التى ليست مملوكة لأحد ويأخذها لنفسه ؟ هذا إن افترضنا أن الساحر أمين للغاية ولا يريد أن يأخذ من خزائن الناس .

ولذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بشعى الهيئة ؛ مصابين فى الذرية ؛ لأن الكائن منهم استغل فرصة لا توجد لكل واحد من جنسه البشرى ، وذلك للإضرار بالناس . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنهٗ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۗ ﴾

(سورة الجن)

وهنا يقرر الحق أنهم سيعيشون فى إرهاب وتعب . ولذلك يتحدد موقفنا من السحر بأننا لا ننكره مثلما ينكره آخرون . فقد قال بعض من العلماء : إن السحرة جاءوا بعضى وضعوا فيها زئبقاً ، وعند وجود الزئبق تحت أشعة الشمس تعطى له حرارة فتتلوى العصى ، لكن نحن لا ننكر السحر ، كما لا ننكر الجن لأنه لا يفوتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على الصلاة فأمكنى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى ﴾ » (١) .

فمادام الحق قد قال : إنه خلق خلقاً لا تدركهم بإحساسك ، فنحن نفر

بما أبلغنا به الحق ؛ لأن وجود الشيء أمر وإدراك وجوده أمر آخر ، وكل مخلوق له قانونه ، فالعفريت من الجن قال لسيدنا سليمان عن عرش بلقيس :

﴿ أَنَاءَ آتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

وكان الجن يطلب زمناً ما ، فقد يجلس سليمان في مقامه معهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً ، لكن الذى عنده علم من الكتاب يقول :

﴿ أَنَاءَ آتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

ولا بد أن يكون طرفه قد ارتد في أقل من ثانية بعد أن قال ذلك ، ولهذا نجد القرآن يورد ما حدث على الفور فيقول : ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾ .

مما يدل على أن الله قد خلق الأجناس ، وخلق لكل جنس قانوناً ، وقد يكون هناك قانون أقوى من قانون آخر ، لكن صاحب القانون مخلوق لذلك لا يحتفظ به ؛ لأن خالق القانون يبطله ، ويسلط أدنى على من هو أعلى منه . ولندقق في التعبير القرآني : ﴿ سحرُوا أعين الناس ﴾ .

ونحن أمام أشياء هي العصى والحبال . وجمع من البشر ينظر . ونفهم من قوله الحق : ﴿ سحرُوا أعين الناس ﴾ أن السحر يُنصبُّ على الرائي له ، لكن المرثى يظل على حالته ، فالعصى هي هي ، والحبال هي هي ، والذي يتغير هو رؤية الرائي . ولذلك قال سبحانه في آية ثانية :

﴿ يُحَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أُنْهَآ تَسْعَى ﴾

(من الآية ٦٦ سورة طه)

إذن فالسحر لا يقلب الحقيقة ، بل تظل الحقيقة هي هي ويراها الساحر على طبيعتها . لكن الناس هي التي ترى الحقيقة مختلفة . إذن فالسحرة قد قاموا بعملهم وهو : ﴿ سحرُوا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ .

واسترهبوهم أى أدخلوا الرهبة فى نفوس الناس من هذه العملية ، وظن السحرة أن موسى سيخاف مثل بقية الناس المسحورين ، ونسوا أن موسى لن ينخدع بسحرهم ؛ لأنه باصطفاء الله له وتأييده بالمعجزة صار منفذاً لقانون الذى أرسله فجعل عصاه حية ، وصاحب القانون هو الذى يتحكم . وهم قد جاءوا بسحر عظيم ، وهو أمر منطقى ؛ لأن العملية هى مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاء ألوهيته ، لذلك لا بد أن يأتوا بأخر وأعظم ما عندهم من السحر .

ويقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

ولماذا احتاجت هذه المسألة إلى وحي جديد خصوصاً أنه قد سبق أن تم تدريب موسى على إلقاء العصا ؟ . ونقول : فيه فرق بين التعليم للإعداد لما يكون ، والتنفيذ ساعة يكون ، فساعة يأتى أمر التنفيذ يجيء الحق بأمر جديد ، فربما يكون قد دخل على بشرية موسى شىء من السحر العظيم ، والاسترهاب ، هذا ونعلم أن قصة موسى عليه السلام فيها عجائب كثيرة . فقد كان فرعون يقتل الذكران ، ويستحي النساء ، وأراد ربنا ألا يقتل موسى فقال سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وقوله سبحانه : ﴿ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ ﴾ يدل على أن العملية المخوفة لم تأت بعد ، بل ستأتى لاحقاً . وهات أئمة امرأة وقل لها : إن كنت خائفة على ابنك من أمر ما فارميه فى البحر . من المؤكد أنها لن تصدقك ، بل ستسخر منك ؛ لأنها ستساءل : كيف أنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ . وهذا هو الأمر الطبيعى ، لكن نحن هنا أمام وارد من الله إلى خلق الله ، ووارد الله لا يصادمه شك . إذن فالخاطر والإلهام إذا جاء من الله لا يزامهما شىء قط . ولا يطلب

الإنسان عليه دليلاً لأن نفسه قد اطمأنت إليه ؛ لذلك ألفت أمام موسى برضيعها في البحر .

ويقدّر الله أنها أم فيقول :

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولن يرده إليها فقط ، بل سيوكل إليه أمراً جليلاً :

﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكان الحق سبحانه يوضح لأم موسى أن ابنها لن يعيش من أجلها فقط ، بل إن له مهمة أخرى في الحياة فسيكون رسولاً من الله . فإذا لم تكن السماء ستحافظ عليه لأجل خاطر الأم وعواطفها ، فإن السماء ستحفظه لأن له مهمة أساسية ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ . ونلاحظ أن الحق هنا لم يأت بسيرة التابوت لكنه في آية ثانية يقول :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٦٨﴾ أَنْ أَقْذِفِي فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ

فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾

(سورة طه)

ولم يقل في هذه الآية : ﴿ ولا تخافي ولا تحزني ﴾ ؛ لأنه أوضح لها ما سوف يحدث من إلقاء اليمم له بالساحل . وقوله في الأولى : ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ . هو إعداد للحدث قبل أن يجيء ، وفي هذه الآية ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . . ﴾ الخ تجد اللقطات سريعة متتابعة لتعبر عن التصرف لحظة الخطر . لكن في الآية الأولى : ﴿ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ نجد البطء والهدوء والرتابة ؛ لأنها تحكى عن الإعداد . لما يكون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعطى كل جنس قانوناً ، وكل قانون يجب أن يُحترم

في نطاقه ، لأن تكافؤ الفرص بين الأجناس هو الذي يريده الله . وحينما أراد سبحانه وتعالى أن يبين لنا هذه المسألة أوضح أن على المؤمن أن ينظر إلى المعطيات من وراء التكاليف ، وفي آية الدِّين - على سبيل المثال - نجد الحق يوصي المقترض « المدين » - وهو الضعيف - أن يكتب الدِّين ، ويعطى بذلك إقراراً للدائن وهو القوى القادر فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والمسألة هنا في ظاهر الأمر أنه يحمي الدائن ونقوده ، لكن علينا أن نتنبه إلى أنه يحمي المدين من نفسه ؛ لأن الدِّين إن لم يكن موثقاً فالمدين لن يبذل الجهد الكافي للسداد ، وباجتهاد المدين نفيذ الوجود بطاقة فاعلة . ولكن إن لم نوثق الدِّين ، وتكاسل المدين عن العمل والسداد فقد تشيع الفوضى في المجتمع ويرفض كل إنسان أن يفرض أحداً ما يحتاج إليه . وبذلك تفسد الأمور الاقتصادية .

إذن فسبحانه حين يأمر بتوثيق الدِّين ، وإن كان في ظاهر الأمر حماية للدائن . لكنه في باطن الأمر يحمي سبحانه المدين ، لأن هناك فرقاً بين ساعة التحمل للحكم ، وساعة أداء الحكم .

مثال ذلك حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندي ألف جنيه وخائف أن يضع مني فخذة أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودع عنده إن شاء أنكرك ، وإن شاء أقر . ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك . يقول ذلك وفي ذمته ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتي ليطلبه يعطيه له ، إنه يعد ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتي له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتعلل بالحجج ليعيد صاحب المال عنه .

إذن هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة التحمل وساعة الأداء لهذه

الأمانة . والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معاً ، إن بعض الناس يرفض تحمل الأمانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء .

والذى يتعلم شيئاً يناقض ناموس وجوده كتعلم السحر نقول له : احذر أن تُبتلى وتُفتن ، بل ابتعد واحفظ نفسك ولا تستعمل ذلك ، واحذر أن تقول أنا سأستعمل ما تعلمته من سحر فى الخير ، ومن يأتى لى وهو فى أزمة سوف أحلها له بالسحر . ونقول : لهذا الإنسان : أنت تتكلم عن وقت التحمل ، ولكنك لا تتكلم عن وقت الأداء .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والإفك هو قلب الشيء على وجهه ، ومنه الكذب . وعلمنا من قبل أن كل شىء له نسبة كلامية وله نسبة واقعية ، فإذا قلت مثلاً « محمد مجتهد » فهذه نسبة كلامية ، لكن أ يوجد واحد فى الواقع اسمه محمد وموثوق فى اجتهاده ؟ . إن كان الأمر كذلك فقد وافقت النسبة الكلامية النسبة الواقعية ، ويكون الكلام هو الصدق ، أما الكذب فهو أن تقول « محمد مجتهد » ولا يوجد إنسان اسمه محمد ، وإن كان موجوداً فهو غير مجتهد ، ويكون الكلام كذباً لأن النسبة الكلامية خالفت النسبة الواقعية ، وحين يكذب أحد فهو يقرب المسألة ونسمى ذلك كذباً ، وشدة الكذب تسمى إفكاً . أو الكذب ألا يكون هناك تطابق ، وإن لم تكن تعلم ، والإفك أن تتعمد الكذب ، وهذا أيضاً افتراء . ﴿ أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « فإذا » وهى تعبر عن الفجائية حيث ابتلعت عصا موسى - بعد أن صارت حية - ما أتى السحرة وجاءوا به من الكذب والإفك وسحروا به أعين الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَوْقَ الْحَقِّ وَبِطْلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١١٨

وقوله : ﴿ فوق الحق ﴾ أى صار الحق النظرى واقعاً ملموساً ؛ لأن هناك فارقاً بين كلام يلقي نظرياً وكلام يؤيده الواقع ، والوقوع عادة يكون من أعلى بحيث يراه ويعرفه كل من يراه .

وقوله سبحانه : ﴿ فوق الحق ﴾ أى ثبت الحق ، فبعد أن كان كلاماً خبرياً يصح أن يصدق ويصح أن يكذب ، صار بصدقه واقعاً . ﴿ فوق الحق وبتل ما كانوا يعملون ﴾ .

والذى بطل هو ما كانوا يعملون من السحر . إن الحق جعل صدق موسى واقعاً مشهوداً . وبذلك غلب السحرة .

ويقول الحق :

﴿ فَعَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ ١١٩

ولم يغلب السحرة فقط ، بل غلب أيضاً فرعون وجماعته ، وعاش كل من هو ضد موسى فى صَغَارٍ ، صغار للمستدعى وصغار للمستدعى . لذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أى أذلاء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴾ ١٢٠

ولم يقل الحق : وسجد السحرة ، ولكنه قال : « وألقى » مما يدل على أن

خروجهم للسجود ليس برأيهم ، ولكنه عملية انبهارية مما حصل أمامهم ، كان شيئاً آخر ألقاهم ساجدين ، وهو الانبهار بالحق . فالساحر منهم كان يعتقد أنه هو الذى يسحر ، ثم يفاجأ بمجموع السحرة أن موسى حين ألقى عصاه رأوها حية بالفعل فعرفوا أن المسألة ليست سحراً ، وحينما ألقوا عصيهم وجبالهم التى جاءوا بها من كل المدائن ، قيل إنها حُمِلت على سبعين بعيراً وشاهدوا كيف أن العصا التى صارت حية أو ثعباناً لفتت كل هذا وابتلعته ! وحجم العصا هو حجم العصا مهما طالت ، وهكذا تيقن السحرة أن هذا لا يمكن أن يكون من فعل ساحر ، وانظر إلى الاستجابة منهم لما رأوا :

﴿ قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وهل هم سجدوا بعد الإيمان ؟ أم آمنوا بعد السجود ؟ النص هنا يظهر منه أنهم آمنوا بعد السجود ، ولكن كان الأمر يقتضى ألا يسجد أحد إلا لأنه آمن ، لكن نحن نعرف أن الإيمان عمل قلبى ، والسجود عمل عضلى وسلوك عملى ، فكل منهم آمن بقلبه فسجد .

وهناك فرق بين أن يؤمنوا فيسجدوا ثم يعلنوا إيمانهم ؛ فيقولوا : آمنا برب العالمين ؛ لذلك نحن لا نرتب السجود على إيمان ، بل نرتب السجود مع القول بالإيمان ويأعلان الإيمان ؛ لأن إعلان الإيمان شيء ، والإيمان شيء آخر ، فكأنهم آمنوا فخرروا ساجدين وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان ، وكان الناس سألوهم : ما الذى جرى لكم ؟ فقالوا : ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

إذن فمن يحاول أن يستدرك على النص فعليه أن يتنبه إلى أن إخبارهم عن الإيمان يعنى وجود الإيمان أولاً ، والسحرة قد آمنوا فسجدوا ، فاستغرب منهم الناس هذا السجود ، وهنا قال السحرة : لا تستغربوا ولا تتعجبوا فنحن قد آمننا برب العالمين .

﴿ قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقيل في بعض التفاسير : إن فرعون قال : أنا رب العالمين . لكن السحرة لم يتركوا قوله هذا فأعلنوا أن رب العالمين هو : ﴿ رب موسى وهارون ﴾ . وقال فرعون : لقد ربيت أنا موسى ، فقالوا : لكنك لم ترب هارون .

ولذلك أوضح الحق هنا أن رب العالمين هو :

﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ١٢٢

ولأن السحرة أعلنوها واضحة بالإيمان برب العالمين رب موسى وهارون ، وكان لابد أن يغضب فرعون ، فيأتي القرآن بما جاء على لسانه :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ءِإِنْ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمْوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ

تَعَامُونَ ١٢٣

وكان فرعون مازال يحاول تأكيد سلطانه ، ونعلم أن بنى إسرائيل اختلطوا بالناس فى مصر ، ومنهم من تعلم السحر . ولذلك اتهم فرعون السحرة بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون فى مأزق ويريد أن يخرج منه ؛ لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة ، وهو لا يريدهم أن يتشككوا فى ألوهيته ، فينهدم الصرح الذى أقامه على الأكاذيب ؛ لذلك قال للسحرة : إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة . . أى أنكم اتفقتم مع موسى ، وسيأتى ويقول : اتهاماً لموسى :

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُرِّ الَّذِى عَلَّمَكَ السِّحْرَ ﴾

ونتيجة لهذا المكر المتوهم بين بنى إسرائيل وموسى يتوعدهم فرعون :

﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ
ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ١٢٤

والوعيد - كما نراه - قاس وفظيع ، فتقطع الأيدي والأرجل ثم الصلب كلها أمور تخيف ، فماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ؟ إنهم يقولون :

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ ١٢٥

إنك قد عجلت لنا الخير لأننا سنكون فى جوار ربنا ، فأنت بطيشك وحمقتك قد أسديت لنا معروفا وخيرا من حيث لا تدري . ويزيدون فى تقرير فرعون بما يجيء فى القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ أَمْ نَأْتِيكَ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ١٢٦

ما الذى تكرهه منا لأن « ننقم » تعنى تكره ، وقولهم لفرعون : أليس الذى تكرهه منا أننا آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ؟ وهل الإيمان بآيات الإله حين تحيىء مما يُكره !!؟ ويسمون ذلك فى اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم ؛ كأن يقول إنسان : ماذا تكره فى ؟ أصدقى ؟ أمانتى ؟ أجودى ؟ أعلمى ؟

كأنه يعاد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنها لا تُكره ، لكن الخطأ في مقاييس من يكره الصواب ، فهي أمور لا تستحق أن تُكره أو تعاب أو تُذم . لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير وكلهم يفضل جوار الله على جوار فرعون . وهذا الذي يعتبره فرعون عقاباً إنما يشيت خبيته حتى فر توقع العقوبة ؛ لأنه لو لم يهددهم بهذه الميته فهم سيموتون ليرجعوا إلى الله ، وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن ينقلب إلى الله ، وكأنهم أبطلوا وعيد فرعون حين قال لهم :

﴿ لَا قِطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ ثُمَّ لَا صَلْبَيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يتجهون إلى ربهم وخالقهم فيقولون : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ .

و «الإفراغ» أن ينصب شيء على شيء ليغمزه ، وكأنهم يقولون : أعطنا يا رب كل الصبر ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعددهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم . ولذلك قال بعض العارفين بالله : عجبى لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء برة .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ

لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ

سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ

قَاهِرُونَ ﴿١٦٧﴾

وهكذا نعرف أن المقربين من فرعون هم أول من خافوا على سلطانهم ، ويدل

هذا القول أيضاً على أن فرعون لم يتعرض لموسى بأى أذى ؛ لأنه مازال يعيش فى رهبة اليقين وصوله الحق مما جعله متوجساً وخائفاً من موسى ؛ لأن فرعون أول من يعلم أن مسألة ألوهيته كذب كلها ، ويعلم جيداً أن موسى على حق ، لكن إعلان انهزامه أمام الجمع ليس أمراً سهلاً على النفس البشرية ، وسأل الملائ من قوم فرعون الذين اهتز أمامهم سلطانه ومكانته ، قالوا لفرعون : أتترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ؟ . أو فيما يبدو أن موسى وهارون تركا المكان بعد أن انتهيا من أمر السحرة ، ولم يقبض عليهما فرعون ؛ لذلك تساءل الملائ من قوم فرعون :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُمُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُ

وَأَهْلِيكَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

و « يذرك » أى يدعك ويتركك ، وكان فرعون يعتقد أن هناك آلهة علويين وآلهة سفليين ، وهورب العالم السفلى كله . لذلك قالوا : « ويذرك وأهلك » . وهناك قراءة أخرى « ويذرك إلهتك أى عبادتك » . أى يتركك أنت ويترك عبادتك . ويقول فرعون : ﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ﴾ .

وحتى تلك اللحظة لم يتعرض فرعون لموسى ، ولا يزال خوفه من موسى يمنعه من الاقتراب أو الدنو منه أو الاتصال به ولو بكلمة ، إنه يأخذ الحذر من أن يقدم على شىء ضد موسى ، فيفاجئه موسى مفاجأة ثانية . ويقال إن الثعبان الذى ظهر ساعة ألقى موسى عصاه فتح شدقيه واتجه إلى فرعون ، فقال : كف عنى وأومن بما جئت به . وهو أمر محتمل ؛ لأن فرعون حتى هذه اللحظة لم يجرؤ على الاقتراب من موسى ، وجاء بخير قتل الأبناء وسبى النساء ولم يأت بسيرة موسى .

﴿ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

والقوى حين يملك القدرة على الضعيف لا يشد الخناق عليه شداً ليفتك به ؛ لأنه يعرف ضعفه ، ويستطيع أن يناله فى أى وقت ، لكن لو كان الخصم أمامك قوياً فأنت ترهبه بالقوة حتى يخضع لك . وهنا يقول فرعون : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ .

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم مسيطرون وغالبون ، ولن يستطيع قوم موسى أن يفلتوا منهم . ويؤكد فرعون : سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ؛ لأن الأبناء هم العدة ، والنساء عادة شأنهن مبني على الحجاب ، وعلى السر ، وفي إبقاء المرأة وقتل الرجل إذلال للرجال ؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء . ولذلك كان العرب حين يغيرون على عدو ، يصحبون نساءهم لتزيد الحمية ولا يخور ولا يجبن واحد وتراه زوجه أو أخته أو ابنته وهو على هذا الحال ، وكذلك كان العرب يخافون الانهزام حتى لا يمسك العدو نساءهم ويأخذهن سبايا .

وهنا يؤكد فرعون إصراره على إذلال قوم موسى بأن يعيد قتل الأبناء ، وأن يستحيى النساء ، وكان الفرعون يفعل مثل ذلك الأمر من قبل ، والسبب في ذلك أن بنى إسرائيل كانوا يساعدون ملوك الهكسوس ، وبعد أن طرد الفراعنة الهكسوس ، اتجهوا إلى إيذاء بنى إسرائيل الذين كانوا في صف الهكسوس ، ومن بقى من بنى إسرائيل تعرض لتقتيل الأبناء ، لكن الحق أنقذ موسى حين أوحى لأمه أن تلقيه في اليم ليربيه فرعون . وهاهو ذا فرعون يعيد الكرة مرة أخرى بالأمر بتقتيل الأبناء وسبي النساء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ۗ ﴾

﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ ﴾

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٨)

ويقرر موسى الحقيقة الواضحة وهي أن الأرض ليست لفرعون ، والعاقة لا تكون إلا للمتقين . وكأنه بهذا القول يريد أن يردهم إلى حكم التاريخ حيث تكون العاقبة دائماً للمتقين ، فإن قال فرعون : وإنا فوقهم قاهرون ، مستعلون غالبون مسلطون مسيطرون ، فإن موسى يرد على ذلك : أنا أستعين بمن هو أقوى

منك . إن موسى عليه السلام يأمر قومه بأن يستعينوا بالله ، ويصبروا على ما ينالهم من بطش فرعون وظلمه .

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمنهم في الأرض ويمكن لهم فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق . ولكن ماذا كان موقف قوم موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، والنصر لهم ؟ . نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا
جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴾

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أوذينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، وبعد أن جئت هانحن أولاء نتلقى الإيذاء . كأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً . إذن هم نظروا للابتلاءات التي يجريها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى المنة والمنحة والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك هزمهم موسى ، وكان يجب أن يكون ذلك تنبيها لهم لقدرة عطاءات الله ، هم يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسبوا أيام الرخاء .

وقوله : ﴿ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يدل على أنهم سوف يخونون العهود ، ويفعلون الأشياء التي لا تتناسب مع هذه المقدمات . وفي الإسلام نجد عمرو بن عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رغيث أو رغيقان ، فقال : التمسوا رغيثاً لابن عبيد . فرد عليه العامل : لا نجد . فلما ولي الخلافة وعاش في ثراء الملك ونعمته دخل عليه ابن عبيد وقال : لقد صدق معكم

الحق يا أمير المؤمنين في قوله :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمُ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقد قال موسى لقومه هذا القول بعد أن عاينوه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا ، أى بالتذبيح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكان مجيئك لم يفدنا شيئا لأننا مقيمون على العذاب الذى كنا نسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة فى أن تكون موجوداً ؛ بدليل أن الذى حدث بعدك هو الذى حدث قبلك .

ولم يلتفتوا إلى أن الإيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكان موسى يرد عليهم بأن أسباب الإيذاء ستتهى ، وأن الله سيهلك عدوكم الذى إذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد . ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة ؛ بل يزيدكم بأن يستخلفكم فى الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكان هنا أمرين : الأمر الأول سلبى : وهو إهلاك العدو ، والأمر الثانى إيجابى : وهو استخلافكم فى الأرض وهذا أمر لكم ، ووعد من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تنتبهوا إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم فى الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة ؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى ﴿ عسى ﴾ فهى كلمة - كما يقول علماء اللغة - تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول . وهناك فرق بين التمنى وبين الرجاء . فالتمنى أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون فى الحصول عليه عسر ، ولكنك تريد - فقط - بالتمنى إشعار حيك له ، فأنت إذا قلت : ليت الشباب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حيك لمرحلة الشباب . وقصارى ما يعطيه أن يعلمنا أنك تحب هذا التمنى . لكن هل يتحقق أو لا يتحقق .. فهذه ليست واردة .

لكن «الرجاء» شيء محبوب يوشك أن يقع ، وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمني . وأداة التمني «ليت» ، وأداة الرجاء «عسى» . وحين يكون بعد «عسى» ما يُرجى فلذلك مراحل متفاوت بقوة أسباب الرجاء في الوقوع . فأنا مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إليّ أنا ، لأن إكرامى لك يقتضى بقائى ، وعدم تغير نفسى من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسى قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامى لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغيار ، ومادمت صاحب أغيار فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكنى لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسى عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل فى حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى أن يكرمك فلان وهو مساويه ، فهذا أمر مستبعد قليلاً ؛ لأن من يقول ذلك لا يملك أن يقوم فلان بإكرام المساوى له ، لأنه صاحب أغيار .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يعجزه شيء عن إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك ؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فسبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أو يستعصى أو يتأبى عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : ﴿ عسى ربكم ﴾ فقد انتهت المسألة وتقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هى : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن يعدى الحق بالإكرام أو بالرحمة .

﴿ عَسَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

والكلام كما نراه هو من موسى ، ولا يقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء ؟ . نعلم أن موسى رسول أرسله الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ .

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمفردها ، أما أن يهلك الله عدوى ويعطينى الحق مكانة عدوى العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا ما سوف يحدث يوم القيامة ؛ لأن الحق يقول :

﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فمابالك بمن زُحِرَ عن النار وأدخل الجنة ؟ . لقد نال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هي : ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾ . لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون ؟ . هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها ؟ فالإنسان ظلم كفار .

وكلمة « ينظر » إذا جاءت على الإنسان فهم المراد منها أى يراك بناظره . وإذا أسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حدقة عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو - سبحانه - عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ في مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه . وعميد الكلية يقول له : ما رأيك ؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثاني لا بد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذي رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت في الحكم ؛ ولو مكنتني من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدى الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب في الامتحان .

إن الله سبحانه حين يقول : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ . هو سبحانه لا ينظرها ليعلمها - حاشا لله - فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكن يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم أولاً بكل من يهدى ومن يضل ، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن في الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن في

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٣١١

النار لا تسع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسع كل الخلق ، ولم يحكم بعلمه فى هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً أنتمم فلکم كلکم أماكن فى الجنة . وعلى فرض أنكم - والعياذ بالله - كفرتم فلکم أماكن فى النار ، وسبحانه لن ينشئ شيئاً جديداً ، بل أعد كل شيء وانتهى الأمر .

وحين يأتى أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلن لأهل الجنة : أورتموها وخذوها أنتم :

﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الاعراف)

وهى ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها . فإياك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً لا . إنه العليم أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وسبحانه يعلم أزلاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذى يكون حجة على الخلق . وهنا فى الآية التى نحن بصددتها ثلاثة أشياء : أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن يستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون . ونحقق فيما تحقق منهما .

وجاء سبحانه فى مقدمة الإهلاك ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنْ

الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾

وهكذا نرى أن الإهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله .

نحن نعلم أن السنة هي العام . . . أي من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تطلق - أيضاً - على الجذب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه على قومه :

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »^(١)

أي أن ينزل بهم سبحانه بعضاً من الجذب ليتأدبوا قليلاً .

ويقال: « أسنت القوم » أي أصابهم قحط وجذب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجذب .

ولماذا سماها سنة ؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقها بالشر قليلة في الكون ، وسبحانه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يتليهم في لحظة ، فإذا ما ابتلاههم في وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا . فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المفجعة ؛ لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذى يعد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة التى عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء ؟ ونجد أن أيام الرخاء هي أكثر من أيام البلاء : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ .

وعرفنا أن السنين - كما قلنا - تعنى الجذب والقحط ، أما قوله سبحانه : « ونقص من الثمرات » فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، أو كان الجذب

(١) رواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى المنافقين ، وأحمد ١ - ٢٨٠ ، ٤٤١

والقحط في البادية ، أما « نقص الثمرات » فكان في الحضر ، ويقال: إن النخلة الواحدة في الحضر كانت لا تطرح في السنة إلا بلحة واحدة . ولماذا هذه البلحة ؟ لأن أسباب رحمته سبحانه يجب أن تبقى في خلقه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لا تقطع نسل النخيل ؛ لذلك يُبقى الله أسباب رحمته لنا .

إننا نرى في واقعنا أنهم مهما حاولوا أن يستزرعوا فواكه بدون بذور بواسطة التقدم العلمي المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا ؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الثمار بلا بذور ثم أكلناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً ؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق في استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الثمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تنضج بذرتها ، فأنت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها . لكن حين يسود بذرها ويكون صالحاً لأن تعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصير مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفي هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العصيين نجده سبحانه يستبقى الرحمة معهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ يعني أن على الإنسان أن يتذكر أنه الخليفة في الأرض وأنه غير أصيل في الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذي يفسد العالم أن الإنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، وسننها الكونية ويحرق ويبذر ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويستخرج المياه من الآبار ينسى أن كل ذلك « أسباب » ولا يتذكر المُسبَّب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال في حياتنا اليومية أن الإنسان منا إذا جاء ليفتح صنوبر المياه في البيت فلم يجد ماءً فيتجه أول ما يتجه إلى محبس المياه الذي يتحكم في مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سدد ، وإن وجده سليماً ، يبحث هل أنبوية وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أولاً ؟ وإن كانت ماسورة المياه سليمة فهو يبحث عن الخلل في

آلة رفع المياه ، ويظل يبحث في الأسباب الكثيرة ، وقد يمأ لم تكن المياه تأتي إلا من الآبار وعندما لا يوجد في البئر ماء يقول العبد : يارب اسقني . والحضارة الآن أبعدتنا بالأسباب عن المسبب .

والحق قد أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يلتفتوا إلى المسبب ويقولون : « يارب » ويقول القرآن عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالإنسان يذكر المسبب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات الحياة ، فإذا امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان : يارب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ليذكروا خالقهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَئِنَّا هَدَيْنَاهُ وَإِن تُصِيبْهُمْ

سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ

اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

والحسنة إذا أطلقت فهي الأمر الذي يأتي من ورائه الخير . ولكن الحسنة مرة تكون لك ، ومرة تطلب منك ، فالحسنة التي لك في ذاتك أولاً أن تكون في عافية وسلام ، ثم الحسنة في مقومات الذات ومقومات الحياة ، وهي في النبات ، والحيوان ، والخصب والثروة . والحسنة المطلوبة منك هي أيضاً لك . ف سبحانه يطلب منك عمل شيء يورثك في الآخرة حسنة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذه هي الحسنة التي تعطى الإنسان خيراً فيما بعد . إذن فالحسنة التي في ذاتك من عافية وسلامة أو في مقومات الذات من ثمرات وحيوانات وخصب وأعشاب وثرء فكلها موقوتة بزمن موقوت هو الدنيا . والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود . فأى الحسنات أرجح وأفضل بالنسبة للإنسان ؟ . إنها حسنة الآخرة .

وقوله الحق : ﴿ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴾ أى جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الرزق يقولون : « لنا هذه » أى أننا نستحقها ؛ فواحد يقول : أنا أستحقها لأننى رببت لها وأنقنت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون :

﴿ إِنَّمَا أَوْتَيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

وأجرى عليه الحق التجربة ، فمادام يدعى أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذى عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته . وهم قالوا عن الحسنات التى يهبها الله لهم : « قالوا لنا هذه » أى نستحقها ، لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج . وجرت العادة قديماً بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض ، ثم يذرون الحب وينتظرون الثمار . فإن جاءت لهم سيئة مثل أخذهم الله لهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى .

﴿ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٣١ سورة الأعراف)

فإذا ما جاءتهم سيئة يَطَّيَّرُونَ أى يتشاءمون لأن الطيرة هي التشاؤم ، وضده التفاؤل ، ويقال : « فلان طائرته نحس » ، و « فلان طائرته يمن وسعد » . وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويزجره ويشيره ، فإن طار يميناً فهذا فأل حسن ، وإن طار يساراً فهذا فأل سيء ،

والحق هنا يوضح : لا تظلموا موسى ، لأن شؤمكم أو حظكم السيء ليس من موسى ؛ لأن موسى لا يملك في كون الله شيئاً ، وإنما المالك للكون هو رب موسى . وكان الحق يريدهم أيضاً ألا يفتنوا في موسى إن صنع شيئاً يأتي لهم بخير ، وهنا يقول لهم لا تتطيروا بموسى ، لأن طائرکم من عند الله .

ولأن أحداث الحياة صنفان : حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذي لم يذكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة . وهنا لا غريم لهذا الإنسان ، بل هو غريم نفسه . وهناك شيء يقع عليك ، واسمه حدث قهري ، فالإنسان في الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره في شيء . وإما أحداث قدرية تنزل بالإنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإنسان ؛ لأن الإنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء ، وإلى عاجل الأمر فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر . ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل .

مثال ذلك : أن يكون للإنسان ابن نجيب وذكى وترتيبه دائماً من العشرة الأوائل ، ثم جاء في ليلة الامتحان أو في يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول : إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، وسبحانه منزّه عن العبث ، بل حكيم ولا بد أن له حكمة في مثل هذه الأمور . وبعد مدة تتبين الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين الحسود . وحدث له ما يكره ، فكأن الله يصنع له تميمة يحميه بها من الحسد . وقديماً حين كانوا يصنعون للطفل الجميل « فاسوخة » ، ولا يهتمون بنظافته ولا بملابسه ، لماذا ؟ يقال حتى لا تتجه إليه عين العائن الحاسد .

وأقول : وما الذي يدريك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطارئ لي رد عنه العين ، وُسكت الناس عنه ؟ وما الذي يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذي يدخله الكلية التي يريد بها ، ثم يستذكر في العام التالي وتكون المذاكرة سهلة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك

على أنك لم تنجح في العام السابق وأن الله أراد بك خيراً . . لتبذل جهداً وتنجح وتنال المجموع الذي أردته لنفسك .

إذن فالمقادير التي تجري على الناس بدون دخل لهم فيها ، فله فيها حكمة ، وهنا يقال : ﴿ طائركم عند الله ﴾ ، أما إن كان للإنسان دخل فيما يجري له فيقال : طائرك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك .

﴿ فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

ألم يتطير اليهود في المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجيء هذا الرجل ، ولم يفهموا حكم الله . لقد كانوا سادة في الجزيرة ؛ لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق التجارية ، وتعاملوا في الربا وتجارة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ، وأراد الله أن يشغلهم بأخذ شيء من أسياهم ويهد كيانهم ليلفتهم إلى أنهم خرجوا عن المنهج إلى أن هناك رسولا قد جاء بعودة إلى المنهج .

وقوله الحق : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يفيد أن هناك قلة تعلم . فما موقف هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة ؟ . كان موقفهم هو الصمت خوفاً من الطغيان ؛ لأن الطاغية أجبرهم وقهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على باطل ، ونرى في حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور ويعلمون الطغيان ولكنهم لا يتكلمون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا ۗ ﴾

﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

أى وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام : أى شىء تأتينا به من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك ، وسموا ما جاء به موسى « آية » استهزاء منهم وسخرية . وكل هذه مقدمات تبرر الإهلاك الذى قال الله فيه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وأعلنوا أن ما جاء به موسى هو سحر على الرغم من أنهم رأوا السحرة الذين برعوا فى السحر وعرفوا طرائقه وبدؤوا فيه سواهم قد خروا ساجدين وآمنوا ، كيف يحدث هذا والسحرة كلهم جُمِعوا إلى وقت معلوم ؟ وشهد كل الناس التجربة الواقعية التى ابتعلت فيها عصا موسى كل سحر السحرة فأمنوا وسجدوا ، فكيف يتأتى لمن لا يعرفون السحر أن يتهموا موسى بالسحر ؟ وكيف يظنون أن ما يأتى به من آيات الله هو لون من السحر ؟ . إنهم يقولون كلمة « مهما » وهى تدل على استمرارية العناد فى نفوسهم مثلما يقول واحد لآخر : لقد صممت على ألا أقبل كلامك ، فيكرر الرجل : انتظر لتسمع حجتى الثانية فقد تقنعتك ، فيقول : مهما تأتى من حجج فلن أسمع لك ، وهذا يعنى استمرارية العناد والجحود والتمرد ويقدمون حشيات هذا الجحود فيقولون :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ ، مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وإذا كانوا يظنون أن آيات الله التى مع موسى من السحر ، فهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ . ولو كانت المسألة سحرا لسحركم وانتهى الأمر . وقلنا قديما فى الرد على الذين قالوا : إن محمداً يسحر الناس ليؤمنوا به ، قلنا إذا كان هو قد سحر الناس ليؤمنوا به ، فلماذا لم يسحركم لتؤمنوا وتنفض المسألة ؟ إن بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحر .

وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرطاً ، وله جواب ، ويقول العلماء : إن أصلها « مه » أى كَفَّ عن أن تأتينا بأية آية فلن نصدقك . وهذا يعنى أن هناك إصراراً وعناداً على عدم الإيمان .
ويبين الحق عقابه لهم على ذلك :

فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ
وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

وكلمة « الطوفان » يراد بها طغيان ماء ، والماء - كما نعلم - هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بذاتها ، بل بتوجيهات القادر عليها ، وعندما ننظر إلى الطوفان الذي أغرق من قبل قوم نوح ، ولم ينج أحد إلا من ركب مع نوح في السفينة ؛ وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على طغيانهم . وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بنو إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقي فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ، ويظل هكذا ، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام ، لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بنى إسرائيل لا تلمسها المياه ، وهذه معجزة واضحة ، لقد عمّ الطوفان وأراد الحق أن ينجى بنى إسرائيل منه دون حيلة منهم حتى لا يقال آية كونية جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة ، لكن الطوفان جاء لبيوتهم ولم يلمس بنى إسرائيل .

وقال الرواة : إن الطوفان دخل على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى ، وقال له : كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان . لكنهم عادوا إلى الكفر .

وجعل الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح ربنا : أنا عذبت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعطينا ملامح نشعرنا بصدق القضية ، فيهبط السيل في أى بلد ويهدم الديار ويغرق الزرع والحيوانات ، لنرى صورة كونية ، وكذلك الجراد يرسله الله على فترات فيهبط في أى وقت من الأوقات ، ونقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التى حكى الله عنها ، فلو لم يوجد جراد ولا طوفان لكنا عرضة ألا نصدق . وابتلاههم الله بالقمل كذلك .

« وَالْقُمَّلُ » هو غير القُمَّل ، فالقُمَّل هو الآفة التي تصيب الإنسان في بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذي يصيب الحبوب ، ومفردھا قُمَّلة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التي تهلك النبات والحرث ، وحيمين نراه نخرج ونبحث عن تخلص الزرع منه باليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للمخلوق ، وهي مجرد تنبيه وإرشاد ولُغَتُ للالتفات إلى الحق .

وكذلك يرسل الله عليهم « الضفادع » ، وعندما يضع أى إنسان منهم يده في شيء يجد فيها الضفادع ؛ فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والسيارة التي يشربها يجد فيها الضفادع !! وإن فتح فمه تدخل ضفدعة في الفم !! . فهي آية ومعجزة ، وكذلك « الدم » ، فكان كل شيء ينقلب لهم دماً .

ويقال: إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بني إسرائيل وقالت لها : خذى الماء فى فمك ومُجِبه فى فمى ، كأنها تريد أن تحال على ربنا وتأخذ مياها من غير دم ، فينتقل من فم الإسرائيلية وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التى هى من قوم فرعون صار دماً .

﴿ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة الاعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ مفصلات ﴾ أى لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعة مع بعضها البعض لتفزعهم دفعة واحدة وتختبرهم أيعلمون الإيمان أم لا ؟ بل جاء سبحانه بكل آية مفصلة عن الأخرى ؛ فلا توجد آية مع آية أخرى فى وقت واحد ، أو جاء بها علامات واضحات فيها مواعظ وعبر ، مما يدل على موالاته الإنذارات للرجبة فى أن يذكروا ، وأن يرتدعوا ، فلماذاذكروا وارتدعوا من آية واحدة يكف عنهم سبحانه البأس .

وأرسل سبحانه الآيات وهى : طوفان ، جراد ، قمل ، ضفادع ، دم ، هذه آيات خمس فى هذه الآية التى نحن بصدد غواظرها عنها ، ومن قبل قال الحق إنه

أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الايات سبباً ، ومن قبل كانت عصا موسى التي تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثمانى آيات ، وكذلك اليد البيضاء ، التي أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العلاء تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هي : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات .. هي عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلطها الله على من يريد إذلاله ، ويبتلى الله بها نوعاً من الناس ولا يبتلى بها قوماً آخرين . فماذا كان موقفهم من الآيات العجائب ؟ نجد الحق يذيل الآية : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرِمِينَ ﴾ . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا في حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَاهَدْتَ عِنْدَكَ لِيَن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (١٦٢)

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذي عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون في عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقيدية هي أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبول الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطى الإيمان بالله .

﴿ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة الأعراف)

أى ادع ربك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسوله المؤيد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ماجئت به ولنرسلن ونطلقن معك بنى إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم فى أخط وأرذل الأعمال ، ولكنهم فى كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ
هُم بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ ١٣٥

فكان لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين : بين قوله الحق : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ وبين قوله السابق : « ادع لنا ربك بما عهد عندك لأن كشفنا عنا الرجز ﴾ ، فمن إذن يكشف الرجز؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يعرفها الحق ، فهو القائل : ﴿ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ . والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه :

﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ١٣٦

ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب في ذواتهم ، وفي مقومات حياتهم ، وفي معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا ؛ لأنه لا فائدة منهم ؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قدرة ، بل عن عدالة تقدير ؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم . ويلاحظ هنا أن أهم ما في القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث الذي جاء في سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق ؛ لأن كل آية في القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج لقطه من اللقطات ؛ لأن القصة تأتي بإجمال في موضع وبإطناب في موضع آخر ، وهنا يأتى موقف الإغراق بإجمال : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ﴾ .

وكلمة « فأغرقناهم » لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرضاً آخر في سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : ﴿ إنا لمدركون ﴾ . مدركون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله علم أن الله لن يخذله ؛ لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام ممثلاً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه :

﴿ كَلَّا ۚ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

هو يقول : « كلاً » أى لن يدركوكم لا بأسبابه ، بل بأسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحيثيتها معها وقال : ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذى أوى إلى ركن شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهى عند هذا الوضع ؛ لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : « كلاً » بملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوع بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأتبع ذلك بقوله : ﴿ إن معي ربي

سهيدين « بالحفظ والنصرة . . . أى أن الأسباب التى سبق أن أرسلها معى الله فوق نطاق أسباب البشر ، فالعصا سبق أن نصره الله بها على السحرة ، وهى العصا نفسها التى أوحى له سبحانه باستعمالها فى هذه الحالة العصبية قائلاً له :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

ونعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التى تعينه على الاستطراق ، ولو لم يكن الماء سائلاً ، وبه جمود وغلظة لصار قطعاً غير متساوية ، ولكن الذى يعينه على الاستطراق هو حالة السيولة ، ولذلك حين نريد أن نضبط دقة استواء أى سطح نلجأ إلى ميزان الماء .

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة وفقد قانون الاستطراق ، ويصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ . أى صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد فى الجبل الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سنة كونية ، والذى خلق هذه السنة الكونية هو الذى يستطيع أن يبطلها . وحين سار موسى وقومه فى اليابس ، وقطع الجميع الطريق الموجود فى البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون وجنوده ، وهذا تفكير بشرى أيضاً ، ويأتى لموسى أمر من الله :

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى اترك البحر ساكناً على هيئته التى هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُغرى الطريق اليابس

فرعون وقومه فيأتوا وراءكم ليلحفوا بكتم ، فإذا ما دخلوا واسترحبهم اليباس ؛ أعدنا سيولة الماء واستطرقه فيغرقون ؛ ليثبت الحق أنه ينجي ويهلك بالشئ الواحد ، وكل ذلك يجمله الحق هنا في قوله : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ﴾ . و « اليم » هو المكان الذي يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً في قصة أم موسى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا غَفَّتْ عَلَيْهِ فَالْتَقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا في سورة الأعراف هو البحر . ويأتي سبب الإغراق في قوله : ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

كيف إذن يعذبهم ويفرقهم نتيجة الغفلة ، ونعلم أن الغفلة ليس عليها حساب ؟ بدليل أن الصائم قد يغفل ويأكل ويصبح صيامه . ويقال إن ربنا أعطى له وجبة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه غافل . لكن هنا يختلف أمر الغفلة ؛ فالمراد بـ « غافلين » هنا أنهم كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعراضاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمنهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ثم يأتي بعد ذلك القول الذي يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ وَاسْتَخْلَفْنَا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ويقول الحق تأكيداً لذلك :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾

مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
 وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ
 وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أى صارت مصر والشام تحت إمرة بنى إسرائيل ، وهى الأرض التى باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شىء من مقومات الحياة ، وترف الحياة : ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أى استمرت عليهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل فى الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة ؛ لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه التى جاءت على لسان موسى :

﴿ وَاسْتَخْلَفْنَا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

ونعلم أن كلمة « مشرق ومغرب » تقال بالنسبات ، فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاهات نسبية ؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له « مغرب » بالنسبة لمكان آخر . وحين ينتقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر . وعلى سبيل المثال نجد من يسكن فى الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن

يسكنون أوربا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء « بالمشرق والمغرب » بصيغة الجمع كما هنا فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً ؛ فإذا غربت الشمس في مكان فهي تشرق في مكان آخر . وفي رمضان نجد الشمس تغرب في القاهرة قبل الإسكندرية بدقائق .

ونعلم أن سبب هذه الدورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله في كل أوقات الله ، مثال ذلك حين نصلي نحن صلاة الفجر نجد أناساً يصلون في اللحظة نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون صلاة المغرب ، وغيرهم يصلي صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله في أن هناك عبادة في كل وقت وفي كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً « الله أكبر » لينادي لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : « الله أكبر » منادياً لصلاة الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف في المطالع أراد به سبحانه أن يظل اسمه مذكوراً على كل لسان في كل مكان لتعلو « الله أكبر ، الله أكبر » في كل مكان .

وأنت إذا حسبت الزمن بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من « لا إله إلا الله » أبدأ : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ . ونعلم أن كلمة « الحسنى » وصف للمؤنث ، و« كلمة » مؤنثة ، والكلمة هي قول الحق :

﴿ وَزَيْدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الدِّينِ اسْتَضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَجَعَلَهُمْ

الْوَارِثِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿

(سورة القصص)

لقد قال الحق القصة بإيجاز ، وهذه هي التي قالها ربنا وهي كلمة « الحسنى » لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنقاض العدو ، فهي نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن جعلهم أئمة وهداة وورثهم الأرض : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ . وهم بالفعل قد صبروا على الإيذاء الذي نالوه وذكره سبحانه من قبل حين قال :

﴿ يَسْأَلُونَكَ سِوَةَ الْعَذَابِ يُذِخُّونَ أَبْنَاءَ كَرٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كَرٍّ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

وجاء عقاب الله لقوم فرعون :

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

والندمير هو أن تدك شيئاً وتخربه ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقياً في الآثار التي تدلك على عظمة ما فعلوا ، وتجد العلماء في كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة . ومن العجيب أن كل كشف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أترى جاء من فوق الأرض أبداً .

وكلمة «دمرنا» تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعرية لتغطيها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطينا نوع ما عجزوا ؛ كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة في وادي الملوك ، وكانت مغطاة بالتراب بفعل عوامل التعرية التي تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن غبت عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر ، ثم تعود فتجد التراب يغطي جميع المنزل والأثاث ، كل ذلك بفعل عوامل التعرية التي تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التي تثبت الأرض نجد طرق القرية التي تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل له قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعلو ، وكل ذلك من عوامل التعرية التي تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالتنقيب ، إذن فكلمة «دمرنا» لها سند . والحق يقول عن أبنية فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَانِ ﴾

(سورة الحجر)

ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف تماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء

الهرم قد تم بأسلوب تفرغ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون الصخرة التي علي قمة الهرم . إذن فقد كانوا علي علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثاراً وتحنيطاً لجثث القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن القائمين به كانوا من الكهنة المنسوبين للدين ، لتأكدنا أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال الدين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد حُرِّف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو الذي هدى الناس من أول الخلق إلى واسع العلم .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَيْسَ بِرُحْمًا ذَاتَ رِجْمٍ ﴿١٧٧﴾ وَكَلِمَاتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

« يعرشون » أي يقيمون جنات معروشات ، وقلنا من قبل : إن الزروع مرة تكون علي سطح الأرض وليس لها ساق ، ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له عريشة أو كما نسميه نحن التكعيبية لتحملة وتحمل ثمره .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغمورين في نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلاقاً في الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طلوعوا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حسدوا من يجهلون قيمة الإيمان ويعكفون على عبادة الأصنام ، ويعكف تعنى أن يقيم إقامة لازمة ، ومنه الاعتكاف

فى المسجد ، أى الانقطاع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبادة الله فى بيته .

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأعراف)

وهذا القول من قوم موسى هو قمة الغباء ، كأن الإله بالنسبة لهم مجهول على رغم أنه قد أُسبغ عليهم من النعم الكثير ، وهذه أول خيبة ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكمالاته وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقليتهم لم تستوعب النعم الغامرة وقلوبهم مغلقة لم يعمها الإيمان . وقالوا : اجعل لنا إلهاً ! وأرادوا أن ينحت لهم الأصنام ، وقد يقول واحد منهم : رأس الإله كبيرة قليلاً صغرهما بعض الشيء ، وأنفه غير مستقيمة فلنعد لها بالإزميل ، وقولهم : ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإيمان ؛ لذلك يقول لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ .

ولم يقل لهم : « لا تعلمون » بل قال : « تجهلون » لأن هناك فارقاً بين عدم العلم بالشيء ، وبين الجهل بالشيء ، فعدم العلم يعنى أن الذهن قد يكون خالياً من أى قضية ، أما « الجهل » فهو يعنى أن تعلم مناقضاً للقضية ، إذن فهناك قضية يعتقدها الجاهل ولكنها غير واقعية . أما الذى لا يعلم فليس فى باله قضية ، وحين تأتى له القضية يقتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمى مثلاً الذى لا يعلم ، لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذى يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما فى نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطى له القضية الجديدة ، إن الذى يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمى حين تعطى له المعلومة فليس عنده ما يناقضها . لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِن هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا هِمَّ فِيهِ وَيَبْطُلُ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾

و «مُتَبِّرٌ» أى هالك ومدمر ، وهنا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التي تعبد الأصنام ؛ وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها فلا بد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يُستقرأ ، ومثال ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طلب من كل واحد على انفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف فى الوصف لأننا نستوحى واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعة فكل واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضى يحاور الشهود محاورات ليتين ما يشتون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يستوحون حقيقة واقعة ، فلن يختلفوا فى روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربى يقول : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » أى إن كذبت - والعياذ بالله - وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تتذكر كذبتك ، وأنت لن تتذكرها لأنها أمر متخيل وليس أمراً ثابتاً . وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولمعاناً فنقول : إياك أن تغتر بهذه الزهوة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ ﴿١٣٧﴾

(سورة الرعد)

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو السائل أو الماء من الرغوة والقش والمخلفات التى تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى . ونحن نختبر المعادن لنعرف هل هى مغشوشة أولاً . . . ونعرضها على النار ، فيطفو ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى فى القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : لبقية الجوارح ، وكل الأحداث ناشئة عن قول أو عن فعل ، والقول والفعل معاً هما « عمل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ لَوْ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل .

وقوله الحق : ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ إن الأصنام التي كانوا يصنعونها ويعبدونها ، كانت تقوم على أقوال وأفعال ، كأن يقولوا : يا هبل ، يا لاث ، يا عزى ، ويناجون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقفون أمامها صاغرين أذلاء ، إذن فقد صدر منهم قول وفعل يضمهما معاً العمل .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ أَعْبَدُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْهَا وَهُوَ

فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ ، ثم قال : ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام

من دون الله إنما يفعلون باطلاً ؛ فقال : ﴿ قال أغير الله أبعيكم إليها وهو فضلكم على العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ أغير الله ﴾ أى أن الإله الذى عرفتمه بالخبرة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعدوكم الذى استذللكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلبوا رباً غيره ؟

وقوله : ﴿ قال أغير الله أبعيكم ﴾ أى أطلب لكم إليها غيره ؟ وفى سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم بقمة التفضيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى :

﴿ وَإِذْ أَجَبْنَاكَ مِن آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ
سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَ كُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُمْ
وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ لِّمَن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

وإذا سمعت « إذ » فافهم أن معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، و « إذ » يعنى اذكروا جيداً ولا يغيب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشدته .
ويقول بعدها مبيناً ومفسراً ذلك العذاب : ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ .

ونلاحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب ؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هى تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفى آية ثانية يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفى آية ثالثة يقول :

﴿ إِذْ أَنْجَيْتُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدُبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة إبراهيم)

لقد جاء بـ « الواو » هنا للعطف . لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقرعة النعم . لكن : ﴿ إذ قال موسى لقومه اذكروا ﴾ ، فموسى يمتن بكل النعم التى ساقها الله إلى بنى إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر فى الهم والحزن على من يستبقى من النساء لاستباحة أعضائهن وامتهانهن فى الخدمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ
فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ
هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٦﴾

وعلمنا من قبل فى مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالى ،

سُورَةُ الْاِخْرَافِ

٤٣٥

والثاني تفصيلي ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه في سورة البقرة يقول :

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

جاء بها هناك بالإجمال . ولكنه شاء هنا في سورة الأعراف ألا يأتي بها مرة واحدة مجملة . بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمها الحق بعشر آخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال . لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحتمل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال .

وضربنا من قبل المثل في خلق السماء والأرض في ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتي بخير الستة الأيام وهي مجملة . لكنه شاء سبحانه في موضع آخر بالقرآن أن يقول :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كَفُورُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها في ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٣﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾

(الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ سورة فصلت)

وهنا في موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل في ظاهر

الأمر بإيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكى أنها ستة أيام فقط .

فهل هي ستة أيام أو ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه في بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا في ساعتين ، وإلى الإسكندرية في ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا في الثلاث الساعات : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إنجاء بني إسرائيل أنه - سبحانه - سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، في مدة الثلاثين يوماً ولم يثبأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر آخر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ؛ لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنه ويشتمد عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبني إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفي ذلك يقول الحق على لسان هارون :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝۱۱﴾

(سورة طه)

فكان العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة في سورة البقرة .

وهنا يقول الحق في سورة الأعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۝۱۶﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

و « اخلفني » أي كن خليفة لي فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون بامتداد إرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التي تجمع بين موسى وهارون :

﴿ إِنَّا رُسُلًا رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة طه)

لأن كلا منهما رسول ، وقول الحق : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ فيه التحنن ، أى أننى لى بك صلة قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لى ، ومن حقى عليك أن تسمع كلامى وتحلفنى . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معى فى الرسالة ، إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومى » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهياً فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولا بد أن يكون الإعداد بطهر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوضح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل على بريح المسك فزد عشرة أيام ؛ حتى تأتى كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولا بد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الاعراف)

وهنا أمر ونهى « أصلح » هى أمر ، و« لا تتبع » هى نهى ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة فى « افعل كذا » ، و« لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلا بد أن يكونوا صالحين أيضاً للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل أن الله ركز كل التكليف فى مسألة آدم وحواء فى الجنة فقال : ﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهى : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

وكلمة « أصلح » تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء أن يزيد فيه صلاحاً فليفعل . وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لأنه قول موجه لنبي وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكن موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكان موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألا يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك سيقول هارون بعد ذلك مبرراً تركه بنى إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده في منعهم وإنذارهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه .

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

(من الآية ٩٤ سورة طه)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرِ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنُنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

والميقات هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال ، ونسميه وقت العمل . وغلب على أشياء في الإسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظرف فيهما ، أى يكونان ظرفاً له ؛ فلا بد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف الزمان ، وظرف المكان . إلا أن ظرف الزمان غير قار أى غير ثابت ؛ فقد يأتي الصبح ويذهب ويأتي بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .

والمواقيت - إذن - إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة « الصوم » لها زمن محدد وهو رمضان . فالذى يتحكم فى الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث فى أى مكان . وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضاً الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس فى أى مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحاج . ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معاً . والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما يسمى بالميقات المكانية ولكل أهل جهة ميقاتهم المكانية الذى يطلب منهم ألا يمروا عليه إلا وهم محرمون . فمرة يتحكم الزمان ، ومرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معاً .

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى للميقات أو جاء فى الميقات ؟ لقد جاء فى الميقات ، واللام تأتى بمعنى « عند » . ونعلم أن « اللام » تأتى بمعنى « عند » كثيراً فى القرآن ، مثل قوله :

﴿ أقم الصلاة لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

أى أقم الصلاة عند دلوك الشمس أى عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل . ومن الدلوك إلى الغسق نجد صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقى الفرض الخامس وهو الفجر ، وقال فيه الحق :

﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

ولماذا بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة فى المعراج ، فكانت أول فريضة هى الظهر ، وكان الحق يعنى خذ الغاية وخذ البداية ، وكانت البداية هى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقى الفجر ،

وجاء فيه : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوع .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (١٩)

(سورة الإسراء)

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ .

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : ﴿ وكلمه ربه ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال في مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلاماً عاماً :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَّرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ

بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

وفي هذا نفى أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث : الوحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحي بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى في قلب النبي دفعة ، مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يراد بالوحي الإلهامات ؛ مثل الوحي إلى أم موسى ، والوحي إلى المحاوريين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحي : التسخير ؛ كالوحي للأرض ، والنحل .

وبعد ذلك . . « أو من وراء حجاب » أي أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، « أو يرسل رسولاً » هو جبريل عليه السلام . والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات .

وهنا في كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه غيب لم يكشف لنا عنه وترك الأمر فيه لله .

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها في البشر . فليس وجود الإنسان كوجود الله ، وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ، لأن كل شيء يخص الله إنما تأخذه في إطار « ليس كمثلته شيء » . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأعراف)

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد في البشر ، ويوجد مثله . في وصف الله مثل « استوى » ، و « جلس » و « وجه » ، و « يد » نأخذ كل ذلك في إطار « ليس كمثلته شيء » .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَبْصُرَ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وحينما خصص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراف اصطفاي ، وكأنه قال لنفسه : مادام قد كلمني فقد أقدر أن أراه ؛ لأن استطابة الأنس تمد للنفس سبل الأمل في الامتداد في الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله :

﴿ وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ (١٧)

(سورة طه)

كان الجواب يكفى أن يقول : « عصا » لكنه قال :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟ وأراد بالكلام أن

يطيل الأنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال . والله المثل الأعلى - نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إناساً له . وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرت نفسه أن يراه : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ﴾ .

لم يقل موسى : أرني ذاتك . بل قال : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشيئة الحق . وقدم موسى الطلب معلقاً بمشيئة الله وإرادته ؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله ؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى في الوحي والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفى من الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفى من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل الناس كلام الله ؛ لأن الصفات الكمالية العليا الخالقة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق .

ضربنا المثل من قبل - والله المثل الأعلى - بصناعات البشر ، وأن الإنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأي شيء ، فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يحطم الأشياء التي هي أقل منه أو تحطمه الأشياء التي هي أكثر صلابة منه ؛ وإن اصطدم بشيء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد ينكسر الإنسان . ولذلك ترك الإنسان في البيت شيئاً من النور الضئيل ؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيضع ما نسميه « الوناسة » قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود في المنزل ؛ لأنها تفسد فوراً ، لذلك يأتي لها بمحول يأخذ من القوى ويعطى الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذي لا يأخذ من القوى إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الوساطة من البشر اصطفاً ومن الملائكة اصطفاً ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطى مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطى المصطفى من البشر للبشر . كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطى الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين

تبرزون في الآخرة وتعدون إعداداً آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته :
﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

ولا يستوى الناس في ذلك ؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ،
أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق . يقول تعالى في شأن الكفار : ﴿ كلا إنهم
عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فلا يستوى المؤمن والكافر في هذه الحالة ، فمادام
الكافر محجوباً فالمؤمن غير محجوب ويرى ربه . وقال موسى : ﴿ رب أرني أنظر
إليك ﴾ . قال الحق : ﴿ قال لن تراني ﴾ .

وفي اللغة نجد أن « لن » تأتي تأييدية ، أي تؤيد المستقبل أي لا يحدث
ولا يتحقق ما بعدها . فهل معنى ذلك أن قول الحق : ﴿ لن تراني ﴾ أن موسى
لن يرى الله في الدنيا ولا في الآخرة ؟ . ونقول : ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن
الدنيا ؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ^ط وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفي أن أهل الجنة
سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجيء « لن » في قوله
الحق : ﴿ لن تراني ﴾ تأييدها إضافي ، أي بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة
موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه :

﴿ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلِمَا يُجَلَّى رَبُّهُ لِجَبَلٍ

جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح : لن تراني ولكن حتى
أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكثك من رؤيتي أنظر إلى الجبل ، والجبل
مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك ؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك
أن تراني . إن الجبل بحكم الواقع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من

الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل اندك . والدك هو الضفط على شيء من أعلى ليسوى بشيء أسفل منه . والحق هو القائل :

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾

(سورة الفجر)

وهنا في موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلّى على خلق من خلقه ، ولكن أيقدر المتجلّى عليه على هذا التجلّى أم لا يقدر ؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلّى له ربه اندك ، إذن فمن الممكن أن يتجلّى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلّى أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلّى لله بدليل أن الأقوى منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية . ويبين لنا أن موسى قد صعق لرؤية المتجلّى عليه فكيف لورأى المتجلّى ؟ !! ﴿ فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ﴾ . ويقال : خر الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق في آية قرآنية :

﴿ وَظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ لَنَنَّهُ فَاسْتَفْزَرُوا بِهِمْ وَخَرُّوا كَمَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة ص)

والحق يخبرنا هنا : ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ، وصعقه تطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماء الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

إذن النفخة الأولى لصعق وموت الجميع ، ثم تأتي النفخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما أفاق قال سبحانه تبت إليك ﴾ . وهذا يدل على أن الصعقة ليست هي الصعقة المميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، وأنتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : « فلان فاق

لنفسه ، وهذا أفانق ، موسى على عاجبين الثقلين ، أفانق من الغشبية التي حصلت له من الصعقة ، وكأنه تساءل : لماذا انصعقت ؟ لقد انصعقت لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : ﴿ فلما أفانق قال سبحانه ﴾ ، وساعة تسمع كلمة « سبحانه » اعرف أنه يراد بها التعزيبه لله من الحدث الذي نحن بصددوه وهو رؤيته = تعالى = أي تزيها لك يارب أن يراك مخلوقك ؛ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئي ، ومعنى : رأيت الشيء ، أي أن عين البشر قد قدرت على الشيء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعني أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً ؛ لأن المقدور لا يتقلب قادراً ، والقادر لا يتقلب مقدوراً .

﴿ فَلَمَّا أَفَانِقَ قَالَ مُبَحَّثَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لقواميس الكون ، وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التي يعطيها الله له ويندفع بفيض جوده لا يبذل مجهود ؟ .

ويقرر موسى ويقول : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ، أي بأن ذاتك = سبحانه - لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الحاضر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال : ﴿ سبحانه تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحت الحق له : لا تلقت إلى ما منعك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك :

﴿ قَالَ يَمْسُونَ إِنِّي أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي

وَبِحُكْمِي فَخُذْ مَاءَ التَّيْتِكِ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

والاصطفاء هو استخلاص الصفة ، وقوله : ﴿ اصطفتك على الناس ﴾ تعبير

فيه دقة الأداء لأنه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد في دائرة الاصطفاء البشري : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي ﴾ . ولقائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة آل عمران)

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة منفردة ، وبين اصطفاء في رسالة ومعها شيء زائد ، وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - فإذا جئت كمدرس لتلاميذ وأعطيت واحداً منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثاني قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر باجتماع قلم وزجاجة حبر في هدية واحدة . والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرف الكلام : ﴿ اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي ﴾ .

وعرفنا من قبل أن « رسالتي » هي في مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة في النزول ، فكان كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخير رسالة ، فهي رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين :

﴿ قَالَ يُمُوسَىٰ إِنَِّّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي نَحْنُ مَاءَ آتَيْنُكَ وَكُنْ مِنَّا ﴾

الشَّكْرِينَ ﴿١١١﴾

(سورة الاعراف)

أى لا تنظر إلى ما منعتك ، بل اذكر أنى اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لى هذا . ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقى له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفائل ينظر إلى الكوب الذى نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب ملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، وبرغم أن كلا منهما

يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل نظر إلى ما بقى من نعم الله .
 إننا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموي في دمشق وجرحت رجله في أثناء
 السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عناية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا
 له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً أى دواء
 تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإنى لا أريد أن أغفل عن ربي لحظة
 عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنها ، فقال هاتوها . فأحضروها له وأمسك بها
 وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو فقد عافيت في أعضاء .
 هذه نظرة المؤمن الذى لا ينظر إلى ما أخذ منه ، بل ينظر إلى ما بقى له .
 وكذلك كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أنى
 منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ
 قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٤٥)

والكتب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أى
 شىء ، وعندما يقول ربنا : ﴿ وكتبنا ﴾ فالله لم يزاول الكتابة بنفسه ، ولكن رسله
 من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يس)

وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هى بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى
 الأعلى ، أو ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل
 شىء موعظة وتفصيلاً ﴾ .

ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً . وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أي شيء مسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المسبوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جداً لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يسمونه لوجاً .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ من كل شيء ﴾ يعني : من كل شيء تتطلبه خلافة الإنسان في الأرض في الوقت المناسب له ؛ فالرسل تأتي بعقيدة ، لكن قد يأتي تشريع مناسب للفترة الزمنية التي جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتي من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب في الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعني ألا تنسى ، حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما علم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذي لا ينسى ، مسائل جديدة . بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة ﴾ أي أن الكلام لم يأت مجملاً ، بل يأتي بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التي في الألواح بقوة . ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابه ما ألف ، وحين يُنهى نهياً قد يكون هذا النهي مخالفاً لرتابه ما ألف . وبذلك ينزع هذا النهي أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف ، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان في هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تتغلب على الشهوة الرتبية التي

تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن المنهج سوف يخرجك مما ألف ، ولا بد له أن يقبل على المنهج بقوة وعزم ليواجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : « افعل » وعلى المؤمن - إذن - أن يأخذ التكليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق متع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطي متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطي للمؤمن نفعاً يتناسب مع طلاقة قدرة الله في النفع . إذن لا بد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك في المنهج ، بل معك غيرك . فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أبحد المنهج حريتي ؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدى عليك آخرون ؛ فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب في هذه الحالة . ويتابع الحق بيان ما في الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهي « حسن » ؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابته مصيبة من أحد يعتبره غريباً له ، فإذا ما كان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به . وهذا ما يبيحه الله في القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يعفو ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره مادامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « الأحسن » ، وجاءت هذه الترتيبات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق في الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة في حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز . كيف ؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ، ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل

بقاء النوع . لكن لا يصبح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع في أعراض الناس وانتهاك حرمانهم ، وحب الاستطلاع غريزة ، والذين اكتشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود . لكن لا يصح ولا ينبغي أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستدلالي .
إن للإنسان غرائز يعليها الشرع ؛ أما الحب فهو مسألة عاطفية . فالمشرع ، يقول لك : أحب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلم من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت .

ولنا في رسول الله أسوة حسنة حين قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين »^(١) .

فقال عمر : كيف ؟ .

وكررها رسول الله فعلم عمر - رضى الله عنه - بفطرته أن ذلك أمر تكليفي . وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلي . فيقول المؤمن لنفسه : من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكل مؤمن يحب رسول الله حباً عقلياً ، وقد يتسامى إلى أن يصير حباً عاطفياً . والإنسان منا - كما قلنا سابقاً - يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مرٌّ ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتي له به .

إذن التكليف يتطلب الحب العقلي . ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عندما مرَّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : ازو نفسك عنى فانا لا أحبك ، فرد الرجل بكل جرأة إيمانية : أو عدم حبك لى يمننى حقاً من حقوقى ؟ . قال عمر : لا ، قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

والحق يقول هنا : ﴿ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ فمثلاً ، حين يُقْتَلُ إنسان فلولى الدم أن يقتص ، لكن الحق يحزن قلب ولى الدم على القاتل فيقول :

﴿ فَمَنْ عُنِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدىء من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة . ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجيء أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك فى المرض ؟ ومن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انفعالك ؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ أى مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . ونلاحظ أن الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام » ؛ لأن لك غريماً يهيجك ساعة أن تراه ، وفى الآية التى نحن بصدد خواتمها عنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وأمر قومك ياخذوا بأحسنها ﴾ .

يعنى إذا وجدت لهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن ياخذوا بالأحسن ، لماذا ؟ ؛ لأن الإنسان إذا رُوِّضَ نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسيء إليه ، فعليك أن تراعى فى ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقوله الحق سبحانه :

﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

ولكن مَنْ منا يتصف بالدقة في الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى ؟ فإن كان هناك من صفحك وتريد أن ترد الصفحة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذي في صفعتك له ؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة . إذن لماذا تدخل نفسك في متاهات ، ولماذا لا تعفو وينتهي الأمر ؟

وحين يدلك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهي شراسة النفوس وضغن الصدور . فحين يقتل إنسان إنساناً آخر ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا ولىّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من ولىّ الدم فيستحي القاتل - بعد ذلك - أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد ولىّ الدم أو من ينسب إلى ولىّ الدم ، وحينذاك تنتهي أى ضغينة أو رغبة في الثأر ، ولذلك نجد البلاد التي تحدث فيها الثارات وتستشرى فيها عادة الأخذ بالثأر - مثل صعيد مصر - نجد القاتل إذا ما أخذ كفته على يده ودخل على ولىّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه ولىّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من ولىّ الدم ، وتصفى الثارات وتنتهى . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : ﴿ وأمر قومك بآخذوا بأحسنها ﴾ . ومثال آخر على الأخذ بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفى الدين ، هنا نجد الحق يقول :

﴿ فَظَنِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

اقترض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهو عكس السؤال الذي قد يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقرض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشيء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض تتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

إذن فهناك حَسَنٌ وهناك أَحْسَنٌ ، الحَسَنٌ هو أن تأخذ حَقَّك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا

المثل والأسوة في سيدنا الحسن البصرى - رضى الله عنه - الذى أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعل الله فى جانبنا » . ودائماً أضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أسىء إليه ، وكذلك الأمر فىنا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله ؛ نجد رب الخلق مع من أسىء إليه ، وعلى من أسىء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذى أساء إلى قد جعل ربنا فى جانبى ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الزمر)

وفى آية ثانية يقول الحق :

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الزمر)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرتنا عنها بقوله : ﴿ سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ودار الفاسقين هى النار ، وكان الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتى سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبتعد عن كل أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبنى إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكان الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا المآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ معناه حملهم على ما فى الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل الله . أو ﴿ دار

الفاسقين ﴿ هي المدائن التي دمرت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تمرون عليها في الغدو والرواح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ
يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾

والآيات جمع آية وهي الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول في البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعتبار في آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق سيظل كيدهم في أن يتجهوا للحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .

إذن وجه الصرف أن يسלט الحق عليه من الكبر ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة ، ومقومات الكبر قد تكون قوة ، لكن ألم ير المتكبر قوياً قد ضعف ؟ وقد يكون الثراء من مقومات التكبر ، لكن ألم ير المتكبر غنياً قد افتقر ؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم ير المتكبر ذا جاه صار ذليلاً ؟ .

إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاق لا يُسَلَّب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً ؛ لأنه لا يوجد في الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغيار التي تحدث وقد تزول . فكلها من الله وليست أموراً ذاتية ؛ لأن القوة فيك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الثراء ذاتياً فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن فمقومات الكبرياء في البشر غير ذاتية .

وقوله سبحانه : ﴿ يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك فالكبرياء لله وحده . واعلموا أن كل متكبر في الأرض لا يخطر الله بباله ؛ لأنه لو خطر الله بكامله وجلاله في باله لتضاءل ؛ لأن الله يخطر فقط ببال المتواضعين من الناس ، ولذلك نضرب هذا المثل : إننا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومرؤوس لآخر ، وهناك مرؤوس فقط . والرئيس المرؤوس لا يستطيع أن يجلس مع المرؤوسين له بتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطى أوامر ؛ لأنه قد يلتفت فيجد رئيسه وقد دخل عليه . فلو فعل الرئيس المرؤوس ذلك لضحك منه المرؤوسون له . فكذلك الناس الذين لا يستحضرون الله في بالهم نجدهم مثار سخرية ، لكن الذين يستحضرون الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر في الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطلع على قلوبهم ، فما بداخل هذه القلوب من الكفر

لا يخرج ، وما فى خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم فى الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته فى الكون .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآءِىَّةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينبى عن السيئات وهم لا يقدرّون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذى يجرمه من شىء ليعطيه أشياء أئمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلاحظ أن كلمة السبيل تأتى مرة كمذكر كقوله ؛ ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ ، ومرة تأتى مؤنثة ، فالحق يقول : ﴿ قل هذه سبيل ﴾ .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الغى من أهل الكبر : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ . وقديماً قلنا إن الغفلة لا توجب الجزاء عليها ؛ لأن الغافل ساهٍ وناس ، ولكن هؤلاء صدفوا عن الأمر صدوفاً عقلياً مقصوداً ، لدرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أى التفات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
حَاطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾



وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ . ويقول أيضاً : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

إذن فالمسألة كلها مناطها في الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صدق مَنْ أرسل من الرسل ، والقرآنية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْأَٰخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأعراف)

ويقال: حبط الشيء أى انتفخ وورم من علة أو مرض . أى أنهم فى ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حسنة ولكنها فى الواقع أعمال باطلة وفسادة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس فى باله أنه يفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشهرة لينتشر ذكره ويذيع صيته ويشى الناس عليه ، أو للنجاه والمركز والنفوذ . ولذلك حين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد ؟ . قال :

« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »^(١) .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليفتخر به . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ونقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت فى بهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس فى بهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم فى الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۗ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ۗ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

فمن زرع وأحسن اختيار البذور ، واختيار التربة وروى بنظام يأتي له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب ، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكل من خلق الله ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاصياً أو طائعاً ، لكن عطاء الألوهية يكون في اتباع المنهج بـ « افعَل ولا تفعل » وهذا خاص بالمؤمنين ، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة في السنن الكونية . يأخذون حظهم منها ، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب ؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم . وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم . أما جزاء الآخرة فيأخذها من عمل لرب الآخرة ، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول في حقهم :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ مُّجْعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وكذلك يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ يَّقْبِعُهُ يَحْسَبُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

فالكافرون مثلهم مثل الظمآن الذي يسير في صحراء ويخيل له أن أمامه ماء ، ويمشى ويمشى فلا يجد ماء . أما غير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يمني نفسه بأن المياه قادمة وأنه سيحصل عليها .

﴿ كَسْرَابٍ يَّقْبِعُهُ يَحْسَبُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً . بل يفاجأ : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ . إنه يفاجأ بأن الإله الذي كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة فيوفيه حسابه ويجزيه على عمله القبيح . إذن فإن عمل الإنسان عملاً فليتنظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس في باله الله فعليه ألا يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر في قانون نواميس الحياة الكونية ؛ لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

٤٣٥٩

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

(سورة الاعراف)

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذي أنزل هذا المنهج ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٤٧﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٤٨﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا

جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَم يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ

سَبِيلًا أَتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾

وقوله : ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات ربه بعد أن قال هارون :

﴿ اخلفنى فى قومى ﴾ .

بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حلبيهم عجلاً جسداً له خوار ، ونعرف أن الحلى هو ما يتزين به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلى هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر يسهل إصلاحه ، كما أن كسر الذهب بطله ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان

الطيب ، كسره بطيء ، وانجازه سهل .

وساعة نسمع كلمة « زينة » قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلى . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجواهر ، أو بالماس . ولذلك إذا أطلقت كلمة « الحلى » فالمراد بها الذهب .

وهذه الزينة هي التي صنع منها موسى السامرى تمثال العجل ، وبطبيعة الحال أخذ الحلى الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلى وقد كانوا مستضعفين ، ومستذلين ؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحلى كسلفة سيردونها من بعد ذلك . ثم جاء رخيهم فأخذوا الحلى معهم !

وغرق قوم فرعون وبقيت الحلى مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحلى عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله : ﴿ عَجَلًا جَسَدًا ﴾ أى أنه مُحَجَّم ، أى له حجم واضح . وأخذ أهل التفسير من كلمة « جسدًا » أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : « فلان هذا مجرد جثة » . أى كأنه جثة بلا روح .

وقوله الحق : ﴿ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ ﴾ ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها حياة ؛ لأنه لو كان جسدًا فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ ، ولا كفى بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : ﴿ لَهُ خَوَارٍ ﴾ دليل على أن الجسدية في العجل لا تعطى له الحياة . وجاء بالوصف في قوله : ﴿ لَهُ خَوَارٍ ﴾ والخوار هو صوت البقر . وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التي كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهًا نفيًا ، فصنعه - كما نعرف - من الحلى المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دبره هبة الهواء ؛ صنعت وأحدثت في جوفه صوتًا يشبه صوت وخوار البقر الذى يخرج من فمه ، وهذه مسألة نراها فى الناي وهو أنبوبة من القصب مما يسمى الغاب البلدى وتصنع به ثقوب ، ويعزف عليه العازف ليخرج منه النغمة التي يريدتها .

وحين صنع موسى السامرى العجل بهذه الحيلة ، حدث هذا الصوت مشابها لخوار البقر . وقصة هذا العجل تأتي فى سورة طه بوضوح وستعرض لها حين نتعرض بخواطرنا الإيمانية لسورة طه بإذن الله :

﴿عَجَلًا جَدًّا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا

ظَالِمِينَ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الاعراف)

ولماذا اختار السامرى العجل ؟ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوة ، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة ، وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم . وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل . حين يريدون حرث الأرض . وكان أيّداً ، أى قوياً وشديداً فى حرث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عجلاً يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله ؟ . وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز بنى إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون الأصنام ؛ فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . ويأتى القول من الحق :

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الاعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لا بد أن يتلقى من المعبود أوامر ، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن ينفذه ، وأن يأتى المنهج بواسطة رسل يبلغون رسالات الله وكلام الله للبشر . أما الذين يعبدون الشمس - مثلاً - فنسألهم : لماذا تعبدونها ؟ وما المنهج الذى أرسلته الشمس لكم ؟ . إن العبادة هى طاعة العابد للمعبود فى « افعل » و « لا تفعل » فهل قالت لكم الشمس « افعلوا » و « لا تفعلوا » ؟ لا ؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ، وكيف يوجد - إذن - معبود بدون منهج للعابد ؟ وهل قالت : إن من يعبدنى سأشرق

عليه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعبدني فلن أعطيه شيئاً من ذلك ؟ لم تقل الشمس ذلك فهي تعطى من آمن بها ومن كفر ، ولم ترسل خيراً عن الآخرة وقيام القيامة .

وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضى أمراً ونهياً ، فى « افعل » و « لا تفعل » ولم يقل معبود من هؤلاء ما الذى نطيعه وما الذى نعصاه . والأصل فى المعبود أنه يهدى العابد السبيل الموصول إلى خيره فى الدنيا وفى الآخرة . لذلك يقول الحق : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ . و ﴿ كانوا ظالمين ﴾ لأنهم أعطوا حقاً لمن ليس له الحق ، والحق سبحانه أعلى قمة فى الحق ، ولذلك قال عن الشرك به : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَ

ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَعْفِرْ لَنَا

لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور . لكن الناس الذين امتلكوا قدراً من البصيرة ، أو بقية إيمان قالوا : هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها وندموا على ما كان ، ويقال : سَقَطَ فى يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية التى لا تختلف فيها أمة عن أمة ، بل هى فى كل الأجناس ، وفى كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلاً وحدث له عكس ما يفعل بعض على الأنامل ندماً وغمماً ، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبعى فى المخاطبات ، فى كل الأجناس . وبعض الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن يعمل ، فإذا كان الشئ عظيماً فهو لا يكتفى بالأناملة بل يمسك يده كلها ويعضاها . والحق يقول : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه ﴾

« وسُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ » أى جاءت أنيابهم على أيديهم ، كأن الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم ورأوا أن ذلك باطل وخسران . أى قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنوبهم والتجاء إلى الله عز وجل .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَيْتُمُ الْأَلْوَاحَ ۖ وَآخَذْتُمْ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضباناً أسفياً ، يدلنا على أنه علم الخير بحكاية العجل . والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها : « المواجيد النفسية » ، أى الشىء الذى يجده الإنسان فى نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقاً بين من يحزن ويكبت فى نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر وتندفع يده ، وهذا اسمه : غضبان . وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ؛ وقدم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفى فى مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح .

وقديماً قلنا : إن كل تصور شعورى له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى . مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية فى النفس ، ثم مرحلة نزوعية بالحركة ، وضرربنا المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذا إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويطمئن لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطفها فهذا نزوع

حركى . والتشريع لم يقنن للإدراك أو للوجدان لكنه قنن للسلوك . إلا فى غض
البصر عما حرم الله وذلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر الغضب وهو عملية
نزوعية ، ونلاحظ أنه يأتي بكلمة أُسِف . وهى مبالغة . فهناك فرق بين أُسِف
وَأَسَف ، أُسِف خفيفة قليلاً ، لكن أُسِف صيغة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد
اشتد عليه وتمكن منه .

﴿ قَالَ يَا سَمَاءَ خَلْفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أى استبظأتمونى ، وهذا نتيجة لذهاب
موسى لثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أنى لن آتى ؟ أو أنى
أبطلت عليكم ؟ . وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلى أو من أجل إله قادر ؟ .
ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى الرفيق الأعلى :

« من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى
لا يموت » . وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبظأتمونى
أو خفتم أن أكون قد مت . فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا .

﴿ أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح ﴾ ، ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقدر
موسى على أخيه : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ وهذا « النزوع الغضبى » الذى
جعله يأخذ برأس أخيه ، كان الأخوة هنا لا نفع لها ، فماذا كان رد الأخ هارون : ؟

﴿ قَالَ آيُنْ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي

مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

نلاحظ أنه قال : « ابن أم » ولم يقل : « ابن أب » لأن أباموسى وهارون طوى

اسمه في تاريخ النبوات ولم يظهر عنه أى خبر ، والعلم جاءنا عن أمه لأنها هى التى قابلت المشقات فى أمر حياته ، لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز فى حياتها ، ولأن الأمومة مستقر الأرحام ؛ لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ، وأخوة من الأب والأم ، والأخوة من الأب والأم أمرهم معروف . لكن نجد فى أخوة الأم حناناً ظاهراً ، ويقال الحنان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما - موسى وهارون - وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر فى تاريخهم . أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التى جاءت عن موسى متعلقة بأمه ، لذلك نجد أخاه هارون يكلمه بالأسلوب الذى يجننه : ﴿ قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى ﴾ .

ومادام قد قال : ﴿ وكادوا يقتلونى ﴾ فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذى أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكروا فى قتله ، ويتابع الحق بلسان هارون : ﴿ فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

والشماتة هى إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم . وقوله : ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ . . إجمال للرأس فى عمومها ، وفى آية أخرى يقول : ﴿ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ .

ولقد صنع موسى ذلك لسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال : إن القوم استضعفونى لأنى وحدى وكادوا يقتلونى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة فى الحياة ؛ حتى أنهم كادوا يقتلونى ، إذن فهو لم يوافقهم على شىء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

وكانه يقول : لموسى إنك أن أخذتنى هذه المؤاخذة فى حالة غضبك ، ربما ظنّ بى أننى كنت معهم ، أو سلكت مسلكهم فى اتخاذ العجل وعبادته . وأراد الحق سبحانه

أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه ؛ فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذي بين العلة في أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولا يمكن أن يطلب منه فوق هذا ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقي الألواح وفيها المنهج ؟ والأمر الثاني : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق منه ؟

ويقول الحق على لسانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾
 وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

قال يارب اغفر لي إن كان قد بدر مني شيء يخالف منطق الصواب والحق . واغفر لأخي هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ في قتال من عبدوا العجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولو مادون القتل جرحاً أو خدشاً أو .. أو .. الخ .

ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة :

﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأعراف)

وحيث تسمع ﴿ أرحم الراحمين ﴾ ، أو ﴿ خير الرازقين ﴾ ، أو ﴿ خير الوارثين ﴾ ، أو ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه . فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملاً وإن كان محدوداً يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلاً على أنها عطاء ومنحة منه - سبحانه - أما صفات الله فهي صفات لا محدودة ولا متناهية جلالاً وكمالاً وجمالاً فسبحانه ﴿ ليس كمثله

شيء ، فإذا كان الله هو ﴿ أرحم الراحمين ﴾ فهذا يعني أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خلقه على خلقه ؛ فمن رحم أخاه سُميَ رحيماً ، وراحماً ، ولكن الله أرحم الراحمين ؛ لأن الرحمة من كل إنسان ضمان لمظهرية الغضب في هذا الأحد ، يقال : « رحمت فلاناً » أى من غضبك عليه وعقوبتك ، وإن عقوبتك على قدر قوتك ، لكن الله حين يريد أن يأخذ واحداً بذنب فقوته لا نهاية لها ، وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيْنًا لَهُمْ غَضَبٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

حين يقال : ﴿ اتخذوا العجل ﴾ قد نجد من يتساءل : هل اتخذوه مذبحاً يأكلونه ؟ أو يثير الأرض أو يسقى الحرث ويدير السواقي ؟ لأن العجل موجود لهذه المهام ، لكنهم لم يأخذوا العجل لتلك المهام ، بل إنهم قد اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً ، أما اتخاذه فيما خلق له فلا غبار عليه ، وهو هنا محذوف ومترك لفظته السامع ؛ فإذا اتخذنا العجل فيما خلق له العجل لا ينالنا غضب من الله ، أما الذين سينالهم غضب الله فهم من اتخذوا العجل فى غير ما خلق له ، إنهم اتخذوه إلهاً : ﴿ سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ﴾ .

وقوله : ﴿ سينالهم ﴾ يدل على أن أوان الغضب والذلة لم يأت بعد ، وسيحدث فى المستقبل ، ومستقبل الدنيا هو الآخرة ، ولكن الحق هنا يقول : إن الذلة ستحدث فى الدنيا ، فكيف يكون ﴿ سينالهم غضب ﴾ مع أنهم تابوا ؟ ويوضح سبحانه لنا ذلك فى قوله : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ﴾ .

فبعضهم تاب إلى بارئته وقتل نفسه فلماذا إذن الغضب ؟

ويوضح الحق لنا أن الذى نالهم من الغضب هو ما ألجأهم إلى أن يقال لهم : « اقتلوا أنفسكم » ، وهكذا نفهم أن قوله تعالى : « سينالهم غضب » أى قبل أن يتوبوا ، وقتل النفس هو منتهى الذلة ومنتهى الإهانة .

﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأعراف)

أى أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم ، فكل مفتر يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لا بد أن يناله هذا الجزاء ؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث فى تاريخهم ؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك - سبحانه - أن يعتبر السامع للقصة فى نفسه . واعتبار السامع للقصة فى نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيهاً وتحذيراً : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ أى احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم ، وهو سبحانه ينبه كلا منا ليتنفع من هذه العبرة وهذه اللقطة فإن التاريخ مسرود لأخذ العبرة ، والعظة ليتعظ بها السامع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا

وَأَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٥٢)

وهذا ما حدث ، فبعد أن اتخذوا العجل ، وقال لهم : اقتلوا أنفسكم توبة إلى بارئكم ، ثم تابوا ورجعوا إلى الله وأمنوا بما جاءهم ، غفر الله لهم . وإذا كان الحق قد قص علينا مظهرية جباريته فإنه أيضاً لم يشأ أن يدعنا فى مظهرية الجبارية ، وأراد أن يدخلنا فى حنان الرحمانية . لذلك يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا

لَغُفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ ثم تابوا ﴾ أى ندموا على ما فعلوا وأصروا وعزموا على ألا يعودوا ، ونعلم من قبل أن التوبة لها مظهريات ثلاثة ؛ أولاً : لها مظهرية التشريع ، ولها مظهرية الفعل من التائب ثانياً ، ولها قبولية الله للتوبة من التائب ثالثاً . ومشروعية التوبة نفسها فيها مطلق الرحمة ، ولو لم يكن ربنا قد شرع التوبة فى ذاتها لتعب الخلق جميعاً ؛ لأن كل من عمل سيئة ، ولم يشرع الله له التوبة سيستشرى شره فى عمل السيئات . لكن حين يشرع ربنا للمسيء التوبة ، ويدعو العبد للكف عن السيئة فهذه رحمة بالمذنب ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه المذنب . بعد ذلك يتوب العبد ، ثم يكون هنا مظهرية أخرى للحق ، وهو أن يقبل توبته .

التوبة - إذن - لها تشريع من الله ، وذلك رحمة ، وفعل من العبد بأن يتوب ، وذلك هو الاستجابة ، وقبول من الله ، وذلك هو قمة العطاء والرحمة منه سبحانه .

وقوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأعراف)

إن هذا القول يدل على أن عمل السيئة يחדش الإيمان ، فيأمر سبحانه عبده : جدد إيمانك ، واستحضر ربك استحضاراً استقبالياً ؛ لأن عمالك السيئة يدل على أنك قد غفلت عن الحق فى أمره ونهيه ، وحين تتوب فأنت تجدد إيمانك وتجد ربك غفوراً رحيماً : ﴿ إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ .

إن ذنب العبد يكون فيما خالف منهج ربه فى « افعل » و « لا تفعل » ، ومادام العبد قد استغفر الله وتاب فسبحانه يقبل التوبة . ويوضح : إذا كنت أنا غفوراً رحيماً ، فإياكم يا خلقى أن تُذكروا مذنباً بذنبه بعد أن يتوب ؛ لأن صاحب الشأن غفر ، فإياك أن تقول للسارق التائب : « ياسارق » ، وإياك أن تقول للزانى التائب : « يازانى » ، وإياك أن تقول للمرتشى التائب : « يامرتشى » لأن المذنب

مادام قد جدد توبته وآمن ، وغفر الله له ، فلا تكن أنت طفيلياً وتبرز له الذئب من جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابُ
وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

وهل للغضب سكوت ؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت ؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعياً أمام من أذنب ، فكان الغضب يلح عليه ، ويقول للغضب : اضرب ، اشتم ، اقتل . كأن الغضب قد مُثِّلَ وَصُورَ في صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر ، فشبه الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى في أن يفعل كذا ، ويفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه .

أو هو كما قال إخواننا العلماء : من القلب في اللغة ، أي أنه يقلب المسألة ، اتكالا على أن فطنة السامع سترد كل شيء إلى أصله ؛ كما نسمع في اللغة : خرق الثوب المسمار ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذي قام بخرق الثوب ؛ لأننا لن نتخيل أن الثوب يخرق مسماراً . ويسمى ذلك « القلب » أي أن يأتي بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة السامع . أو أن المسمار مستقر في مكانه ، والثوب هو الذي طرأ عليه فانخرق ، فيكون سبب الخرق من الثوب ، فكان الفاعلية الحقيقية من الثوب : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ .

أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى .

﴿ وَمَا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابُ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ

لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (122)

وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غضبان أسفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقي ، فالغضب جعله يلقي الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فأخذها ثانية .

﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

النسخة من الكتاب مأخوذة من الشيء المنسوخ أى المنقول من مكان إلى مكان ، ويقال : نسخت الكتاب الفلاني من الكتاب الفلاني . . أى أن هناك كتاباً مخطوطاً ثم نقلناه بالطباعة أو بالكتابة إلى نسخة أو عدد من النسخ ، أى أخذته من الأصل إلى الصورة ، واسمه منسوخ ، وكلمة نُسخة على وزن « فُعْلة » وتأتى بمعنى مفعولة ، فنسخة تعنى منسوخة ، وفي القرآن مثل هذا كثير . والحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

و « غُرْفَةٌ » أى مغروفة ، وهى القليل من المياه فى اليد لتبل الريق فقط ، والغرفة أيضاً تكون فى البيوت ؛ لأنها مكان مقتطع من مكان آخر ولها جدران تحدددها ، واسمها غرفة لأنها مغروفة من المكان فى حيز مخصوص . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وفى نسختها هدى ورحمة ﴾ .

و « هدى » المقصود بها المنهج الموصل للغاية فى « افعل » و « لا تفعل » . إنه يوصل للغاية وهى ثواب الآخرة . إذن فالهدى والرحمة شىء واحد له طرفان ، فالهدى هو المنهج الذى إن اتبعته تصل إلى الرحمة ، ولذلك يقول الحق : ﴿ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهَبُونَ ﴾ .

وهكذا نجد المنهج هدى ورحمة ، فمن يسمع كلام الله ويتبعه يهتدى ويرحمه

ربنا ؛ لأنه جعل الله في بآله ، وخاف من صفات الجبارية في الحق ، ولهذا لا يد أن يستحضر الإنسان أو المؤمن رهبته لربه وخوفه منه - سبحانه - ليكون المنهج هدى ورحمة له . ويكون من الذين يرهبون ربهم .

وساعة ترى المفعول تقدم في مثل قوله سبحانه هنا :

﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

نفهم أن هذا هو ما يسمى في اللغة « اختصاص » وقصّر مثلما قال الحق في فاتحة الكتاب : ﴿ إياك نعبد ﴾ .

وما الفرق بين « إياك نعبد » و « نعبدك » ؟ إن قلنا : « نعبدك » فهو قول لا يمنع من العطف عليه ، فقد نعبدك ونعبد الشركاء معك ؛ لكن قولنا : « إياك نعبد » أى خصصناك بالعبادة وقصرناها عليك سبحانه فلا تتعدى إلى غيرك .

إذن حين تقدم المفعول فهذا هو عمل الاختصاص . ومثال ذلك في حياتنا حين نقول : « أكرمتك » ، ولا مانع أن نقول بعدها « وأكرمت زيدا وأكرمت عمرا » . لكن إن قلت : إياك أكرمت ، فهذا يعنى أنى لم أكرم إلا إياك . وهنا يقول الحق : ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ . ولقائل أن يقول : ألا يمكن أن يدعى أحد الرهبة ظاهراً وأنه ممثل لأمر الله رياء أو سمعة حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإسلام ، ويأخذون في الثناء عليه ؟ ولكن هنا نجد التخصيص الذى يدل على أن العبد لا يرهب أحداً غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله ، وليست رياء ، ولا سمعة ، ولا لقصد الثناء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّنْ

قَبْلُ وَإِنِّي أَنهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا
فِدْنُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا
فَاعْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وكلمة « اختار » تدل على أن العمل الإختياري يُرجح العقل فيه فعلاً على عدم فعل أو على فعل آخر ، وإلا فلا يكون في الأمر اختيار ؛ لأن « اختار » تعنى طلب الخير والخيار ، وكان في مكتتك أن تأخذ غيره ، وهذا لا يتأتى إلا في الأمور الاختيارية التي هي مناط التكليف ، مثال ذلك : اللسان خاضع لإرادة صاحبه فخضع للمؤمن حين قال : لا إله إلا الله ، وخضع للملحد حين قال - لعنه الله - : لا وجود لله ، ولم يعص اللسان في هذه ، ولا في تلك . والذي رجح أمراً على أمر هو ترجيح الإيمان عند المؤمن في أن يقول : لا إله إلا الله ، وترجيح الإلحاد عند الملحد في أن يقول ما يناقض ذلك . والحق هنا يقول : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً ﴾ .

والذين درسوا اللغة يقولون : إن هناك حدثاً . وأن هناك موجدا للحدث نسميه فاعلاً مثل قولنا : « كتب زيد الدرس » أي أن زيدا هو الذي أدى الكتابة ، ونسمي « الدرس » الذي وقعت عليه الكتابة مفعولاً به ، ومرة يكون هناك ما نسميه « مفعولاً له » أو « مفعولاً لأجله » مثل قول الابن : قمت لوالدي إجلالاً ، فالذي قام هو الابن ، والإجلال كان سبباً في إيقاع الفعل فنسميه « مفعولاً لأجله » ونقول : « صُمت يوم كذا » ونسميه « مفعولاً فيه » ، وهو أن الفعل ، وقع في هذا الزمن . فمرة يقع الحدث على شيء فيكون مفعولاً به ، ومرة يقع لأجل كذا فيكون مفعولاً لأجله ، ومرة يقع في يوم كذا ؛ العصر أو الظهر فيكون مفعولاً فيه ، ومرة يكون مفعولاً معه « مثل قولنا : سرت والنيل : أي أن الإنسان سار بجانب النيل وكلما مشى وجد النيل في جانبه .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولأن اختيار موسى للسبعين كان وقع من القوم ؛ فيكون المفعول قد جاء من هؤلاء القوم ، ويسمى « مفعولاً منه » ؛ لأنه لم يختارهم كلهم ، إنما اختار منهم سبعين رجلاً لميقاته مع الله سبحانه .

وقالوا في علة السبعين إن من اتبعوا موسى كانوا أسباطاً ، فأخذ من كل سبط عدداً من الرجال ليكون كل الأسباط ممثلين في الميقات ، وكلمة « ميقات » مرت قبل ذلك حين قال الله :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وهل الميقات هذا هو الميقات الأول ؟ لا ؛ لأن الميقات الأول كان لكلام موسى مع الله ، والميقات الثاني هو للاعتذار عن عبدة العجل .

﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ ﴾

﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولماذا أخذتهم الرجفة ؟

لأنهم لم يقاوموا الذين عبدوا العجل المقاومة الملائمة ، وأراد الله أن يعطي لهم لمحة من عذابه ، والرجفة هي الزلزلة الشديدة التي تهز المرجوف وتخيفه وترهبه من التراجع . وحين أخذتهم الرجفة قال موسى : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمُ ﴾ من قبل وإياي ﴿ .

أوضح موسى : لقد أحضرتهم من قومهم . وأهلوهم يعرفون أن السبعين رجلاً قد جاءوا معي ، فإن أهلكتهم يارب فقد يظن أهلهم أنني أحضرتهم ليموتوا وأسلمتهم إلى الهلاك . ولو كنت مميتهم يارب وشاءت مشيتك ذلك لأمتهم من

قبل هذه المسألة وأنا معهم أيضاً . ويضيف القرآن على لسان موسى والقوم معاً :

﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

أنت أرحم يارب من أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وهذا القول يدل على أن العملية عملية فعل ، والفعل هو عبادة العجل ؛ فلو أن هذا هو الميقات الأول لما احتاج إلى مثل هذا القول ؛ لأن قوم موسى لم يكونوا قد عبدوا العجل بعد . ولكنهم قالوا بعد الميقات الأول : مادام موسى قد كلم الله ، فلا بد لنا أن نرى الله ، وقالوا فعلاً لموسى :

﴿ أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

إذن نجد أن ما حصل من قوم موسى بعد الميقات الأول هو قولهم : ﴿ أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وليس الفعل ، أما هنا فالآية تتحدث عن الفعل : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ .

وهكذا نعلم أن الآية تتحدث عن ميقات ثانٍ تحدد بعد أن عبد بعضهم العجل . والفتنة هي الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً في ذاته ، ولا يقال في أي امتحان إنه مذموم . إنما المذموم هو النتيجة عند من يرسب ، والاختبار والامتحان غير مذموم عند من ينجح .

إذن فالفتنة هي الابتلاء والاختبار ، وهذا الاختبار يواجه الإنسان الجاهل الذي لا يعلم بما تصير إليه الأمور وتنتهي إليه ليختار الطريق ويصل إلى النتيجة . ولا يكون ذلك بالنسبة لله ؛ لأنه يعلم أولاً كل سلوك لعباده ، لكن هذا العلم لا يكون حجة على العباد ؛ ولا بد من الفعل من العباد ليبرز ويظهر ويكون له وجود في الواقع لتكون الحجة عليهم . والأخذ بالواقع هو الأعدل .
وقول موسى عليه السلام :

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ نَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ نَشَاءُ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

هذا القول يعنى : أنك يارب قد جعلت الاختبار لأنك خلقتهم مختارين ؛ فيصح أن يطيعوا ويصح أن يعصوا . والله سبحانه هو من يُضل ويهدى ؛ لأنه مادام قد جعل الإنسان مختاراً فقد جعل فيه القدرة على الضلال ، والقدرة على الهدى . وقد بين سبحانه من يشاء هدايته ، ومن يشاء إضلاله فقال :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

والسبب فى عدم هدايتهم هو ظلمهم ، وكذلك يقول الحق :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الكفر منهم هو الذى يمنهم من الهداية . إذن فقد جعل الله للعبد أن يختار الهداية أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قهراً عن الله ؛ لأنه سبحانه لو لم يخلق كلاً منا مختاراً لما استطاع الإنسان أن يفعل غير مراد الله ، ولكنه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار - أيها الإنسان - الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه الله لك ، وسبحانه قد بين أن الذى يظلم ، والذى يفسق هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين من يختار الهداية ؛ لأنه أهل أن يعينه الله على الهداية .

ويقول الحق على لسان سيدنا موسى فى نهاية هذه الآية :

﴿ أَنْتَ وَلِينَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

والولى هو الذى يليك ، ولا يليك إلا من قربته منك بوجدك له ، ولم تقربته إلا لحبيته فيه تعجبك وتنفعك وتساعدك إذا اعتدى عليك أحد أو تأخذ من عمله لأنه عليم . إذن فالمعنى الأول لكلمة الولى أى القريب الذى قربته لأن فيه خصلة من الخصال التى قد تنفعك ، أو تنصرك ، أو تعلمك .

وقول موسى « أنت ولينا » أى ناصرنا ، والأقرب إلينا . فإن ارتكب الإنسان منا ذنباً فأنت أولى به ، إنك وحدك القادر على أن تغفر ذنبه ؛ لذلك يقول موسى : « فاغفر لنا » ، ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً لأن درءها مقدم على جلب المصلحة ، فقدم موسى عليه السلام طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعا ربه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة . وقد قال ربنا فى مجال درء المفسدة : ﴿ فمن زحزح عن النار ﴾ وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار : ﴿ وأدخل الجنة ﴾ . وهذا جلب منفعة ومصلحة .

إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، - وعلى سبيل المثال - إنك ترى تفاحة على الشجرة ، وتريد أن تمد يدك لتأخذها ، ثم التفت فوجدت شاباً يريد أن يقذفك بطوبة ، فماذا تصنع ؟ أنت فى مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك . وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وهنا درء المفسدة متمثل فى قول موسى : ﴿ فاغفر لنا ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ وارحمنا ﴾ وهذا جلب مصلحة ، والقرآن يقول :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوشِقَاءَ وَرَحْمَةً ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

لأن الداء يقع أولاً ، وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء ، والرحمة ألا يجيء لك داء بالمرة . فإذا أخذت القرآن لك نصيراً فلن يأتى لك الداء أبداً .

﴿ فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ومثلها مثل قول الحق سبحانه : ﴿ خير الرازقين ﴾ ، و ﴿ وخير الماكرين ﴾ ، و ﴿ خير الوارثين ﴾ و ﴿ خير الغافرين ﴾ هنا ؛ لأن المغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكننا نعرف أن مغفرة الرب فوق مغفرة الخلق ؛ لأن الغافر من البشر قد يغفر رياء ، وقد يغفر سمعة ، قد يغفر لأنه خاف بطش المقابل . لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَآكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
 الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ
 مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
 فَسَأَكْتُبُ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
 وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

ونلاحظ أن هذه الآية تضم طلبات جديدة لسيدنا موسى من ربه بعد قوله :
 ﴿ فاغفر لنا وارحمنا ﴾ . ونرى أن خير الغافرين تعود لقول موسى - عليه السلام - :
 ﴿ فاغفر لنا ﴾ أما الحسنة في قوله : ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ فإنها تعود
 على طلب الرحمة : ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ .

هو إذن يطلب الحسنة في الدنيا وكذلك في الآخرة ، والحسنة لها معنى
 « لغوي » ، ومعنى « شرعي » . أما المعنى اللغوي فكل ما يستحسنه الإنسان
 يُسمى حسنة ، ولكن الحسنة الشرعية هي ما حسنه الشرع ، فالشرع رقيب على
 كل فعل من أفعالنا وتصرفاتنا ، فالحسنة ليست ما يستحسنه الإنسان ؛ لأن الإنسان
 قد يستحسن المعصية ، وهذا استحسان بشري يعيد عن المنهج ، أما الاستحسان
 الشرعي فهو في تنفيذ المنهج بـ « افعَل » و « لا تفعل » .

والحسنة المعتبرة في عرف المكلفين من الله هي الحسنة الشرعية ؛ لأن الإنسان
 قد يستحسن شيئاً وهو غير شرعي لأنه ينظر إلى عاجلية النفع فيه ، ولا ينظر إلى
 آجلية النفع ، ولا ينظر إلى كمية النافع . والنفع - كما نعلم - في الدنيا على قدر
 تصورك في النفع ، أما النفع في الآخرة فلا يعلم قدره إلا علام الغيوب - سبحانه -
 إذن فقوله : ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ يكون المراد بها الحسنة الشرعية
 في الدنيا عملاً ، وفي الآخرة جزاءً .

ونلاحظ أن موسى أراد بالحسنة الأولى ما يعم الحسنة الشرعية والحسنة

اللغوية ؛ فهو دعاء بالعافية والنعم الجليلة الطيبة ، وكل خير الدنيا فى ضوء منهج الله . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

إذن، فالحسنة الخالصة هى فى يوم القيامة ، ولكن هناك من ينتفع بها فى الدنيا ؛ فالجماد منتفع برحمة الله ، والنبات منتفع برحمة الله ، والحيوان منتفع برحمة الله ، والكافر منتفع برحمة الله . كل ذلك فى الدنيا ، وهى الرحمة التى وسعت كل شىء ، لكن مسألة الآخرة كجزاء على الإحسان فهو جزاء خاص بالمؤمنين .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ .

و « هاد » أى رجع ، و « هدنا إليك » أى رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه ، وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا ، ومادنا قد رجعنا إليك ياربى فانت أكرم من أن تردنا خائبين . ويرد الحق سبحانه :

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَادَتِنَا يُوْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وقوله الحق : ﴿ عذابي أصيب به من أشاء ﴾ أى لا يوجد من يدفعنى ويرشدنى فى توجيه العذاب لأحد ؛ فحين يذنب عبد ذنباً أنا أعذبه أو أغفر له ؛ لذلك لا يقولن عبد لمذنب إن الله لا بد أن يعذبه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وما المقصود بالرحمة هنا ؟ أهى الرحمة فى الدنيا أو الرحمة فى الآخرة ؟ إنها الرحمة فى الدنيا التى تشمل الطائع والعاصى ، والمؤمن والكافر ، ولكنها خالصة

في اليوم الآخر - كما قلنا - للمؤمنين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَسَاكِبْهَا ﴾ يدل على أن هذا سيكون في الآخرة . أي أن رحمة الله وسعت كل شيء في الدنيا ولكنها رحمة تنتهي بالنسبة للكافرين في إطار الدنيا ، ولكن بالنسبة للمؤمنين فهي رحمة مستمرة قد كتبها الله أزلا وتعطي للمؤمنين فضلا ومنة وعطاء منه - سبحانه - .

﴿ فَسَاكِبْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَابِلَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الاعراف)

وعندما سمع بعض اليهود ذلك قالوا : نحن متقون ، فقل لهم : في أي منهج أنتم متقون أفي منهج موسى ؟ لو كنتم متقين في منهج موسى - كما تزعمون - لأمتمتم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لأن من تعاليم موسى أن تؤمنوا برسول الله محمد - عليه الصلاة والسلام - ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

فهذه تسع صفات لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي أن الله أوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ، وأنه صاحب المعجزات ، وأنه بلغ نبأ بأفضل وأتم العقائد والعبادات والأخلاق - وهو - عليه الصلاة والسلام - الأُمى الذى لم يمارس القراءة والكتابة ولم يجلس إلى معلم ، فهو - عليه السلام - باقٍ على الحالة التى ولد عليها ، وقد ذكره ربّه - جل وعلا - باسمه وصفاته ونعوته عند اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل وقد كتمها الكافرون منهم أو أساءوا تأويلها ، كما وصفه ربه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلفهم بفعل كل ما تدعو إليه الطباع المستقيمة والفطر السليمة ؛ لأن فى ذلك النجاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - يزرهم وينهاهم عن كل منكر مستهجن تستقبحه الجبلة القويمة ، والخلفة السوية ، ويحل لهم ما حرم عليهم من الطيبات التى منعوا منها وحظرها الله عليهم جزاء طغيانهم وضلالهم ، ويحرم عليهم كل ضار وخبيث : كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش ، ويخفف عنهم ما شق عليهم وثقل من التكاليف التى كانت فى شريعة موسى - عليه السلام - كقطع الأعضاء الخاطئة وتحريم الغنائم عليهم ووجوب إحراقها ، وكذلك يخفف الله ويحط عنهم الموائيق الشديدة التى فرضت عليهم عقاباً لهم على فسوقهم وظلمهم .

يقول - جل شأنه - :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدْمَةٍ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦١﴾ وَأَخْلَيْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْنُوهُ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبِطْلِ وَأَعْتَدْنَا

لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين على سيدنا رسول الله أن يبلغوا أقوامهم بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يؤمن الأقوام التى يشهدون ويعاصرون رسالته صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن رسول الله لم يكن معاصراً لأحد من الرسل ، ولكن البشارة به قد جاءت بها أنبيأؤهم وسجلت فى الكتب المنزلة عليهم ، وكل رسول سبق سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، قد أمره الله أن يبلغ الذين أرسل إليهم أن يتبعوا الرسول محمداً ويؤمنوا به ولا يتمسكوا بسطة

زمنية ويخافوا أن تنزع منهم . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه معجزة وبينة فلا بد أن يؤمنوا به .

﴿ وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خميرة إيمانية حتى لا يتعارض اتباع الأديان . ولا يفهم أصحاب دين موجود أن ديناً آخر جاء لينسخه ويأخذ منه السلطة الزمنية ؛ لأن رسالة الإيمان موصولة وتحديث الأفضية للناس بامتداد الزمان . فكل الرسل يحرصون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المواهب ولا تتعاند فيها الحركات . وقد طلب الحق من الرسل ذلك وأخذ عليهم العهد وبعد ذلك أكده فقال :

﴿ أقررتم ﴾ واستوحى منهم الكلام الذى يؤيد هذا المنهج . ولذلك لا يصح لتابع نبي أن يصادم رسالة جديدة مؤيدة بمعجزة ومؤيدة بمنهج يضمن للإنسان الحياة وسلامتها وسعادتها .

ولم يكتف الحق بأن يجعل الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد خبر ، بل وضع لمحمد وحده سمة فى الكتب التى سبقته ، ووصفه لهم مشخصاً ، وحين يصفه مشخصاً فهذا أوضح من الخبر عنه بكلام . ولذلك قال عبدالله بن سلام عندما سأله عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منى يا بنى . قال : ولم ؟ قال : لأنى لست أشك فى محمد أنه نبي ، فأما ولدى فلعل والدته قد خانت ، فقَبِلَ عمر رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ .

ولاشك أن الإنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سمات خاصة وهى التى تثبت شخصيته صلى الله عليه وسلم المادية ، وليس الأمر فى رحلة الإسراء والمعراج مجرد كلام ، بل إنه حينما سئل عن هذه

الرحلة قال : « رأيت موسى وإذا رجل ضَرْبٌ ، رَجَلٌ^(١) كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى فإذا هو ربعة أحمر كأنه خرج من ديماس - الحمام - وأنا أشبه ولد إبراهيم به »^(٢) .

وكذلك أعطى الله في التوراة والإنجيل لا الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أعطى تفاصيل صورته بحيث تتشخص لهم ، فلا يلتبس به عند مجيئه مع التشخيص شريك ، فيقول سبحانه : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . ولكن فريقاً منهم كتموا الحق ليحتفظوا بالسلطة الزمنية ، لأنهم كانوا يظنون أنه حين يأتي دين جديد سيأخذ منهم هذه السلطة الزمنية ويقود الأمم والشعوب . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل رسل السماء إلى الأرض متعاونين لا متعاندين ، ينصر بعضهم بعضاً . كما جاء في سورة الفتح :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

لقد جاء الحق بصورة المؤمنين برسالة رسول الله في التوراة والإنجيل ، لأن الدين الإسلامي الذي نزل على محمد لن يأتي دين بعده ؛ لذلك جاء بسيرة رسول الله وصفاته وصفات أتباعه في التوراة والإنجيل ، وفي هذا الدين ما تفتقده اليهودية

(١) الضَرْبُ : الخفيف اللحم ، والرَّجُلُ هو من شعره بين السوطة والجمودة ، وقوله : من رجال شنوءة أى طويل ، لأن هذه القبيلة كانت مشهورة بطول قامة رجالها ، وَرْبَعَةٌ أى مربوع الخلق لا طويل ولا قصير .

(٢) متفق عليه .

التي انجرفت إلى مادية صرفة وتركت الروحانيات ؛ لذلك تأتي سيرة أتباع محمد في التوراة : ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ .

حين أسرف اليهود في المادية أراد الله أن يأتي برسول يجنح ويميل إلى الروحانية وهو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام . . ليحصل الاعتدال في تناول الحياة دون إفراط أو تفريط .

إذن فالحق سبحانه وتعالى مهد لكل رسول بأن يبشر به الرسول السابق لأنه لا معاندات في الرسالات . ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الموكب الرسالي ، كان ولا بد أن يصفه الله - سبحانه - وصفاً ليس بالكلام ، بل يصفه كصورة ، بحيث إذا رآه يعرفونه ، ولذلك نجد سيدنا سلمان الفارسي حين رأى رسول الله في المدينة ورأى منه علامات كثيرة أحب أن يرى فيه علامة مادية ، فرأى في كتف الرسول خاتم النبوة .

ولكن هل نفع ذلك ؟ نعم ، فكثير من الناس آمن به . وقد أقام رسول الله مناظرة بينه وبين اليهود بواسطة عبد الله بن سلام ، الذي قال بعد أن أسلم بين يدي رسول الله : « يارسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني^(١) عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أفرايتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا : أعاده الله من ذلك ؟ فخرج عبد الله إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه^(٢) .

إذن فالأوصاف الكلامية والأوصاف الشخصية المشخصة جاءت حتى لا يقال : إن أديان السماء تتعاند ، إنها كلها متكاتفه في أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زماناً ومكاناً . وقديماً كان العالم معزولاً عن بعضه ، وكل

(١) بهتوني : قالوا على ما لم أفعل ، من البهت والبهتان وهو الباطل والكذب والافتراء .

(٢) من حديث أخرجه البخارى في صحيحه - كتاب بدء الخلق - عن أنس - رضى الله عنه -

بيئة لها أجواؤها وداءاتها ؛ فيأتى الرسول ليعالج فى مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداءات فى الدنيا ؛ جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداً بتعاليمه التى تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإصر هو الحمل الثقيل ، والأغلال جمع غُل وهو الحديدية التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .

وقد ذكر الحق الأوصاف ومهد الأذهان إلى مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بالنور الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هى الجامعة المانعة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

هنأ يأمر الحق رسوله بالآتى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ فى رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفى ذلك يقول رسول الله :

« أعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلى .. نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة » (١) .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة وعمومية تسخير الكون للخلق ؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ . وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسل إليهم : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ وأراد سبحانه أن يعطينا الحثيات التي تجعل لله رسولا يبلغ قومه وكافة الأقسام منهج الله في حركة حياتهم ، فقال : ﴿ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

ومادام هو الذى يملك السموات والأرض ، ولم يدع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفى السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد . ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك . وفى هذا يقول الحق :

﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

إذن فمادام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأولى أن يعبد ، وأول قمة العبادة أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحيثية ألوهيته الأولى أن له ملك السموات والأرض . ومادام إلهاً فلا بد أن يطاع ، ولا يطاع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية إنه هو التوحيد . وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة فقال : ﴿ يَحْيَى وَيَمِيتُ ﴾ . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً ؛ لأن الله هو الذى له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيى ويميت . ولذلك نجد من حاج إبراهيم فى ربه يقول الحق عنه :

﴿ أَنْ أَنْتَهُ اللَّهُ الْمَلِكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يَحْيِى وَيُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وحاول هذا الملك أن يدير حواراً سفسطائياً مضللاً ليفحم ويسكت إبراهيم عليه السلام - فقال :

﴿ أَنَا أَحْيِى وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وذلك بأن يأمر بقتل انسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لا يميته بل يحييه في منطق السفسطائيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت ؟ . طبعاً لا ؛ لأن هناك فارقا بين الموت والقتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميته ؛ لأن الموت يأتي بدون هدم بنيته بشيء ؛ برصاصة أو بحجر أو بقبلة . ولا أحد قادر على أن يميته أحداً إذا رغب في أن يميته ، فالموت هو الحادث بدون سبب . لكن أن يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿يُحْيِي ۖ وَيُمِيتُ ۖ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأعراف)

وانظروا إلى الدقة في الأداء ؛ فمادام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إني رسول الله إليكم جميعاً ، وحيثية الإيمان هي الإقرار والاعتقاد بوحداية الإله الذي له ملك السموات والأرض ، وهو لا إله إلا هو ، وهو يحيى ويميت ؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى : ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .

لم يقل محمداً وآمنوا بي ؛ لأنها ليست مسألة ذاتية في شخصك يا محمد ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصلية ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . وبعد ذلك قال في وصف النبي : ﴿النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ . والأمية - كما علمنا من قبل - شرف في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله ، وهي إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن ، وإما بالذي قاله موسى لقومه : «واجعل كلامي في فيه» .

ويقول فيه عيسى - الذي لا يتكلم من قبل نفسه - ، وإنما تأتي له كلمات ربنا في فمه ، والقول الشامل في وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم : ما بينه الحق في قوله :

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ﴾

(سورة النجم)

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢)

(سورة يس)

ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد ؟ ونقول : إنه سبحانه قد علمه أزلاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أى شيء هو أزلى في علم الله ، وكأنه يقول للشيء : اظهر يا كائن للوجود ليراك الناس بعد أن كنت مطموراً في طي قدرتي .

وسواء أكانت الكلمة بخلق الأسباب ، مثل خلق الشمس والقمر أم بخلق شيء بلا أسباب ، كعيسى - عليه السلام - فإنه « كلمة منه » أى كلمة تخطت نطاق الأسباب ؛ بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفي هذا تخطي للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ بكلمة منه ﴾ . ونعلم أن كل شيء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هي أيضاً الآيات التي فيها منهج الأحكام ، ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَأَسْمِعِلْ وَأَسْمِعْ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٦)

(سورة البقرة)

ويروى لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

« إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاثلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد » (١) .

(١) ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ... ﴾ الخ

وقول موسى آمنوا بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، هو الذى يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ اِلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ اِلَّا بِرَٰهِنٍ مِّنْ اِنۡمَالِ وَاِسْمَاعِيْلَ وَاِسۡحٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَالۡاَسۡبَاطِ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة البقرة)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . و « لعل » رجاء وطلب . ونعلم أن كل طلب يتعلق بأحد أمرين : إما طلب لمحال لكنك تطلبه لتدل بذلك على أنك تحبه ، وهو لون من التمنى مثل قول من قال : ليت الشباب يعود يوماً ، إنه يعلم أن الشباب لا يعود لكنه يقول ذلك ليشعرك بأنه يحب الشباب . أو كقول إنسان : ليت الكواكب تدنولى فأنظّمها عقود مدح ، وهذا طلب لمحال ، إلا أنه يريد أن يشعرك بأن هذا أمر يحبه ، وإمّا طلب ممكن التحقيق . وهو ما يسمى بالرجاء . وله مراحل : فانت حين ترجو لإنسان كذا ، تقول : لعل فلانا يعطيك كذا ، والإدخال فى باب الرجاء أن تقول : لعلى أعطيك ؛ لأن الرجاء منك أنت ، وأنت الذى تقول ، ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه ، والأقوى أن تقول : لعل الله يعطيك . ولكنها من كلامك أنت فقد يستجيب الله لك وقد لا يستجيب ، أما إذا قال الله : لعلكم ، فهذا أرجى الرجاءات ، ولا بد أن يتحقق .

وحيثما يتكلم الحق عن قوم موسى ، يتكلم عنهم بعرض قصصهم ، وفضائلهم ونقضهم للعهد بعد نعم الله الواسعة الكثيرة عليهم ، وأوضح لنا : إياكم أن تأخذوا هذا الحكم عاماً ؛ لأن الحكم لو كان عاماً ، لما وُجد من أمة موسى من يؤمن بمحمد . ولذلك قلنا قديماً إن هناك ما يسمى « صيانة الاحتمال » . ومثال على ذلك نجد من اليهود من آمنوا برسالة رسول الله مثل مخريق الذى قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مخريق خير يهود » . وعبدالله بن سلام إن بعض اليهود كانوا مشغولين بقضية الإيمان ، ولذلك لا تأخذ المسألة كحكم عام ؛ لأن من قوم موسى من يصفهم الحق بالقول الكريم :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ

وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

وحين يسمع قوم موسى هذا القول سيقولون في أنفسهم إنه يعلم ما في صدورنا من تفكير في الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن لو عمم الحكم فمن يفكر في الإيمان بمحمد يقول : لماذا يصدر حكماً ضدي وأنا أفكر في الإيمان ؟ لكن الحق « صان الاحتمال » وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يفكرون في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

(سورة الاعراف)

أى يدلون الناس على الحق ويدعونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون في حكمهم بين الناس ولا يجورون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۖ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ ۖ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

وحين يقول الحق « قطعناهم » فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يخصص كأي كتاب فصلاً لموسى وآخر لعيسى وثالثاً لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإيماني عجيبة واحدة في الدعوة ، فيأتي بقضية عيسى ، ثم يدخل في الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كي يستغل انفعالات النفس بعد أي قصة من القصص .

وهنا يعزود الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى . فبعد أن أنصفهم وبيّن أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ . والمقصود هنا بنو إسرائيل ، ومعنى « قطعت الشيء » أن الشيء كان له تمام وجودي مع بعضه ، ثم قطعتة وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم « أسباطاً » ، و« السبط » هو ولد الولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثني عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت :

﴿ يَتَابَتِ إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

(من الآية ٤ سورة يوسف)

وحين تعد وتحصى ستجد أحد عشر كوكباً مرثية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائي ، فيصير العدد أربعة عشر واطرك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، وخذ الأحد عشر كوكباً ، وأضف الرائي وهو يوسف فيكون العدد اثني عشر . وهؤلاء هم الاثنا عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثني عشر ابناً من أمهات مختلفة ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميول الأهوائية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تنبأ سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف :

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءُوبَكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يوسف)

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سبب من أسباب وحيثية التقطيع :
﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً ﴾ .

وفي سورة يوسف نقراً :

﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة يوسف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ آصِرْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ

أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك في الماء تحسباً للاختلاف فيما بينهم ،
فجعل الحق لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ليعالج ما فيهم من داءات الغيرة
والحقد علي بعضهم البعض ؛ لأن الحق قال عنهم : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة
أسباطاً أمماً ﴾ .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأسباط في أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل في
أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل « العرب » يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسمونهم
« أسباطاً » ، ونعرف أن لفظ « اثنتي » يدل على أنهم إناث ، و« عشرة » أيضاً
إناث ، لأننا نقول : « جاءني رجلان اثنان » و« امرأتان اثنتان » ؛ أي اثنان
للذكور ، واثنان للإناث ، وكلمة « اثنتي عشرة » عدد مركب وتمييزه يكون دائماً
مفرداً ، ولذلك يقول الحق : ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ .

إذن « اثنتا عشرة » يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا « سبط » وسبط
مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذا جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : « كل جمع مؤنث »
وأيضاً فالمراد بالأسباط القبائل ، ومفردها قبيلة وهي مؤنثة ، وقطعهم أي كانت لهم
- من قبل - وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شيء واحد ، فجاء
بكلمة « أسباط » مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : « اثنتا عشرة قبيلة » ،

ولا يقال اثنتا عشرة قبائل ، فوضع أسباطاً ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تضم أسباطاً
لذا جاء التمييز مذكراً ..

﴿ وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

أى جعلنا كل سبط أمة بخصوصيتها . والواقع الكونى أثبت أنهم كذلك ؛ لأنك لا تجد لهم - فيما مضى - تجمعا قومياً وهو ما يسمونه « الوطن القومى لليهود » برغم أن الدول الظالمة القوية أعانواهم وأقاموا لهم وطناً على أرض فلسطين ، ومع ذلك نجد في كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التى تحيا فى رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا فى الشعوب ، ففى باريس - مثلاً - تجد « حى اليهود » ، وفى لندن المسألة نفسها ، وفى كل مدينة كبيرة تتكرر هذه الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقتوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، ويعاداتهم معزولين عن الشعوب ، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وقطعهم ربنا فى الأرض أى أنه نشرهم فى البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً مستقلاً ، ولذلك ستقرأ فى سورة الإسراء إن شاء الله : ﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ .

أى أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى : اسكنوا الأرض وحين تقول لنا يارب : « اسكن » فانت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإنسان فى الإسكندرية أو القاهرة أو الأردن أو سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن « اسكنوا الأرض » فهذا يعنى أن انساحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقاً ﴾ .

أى أنه حين يجىء وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم - أيها اليهود - لأن عدوكم لن يتبعكم فى كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم فى كل مكان تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتى بهم الحق لفيقاً ويتجمعون . فى هذا الوطن القومى الذين يفرحون به ، ونقول لهم : لا تفرحوا

فهذا هو التجمع الذي قال الله عنه : « جئنا بكم لفيماً » لتكون الضربة موجّهة لكم في مكان واحد تستأصلكم وتقضى عليكم .

ويأتى الحق بعد ذلك بخبر المعجزات :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمَهُ ۖ أَنِ اصْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

و « استسقى » المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هي طلب الماء الذي يمنع عن الإنسان العطش ، ومادام قد طلبوا السقيا فلا بد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم فى التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرى .

والحق يقول : ﴿ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمَهُ ﴾ ، أى طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتى أروىكم ، ولكن سأستسقى لكم ربي ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودى الاضطرابى : الهواء والماء والطعام . وساعة ترى « همزة » وسيناً « وتاء » واقعة على شىء من الأشياء فاغرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين سار موسى والعبد الصالح ونزلا قرية استطعما أهلها ، أى طلبا طعاماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهنا « استسقى » أى طلب المقوم الثانى وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغنى عنه . لذا لم يضعه الله فى يد أحد بل أعطاه ومنحه كل الخلق .

ولما كان الهواء غير مملوك وهو مشاع ؛ لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعام يُمكن أن يُملك ، والماء يُمكن أن يُملك ، فقال سبحانه مرة « استطعم » ، وقال هنا « استسقى » ، ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد فى القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه :

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

أى طلبت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريد الله .

وقصة الاستسقاء وردت من قبل في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ . وفي سورة الأعراف التي نحن بصدد خواتمها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض ؟ . طبعاً لا ؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار ؟ لا ؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الواهب للماء ؛ فقال هنا : « إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ » ، وفي سورة البقرة قال : ﴿ وَإِذَا اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ .

وهذا ترتيب طبيعي . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار ؛ لأن المستسقى هنا القوم ، والمستسقى لهم هنا هو موسى والمستسقى منه هو الله - جلّت قدرته - وهذا أمر طبيعي .

والحق سبحانه يقول في سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

ونجد الوحي نزل إلى موسى بقوله : ﴿ فقلنا اضرب ﴾ ؛ وهنا في سورة الأعراف نجد الحق يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولنا أن نعرف أن « قُلْنَا » تساوى « أَوْحَيْنَا » تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مناطات تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المناط في قوله الحق : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ .

فليس كل وحي لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحى له من بعد ذلك كغيره من الرسل .
وقوله الحق :

﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فينبجس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرة الله في أن يعطي ويمنع بالشيء الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التي في يد الله يحركها كيف يشاء . ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أي كالجبل ، وامتنعت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فأوحى له الله : ﴿ اترك البحر رهوا ﴾ .

أي اتركه كما هو عليه ؛ لأن الله يريد أن يغير فرعون وقومه بأن يروا اليابس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا النفاذ منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته ففرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشيء الواحد ، وكذلك في أمر العصا ؛ إنها هي حين ضربت الماء فلقتة فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب .

﴿ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهنا تعبير « انبجست » ، وهناك تعبير « انفجرت » ، ونعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ؛ فالانبجاس أن يأتي الماء قطرة قطرة ، ثم يأتي الانفجار وتتدفق المياه الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتي وتجيء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك . إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التي أعقبت الضربة في لقطات متعددة لمظهر واحد ؛ له أولية وله آخرية .

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
 أرسلت بالتوراة موسى مرشداً وابن البتول فعلم الإنجيلا
 ثم جاء لسيدنا محمد وقال :
 وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع في العبارة حين قال : « فسقى الحديث » ، فالحديث سقيا أما القرآن فمناولة من الله لخلقه . والحق يقول : ﴿ فأنبجست منه اثنا عشرة عينا ﴾ .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تنبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتي عشرة عينا وعلم كل أناس مشربهم ؛ لذلك كان لا بد أن يكون المكان متسعاً . وأن هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال من الأرض .

﴿ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذي يخصه ؟ إنها قسمة الله وصارت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهذا يدل أيضاً على التساوى ، فلم تتفجر عين بماء أكثر من الأخرى فتثير الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أرادته الحق : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بني إسرائيل في التيه ، وفي الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجاءت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط غمامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يضعهم في عشرين خيمة مثلا ، فهل يعجز ربنا عن ذلك ؟ طبعاً لا .

وإذا كان الحق قد ضمن لنا في الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نبرى ، ولا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقي أمر الطعام لهؤلاء . فقال :

﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

ساعة تأتي كلمة « أنزلنا » نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يُفترض أن يكون مكانها عاليًا ، لكن هي مسألة جاءت من أعلى من قدرتك ، أى من فوق أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و « المن » مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الزئبق . يجدونه على الشجر . ولا يزال هذا الشجر موجوداً إلى الآن في العراق ، يزهونه صباحاً فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاء بيضاء واسمه عندهم المن - أيضاً - وهو في طعم القشدة وليونها ، وحلاوة العسل .

و « السلوى » هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوروبا وحوض البحر المتوسط واحدته « سلواة » وهو « السُماني » ويسميه أهل السواحل « السُمان » وهو يأتي مهاجراً ولم يربه أحد ، وفي هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد وأسبابهم .

﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهناك مصانع تصنع المن في أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسلوى - كما قلنا - هو طائر « السمان » الموجود في بيئة أخرى يغريه ربنا بالطقس الدافئ فيأتي إلينا لتأخذه ، وهذه الطيور جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبعثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدل على أنه حين يريد أن يأتي لهم برزق غيبي يمدهم ويمنحهم المن والسلوى كما أخرج من الحجر الماء ، وكما ظللهم بالغمام ، وبذلك صارت حاجاتهم قدرية ليس لهم فيها أسباب وجاءت لهم بالهناء . فقالوا : ومن يدرينا أن الرزق الذي يأتينا من المن والسلوى سيستمر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد ؟ إنهم قالوا لنبيهم سيدنا موسى

ما حكاه القرآن بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ
الْأَرْضُ مِنْ بَقَلَيْهَا وِقَنَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أي مضر من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون :
﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ،
إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق
ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل تمردوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله :
﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً في سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وإذ
قيل لهم ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ؛ لأن طبيعة الأمر في الأسباط أنه سبحانه
جعل لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم
لا يتألفون ؛ فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع
الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء ، والنقباء يقولون للناس .

وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفي آية
أخرى قال الحق : ﴿ وإذ قلنا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لفظة توضح أن

المصدر الأصيل في القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح الحق هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « وإذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هي بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا : لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا :

﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

والحق لا يبين لنا القرية في هذه الآية ؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التي لها وزنها وخطرها وهي تنفيذ الأمر على أى مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم في التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء من صخر ، ومن سلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وقديماً كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

والحطة تعنى الدعاء بأن يقولوا : يارب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التي أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفههم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو :

﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ^٤ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أى سلب مضرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك في سورة البقرة قد جاء النص التالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا

حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ^٥ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

(سورة البقرة)

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً في الألفاظ واللقطات عن الآية التي وردت في سورة الأعراف . أول خلاف ﴿ وإذ قلنا ﴾ ، ﴿ وإذ قيل ﴾ ، وشاء الحق ذلك ليأتي لنا بملقطة مختلفة كما أوضحنا من قبل . ففي آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادخلوا ﴾ وفي آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسكنوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهي السكن أي ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله في سورة الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة . وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية ؛ لأنه لا يسكن أحد في القرية إلا إذا دخلها .

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتي لتكرار ، بل للتأسيس وللإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وفي آية سورة البقرة يقول : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والتو بتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رغداً » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ؛ لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وتأن . وقال الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ . أي أنه قدم قولهم « حطة » على السجود ، وفي آية سورة البقرة قدم السجود فقال :

﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَدِبًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من يفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر يفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا في سورة الأعراف :

﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وفي سورة البقرة يقول : ﴿ نغفر لكم خطاياكم وستزيد المحسنين ﴾ .

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تانيث ، ففي جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « قفل » فنقول في جمعها « أقفال » . أما في جمع التانيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد في المفرد من علامة تانيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و« فاطمات » ، و« أكلة » ، و« أكلات » وهذا جمع مؤنث سالم ، أى أن ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة . لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء - سبحانه - بجمع المؤنث السالم الذى يدل على القلة وبجمع التكسير الذى يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن المخاطبين غير متساوين فى الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً فى عجز الآيتين ، فقال فى سورة البقرة : ﴿ وسيزيد المحسنين ﴾ . وجاء عجز سورة الأعراف بدون « واو » فقال : ﴿ سيزيد المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعانا الحق إلى أن نقول : اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة . وهنا يوضح سبحانه : أنا لن أكتفى بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكنى سأزيدكم حسناً ، وفى هذا سلب للضرر وجلب للنفع . كان الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذى ينبىء ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و« خطيأتكم » التى تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يارب فقيل ؟ لهم : ﴿ سيزيد المحسنين ﴾ هل سيغفر لنا فقط ، أو أنه سيجازينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِغَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ

بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

هذه الآية تدل على أنهم اختلفوا فرقتين ؛ لأن الحق سبحانه مادام قد قال : ﴿منهم﴾ فهذا يعني أن بعضهم قالوا وفعّلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : « حطة » وطلب منهم أن يدخلوا سجداً . والتغيير منهم جاء في القول ؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرثى مما يدل على أن بعضهم يراثنى بعضاً ، ففي القول أرادوا أن يهدروا ويتكلموا بما لا ينبغي ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : « حطة » قالوا : « حنطة » استهزاءً بالكلمة .

وهكذا نرى أن التبديل جاء في القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبديل أيضاً حدث من بعضهم في الفعل . فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مقعداتهم ، كنوع من التعالي ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك ؛ لأن سلوكهم في الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل .

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

وكان الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم في أثناء التيه وكيف ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، واستسقى لهم موسى فجاءت المياه . لكن غريزة التبديل والتمرد لم تغادرهم . وماداموا قد بدّلوا في كلمات الله ، فعليهم أن ينالوا العقاب : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ .

وهناك آية ثانية في سورة البقرة يقول فيها الحق : ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ . والفارق بين « الإنزال » وبين « الإرسال » أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مستمر ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه في

المطر : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن في الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ . فالذي يحتاج إلى استمرارية في الفعل يقول فيه الحق : « أرسل » بدليل أن الله حينما أراد أن يجيء بالطوفان ليغرق المكذبين بموسى قال :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الاعراف)

وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود في الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم :

﴿ وَيَتَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة هود)

إذن فالإرسال يعني التواصل ، أما الإنزال فهو لمرة واحدة ، وأراد الحق سبحانه من قصة بنى إسرائيل أن يأتى لنا بلقطة فجاء بكلمة « أنزلنا » ، ولقطة أخرى جاء فيها بـ « أرسلنا » ؛ لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، فهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنبه أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه ؛ فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عقاباً على قدر ذنبه . ومن تمادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنوبه الكبيرة .

وهنا يقول الحق :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الاعراف)

و « رجزاً » أى عذاباً ، وهناك رجز ، ورجز ، والرجز يُولد من الرُّجْز ؛ وينشأ مثل قوله الحق : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجِرْ ﴾ . أى اهجر الرُّجْز . . أى المآثم والمعاصي والذنوب لتسلم من الرُّجْز . . أى من العذاب . وهنا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك فى الآية الأخرى قال : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

والفسق يسبق الظلم ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا

فسق أولاً ، ولذلك جاء الحق بالمسبب وجاء بالسبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة في القرآن جاءت لمعنى أساسى تؤديه ولا تكرر إلا لمجموع القصة فى ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً فى كل شىء لتعطى معانى ولقطات جديدة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً
الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذ تَأْتِيهِمْ
حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبُؤُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾



هنا سؤال عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التى دخلوها هى « بيت المقدس » ولم تكن على البحر ، والقرية التى كانت على البحر هى « أيلة » أو « مدين » أو « طبرية » ، المهم أنها كانت « حاضرة البحر » أى قرية من البحر ومشرفة عليه ؛ لأننا نقول فلان حضر ، أى كان بعيداً فاقرب . فمثل الإسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .

وقوله : « واسألهم » والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه السؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا فى كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحي من الله إليه ؛ لأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ فى كتاب ، وإنما علمه من أرسله ، إنه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يعلم منهم ، بل يريد أن يعلمهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مصدر له كعلم سائر البشر ؛ لا جلس على معلم ولا قرأ فى كتاب ولذلك تجد « ماكنات »

القرآن أى قوله الحق : « ما كنت » و « ماكنت » و « ماكنت » و « ما كنت » مثل قوله :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءآيَاتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

إذن فانت يا رسول الله لم تكن معهم لتقول لهم ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم فى كتبهم ، إذن فالذى علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا رَتَابَ الْمُسْطَلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وفى هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليتيقنوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به .

﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « وسألهم » تحل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألونى عن أشياء من بيت

سورة الأعراف

٤٤٠٧

المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلى أنظر إليه ، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلى وإذا هورجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبهاً به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم فلما فرغت قال قائل : يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأنى بالسلام ﴿١﴾ .

وتأتى آية فى القرآن تقول :

﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الزخرف)

والأمر لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسل الله من قبله ، ومتى يسألهم ؟ لابد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل . إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالخبر مصدق لأنه قد أدى أمر الله : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ . والسؤال هنا سؤال للتقرير والتقريع والتوبيخ : وما قصة القرية التى كانت حاضرة البحر ؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أى القرية من البحر ، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أن للبحر فيه مدخلاً ؛ لأن المسألة متعلقة بالحيتان والسماك والصيد ؛ لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية .

﴿ إِذْ يَعُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّاً وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ

كَذَلِكَ نَبَلُّوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وحيتان جمع حوت ، مثلما يجمعون « نونا » - وهو الحوت أيضاً - على « نينان » ؛ وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل فى يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم « السبت » ، ومازالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحداً منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه .

ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالي . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال :

﴿فِظَلَمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَّيْتُ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى هذه مثل وعبر لأى منحرف ، ولكل منحرف نقول : إياك أن تظن أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها ، لا ؛ لأن ربنا قادر أن يبتليه بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتشى مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب فيضيع عليه كل شيء أخذه .

إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم . وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم ؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالجمادات ، فحرم عليهم العمل فى يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريباً من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم ، ويربون السمك فى المياه وهو يرفع زعانفه كشرع المركب ، وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم فى بيوتهم ، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب ؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويربون هذا السمك أمامهم فى يوم السبت ، لكن فى بقية الأيام التى يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة : ﴿ويوم لا يستون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ .

وهنا قالوا : مادام ربنا قد حرم علينا أن نصطاد يوم السبت فعلياً أن نحتال . وصنعوا كيساً من السلك المضفر الذى نسميه « الجوبية » وهم أول من صنعوا هذه الجوبية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فىأتى السمك يوم السبت ويدخل فى الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد . وفى هذا اعتداء . أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفى هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله ؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أهلها لغيرهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ
أَوْ مَعْدِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

وحيثما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلا بد أن هناك أناساً قيل لهم هذا القول .
إذن ففيه « قوم واعظون » ، و« قوم موعوظون » ، و« قوم مستكرون وعظ
الواعظين » . وهكذا صاروا ثلاث فرق :

الذين قالوا وعظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله ؟ هؤلاء هم المؤمنون حقاً .
وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصلحاء
من أهل القرية الذين يشوا من صلاح حال المخالفين للمنهج .
وحيث ندقق في الآية :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأعراف)

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن
وعظوا ؛ لأنهم رأوا أن الوعظ مع الخارجين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله
لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك . وهنا
قال بعض بنى إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين في الكفر ، لماذا ترهقون
أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون ؟ :
﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

وما هي المعذرة إلى الله ؟ . يقال : عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان في

ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر في فعله ، كأن تقول : لقد جعلتني انتظرك طويلاً وتأخرت في ميعادك معي . أنت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر في ميعادٍ ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت مني السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر . إذن فمعنى « العذر » هو إيداء سبب لأمر خالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أنذر ، والحق يقول :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة التوبة)

ونعلم أيضاً أن هناك مُعَذِّراً ، ومُعَذَّرًا . والمُعَذِّر هو من يأتي بعذر كاذب ، والمُعَذَّر هو من يأتي بعذر صادق . وقال الواعظون : نحن نعظهم ، وأنتم حكمتهم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكننا لم نياس ، وعلى فرض أننا نيسنا من فعلهم ، فعلى الأقل نكون قد قدمنا لربنا المعذرة في أننا عملنا على قدر طاقتنا .

وكلمة « وَعَظَ » تقتضى أن نقول فيها : إن هناك فارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم ؛ فالوعظ أن تكرر لموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله . كأن تقول لإنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها .

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت الوعاظ . وهم من يقولون للناس الأحكام التي يعرفونها ، ليعملوا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد .

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ ليس مراداً به الفئة التي لم تفعل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به الفئة الموعوظة ، كأن الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا ؟ . ونقول : لا ؛ لأن عجز الآية ينافي هذا . فالحق يقول : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ﴾ .

ومجىء « لعلمهم » يؤكد أن هذا خبر عن الغير لأنه من الموعوظين . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَتَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَعْضِهِمْ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ١٦٥

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين أهلكتهم الله بالعذاب الشديد جزاء لخروجهم فسوقهم عن المنهج وأنجى الله الفرقة الواعظة . وماذا عن الفرقة الثالثة التي لم تنضم إلى الواعظين أو الموعوظين ؟ الذين قالوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ إن قولهم هذا لون من الوعظ ؛ فساعة يخوفونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ يدل على أنه قد وعظهم غيرهم وذكروهم . ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا من وعظهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد ؛ فالمسألة ليست تعنتاً من الله ؛ لأنهم السبب في هذا ، إما بفسق ، وإما بظلم للنفس .

ويتول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَاسِيَةً ﴾ ١٦٦

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يزهق حياتهم ويميتهم ؛ لأن العذاب هو إيلام من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهى الإحساس بالألم ، ولتتعرف على الفارق بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول سيدنا سليمان حين تنبه لغياب الهدهد عندما وجد مكانه خالياً :

﴿ مَا لِي لَا أَرَىٰ لَهُدًى أَمْ كَانِ مِنِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿ لَا عَذَابَ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾

أَوْ لَا أَدَّبَجْنَهُ ۗ ﴿

(من الآيتين ٢٠ ، ٢١ سورة النمل)

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه ﴾ و « عتوا » تعنى أبوا وعصوا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذى أوضحه قول الحق : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ .

لأن « العتوا » كبرياء وإباء ؛ فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات ، فصيرهم أشباه القرود ، كل منهم مفضوح السيئة ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قردة ؟ . نعم ؛ لأنك حين تأمر إنسانا بفعل . . ألا تُقدِّر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل ؟ . وحين يقول الله : ﴿ كونوا قردة ﴾ فهل فى مكتبتهم أن يصنعوا من أنفسهم قردة ؟ . ونقول : إن هذا اسمه « أمر تسخيري » أى اصبحوا وصيروا قردة . وقد رأوهم على هذه الهيئة من وعظوهم ، وهى هنا مقولة « خبر » نصدقه بتوثيق من قاله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمن شاهده .

ولذلك نجد المعجزات التى حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذى وصلنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبرونا بالخبر ، وكان ذلك آية تُثَبِّت يقينهم وإيمانهم . وثبت لنا خبراً ، فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك ؛ لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، وكل معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويذعن .

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ بأنه أوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قردة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عمّا نهوا عنه . والذين وعظوهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .

وهل الممسوخ يظل ممسوخاً؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالماً ، ثم بعد ذلك يموت وينتهي .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ
مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

وتَأَذَّن نجد مادتها من الهمزة والذال والنون ، فمنه أذُن ، ومنها أذَان ، وكلها يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هي الأذن والسمع ، حتى الذي سنُعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » إلخ ، ثم تهجأها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل في المعلومات ، ونقرأ في القرآن :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

وأذنت لربها .. أى سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها : « انشقى » امتثلت وانشقت .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

والكلام هنا بالنسبة لبنى إسرائيل ، وبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين فى أن يفعلوا ، « فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال

فى نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولماذا ؟ .

لأنهم منسوبون لدين ، والله لا يسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله له رسولا . ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً ؛ إذا فسد مع كون الناس ويعلمون عنه أنه تابع لنبي ، وأن له كتاباً ، حينئذ يكون أسوة سيئة فى الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد منسوب لمن هو منسوب إلى الله . وعرفنا أن مادة أذن كلها مناط الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْئِدَةَ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

إن الحق - سبحانه - يسمي العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أى ليس عندهم شيء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لنا وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهى وسائل العلم التى تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها فى أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد - كما قلنا سابقاً - ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يظرف ؛ لأن عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت فى أذنه وصرخت انفعل .

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ، ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون للطفل مثلاً : إياك أن تقبل على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها ، فتلمسه مرة واحدة ، وبعد أن لسعته النار مرة واحدة ، لم يعد فى حاجة إلى أن يتكرر له القول : بأن النار محرقة . فقد تكونت عنده معلومة عقلية . فأولاً

يأتي السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتي الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أمدمكم بوسائل العلم ليخرجكم من أميتكم .

وهناك لفظة إعجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هي الآلة التي تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففي طبيعة تكوينها حجاب لتغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمناطق السمع واحد ، لكن في أي منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة في أن تراه ، فتفتح عينيك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مراتبها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك في أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختيار في أن ترى أو لا ترى ، وهذه أمور رتبها لنا الحق في القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد في السمع ، وجمع في البصر مع أنهما في مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جاءت في القرآن :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هي الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا في آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة السجدة)

هنا قَدِّمَ الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتي سنرى تغيراً في الكون قبل أن نسمع شيئاً .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعِّثَنَّ عَلَيْهِمُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْسِمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٧﴾﴾

(سورة الأعراف)

وتأذن أى أعلم الله إعلاماً مؤكداً بأنكم يا بنى إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مضداً لقوله الحق :

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ لِقَوْمٍ بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

وكذلك مثلما حدث من يختصر ، وهتلر . إذن « وإذ تأذن ربك » أى أعلم ربك إعلاماً مؤكداً ؛ لأن البشر قد يُعلمون بشيء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكن يعملوا ما أعلموا به ، فإذا أعلمت أنت بشيء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أما الله - سبحانه - فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يُعلم بالشىء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعده على أن ينفذ . مثال ذلك : صحابة رسول الله الأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ؛ منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوى يحتوى به ، فينزل الله فى هذه الظروف العصيبة آية قرآنية لرسول الله يقول فيها :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿١٢٥﴾﴾

(سورة القمر)

وتساءل البعض كيف يُهزمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أى جمع يُهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يثب فى الدروع وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ، فعرفت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أعلم بالنصر ، وهو قادر على إنفاذ ما أعلم به على وفق ما أعلم ؛ لأنه لا يوجد إله آخر

بصادمه . إذن « وإذ تأذن ربك » يعنى أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحيثية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

أى يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلق بينه وبينهم ، فلا يمنهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثا قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ لِيُؤْذُوهُمْ أَذًا ﴾

(سورة مريم)

أى أنه - سبحانه - أرسلهم لهذه المهمة وخلق بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : « وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة » .

وكلمة « إلى يوم القيامة » تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى فى الكون كخميرة (عكنة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا؟!

هم يقومون بمهمة الشر فى الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود فى الوجود ، وبعض الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهاقت على الحق وعلى الخير . فالشر - إذن - جاء لبعض الناس بالآله وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعتمل فى صدور المسلمين وأقوى نزوع حركى إلى الإسلام حين يجدون من يضطهد قضية الإسلام .

إن مهمة الشر فى الوجود أنه يجمع عناصر الخير فى الوجود ، ومهمة الباطل فى الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير. ولولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يُسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

(ويسوم) من مادتها سام، ونسمعها في البهائم ونسميها السائمة وهي التي تطلب مقومات حياتها، وليس صاحبها هو الذي يجهز لها مقومات حياتها. أما البهائم التي تُربط وليست سائمة فهي التي تجد من يجهز لها طعامها، إذن أصل «سام» أى طلب، وبهيمة سائمة أى تطلب رزقها وأكلها بنفسها.

و «سام» أيضاً أى طلب العذاب. ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته في التعذيب. فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب، أى أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهد طاقته، فإذا فترت طاقته أو ضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره.

إذن فطلب العذاب معناه أنه: عَذَّبَ هو، ولم يكتف بأنه عَذَّبَ بل طلب لهم عذاباً آخر، و «يسومهم سوء العذاب» أى العذاب السيء الشديد. ويذيل الحق الآية بقوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

ومعنى سرعة الشيء أن تأخذ زمناً أقل مما يتوقع له؛ لأن السرعة هي اختصار الزمن. «لسريع العقاب» هي للدنيا وللآخرة، فساعة يقترفون ذنباً. يسلط عليهم من يعذبهم في الدنيا، أما الآخرة ففيها سرعة عالية؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هي عمر الدنيا، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهي الدنيا بالنسبة له. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته»^(١).

إن هناك سرعة لحساب الآخرة. وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهي الدنيا، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أى إنسان تقربه من العقاب، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا.

(١) رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً.

وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب « وإنه لغفور رحيم » قد نجد من يسأل كيف والحديث هنا عن العقاب ؟ ونقول : إنه سبحانه الذي يتكلم . وهو القادر ، فإذا قال : إنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظلمة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه - سبحانه - يأتي بالمقابل لكي يشجع كل إنسان على الدخول في رحمته .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ أَتْنَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّةً ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولكن القول هنا يجيء لمعنى آخر : ﴿ وقطعناهم في الأرض أُمَمًا منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لا يبقى لهم وطن ، ويعيشون في ذلة ، لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضاً منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم . وهنا يقول الحق : ﴿ وقطعناهم في الأرض أُمَمًا ﴾ .

ومعنى « قطعناهم » أي أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتي في نفسها ، وأيضاً لا تشيع في المكان الذي تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يدوبون في المجتمعات أبداً ، - كما قلنا - فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حياً خاصاً ، كذلك في

فرنسا ، وألمانيا ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق ذلك بعد أن قال لهم :

﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢١. سورة المائدة)

فبعد أن منَّ عليهم بأرض يقيمون فيها ، قالوا :

﴿ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤. سورة المائدة)

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطناً واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم في الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط في دائرتهم التي يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن للعالم كلها أن فسادهم فساد عام . ولذلك فهم إن اجتمعوا في مكان فلا بد أن تتألب عليهم القوى وتخرجهم مطرودين أو تعذبهم ، وأظن حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل في شرح قوله الحق :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤. سورة الإسراء)

لقد قلنا : إن السكن في الأرض هو أن يتبعثروا فيها ؛ لأنه - سبحانه - لم يحدد لهم مكاناً يقيمون فيه ، فإذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضربة واحدة ، ويأتي الحق بهم لفيماً تمهداً للضربة القاصمة : ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

هناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بناية للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالذي دخل منهم في الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، والحق قد قال :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٥٩)

(سورة الاعراف)

وقلنا إن هذه تسمى صيانة الاحتمال لمن يفكرون في الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ . و « دون » أى غير ، فالمقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون في القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً . فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط . ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الاعراف)

كلمة « لعلهم يرجعون » هى التى جعلتنا نفهم أن قول الحق سبحانه وتعالى : إن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أى كافرون ؛ لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق بـ ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و « بلونا » أى اختبرنا ؛ لأن الله فى الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك لأنه - سبحانه - عالم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلى لا يُعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أنغرننا الأسباب فى الدنيا عن المُسبب الأعلى الذى وهبها :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٧﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَضَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة العلق)

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها فى مظان الخير لها . فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار . إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أى ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إننا نجد من يقول : « ربي أكرمن » . ومن يقول : « ربي أهانن » والحق بوضوح : أنتما كاذبان . فليست النعمة دليل الإكرام ، ولا سلب النعمة دليل الإهانة . ولكن الإكرام ينشأ حين تستقبل النعمة بشكر ، وتستقبل النعمة بصبر . إذن مجيء النعمة في ذاتها ليس إلا اختباراً . وكذلك إن قدر الله عليك رزقك وضيقه عليك ، فهذا ليس للإهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

ويوضح الحق جل وعلا :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أنتم لا تطعمون في مالكم يتيماً ولا تحضون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة ؟ إنه نعمة عليكم . وهنا يقول الحق : ﴿ ويلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ . والله المثل الأعلى ، نقول : إن فلاناً أتعبني ، لقد قلبته على الجنين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سخائي عليه نفع فيه ، ولا ضني عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بنى إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تأصل فيهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ

مَثَلُهُ، يَا خُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّارِ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾

والخَلْفُ أو الخَلْفُ أو الخليفة هو من يأتي بعد ذلك ، ويقال : فلان خليفة
فلان ، ومن قبل قرأنا أن سيدنا موسى قال لسيدنا هارون :

﴿ أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

أى كن خليفة لى ، إلا أنك حين تسمع « خَلْفٌ » بسكون اللام ، فاعلم أنه فى
الفساد ، وإن سمعتها « خَلْفٌ » بفتح اللام فاعلم أنه فى الخير ، ولذلك حين تدعو
لواحد تقول : اللهم اجعله خير خَلْفٍ لخير سلف . وهنا يقول الحق : ﴿ فخلف
من بعدهم خَلْفٌ ﴾ . والحديث هنا عن أنهم هم الفاسدون والمفسدون ، والشاعر
يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجر

الشاعر هنا ييكى موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان
يعيش فى رحاب كرمهم وسماحتهم ؛ فقد ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم أى
جوارهم ؛ لأن هذا الجوار كان نعمة أيضاً . وحين يجاور رجل ضيق وقدير عليه
رزقه رجلاً طيباً عنده نعمة ، فتتضح عليه نعمة الرجل الطيب . والشاعر هنا قال :
« وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجر » أى أن جلده قريب ولاصق لكنه جلد أجر .

وعرفنا قصة « أبودلف » وكان رجلاً كريماً فى بغداد . يعيش فى نعمته كل
الناس ومن يحتاج يعطيه . وطراً طارىء على جار فقير له ، وأراد أن يبيع داره ،
فعرض الدار للبيع ، وسألوه عن الثمن الذى يرتضيه ، فقال : دارى بمائة دينار .

لكن جوارى لأبى دلف بألف دينار ، فبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال : إن رجلاً قدر جوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لحقيق ألا يفترط فيه . قولوا له : فليبق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال .

﴿ فخلق من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ . والكتاب هو التوراة ، والخلف أخذوه ميراثاً ، والشئ لا يكون ميراثاً إلا إذا حملة السابق بأمانة وأداءً للاحق ، ولكن لأنهم أهل إفساد فلزم ماذا فعلوا في الكتاب ؟ لقد ورثوه . ويبلغ إليهم وعرفوا ما فيه .

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

أى لا حجة لهم فى ألا يكونوا أصحاب منهج خير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما فى الكتاب - التوراة - من المواثيق ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا ؛ لم يلتفتوا لكل هذا ؛ لأنهم قالوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطى النعيم البعيد فى الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ . وبذلك أخذوا عَرَضَ الحياة الأبدى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمنهج الله ، والدنيا فيها جواهر وأعراض ، والجوهر هو الشئ الذاتى ، فالإنسان بشحمه ولحمه « جوهر » أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا عَرَضٌ ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وغنياً أو فقيراً فهذا عرض . إذن فالأعراض هى ما توجد وتزول ، والجواهر هى التى تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق : الجوهر ما قام بنفسه ، والعرض ما قام بغيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل فى المال الحرام ، وأن يعيشوا ويستحلوا الرشوة . ونعلم أن الإنسان - حتى المؤمن - قد تحدث منه معصية ولا يبيع ربنا هذا ؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذن بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

إن معنى هذا القول أن المؤمن قد تسول له نفسه أن يسرق مثلاً ، ولم يترك

الحق هذا الجرم بدون عقوبة . وإن رأينا مسلماً يسرق ، نقل له هذا فعل مُجْرَمٍ من الإسلام ، وله عقوبة ، والمُجْرِم لا يمكن أن يرتكب الجُرْم وهو ملتزم بالدين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنباً أو معصية ثم يندم ويتوب ويعزم على أنه لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو ألحَّت عليه معصيته فيعود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه في كل مرة لا يضر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب . وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا ، بل إنهم لم يفكروا في التوبة ، ووجدنا منهم من يقول :

﴿ تَحْنُ أَبْنَوْا لَآلِهَ وَأَحْبَبُوهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

ويأتي الرد :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

إذن هم يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويحكمون في أخذهم بهذا العرض أنه سبحانه سوف يُغْفِر لهم . وبذلك استحلوا الحرام وانتقلوا من منطقة المعصية إلى منطقة الكفر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تفعل الشيء وتقول هو معصية . لكن أن يرتكب الإنسان المعصية ويقول : ليست بمعصية ، فهذا انتقال من العصيان إلى الكفر . ومثال ذلك الربا حين نجد من يحلله ، نقول له : أقبُل أن تكون عاصياً ولا تدخل نفسك في الكفر ؛ لأنك إن حللت ما حرم الله يقع عليك الكفر وتوصف به والعياذ بالله ، أما إن قلت : هو حرام ولكن ظروفى صعبة ولا أقدر على نفسى فقد يغفر الله لك . لكن قوم موسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا :

ويقول الحق : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ .

وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرض الحياة الأدنى ويتمادون في غيهم ويرتكبون المعاصى تلو المعاصى دون أن يدقوا باب التوبة . لذلك ينبههم الحق سبحانه :

﴿الرَّيُّوْخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

لقد ورثوا الكتاب ، وفي الكتاب قد أخذ عليهم عهدٌ موثقٌ ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق ؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما في هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾

وكلمة « دَرَسَ » تدل على تكرر العمل ، فيقال : « فلان درس الفقه » أى تعلمه تعلماً متواصلاً ليصير الفقه عنده ملكة . وهو مختلف عن قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصبح الفقه عنده ملكة . وحتى نفهم الفرق بين « العلم » و« الملكة » ، نقول : إن العلم هو تلقى المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آية ، فهذا هو من امتلك ناصية العلم حتى صار العلم عنده ملكة . إذا التقى صائم مثلاً - بفتيه وسأله عن فتوى في أمر الصيام يجيبه فوراً ؛ لأنه علم كل صغيرة وكبيرة في الفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئاً في الأزهر فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليعثر على الإجابة ؛ لأن الفقه لم يصبح لديه ملكة . والملكة في المعنويات هي مقابل الآلية في الماديات التي تحتاج إلى دُرْبَةٍ ، فمن يمسك النول لينسج النسيج ويتقن تمرير المكوك بين الفتلتين لا يفعل ذلك إلا عن دُرْبَةٍ . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

إذن فقوله : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أى تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا ما فيه من علم . ونحن أخذنا « درس العلم » من مسألة حسية هي « درس القمح » ، ويعلم من تربى في الريف كيف ندرس القمح ، حين يدور النورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى « درس القمح » .

إن ما فعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق في ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما في الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتي لنا بمقابل العرض الأدنى فيوضح لنا أن مصير من يريد الدار الآخرة هو الثواب الدائم ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

من الآية ١٦٩ سورة الاعراف

وهذا يعنى التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير ، وأن تركوه إن كان يعطى الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

إِنَّا لَنُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١٧)

إن الكثير من بنى إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرض الأدنى ، ولم يزنوا الأمور بعقولهم ؛ لذلك لم يتمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هواهم ؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذى ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ؛ فالذى يجعل الانسان متصلاً بالشىء هو ماسكه ، وتقول : « مَسَكَ » وتقول : « مَسَّكَ » ، و « أمسك » ، وتقول « استمسك » ، و « تماسك » ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : « يمسكون » مبالغة فى المسك ، مثل قطع وقطع ، ولكن قطع أبلغ .

و « مَسَّكَ » يعنى أن الماسك تمكن مما يمسك ، و « استمسك » أى طلب ، و « تماسك » أى أن هناك تفاعلاً بين الاثنين ؛ بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب . بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملت إلى القرب منى والزلفى إلى ، فاترك الباقي عنك فالمعونة منى أنا ، ولذلك يدلنا على أن من ينفذ منهج القرآن لا يلقي الهوان أبدا ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ وهنا يستخدم

الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسك ، فمن وجه نيته في أن يفعل يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي :
 « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء ، ذكرته فى ملاء خير منه ، وإن تقرب إلىّ بشبر ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى ، أتيت هرولة^(١) . »

فأنت بإيمانك بالله تعزز نفسك وتقويها بمعونه الله لك . فإن أردت أن يذكرك الله فاذكر الله ؛ فإن ذكرته فى نفسك يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملاء يذكرك فى ملاء خير منه ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، فماذا تريد أكثر من ذلك ، خاصة أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن فالموقف فى يدك ، فإذا أردت أن يكون الله معك فسر فى طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به .

ولذلك قلنا من قبل : إن الإنسان إذا أراد أن يلقي عظيماً من عظماء الدنيا وفى يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما ألا يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير مكتبه عن الموضوعات التى ستتكلم فيها ، وحين تقابله وينتهى الوقت ، فهو يقف من كرسيه لينهى المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم الأعظم الأعلى الذى تلتقى به فى الإيمان ؟ أنت تلقى الله فى أى وقت ، وفى أى مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذى تنهى المقابلة ، ألا يكفى كل ذلك لتستمسك بالإيمان ؟

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَنُنْضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١٧٠)

(سورة الاعراف)

والكتاب هنا هو الكتاب الموروث ، والمقصود به التوراة وهو الذى درسوا

(١) من صحيح البخارى فى كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه بثلاث طرق عن أبى هريرة ،

كما أخرجه الترمذى وابن ماجه .

ما فيه ، وقد أخذ الله في هذا الكتاب الميثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإسلام - غير الصلاة - قد فرضت بالوحي .

لقد قلنا من قبل والله المثل الأعلى ، إن رئيس أى مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً روتينياً ، فهو يوقع الورق الذى يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : « يعرض على فلان » ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ، فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية فى الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم للولاء لله خمس مرات فى اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك تنفلاً وتهجداً فعلت .

إنك بالصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالى الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم فى شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة فى العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ؛ لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إنها الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تفصل ، ويكفى أن ينطقها الإنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتى أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان مال يخرج عنه الزكاة ؛ فلا يجب عليه إخراج شيء حينئذ ، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم .

إذن فبعض فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهى لا تسقط أبداً ؛ لأن فى الصلاة فى ظاهر الأمر قطعاً لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف الساعة ، فالإنسان يقطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم فى أداء الصلاة . والوقت عزيز عند الإنسان . ففى الصلاة بذل لبعض الوقت الذى يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالا ، وفيها أيضا الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات ، ففيها كل مقومات أركان الإسلام ، لذا فهى لا تسقط أبداً .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

(من الآية ١٧٠ سورة الأعراف)

إذن الاستمسك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمسك بمنهج الإيمان . ولذلك نسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسى والإشراق الروحى ، وعشنا مع التجلى والنور الذى يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هوربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، ساعة كنت تسمع الأذان كنت تجرى وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كأحد المصلحين . لأنه القائل : ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وقوله : ﴿ لا نضيع أجر المصلحين ﴾ بعد قوله : ﴿ يمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ دليل على أن أى إصلاح فى المجتمع يعتمد على من يمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استمدت أنت صلتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ

بِهِمْ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تُنْقَوْنَ ﴿١٧١﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المندمجة فى بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : ﴿ والجبال أرساها ﴾ ولا يقال أرساها إلا إذا كان وجد شيء له ثقل ، فأنت لا تقول : « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول : « أرسيت لوح الزجاج على المكتب ليحميه » ، وأنت بذلك ترسى شيئاً له وزن وثقل .

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها في الأرض أوتادا، والوتد - كما نعلم - ممسوك من الموتود والمثبت فيه، بدليل أنه لو تخلخل في مكانه نضع له ما نسميه «تخشينة» لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه، وهنا يقول الحق: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ «نتقنا» أى قلعنا، وهناك قول آخر:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْلَهُمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾

فِي السَّبْتِ ﴿

(من الآية ١٥٤ سورة النساء)

وقال الحق أيضا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

وهنا اختلاف بين «نتق» و «رفع»؛ لأن الجبل راس في الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض، ثم يأتي من بعد ذلك الرفع، و «نتقنا» تعنى نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم، أى أن هناك ثلاث عمليات: نتق أى نزع وخلع، ثم رفع، ثم جعله سبحانه ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه في المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول: «وَإِذْ» أى اذكر إذ نتقنا الجبل، أى نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أى لنجعله ظلة، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة «عذاب»؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له: إن أحكام هذه التوراة شديدة وللإنسان أن يتساعل: لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التى جاءت لمصلحة البشر؟. وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم ﴿كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾.

لذلك نجد أن كل يهودى يسجد على حاجبه الأيسر، على الرغم من أن السجود

يقتضى تساوى وضع الجبهة على الأرض، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأوا الجبل فوقهم وتملكهم الخوف من سقوط الجبل، وكانوا يسجدون وفي الوقت نفسه يرقبون الجبل، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم، وصاروا لا يسجدون إلا على حاجبهم الأيسر، بسبب حكاية الجبل الذي نتقه الله وقلعه ورفع فصار فوقهم. ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾.

والظن هو رجحان قضية، وقد أتى ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين، مثل قوله الحق: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾.

وحين بقيت الحالة هذه، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويتمردون على ما فيه؛ لذلك قال لهم الحق:

﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

و«خذوا» فعل أمر، والأمر يقتضى أمرا، ولا بد له من شيء يأمر به. وكلمة «القوة» هذه هي الطاقة الفاعلة، والأصل في الكون كله أن نقبل على كل شيء بقوة؛ لأن الكون الذى تراه مسخرا ليس له رأى فى أن يفعل أو لا يفعل، بل هو فاعل دائما إذا أمر، وكما قلنا من قبل: لم تغضب الشمس على الناس وقالت: لن أطلع هذا اليوم، وكذلك لم يمتنع الهواء، وأيضا لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث، أو أن ينظفه صاحبه ويأتى له به «البرذعة» ليجعله ركوبة متميزة، الحمار إذن لا يعصى هنا ولا يعصى هناك، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴿١٧١﴾﴾

(سورة يس)

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف، والمحكوم بالغريزة الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلى، ومع هذا الاختيار

فالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يدري عنها شيئاً مع أن بها قوام حياته، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له: دق، والرئة كذلك وحركة التنفس، والحركة الدودية في الأمعاء، والحالب، ويرغب الإنسان في دخول دورة المياه عندما تمتلئ المثانة بالبول، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبداً، والأمور المحكومة بالغرائر ليس لنا فيها اختيار، كأن يأكل الإنسان ويتكلم في أثناء تناول الطعام فتنزل حبة أرز في القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال، هذا اسمه «غريزة» أي أمر غير محكوم بالفعل الاختياري.

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاماً فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه. أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع، وحين يقول له مُضيفه - على سبيل المثال - : أنت لم تذوق هذا اللون من اللحم، فيأكل. ولهذا نجد أن الأمراض في الإنسان أكثر من الأمراض في الحيوان؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضربه وتؤذيه.

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان، نجد الإنسان يغلى النعناع ويشربه، ويطبخ الملوخية ليأكلها، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية، رغم تشابه أوراقهما. لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب، وهما يعلان ذلك بالغريزة، فالمحكوم بالغريزة له نظام، ولو كان الحيوان مختاراً لارتبكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها.

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة، وهذه القوانين موجودة في الكون لتخدمنا نحن بنى البشر. فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن نتفع بها، لكن بعد ذلك انتفعنا بها، وكذلك الجاذبية، كانت موجودة في الكون منذ الأزل، لكننا لم نتبها لها، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار في

بعض الأمور، وله جهة قهر في البعض الآخر، فهو يشارك الكون في القهر، ويتميز عن بقية المخلوقات - عدا الجن - بالاختيار في أمور أخرى. ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذي يعاني قلبه من ضعف ما، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً ينهج ويتابع نفسه من الإعياء وكثرة الحركة، لأن غريزته المحكوم بها تُنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطي الأوكسجين الذي يساعد على الصعود.

ومثال آخر، نجد الذكر من الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها، فإن وجدها حاملاً لا يقربها، والحيوان في هذا الأمر مختلف عن الإنسان؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التي تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع، ومادامت الأنثى قد حملت، فالذكر لا يقربها، فاختلف الإنسان عن الحيوان في هذا الأمر؛ فلذة الإنسان في الجنس أعلى من لذة الحيوان؛ لأنها في الحيوان ترضخ للغريزة فحسب، أما في الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضاً للاختيار الذي منحه الله للإنسان

ومن رحمة الله - إذن - أن يكون الإنسان مقهوراً في بعض الأشياء ومختاراً في أشياء أخرى، بـ «افعل» و «لا تفعل» حتى يختار بين البديلات.

وهنا يقول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾

أى خذوا ما آتاكم في الكتاب بجد واجتهاد. وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم في شرح معنى القوة. وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقع المادى، فصرنا نرى الطاقة التي تعطي القوة. وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية، القانون الأول والثاني والثالث، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه، فإن كان ساكناً يبقى على سكونه إلى أن يأتي محرك يحركه. وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسه ماسك. وسمى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتى. أو التعطل، أى أن الساكن يُعطل عن الحركة إلا أن يحركه محرك، والمتحرك يُعطل عن السكون إلا أن يوقفه موقف، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير، فإنك تظل ساكناً، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشيء.

وفى الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتى بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً، ثم يحرك المفرش بخفة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش.

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة، وقلنا: إنَّ العطالة تعنى أن الساكن يتعطل عن الحركة، والمتحرك يتعطل عن السكون، وهذه هى القضية المادية فى الكون التى خدمت العلم الفضائى الخاص بسفن الفضاء والصواريخ. ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور فى الفضاء بالوقود، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذى يسيرها لسنوات، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة إنَّها بدون وقود، وهى تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكونى، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف. ونرى ذلك فى التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنتطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصددها، وهى تقع بعد مسافة معينة؛ لأن الهواء يقابلها فيصدم الحركة إلى أن تتوقف، أما فى الفضاء الخارجى فليس هناك هواء؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء، لأنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة.

وهذه السفن الفضائية تعتمد فى صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجى. والصواريخ تسير بالغاز المتفطت الذى أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن، وهو القانون القائل: إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاده فى الاتجاه، وحين يسخن هذا الغاز المتفطت يخرج من خلف الصاروخ بقوة فيندفع الصاروخ للأمام.

وهكذا نرى قول الحق: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ فى الواقع المادى والواقع القيمى. وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين فى بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها، فالواحد منهم لا يصلى، ولا يزكى، ولا يقول كلمة معروف، وهو فى ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله. ونجد أيضاً من غير المتدينين من يشرب خمرة. أو يزنى أو يسرق أو يرتشى. وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصدده

عن مثل هذه الحركة. ولذلك نقول: إن الإنسان في أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين: الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير، وإن كان متحركاً إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيماني في «افعل»، و«لا تفعل». فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صل. ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه، إذن فالقوة الشرعية تكون في المنهج بـ «افعل» ليحرك الساكن، و«لا تفعل» ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة في ضوء المنهج.

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستغلق علينا في قوانين الكون، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمناها نحن في إطار الماديات والمعنويات، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين في الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم، بل علينا أن نشحذ الهمم لتتقدم في العلم الذي يسير أمور الحياة، ولنعلم أنه لا شيء ينشأ فينا فطرة جديدة؛ لأن البشر من قديم مفظورون على الفطرة السليمة التي تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد. بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين، وهم يبحثون وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شيء لا يظن وجوده. ولأنهم جميعاً يعلمون أن الإنسان طرأ على كون، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعاً أن تأتي بمثلها، إذن لا بد لهذا الكون من خالق.

لقد بينا أن القوانين التي تظهر لنا في المادة تتماثل مع قوانين القيم، إلا أن الناس يتهافتون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شراً، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التي تحقق له السعادة العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة، أما قوانين المادة في الأرض فتركها الله لنشاط العقل، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها، ويتهربون من قوانين القيم لأنها تحد من شهوات النفس، وتتعب بمشقة التكليف، فشاء الحق

سبحانه وتعالى أن يقول فيها :

﴿ خُذُوا مَاءَ آيَاتِنَا بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الاعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم فى الفعل ورد الفعل، لنفهم أن كل حركة للشرد قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له فى الحركة ومضاداً له فى الاتجاه، فإن كنت ترتاح فى هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذى يأتىك بالعقاب عليه، وكذلك مشقات التكليف، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَقْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى هذا القول فعل ورد فعل، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنىء فى الآخرة. ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة التوبة)

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل. ويأتى الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾

(سورة الدخان)

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فلسوف تتلقى العقاب .

ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . وإياكم أن تطرأ عليكم الغفلة من هذه الناحية ، فالذى يتعب الناس في مناهج الله أنهم يغفلون عنها ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء ، والمعاصي تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل في هذه القيم .

ونعلم أن لذكر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأنا أعظ من علم الحكم ؛ لأنى أريد أن يفعله ، فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الواعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاعنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل في تطبيق هذا العلم . ونظلم ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

ولماذا هذا التذكير ؟ . يجيب الحق :

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهي عن المنكر عظة قولية ، ويعددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول في الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فقلبه وهذا أضعف الإيمان » (١) .

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهي وهو قول أيضاً إلى أن يباشرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ومجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين

المعلومة التي تدخل الذهن، وحمل النفس على مطلوب المعلومة. ولذلك نحن ندرس الدين في مدارسنا، وندرس فيها أيضا الجبر والهندسة، والكيمياء، والطبيعة، والمتعب ليس تدريس الدين، بل الذي يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين. لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء، فهذه علوم تعطى الإنسان خيرا في الدنيا فيذهب لها، لكن مسألة الدين مسألة قيم؛ لذلك لا يكفي أن نعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم، وتنفيذ هذه المسألة يكون بالتطبيق في سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة.

وهب أن الذي يُعلم الدين يدرسه معلومة ويدخلها في نفوس التلاميذ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نضحاً على سلوك من علمها، ماذا يكون الموقف؟. هنا تضعف ثقة التلميذ في أستاذه، وتضعف ثقته في الدين؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه، وفي هذا فشل في تعليم منهج الدين. والخطأ إذن في أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية، لا. إن تعليم الدين يقتضى تنفيذ ما فيه من معلومات، عكس العلوم الأخرى التي تعطى المعلومة فقط. وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها في حياته انتفع، وإن لم يرد فهو حرق في ذلك.

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر، ومرة يكون بالفعل، « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه »، وماذا يعنى التغيير باللسان؟. يعنى أن الإنسان إن كان عنده حسن تأد واستعداد للعة ومعرفة أدب النصح فله أن يقبل على تناول العظة. وليس كل إنسان صالحاً لأن ينصح؛ لأن المنصوح يخالف المنهج، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج، إنه يخرج عما ألف وأحب، لذلك يجب أن يتلطف الناصح في النصح.

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء، والدواء قديماً كان كله مرراً. وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء. وحين ارتقت صناعة الدواء، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب الحرارة. ليلتطفوا مع مريض الجسم، فما بالناس بمريض القيم؟. إنه يحتاج إلى المسألة نفسها. لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً، ولا نجتمع على المنصوح بين

أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب، ولذلك قلنا: إن النصح ثقيل، لأنك حين تنصح إنساناً فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وهو أقل منك في ذلك، وهذا هو أول مطب، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه. ولهذا قالوا في الأثر: النصح ثقيل فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً. وقيل أيضاً: الحقائق مرة فاستعبروا لها خفة البيان. هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمتع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيّر على المغيّر، وهذا لا يأتي إلا بأن يكون للمغيّر مقدمة وسابقة مع المغيّر يثبت فيها المغيّر أنه يحب مصلحة المغيّر. وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول: كأن تكون أباه أو أمه، والأب والأم يقومان برعاية الابن، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً. وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن. وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب. فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئاً من المعروف فيتحمل منك النصح.

ومثال آخر: افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة، وبعد ذلك قالت لك أمه: إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن. ثم تأتي له بالساعة وتقول له: يا ولد أنت أردت مني ساعة وأحضرتها لك، وتناولها له وتقول: إن أمك قالت لي إنك غير مهتم بدروسك، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة. وقد توجه له توبيخاً فيضحك لأنك قد حننت قلبه، وبينت له أنك تحبه فيقبل النصح، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته. إذن للتذكير ألوان متعددة: عظة بالقول، وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب.

﴿واذكروا ما فيه لعلمكم تتقون﴾ والأصل في التقوى أن تتقى شيئاً بشيء؛ تتقى مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه، وهي تأتي كما علمنا في المتقابلات؛ فالحق سبحانه يقول

﴿وَأَنْتُمْ أَلْسَارُ الَّتِي أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

(سورة آل عمران)

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساءل : كيف يقول : « اتقوا الله » ، و« اتقوا النار » ؟

نقول : نعم ؛ لأن اتقوا الله تعنى اتقوا غضب الله عليكم ، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية ، ولا بد أن تجعل بينك وبين النار وقاية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كما علمنا له صفات جلال وصفات جمال ، وصفات الجمال هي التي تسعد الإنسان ككونه - سبحانه - " غفوراً " ، و " رحيماً " ، " باسطاً " ، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة ، فهو - جل شأنه - جبار ومنتقم . فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التي منها جبار ومنتقم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا
أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ



وإذ تنصرف إلى الزمن ، أى اذكر وقت أن أخذ الله من بنى آدم ، والأخذ هو الله ، والمأخوذ منه بنو آدم ، والشيء المأخوذ هو ذريتهم ، هذه هي العناصر . ولنتأمل

ذلك بدقة، إن الرب هنا هو الآخذ، وبنو آدم مأخوذ منهم، والمأخوذ هو الذرية. وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه، ولا بد أن نرى تصريحاً في هذا النص؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً، والمأخوذ بعضه.

والمثال: إن أنا أخذت منك شيئاً، فالمأخوذ منه هو الكل، والمأخوذ بنفسه هو البعض. لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه:

(لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم. فأعجبه وميض ما بين عينيه. فقال: أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت. فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى فنسيت ذريته. وخطى آدم فخطت ذريته) (١).

إذن ذرية آدم أخذت من ظهر آدم. وعرفنا من قبل أن كلاً منا قبل أن نحمل به أمه كان ذرة في ظهر أبيه، وأبوه كان ذرة في ظهر أبيه حتى آدم. وهكذا نجد أن كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية، هناك أناس يؤخذون - كذرية - ولا يؤخذ منهم، مثل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً، وكذلك آخر جيل تقوم عليه الساعة، ولن ينجبوا. وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق، وهو غير مأخوذ من أحد. وما بين الأب آدم وآخر ولد؛ مأخوذ ومأخوذ منه. وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه، وهكذا يستقيم المعنى.

(١) رواه الترمذى فى سننه وقال حديث حسن صحيح.

والمأخوذ منه آدم ثم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجيل الأخير الذى سينقطع عن النسل.

وأوضح النبي صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهر آدم وأخرج منه الذرية، وقال لهم : ألسنت بربكم؟ قالوا : بلى. وبهذا علمنا أن كل ذرة من الذرات قد أخذت مما قبلها، وأخذ منها ما بعدها؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه، اللهم إلا القوسين؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شيء، والقوس الثانى : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه؛ لأن الإنسان منا وجد من حيوان أبيه المنوى. ولو أن الحيوان المنوى أصابه موت لما أنجب الأب. ومن وُلد من حيوان منوى لأب، هذا الأب مأخوذ من حيوان منوى حتى من الجدد أيضاً، وسلسلها إلى آدم؛ ستجد أن كل واحد منا فيه جزىء حتى من لدن آدم لن يدركه موت أبداً.

لذلك يقول ربنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ولا تنقل إن الكل سيكون فى ظهره؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود فى ظهره، ومادام كل شيء يتكاثر فهو قد وجد من أقل شيء ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً. وقد أخذ ربنا من ظهور بنى آدم الذرية وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿ ألسنت بربكم ﴾؟

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على النطق؛ إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر؛ لتتحد مثلاً بـ "البويضة" فى رحم الأم؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمر صعب؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يتعلم عشر لغات، ويتزوج من أربع سيدات، وكل سيدة ينجب منها ذرية، ويقعد يوماً عند سيّدة وذريتها ويعلمها اللغة الإنجليزية مثلاً، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية ومكثداً، بل يستطيع أن يتفاهم حتى

بالإشارة مع مَنْ لا يعرف لغته. وإذا كان الإنسانُ يستطيعُ أن يعدد وسائل الأداء، ألا يقدر أن يعدد ربنا وسائل الأداء لمخلوقاته؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال :

﴿ يَا جِبَالُ أُوْبِي مَعَهُ ﴾

(من الآية ١٠ من سورة سبأ)

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أيًّا من مخلوقاته؟. إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر. وهو القائل سبحانه :

﴿ وَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء)

ونعلم من القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الإسراء)

وحتى ذرات يد الكافر تسبح، وإن كان تسييحها لا يوافق إرادته.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسييح داوود وتلاوته للزبور ، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق ، فنحن - على سبيل المثال - نقرأ في القرآن الكريم أن ربنا أوحى إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . إذن قلله مع خلقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات ، وله سبحانه خطاب بالفاظ ، وخطاب إشارات ، وخطاب بإلهام ، وخطاب بوحي ، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لذرية آدم : أألسنت بربكم ؟ فهذا يعنى أنه قالها

لهم باللغة التي يفهمونها، لأنه هو سبحانه الذى قال للسماء والأرض :

﴿ آثِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

(من الآية ١١ من سورة فصلت)

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها، ولو لم يُعَلِّمِ اللهُ سليمانَ كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة النمل)

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها، ولكن سليمان نبي من أنبياء الله، ولن يعتدى على خلق الله، والنملة التي تكلمت كانت تحرس بقية النمل. وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها .

إذن فالله عز وجل يخاطب جميع خلقه، ويجيبه جميع خلقه، فلا تقل : كيف خاطب المولى سبحانه الذر، والذر لم يكن مكلفاً بعد؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا فى هذه المسألة؛ لأنها فى ظاهرها بعيدة عن العقل، ويكفى أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلاً : ألسنت بربكم؟ قالوا : بلى. ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للفطرة المودعة فى النفس البشرية. وكأنه سبحانه قد أودع فى النفس البشرية والذات الإنسانية فطرةً تؤكد له أن وراء هذا الكون إلهاً خالقاً قادراً مدبراً.

وقديماً قلنا : هب أن طائفة وقعت بك فى صحراء، وحين أفقت من إغماءة الخوف؛ فكرت فى حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً، وأصابك غمٌّ من هذه الحالة فنمت، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطيب الطعام والشراب، ألا تتلفت لتسأل من الذى أقام لك هذه المأدبة قبل أن تمد يدك إلى أطيب الطعام؟ كذلك الإنسان الذى طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع؛ البديع

التكوين؛ ألا يجدرُ به أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون؟.

إننا نعلم أن المصباح الكهربى احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة، وحين نرى الشمس تنير الكون كله، ولا يصيبها كللٌ أو تعبٌ ولا تحتاج منا إلى صيانة، ألا نسأل من صنعها؟. وخصوصاً أن أحداً لم يدع أنه قد صنعها، وقد أبلغنا المولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذى خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً؛ فعنده، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عن صنع وخلق الكون لعنده.

وبما أن أحداً لم يدع لنفسه صناعة هذه الكائنات، فهى تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله. إذن فالفطرة تهدينا أن وراء هذا الكون العظيم قدرة تناسب هذه العظمة؛ قدرة تناسب الدقة؛ هذه الدقة التى أخذنا منها موازين لوقتنا؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن؛ ولولا حركة الأفلاك التى تنظم الليل والنهار؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية؛ لما استطعنا أن نعدّها مقياساً للزمن. وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

نجد أن كلمة "بحسبان" وردت مرتين، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى: أنه جعل الشمس والقمر بحسبان، أو حسابنا، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثاً بل لحكمة عظيمة.

﴿ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحَسَابَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

فقد أخذنا من دورة الشمس والقمر مقياساً، ولم تكن لنفعل ذلك إلا إن كانت مخلوقة بحساب؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة

والإحكام، لهذا يجب أن نلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته. لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أن هناك قوة ولا يعرف العقل اسم هذه القوة، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة، وكان لابد أن يأتي لنا رسول من طرف تلك القوة ليقول لنا مرادها، وجاء الموكب الرسالي فجاءت الرسل ليبلغ كل رسول مراد الحق من الخلق، فقال كل رسول: إن اسم القوة التي خلقتكم هو الله، وله مطلق التصرف في هذا الكون، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون في ضوء منهج عبادة الحق الذي خلق الإنسان والكون. وكل هذه أمور ما كانت لتدرك بالعقل.

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمان بقوة خالقة وراء هذا الكون، وتستوى العقول الفطرية في هذه المسألة. أما اسم القوة والمنهج المطلوب لهذا الاله فلا بد له من رسول.

وأرهب الفلاسفة أنفسهم في البحث عن هذه القوة ومرادها. وسموا مجال البحث "الميتافيزيقا" أي "ما وراء الطبيعة" وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان: ومن الذي قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟.

وغالبا ما يقول الفيلسوف منهم: إنها الفطرة التي هدتنى إلى ذلك. وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة. وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة، وهذا هو الخلل؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة، ولا يمكن له أن يتصورها. وغرق الكثيرون من الفلاسفة في القلق النفسى المدمر. وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان. وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلوا لنا هذا اللغز، بدلا من إرهاب النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة، وبين تصور هذه القوة.

وإنتى في هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو ألا تنسوه أبداً: إننا إذا كنا قاعدين في حجرة، والحجرة مغلقة الأبواب. ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالباب؛ وهذا الشيء المجمع عليه من الكل يعد تعقلاً، لكن أنستطيع

أن تتصور من الطارق؟ زجل؟ امرأة؟ شاب؟ شيخ؟ المؤكد أننا سنختلف في التصور وإن اتحدنا في التعقل.

ونقول للفلاسفة: أنتم أولى الناس بأن ترهفوا أذانكم لمجئ رسول يحل لكم لغز هذا الكون، واسم القوة التي وراء هذا الكون، ومطلوب هذه القوة منا.

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل، ويقول هنا:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهذه شهادة الفطرة، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة في الطفل المولود الذي يبحث بفمه عن ثدي أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدي ليرضع بالفطرة وبالغريزة، وهذه الفطرة هي التي تصون الإنسان منا في حاجات كثيرة، وفي رد الفعل الانعكاسي؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل، فيغمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك.

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن في عالم الذر:

﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾

ويقال "أشهدته" أي جعلته شاهداً، والشهادة على النفس لوّن من الإقرار، والإقرار سيد الأدلة؛ لأنك حين تُشهد إنساناً على غيره؛ فقد يغير الشاهد شهادته، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة:

﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

فحين يأتي يوم الحساب، لا داعي أن يقولن أحد إنني كنت غافلاً.

ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله :

﴿ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً
مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١٧٢)

كان الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فإنبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة في كل إنسان ؛ حيث شهد كل كائن بأنه إلهٌ واحدٌ أحدٌ ، وذكرنا سبحانه بهذا العهد الفطري قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا.

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ وَهَلْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ الذَّرِّ وَهُوَ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ يَجْرؤُ عَلَىٰ أَنْ يَقُولَ : لَا لَسْتُ رَبِّي ؟ . طبعاً هذا مستحيل ، وأجاب كل الذر بالفطرة " بلى " . وهي تحمل نفى النفى ، ونفى النفى إثبات مثل قوله الحق :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨)

(الآية ٨ سورة التين)

و " أليس " للاستفهام عن النفى ؛ ولذلك يقال لنا : حين تسمع " أليس " عليك أن تقول " بلى " وبذلك تنفى النفى أى أثبت أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غيره سبحانه ، وهنا يقول الحق : " ألسنت بربكم " ؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا . ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب ، والذي جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرك شهواتهم في نطاق الاختيار ، ومع وجود الشهوات في نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم ؟ يقولون : الله ، ومادام الله هو الذي خلقهم فهو ربهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَحَمَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة العنكبوت)

وجاء الحق بقصة هذه الشهادة حتى لا يقولنَّ أحدٌ : ﴿ إنما أشرك أبأؤنا من قبل ﴾

وبذلك نعلم أن أعذار العاصين وأعذار الكافرين التي يتعللون ويعتذرون بها تنحصر في أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر، وتقليد الآباء.

وما الغفلة؟ وما التقليد؟. الغفلة قد لا يسبقها كفر أو معصية، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك. والمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوى المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللاتق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك. ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة، ثم جاء إشراك الآباء في المرحلة الثانية؛ لأن كل واحد لو قلد أباه في الإشراك؛ لانتهى الشرك إلى آدم، وادم لم يكن مشركاً، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بنى آدم، وكانت هذه الغفلة نتيجة توهم أن هناك تكاليف شاقة يتطلبها المنهج، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد في بؤرة شعورهم؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود في بؤرة شعوره. أما الشيء الذي سيكلفه مشقة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهي الغفلة في آباؤهم. وهنا يضاف عاملان اثنان : عامل الغفلة، وعامل الأسوة في أهله وآبائه. ولم تكن القضايا الإيمانية في بؤرة الشعور، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره في بؤرة الشعور، ويخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور. ولأن البعض قد يتصور أن في التكليف الإيماني مشقة، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه وينساه، وكذلك يحاول هذا البعض أن يتأى بنفسه عن هذه التكاليف.

ونأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مديناً لمحل بقالة أو لنجار وليس عنده مال يعطيه له، لذلك يحاول أن يتعد عن محل هذا البقال، أو أن يسير بعيداً عن

أعين النجار. وهكذا يكون افتعال الغفلة في ظاهره هو أمراً منجياً من مشقات التكليف، لكن البشر في ميثاق الذر قالوا: ﴿بلى شهدنا﴾

وقد أخذ ذلك العهد عليهم، وأقرُّوا به واستشهد الحقُّ بهم، على أنفسهم حتى لا يقولوا يوم القيامة ﴿إنا كنا عن هذا غافلين﴾ لأنه لا يصح أن نغفل عن هذا العهد أبداً، ولكن الحقُّ تبارك وتعالى عرفَ أننا بشرٌ، وقال في آيينا آدم:

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَتَنَىٰ﴾

(من الآية ١١٥ من سورة طه)

ومادام آدم قد نسى، فنسيانه يقع عليه حيث بينَّ وأوضح لنا الإسلام أن الأم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر واضح: فقال عليه الصلاة والسلام:

(رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (١).

والخطأ معلوم، كأن يقصد الإنسان شيئاً ويحدث غيره، والنسيان الأجيء الحكم على بال الإنسان. والمكره هو من يقهره من هو أقوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حرته وتقييدها ما لم يفعل ما يؤمر به، وفي الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم. وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينسأه المسلم. وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤخذون به. وإذا سلسلنا ما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذي خلق بيد الله المباشرة، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد علاقة زوجية فيأتي النسل.

وقد كلف الله آدم في الجنة التي أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهي؛ فقال له سبحانه وتعالى:

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان، والدارقطني والطبراني والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس

رضي الله عنهما

﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إذن فقصارى كل تكليف هو أمر فى " افعل " ، ونهى فى " لا تفعل " ، وقد نسى آدم التكليف فى الأمر الواحد البسيط وهو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة ، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذى يتذكره ؟ وما كان يصح أن ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ، ومكلف من الله مباشرة ، والتكليف وإن كان بأمرين ؛ لكن ظاهر العبء فيه على أمر واحد ؛ الأكل من حيث شاء هو أمر لمصلحة آدم ، و«لاتقرب» هو تكليف واحد .

- ولذلك قال الحق فى آية أخرى : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

وهو عصيان لأنه نسيان لأمر واحد ، ما كان يصح أن ينساه . لعدم تعدده ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

الْمُطَلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

(سورة الأعراف)

جاء هذا القول لينبهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكاليف شاقة ، والإنسان قد يسهو عنها فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُطَلُونَ﴾ .

وهذا يعنى أن إيمانهم هو إيمان المقلد ، رغم أن الحق قد أرسل لهم البلاغ ، وإذا كان الآباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن يغفلوا عن صحيح الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

والآيات التي فصلها الحق هنا هي العهود الخاصة، ورفع الجبل ليأخذوا التوراة بقوة، وكذلك العهد العام الذي اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، وجاء سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدة يجب أن تكون في بؤرة الشعور، فمن غفل فليتذكر، ومن قلد أباه في شيء مخالف للمنهج القويم، فليرجع عن هذا التقليد؛ لأن التكليف الإيمانية تكاليف ذاتية، وسبحانه لا يكلفك وأنت في حاجة إلى أبيك، أو إلى أمك. لكنه يكلفك من بعد البلوغ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالاً كاملاً مثل والدك، ومادمت مكتمل الرجولة كوالدك وصالحاً للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً، فلا تقل إنني أقلد أبي ولو كان على غير المنهج السليم؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو في دور الطفولة، حيث الأب يسعى لإطعام أبنائه ورعايتهم، لكن التكليف لا يأتي للإنسان إلا بعد البلوغ، ومعنى بعد البلوغ: أنك صالح لإنجاب مثلك ورعاية نفسك.

ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يدرّبوا أبنائهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجيء أوان تكليف الله، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع . . إلخ)^(١)

الأب إذن يأمرُ ويُعاقبُ قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير درية سهلة لا يتعب منها الإنسان بعد البلوغ.

﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾

أى أن على الغافل أن يرجع عن غفلته فيتذكر، وأن يرجع المقلد لأبائه

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن (رياض الصالحين ص ١٨١)

عن التقليد، ويقتنع اقتناعاً، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾

(من الآية ٣٣ من سورة لقمان)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾



ولأنهم قالوا: ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾، فالله سبحانه وتعالى يزيد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول: ﴿ وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .
والنبا هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن نتفع به وليس مطلق خبر. ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبا)

كما يقول ﴿ وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾، كأن هذا النبا كان مشهوراً جداً، ويقال: إنه قد قيل في « ابن بعوراء » أو أمية بن أبي الصلت، أو عامر الراهب، أو هو واحد من هؤلاء، والمهم ليس اسمه، المهم أن إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلخ من الآيات، فبدلاً من أن ينتفع بها صيانة لنفسه، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسلخ منها ﴾ واتبع هواه ومال إلى الشيطان.

وكلمة « انسلخ » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها؛ لأن الأصل في السلخ إزاحة جلد

الشاة عنها، فكأن ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسلخ منها، وهذا يعنى أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه شرايين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمى الخارج عن منهج الله « فاسقاً » مثله مثل الرطبة من البلح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء، فتتكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها وتظهر الرطبة من القشرة، ولذلك سمى الخارج عن المنهج « فاسقاً » من فسوق الرطبة عن قشرتها، والله عز وجل يقول هنا: ﴿ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ . وكان يجب ألا يغفل عنها، لأن الإتيان نعمة جاءت ليحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسلخ من الآيات .

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً، ويغير الثعبان جلده كل فترة، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذى تحته قد نضج، وصلح لتحمل الطقس والجو، وكذلك حين يندلق سائل ساخن على جلد الإنسان، تلحظ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها، ولو أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب، أما إذا تركها فهي تحمى المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتنفصل عن الجسم، وكذلك نعلم أن الشاة - مثلاً - لا تسليخ نفسها. بل نحن نسلخها، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يس)

فكأن الليل كان مجلداً ومغلفاً بالنهار، والليل أسود، والنهار فيه الضوء، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف : الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، البنفسجى، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التى تأتى عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً. والأبيض هو مزيج من

ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض ، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً ، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك ، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك . وقوله الحق : ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار .

وإذا انسلخ من آتاه خبير الإيمان عن المنهج يقول الشيطان : إنه يصلح لأن يتبعني ، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل ، فهو يجرى وراءه مخافة أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج ، ويزكى الشيطان في نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا .

وقلنا من قبل : إن المعاصي تأتي مرة من شهوة النفس ، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق ، وقلنا : إن الشيطان لا يجروء عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك ، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان في الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها ، والشيطان لا يذهب - مثلاً - إلى الخمارة ، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التي تتجه إلى الخير ، أما الآخرون فنفسهم جاهزة له . إذن فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ في الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه مخافة أن تستهويه الآيات ثانية ، ولذلك لا بد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزع الشيطان ، فإن جاءت المعصية وحدثت نفسك بأن تفعلها ثم عزت عليك تلك المعصية لأي ظرف طارئ ثم ألححت عليها ذاتها مرة ثانية ، فاعلم أنها شهوة نفسك . لكن إن عزت عليك ثم فكرت في معصية ثانية فهذا من نزع الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة ، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط ، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها ، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك ، فاعلم أنها من نفسك ، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها ، ثم فكرت في معصية ثانية . فهذا نزع من الشيطان - ويقول الحق :

﴿ فَاتَّبِعْهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

الغاوى والغوى هو من يضل عن الطريق وهو الممعن في الضلال، ونعلم أن الهدى هو الطريق الموصل للغاية، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه في الصحراء. وهو الذى يُسمى «الغاوى»، ومادام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد فى نفسه ويفسد غيره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ
وَاتَّبَعَهُ هَوْنَهُ فَشَئْنَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ
يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَّكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ



وهنا أمران اثنان، الرفعة : وهى العلو والتسامى ، ويأتى بعدها الأمر الثانى وهو الإخلاق إلى الأرض أى إلى التسفل ، والفعالان منسوبان لفاعلين مختلفين .

﴿ولو شئنا لرفعناه﴾ ، والفعل رفع هنا مسند لله . ولكنه اختار أن يخلد فى الأرض . وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله . لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله ، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون . وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج ، وحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ولو شئنا﴾ أى أنها مشيئتنا . فلو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صالحة ، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار ، والحق يريد أن يُبقَى للإنسان الاختيار ، فإن اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة ، وإن أراد الضلال فلسوف يلقى العذاب الحق ، ولزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ ﴿١٦﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿١٧﴾ ﴿

(سورة الكهف)

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأبَّ على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له: ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ﴾ .

وفى هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .

وماذا قال العبد الصالح؟ لقد عذر موسى وقال:

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿١٨﴾ ﴿

(سورة الكهف)

أى أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك، بل لأنك ستري أموراً لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا: ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ وأصرَّ موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصى له أمراً، واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شيء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظري، فيه أخذ ورد، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماماً . بعد أن ركبوا في السفينة وخرقها العبد الصالح، لم يصبر سيدنا موسى بل قال:

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْفًا إِمْرًا ﴾ ﴿

(من الآية ٧١ من سورة الكهف)

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح،

وحين ذكره العبد الصالح بما وعد به من ألا يسأل، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير. إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا بِهَا﴾ لماذا؟ لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريد، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاء، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يثيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

و بمقتضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويثيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم فى كل فعل.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

و ﴿أخلد إلى الأرض﴾، أى أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنَا رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ونخطيء حين نفهم أن «تعالوا» بمعنى «أقبلوا» فقط وهذا فهم ناقص، إنها دعوة للقبول وإلى العلو، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى. بل نرتقى ونأخذ منهج الله الذى يضمن لنا العلو. وكأنه سبحانه يقول: تعالوا وتساموا فى أخذ منهجكم من الله العلى الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء فى شرع الله، لأن فى هذا تسفلا ونزولا إلى الحضيض.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَلَاهُ كَشَلِّ الْكَلْبِ﴾

﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ويقال: «حملت على الكلب»، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره، فهذا نفس لقلبه: «تحمل عليه»، أى أنك تحمل عليه طرداً أو زجراً؛ لذلك يلهث، وأن تركت الكلب بدون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو أيضاً يلهث، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً، وهذه الخاصية في الكلب وحده، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه.

ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا إن فزعت فتجربى، لتفوت من الألم أو من العذاب الذى يترصدها من كائن آخر، وحين يجربى الحيوان فهو يحتاج لطاقة، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم، ولا بد للقلب أن يتعاون مع الرئة التى تمد الدم بالهواء. ونلاحظ أن الكائن الحى حين يجلس برتابة فهو لا يلحظ تنفسه، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنسط لتسحب «الأوكسجين» من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة، فيحاول أن يتنفس أكثر. ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجرة، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها، جائعاً أو شبعان، عطشان أو غير عطشان، مزجوراً أو غير مزجور، إنه يلهث دائماً. ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث؟ لأن الذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه متبع لهواه، وتتحكم فيه شهواته. وحين تتحقق له شهوة الآن، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً؟ وتتملك الشهوة كل وقته، لذلك يعيش فى كرب مستمر، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن، جائعاً أو غير جائع، عطشان أو غير عطشان.

﴿ فَشَلُّوا كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ حَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ

الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَابَتِنَا فَاَقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

هكذا يكون مصير من كذب بالآيات .

وقول الحق : ﴿ فاقصص القصص ﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً ، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتي سبحانه بلقطة جديدة ، لتعدد ما فى القصة الواحدة من العبر ، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة . ونجد فى القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل ، ومن قصص المبطلين مع المحققين ، ومن قصص المعاندين مع الرسل ؛ لأن القصة أمر واقعى ، والتقنين للمناهج أمر لفظى ، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع ؛ لأن واقع الحياة يعطى القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظرى معزول عن الواقع .

وهكذا بين الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية ، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه ، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً ، وتوظيف ما علم ثانياً ، وبذلك يرتفع من منطلق الأرض إلى منطلق السماء . ومن يعطيه الله ذلك المنهج ، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء ، ليهبط إلى مستوى الأرض . وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم ، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم ، وعلى وفق نظمهم ، ويتركون منهج الله الذى خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صيانتهم .

وهذا كلام نظرى له واقع فى ابن « باعوراء » ، هذا الذى آتاه الله العلم ، ولكنه أخلد إلى الأرض ولم يتبع ما علم ، فانسلك من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق :

﴿ قَسَلَهُ كَتَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثْ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الاعراف)

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحى بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد

الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب، مع الفارق بين الاثنين؛ لأن الكلب يلهث غريزة. فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه، ولا يذم على هذه ولا على تلك، لكن الإنسان الذي فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقله يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغي أن تقولوا: وما ذنب الكلب في أنه يلهث، ويضرب به المثل في الكفر؟ لأن الكلب يفعلها غريزة، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء، أما الإنسان الذي ارتفع بفكره وميزه الله بأن يختار بين البديلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى، ومثل هذا السلوك في الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا، وإياك أن تقول: لماذا ربنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هي؟

والحق - سبحانه - هو القائل عن اليهود :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما في الأسفار؟ الجواب لا؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما في الأسفار، بل مهمته أن يحمل ما عليه فقط، وكأن الحق يقول: لا تكونوا مثل الحمار الذي يكتفى من الخير بأن يحمله، ولكن أريد منكم أن تحمّلوا المنهج وأن تتفعلوا بما يحويه من التشريع. إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب، ولا هي ذماً للحمار. إنما ذم لمن يتشبه بهما؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يرده الله لها، وأراد الله المثل فيها بشيء لا تدم منه، ولكنه مذموم من الإنسان.

والإنسان الذي لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة في الحياة، حتى وإن كان في نعمة، لأنه معزول عن الله، ومادام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل: أيدوم لي هذا النعيم أو لا يدوم؟ ويعيش دائماً في قلق ورعب مخافه أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعب.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية في هذا الرجل المسمى "ابن باعوراء" ، فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل.

أى أن الذى يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسلخ من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، ولستم بدعاً فى هذا ، فالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلدون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة "مثل" إذا سمعتها هى من مادة الـ"م" والـ"ث" والـ"لام" ، وتنطق كما يأتى : إما أن تنطقها مثل «بكر الميم وسكون الثاء» ، وإما أن تنطقها مثل «بفتح الميم والثاء» ، والمثل هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مثل فلان فى الكرم ، فى العلم ، فى الطول ، فى العرض ، وبذلك أعطيت تشبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

أى لا أحد يشبهه فى شيء ؛ لأنه منزه فى الذات والصفات والأفعال.

وأيضاً نقول : هذا مثل هذا ، أى أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك . وإن كان المشبه به ذائع الصيت ؛ بحيث يجرى اسمه على كل لسان ؛ فنحن نقول : إنه مثل ؛ كقولنا عن الكريم : "هو حاتم" لأن شهرة حاتم فى الكرم جعلته مثلاً . والفرق أنك إذا قلت فى فلان إنه يشبه حاتم فى الكرم ، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتى بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان ؛ فهذا مثل ، كأن تقول : مثل حاتم فى الكرم ، أو مثل عترة فى الشجاعة . والمثل فى الذكاء إياس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر (١) الخليفة (٢) قال فيه :

(٢) أحمد بن المعتصم

(١) أبو تمام

إقدام عمرو (١) (في شجاعته) في سماحة حاتم (أى الطائي) في حلم أحنف (الأحنف) (٢) بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب) وفي ذكاء إياس (٣).
وقال رجل من القوم : كيف تُشبهُ الأميرَ بصعاليك العرب ؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً.

ما عمرو بالنسبة للأمير!؟

وما حاتم بالنسبة للأمير!؟

فقال الشاعر :

وشبهه المدّاح في الباس والندى

بين لو رآه كان أصغر خنادم

ففى جيشه خمسون ألفاً كعتر

وفى خُزنه ألف ألف كحاتم

أى أن عنده أمثال حاتم وأمثال عترة. فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته وبديهته ؛ فقال :

" لاتنكروا ضربي له من دونه

مثلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره

مثلا من المشكاة والنبراس

وكان الشاعر يقول : أنا ضريت بهم المثل لأنهم أصبحوا المثل المشهور
والأمثال لا تتغير .

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن (٢) من سادات التابعين كان شهما حليما (٣) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء.

وأنت تقدر في المثل، فقد تقول: فلان حاتم، وحاتم انقضى عمره، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً في التاريخ، أو تقول: "فلان عتتر"، أو "فلان إياس"، وفي ذلك يرتقى التشبيه، بأن صار المشبه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به.

ويُعرفون المثل بأنه: قول شبه مورده بمضربه، أي أنك تشبه الحالة التي قيل فيها المثل أولاً، ومثال ذلك: حينما أرسل عظيم من عظماء العرب خاطبةً اسمها "عصام" لتخطب له أم إياس؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها، فقال: اذهبي حتى تعلمي لى علم ابنة عوف، فذهبت الخاطبة وخلت أم الفتاة بينها وبينها، وقالت لها: يا هذه، هذه خالتك جاءت لتتنظر إلى بعض أمرك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه، من وجهه وخلق، وناطقها فيما استنطقتك به. ثم أرسلت إلى خباء، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً. فلما عادت إلى من أرسلها، وكان ينتظرها في شوق وكأنه على أحر من الجمر، قال لها: "ما وراءك يا عصام؟" قالت: "أبدي المخض عن الزيد" أي أن الرحلة جاءت بفائدة.

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولاً ذكراً أو أنثى أو مشنئاً أو جمعاً؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته، فهم يقولون له: "ما وراءك يا عصام؟"، ولو كان رجلاً، لأن الأمثال لا تغير. وكل شيء يجدى الجهد فيه يقال عنه: "أبدي المخض عن الزيد". فحين ينجح الولد ويأتي بالمجموع المناسب يقال: "أبدي المخض عن الزيد".

والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وكانوا قد قالوا: كيف يضرب الله المثل ببعوضة؛ وقال سبحانه:

﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

لقد فهموا قوله : " فما فوقها " أنها أكبر منها ، والمراد غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل ؛ لذلك قال : " فما فوقها " من باب فما فوقها في الاحتقار منكم والقلة في الحجم مما تنكرونه ، وهو الضألة . وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويرد السامع وفلان فوجه في المرض . ونجد " فوجه " هنا لا تعنى المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

والكلام موجه لليهود : أى أنتم يا بنى إسرائيل مثلكم مثل الرجل الذى آتينا آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم فى التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذى جاء ذكره فى التوراة ، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه وبعته وشكله وطوله ، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به . وصار مثلكم كمثل الرجل الذى آتاه الله الآيات فانسلخ منها . ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾

وهم بعنادهم وبغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التى يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التى يثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله ، وكذلك آيات القرآن التى تحمل منهج الله .

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان ، وأنت لن تحكى الأمر التافه ، بل ستحكى ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنتفع بها حركة المجتمع .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكير والتذكر والتدبر.

والتفكير - كما نعرف - هو عمل العقل في المقارنات بين البديلات المتنوعة لِيُرَجَّحَ بديلاً على بديل فتُعقَلُ به القضايا.

والتذكر يعنى إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيح عنك الغفلة عن القضية المعلومة.

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي. فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها. وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة ، لتجد المعنى الخفى فيه ايقال. والمثال فى قول الحق :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَىٰ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُمْ فَوْقَهَا﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وحين تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى "فما فوقها" لا يعنى الأعلى منها فى القوة ، بل الأعلى منها فى الضعف الذى أنكروه. لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خلف اللفظ ، ومعطياته.

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أى يتفكرون فى أسلوب توجيه المنهج ؛ لعلهم يؤمنون. وهذه فائدة القصص.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ

كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

والحق قال فيهم من قبل : إنهم كذبوا بآياتنا ، وضرب لهم المثل بابين باعوراء وكان مشهوراً في أيامهم . لكنهم فاقوا ابن باعوراء لأنه كان فرداً وهم جماعة ؛ لذلك لا تقل إن في المسألة تكراراً ؛ لأن المثل من قبل كان على فرد واحد ، أوتى آيات الله فانسلخ منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلاخهم عن المنهج يجعل موقفهم أشد سوءاً .

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

و " ساء " أى قُبِحَ ، وحين نقول : ساء فلان ؛ أى قبح أمره ، ولكن أى أمر من أموره هو القبيح ؟ فنقول : ساء صحة أى صار مريضاً أو ساء حالاً أى صار فقيراً ، أو ساء خلقاً أى صار شرساً ، وأنت حين تقول : ساء ، فهذا السوء عام له جوانب متعددة ، ويقتضى الأمر التمييز .

و " ساء مثلاً " أى ساء من جهة المثل ، والمثل فى ذاته لا يسوء ؛ لأن الله تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يجىء ليبين ويشرح ويوضح . والمعنى هنا : ساء مثلاً حال القوم . أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا . لأنهم حين كذبوا بالآيات ظلموا أنفسهم ، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله فى الأرض ، ولم يعرقلوا بالتكذيب شيئاً فى كون الله تعالى ، فالكون بنظامه ونسقه يسير بإرادته سبحانه وآيات الكون سائرة . إذن تكذبيهم بآيات الله لن يضير أبداً فى أى شيء . والخيبة إنما تقع عليهم . وإن كان التكذيب فى الآيات المعجزات فقد بقى ذكر المعجزات إلى الآن . وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أى شيء . وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لم يسمع كلام الطبيب فإنه يسىء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شيء ، والله سبحانه قد أعطانا المنهج لتستقيم به حركة الحياة ، فمن يأخذه ينفع نفسه ، ومن لا يأخذه لن يضر الله شيئاً .

هم إذن ظلموا أنفسهم ، ومن يظلم نفسه كان هو أول عدو لها ولن يضر الله شيئاً ، ولا الرسول ، ولا المجتمع .

﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة الأعراف)

وحين تجد معمولاً تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فاعلم أن هناك ما يسمى بالقصر فى علم البلاغة ، وقد نقول : " يظلمون أنفسهم " ويصح أن تعطف قائلاً : ويظلمون الناس . ولكن حين نقول : أنفسهم يظلمون ، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم ، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص ، مثلما نقول : ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ ، أى أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً .

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

وهذه الآية هى الوحيدة التى جاء فيها قوله سبحانه وتعالى : " المهتدي " - بالياء - بينما جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة " المهتد " - من غير ياء - فى آيات متعددة عدا هذه الآية :

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الإسراء)

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحديد)

وكذلك تأتى الكلمة بدون " ياء " فى قوله سبحانه :

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ .

(من الآية ١٧ سورة الكهف)

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذبول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر في الأذهان ، لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمضل ، فلمناذا يعذبني إن ضللت ؟ . وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة . ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وأمنت ؟ . إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر . ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

وضربنا من قبل أمثلة كثيرة . لنفرق في هذه المسائل بين المختلفين ؛ لأن الجهة عندهم منفكة . وهم قد ناقشوا مسألة " خلق أفعال العباد " وتساءلوا : من خلق هذه الأفعال ؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟ .

ونسأل : ما هو الفعل ؟ . إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ؛ فطاقة اليد أنها تعمل أي عمل تريده منها ؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض ، أو تربت بها على اليتيم .

إذن ففي اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً ؛ فأى عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب ؟ . إنك بمجرد رغبتك في أن تضرب ، تضرب ؛ عكس الإنسان الآلى حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل . وكلها آلات .

وأنت حين تربت على كتف يتيم ، ما هي الأعضاء والأجهزة التي تحركها لتعمل هذا العمل ؟ . إذن فالله هو الذى خلق فيك الانفعال للفعل . فإن نظرت إلى ذلك ، فكل فعل من الله ، ولكن توجيه الجارحة إلى الفعل هو محل التكليف .

إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت ، لا لأنك خلقت ؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى ، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة

مخلوقة لبيان ما فى النفس ؛ إن أردت أن تقول بها " لا إله إلا الله " صلحت ،
وصلحت كذلك عند الملحد أن يقول - والعياذ بالله - لا يوجد إله . واللسان لم
يعص فى هذه ولا فى تلك .

إذن فالذى خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله . وأنت توجه الجارحة ،
إذن فكل الأفعال مخلوقة لله ، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما
يكون من العبد . والحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع بالمنهج ، ومن يقبل عليه
بنية الإيمان ، يعينه على ذلك ، ولذلك لا يصح أن نختلف فى مسألة مثل هذه ،
وأن نسأل من خلق الأفعال ، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد ، وما دور
الإنسان فيها ؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث ، مثل من
يريد أن يؤذى إنساناً بيده لكنه يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو
الذى يخلق لرفع يده وأذى بها من أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل .

وعلى ذلك تكون الهداية نوعين : هداية دلالة ، وهى للجميع ؛ للمؤمن
والكافر ؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ،
فمن يُقبل على الإيمان به ؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة .
فياخذ بيده ، ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل
الخير ، ويشرح له صدره ويسر له أمره : وسبحانه القائل :

﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة الأعراف)

فإذا كان الله قد عمم حكماً ثم خصَّصه ، فالتخصيص هو الذى يحكم
التعميم .

ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية ،

ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً، وقد بين أن من شاء هدايته يهتدى وهذه معونة من الله، والكافر لا يهتدى وكذلك الظالم، والفاسق؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة. ونقرأ في القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة، فهو سبحانه يقول :

﴿وَأَمَّا عُمُودٌ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَجَبُوا لِعَمِّي عَلَى الْهُدَى﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

والهداية التي كانت لقوم ثمود إنما هي هداية الدلالة، وليست هداية المعونة. ويقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۗ﴾ (٧)

(سورة محمد)

أى أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية، والحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

أى أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك. ويقول سبحانه لرسوله :

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

أى أنك يا محمد تهدي هداية الدلالة بالمنهج الذي أنزله الله إليك.

إذن إذا رأيت فعلاً أو حدثاً مثبتاً لواحد ومنفياً عنه .. فاعلم أن الجهة منفكة، والكلام هنا لحكيم عليم. ولماذا يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه. ويعيش وحالته كرب، سواء كان في يسر مادي أو في عسر. هذا إن اعتبر أن الدنيا هي كل شيء، فإذا أضيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة، فالحسارة تكون كبيرة حقاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ۗ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلِ لَنْعِمٍ بَلَغَ لَهُمْ أَضْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وذراً، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء :

﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾

كما يقول الحق أيضاً : ﴿ يذروكم فيه ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنس والجن؛ لأن كلا منهما في سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن :

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾

وذراً معناها بثنا ونشرونا وكثّرنا، وكلمة كثير لا تعنى أن المقابل قليل، فقد يكون الشيء كثيراً ومقابله أيضاً كثير، والحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم :

﴿الرَّ تَرَأَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْذَوَابُّ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق في ذات الآية :

﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

أى هناك كثير يسجدون ويخضعون لله . ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب . وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾

فقد يشور في الأذهان سؤال هو :

هل أنت خالقهم يارب لجهنم . ماذا يستطيعون إذن ؟ ولا شيء في قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك ؟

ونقول : لا . ولنلفت الأنظار إلى أن في اللغة ما يسمى « لام العاقبة »، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد في الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾

(سورة الذاريات)

ومعنى العبادة طاعة الأمر، والكف عن المنهى عنه، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل، فالعبادة - إذن - تستدعى وجود طائع ووجود عاص، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى: يأتي لك من يروى لمحة من سيرة إنسان ويقول لك: لماذا يقف منك هذا الموقف العدائي، أليس هو الذى أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه: «زرعته ليقلعنى». هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك؟ لا. ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا.

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار. لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه، فممنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة، وممنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه «لام العاقبة»، أى ما صار إليه الأمر غير مرادك منه، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى:

﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ

المرسلين ﴿٧﴾ فَأَلْتَقِطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴿٨﴾

(من الآية ٧ ومن الآية ٨ سورة القصص)

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً؟ لا، لأن زوجة فرعون قالت:

﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَمِيَّ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴿٩﴾

(من الآية ٩ سورة القصص)

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هى أن يكون قرّة عين، لكنه صار عدواً فى النهاية، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة.

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار، فى قوله الحق:

﴿ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والإنس ﴿١٠﴾

لأن علة الخلق فى الأصل هى العبادة، والعبادة تقتضى طائعا وعاصيا، فالذى يطيع يدخل الجنة، والذى يعصى يدخل النار، ولله المثل الأعلى، أذكركم بالمثل الذى

ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحدد لهم . لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم في إجابات الطلبة، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾

يعنى أننا نشرنا وبثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، وهم من يعرضون عن منهجنا، ثم يأتي الحق بالحيثيات لذلك وهى أولا :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثانياً :

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثالثاً :

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولقائل أن يقول : إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ . ومادامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك مادامت الأذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون ؟ . ونقول : لا، لم يخلقهم الله للعذاب، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم، وصارت عقولهم لا تفكر فى شىء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها، وكذلك الأذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التى تنتهى إليها الإدراكات . ونعلم أن الإدراكات تأتى بواسطة الحواس

الخمس ، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس ، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم ، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق .

إذن لكل وسيلة إدراك ، وهى من المحسّات ، وبعد أن تتكون المحسّات يمتلك الإنسان خميرة علمية فى قلبه وتنضج لتصبح قضية عقلية منتهية ومسلماً بها .

وكلنا يعرف أن النار محرقة ؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه ، فيعرف أن النار محرقة ، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى . إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتهما الحواس الظاهرة ، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل . وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل ؛ لأنك حين تحمل شيئاً قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً .

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد ، فهذه اسمها حاسة البعد ، وكذلك حاسة البين وهى التى تميز بها سمك القماش مثلاً .

كل الحواس - إذن - تربي المعانى عند الإنسان وحين تربي المعانى فى النفس الإنسانية تتكون القضايا التى تستقر فى القلب .

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة النحل)

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾

والفقه هو الفهم ، ويصير الفهم قضية مرجحة انتهى إليها الاقتناع من المرائى والمحسّات ، لكن هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلا هواهم ، وكذلك لا تسمع

آذانهم إلا ما يروق لهم، فلا يستمعون إلى هدى، ولا يلتفتون إلى الآيات التي يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه، فهم إذن لهم قلوب وأعين وأذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التي تروق لانحرافهم.

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول :

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو : ما ذنب الأنعام التي يُشبه بها الكفار؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأى منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله. هي فقط ترى المرعى فتذهب إليه، وترى الذئب فتفر منه، وتتعود على أصوات تتحرك بها، وكافة الحيوانات تحيا بألية الغريزة، ويهتدى الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التي أودعها الله فيه، لا بعقله.

والإنسان منا لا يتعد عن الضر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً. لكن الحيوان يتعد عن الضر من غير تجربة بل بالغريزة، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البديلات، وفطره الله على غريزة تُسيِّره إلى مقومات صالحة، ومثال ذلك : أنه قد يوجد الحيوان فى بيئة ما، ويعطى الله له لونا يماثل لون هذه البيئة ليحمى نفسه من حيوانات أقوى منه.

ومثال آخر : نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان، ولا بد أن يتناسل ليؤدى ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هى فى الإنسان، حيث تصير فى بعض الأحيان غاية فى ذاتها، بجانب أنها وسيلة للنسل. ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿قَبَعَتْ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

إذن فالغراب مَهْدَىِّ بغريزته إلى كل متطلباته، ولذلك نجد من يقول : كيف نشبه الضال بالأنعام؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام في أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حيث لم يستخدم العقل كى يختار به بين البدائل . وبذلك صار أضل من الأنعام، وكلمة « أضل » تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة، لأنها محكومة بالغريزة لا اختيار لها فى شىء . لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجهنم من الجن والإنس، لا يعرفون ربهم، بينما الأنعام، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده . وفى آية أخرى يقول المولى تبارك وتعالى :

﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾

(من الآية ٤١ سورة النور)

وعلى ذلك فكل الجماد - إذن - يعلم صلاته وتسبيحه .

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم البعض كوسيلة تنشيط إلى غايات وأهداف سامية . والعارف بالله من هؤلاء الصالحين يستقبل الأحسن منه فى العبادة بالضحك، أما الأحسن منه فى أمور الدنيا فيستقبله « بالتكشير »، وقال واحد منهم لآخر : أتشتاق إلى ربك؟ فرد عليه : لا .

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك؟ .

قال له : نعم . إنما يشتاق إلى غائب .

﴿ أَوْلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولا تظنن أن الضلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مُذَكِّر، أو لعدم وجود مُنذِر أو مُبَشِّر. بل هي غفلة منهم، فالأمور واضحة أمامهم، لكنهم يهملونها ويفعلون عنها.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ

يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ولله الأسماء الحسنی﴾ نقول: إنه لا يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنی، إن قلت عن إنسان إنه «كريم»، فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه «حليم»، وكلها صفات عارضة في حادث، ولا تصير أسماء حسنی إلا إذا وصف الله بها. فأنت - مثلاً - لك قدرة تفعل أفعالاً متعددة، ولله قدرة، لكن قدرتك حادثة من الأغيار، بدليل أنها تسلب منك لتصير عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحدها شيء. فهي قدرة مطلقة. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، ولله غنى، لكن ثراك محدود، وأما غنى الله فإنه غير محدود.

إذن الأسماء الحسنی على إطلاقها هي لله، وإن وجدت في غيره صارت صفات محدودةً مهما اتسعت.

﴿ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها﴾

والحسنى.. تأنيث لكلمة «الأحسن» اسم تفضيل، وهي الأسماء الحسنی في صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية. وحين تقول عنه سبحانه: إنه «رحيم»، فهذا أمر حسن عندي وعندك لأنني أنظر إلى رحمته لى، وأنت تنظر إلى رحمته لك. وحين تقول: «غفار»، فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه.

وحين تقول: « قهّار » وأنت مذنب ستخاف، وهي صفة حسنى بالنسبة للإله؛ لأن الإله لا بد أن تكون له صفات جمال وصفات جلال، فصفت الجمال لمن أطاع، وصفات الجلال لمن عصى. ولذلك لا تأخذ النعم بمدلولها عندك، بل خذ النعم بمرادات الله تعالى فيها.

وساعة يتكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكَرَأْيِهِ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْعَشَرِ الْحَرْنَ وَالْإِنْسِ
 إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا
 بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَخِمْصَاتٍ
 فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل إرسال الشواطئ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها: « فبأى آلاء ربكما تكذبان »؟

نقول: نعم، هي نعمة كبيرة، لأنه سبحانه وتعالى ينبهنا قبل أن توجد النار، أن النار قوية، ويعطى لك نعمة العظة والاعتبار. وعظته وتنبهه - إذن - قبل أن توجد النار نعمة كبرى، وأيضاً هي نعمة بالنسبة للمقابل، فحين يطيعه المؤمنون فى الدنيا ويلتزمون أنفسهم بمنهج الله، فلهم ثواب حق الالتزام، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية، يتوعددهم سبحانه بالعقاب، وهذه نعمة كبرى

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه، لأننا قد نعرف مسماه من

القوى القادرة وهى التى تعرف بالعقل ، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم . وسبق أن قلت : لنفترض أن أناساً يجلسون فى حجرة ثم طرق الباب . هنا يجمع الكل على أن طارقاً بالباب ، لكن حين دخلوا فى التصور اختلفوا ، فواحد يقول : إن الطارق رجل ، فيرد الآخر : لا إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة ، ويقول ثالث : هذه النقرة على الباب تأتى من أعلاه وهى دليل على أن الطارق ضخم ، وهو نذير لأنه يطرق بشدة ، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق ، ولا أحد يعرف اسمه . إذن حين تريد أن تعرف من الطارق ، فأنت تسأله من أنت ؟ فيقول لك « اسمه » .

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل . ومن خلق الخلق كله قوى ، قادر ، حكيم ، عليم ، لأن عملية الخلق تقتضى كل هذا . أما اسم الله . فهذه مسألة لا يعرفها العقل وتحتاج إلى توقيف . إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية ، فحين يقول لنا : هذه أسمائى فإننا ندعوه بها ، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به ، ولذلك يقول تعالى : ﴿ فادعوه بها ﴾

فإذا أنت نقلت هذا إلى غيره . فأنت تدعو بالأسماء الحسنى سواه ، مثلاً كذاب اليمامة مسيلمةسمى نفسه الرحمن ، وبذلك أُلحد فى اسم الله حيث نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته ، ومثله فعل غيره ، ألم يسموا « اللات » من الله ؟ . ألم يسموا « العزى » من العزيز ؟ . ألم يسموا « مناة » من المنان ؟ . كل هؤلاء أُلحدوا فى أسماء الله التى لا ندعو غيره بها ، ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله فى دعائه : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء همى وذهاب حزنى وغمى» (١) .

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا لنفسه ، لأنها لا تعرف بالعقل . أما إذا نظرت إلى الأوصاف المبدعة للخلق فأنت تتعرف على هذه الأوصاف ؛ لأنه تعالى (١) رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن حبان والحاكم فى المستدرک .

خلق الكون بحكمة وتديير وقدرة. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع المصاييح، فنصنع زجاجاً ونفرغه من الهواء، ونضع داخله أسلاكاً تتحمل ذبذبة الكهرباء، وبعد استخدام هذه المصاييح لفترة تفسد، بينما الشمس تضيء الكون كل هذا العمر، من بدء الخلق، ولا تحتاج منا إلى قطعة غيار.

وحين نقول هو: «حكيم»، نقولها ونرى أثر ذلك في حركة الكواكب التي تسير منسجمة، وكل كوكب يدور في فلكه ولا يصطدم بآخر، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة.

وينبها الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكره؛ لأنه هو الرب الذي خلق من عَدَم، وأمد من عَدَم. وصان الخلق بقيومية، وحين تأتي لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادى الله بها، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذي وضعه لنفسه وهو «الله»، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات.

ولله المثل الأعلى: أنت تقول: «زيد» فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد، ثم له صفات أخرى، كأن يكون تاجراً، أو عالماً متفقها في العلم، أو مهندساً. لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذي لا يشترك معه أحد من معارفك فيه وهو زيد، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره.

والأسماء لله نوعان، اسم يدل على ذات الله، الذات المجردة عن أى شيء وهو الله، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن، وهذه صفات ارتقت في السمو والعلو لأنه لا أعلى منها، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاق الكمال الأعلى لا تنصرف إلا لله. فصارت أسماء.

قد نقول فلان غنى، وفلان كريم، وفلان حكيم، لكن الغنى على إطلاقه هو لله تعالى.

والأسماء الحسنى ناشئة من صفات مبالغه في العلو فيها، لأنه سبحانه الأكمل فيها وهي في الأصل صفات لها متعلقات فعلية، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق على الله منها اسم ومقابله، ونوع يطلق عليه الاسم ولا يطلق عليه المقابل، ونأتى بصفة شبيهة بالاشتقاق، فنقول : « غنى »، ونقول : « مغنى » فهو غنى في صفة ذاته قبل أن يوجد من يُغنيه، ومغنى وجدت بعد وجود من يُغنيه من عباده، وسبحانه حتى في ذاته، ومحى لغيره، والإحياء صفة فعل في الغير. ولا بد لها من مقابل، فنقول : محى ومميت. ولم نقل حتى ومقابله، إذن فالاسم الذي ترى له مقابلاً هو صفات الفعل، أما صفات الذات فهي التي لا يوجد لها المقابل. ويلحدون في أسماء الله أي يميلونها إلى غير الله وينقلها الواحد منهم لغير الله أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً ليس له معنى أو لا يفهم منه أي معنى على الله. إذن " الإلحاد " يأتي في ثلاثة أشياء : إما أن ينقل أحد أسماء الله إلى غير الله، أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً لله من غير أن يكون قد أنزله الله توقيفاً.

﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾

ونعلم أن " العمل " هو اسم للحدث من أي جارحة ؛ فنطق اللسان عمل ، وشم الأنف عمل ، ونعلم أن هناك ما يسمى بـ [قول وفعل] ، والفعل عمل الجوارح ما عدا اللسان ؛ والقول عمل اللسان ، والاثنان يطلق عليهما عمل ، ولذلك يقول الحق : تبارك وتعالى في سورة الصف :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

إذن فالقول مقابله الفعل ، والجزاء هنا على الفعل والقول لأن كليهما عمل. وإذا كان لله أسماء كثيرة ، فهل يجوز لنا أن نأخذ من فعل الله في شيء أسماء له ؟ وخصوصاً أنه القائل :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

وهو القائل أيضاً :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

هل يمكن أن نقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله :

﴿ وأكيد كيداً ﴾

(سورة الطارق)

اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِءَ

يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

وبعد أن قال سبحانه : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس " أراد أن يطمئن أهل منهج الله ، فلم يقل : " كل الناس " ، بل كثير من الجن والإنس " ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ أى كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعنى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِءَ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

(سورة الأعراف)

أن كون الله لا يخلو من هداة مهديين ، لتستمر الأسوة السلوكية في المجتمع .

والأسوة السلوكية في المجتمع هي التي تربي عقائد المواجيد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلى ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب والصدق ولكنه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يُوَدَّنُ للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان في سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعى للخوض في سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض في سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنضح عليه ، بدليل أن الصغير الذى لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾

إنهم في حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو نفى الشرك ، وقد يكون العدل في مسألة الكبائر ، أو يقيمون العدل في مسألة الحقوق بين الناس .

﴿ ومن خلقنا أمة ﴾

وقوله في الآية الكريمة : " أمة " يعنى أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز بالصدق ، وآخر في الشجاعة ، وثالث في الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة في مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه السلام - فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أنه جامع لخصال الخير التي لا توجد إلا في مجتمع واسع ،

﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وأى أمة من أمم الأرض - إذن - هى التى تهدى بالحق؟ لقد قال سبحانه فى قوم موسى!

﴿ وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأعراف)

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده، لذلك تظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة.

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً، وكلما زاد الناس فى الإلحاد، زاد الله فى المدد، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة فى الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين التابعين لمنهج الله.

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر، ولسائل أن يسأل: ما لزوم هذا الشر فى كون خلقه الله على هيئة محكمة؟ نقول! لولا أن الناس يضارون بالشر؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء؛ ما تحمس للحق أحد، ولا عرف الناس ضرورة أن يتأصل الحق فى الوجود، فللشر - إذن - رسالته فى الوجود. وهو أن يهيج إلى الخير، فكما ذرأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ أوضح سبحانه وتعالى فى قوله: « وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ » فى الحكم، عدلاً فى القمة؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً، لأن أول مخالفة لقضية العدل هى مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم، فالشرك والعياذ بالله يتقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه، وكذلك تحريم ما أحل الله، أو حل ما حرم الله، وكل ذلك ظلم، وكذلك عدم حفظ التوازن فى الحقوق بين الناس، فإن لم يحصن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولى ومسلط؛ سنجد كل إنسان وهو يضمن بجهده فى الحياة يكتفى بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً، فلا يتحرك فى الحياة إلا حركة محدودة، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط، فإذا ما حدث ذلك؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدر على الحركة الإنتاجية أى فائض ليعيشوا به.

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عرق وتعب كل واحد. فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك. لكن لله حق فيه، وأنت لك الباقي، حتى يجد الضعيف الذي لا يقدر على حركة الحياة من يقيته. ولذلك يحذرك المنهج الإيماني بقوله: إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف، لأن قوتك التي استعملتها في تحصيل هذا المال إنما هي عرض لا يدوم لك، فإن أخذنا منك وأنت قوى قادر على الحركة، سنأخذ لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة، وذلك هو التأمين والعدالة.

وبالنسبة للأمة في تلك الآية ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾

فقد جاء في الآثار أن المراد بالأمة في هذه الآية الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: إذا قرأ هذه الآية: هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» (١)

ويخاطب النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله: هذه لكم، أي في أمتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وكلمة "للناس" هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهي أمة الإجابة للمؤمنين فقط، بل جعل خيريتها للناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾

وذكر "أمة" لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع في إنسان واحد، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير، هذا فيه ذكاء، وذاك فيه شجاعة، وذاك عنده مال، وذلك له خلق. فكان الأمة المحمدية قد وجد في أفرادها ما يجمع المواهب

(١) تفسير ابن كثير المجلد الثاني، والطبري المجلد السادس.

الصالحة للخلافة فى الأرض.

ويأتى الحق بعد ذلك بمقابلهم ، لأن مجيء الشىء بمقابلته أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ

حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

(سورة الأعراف)

وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، والآيات جمع آية ، وقلنا : إن الآيات التى فى الكون ثلاث ؛ آيات تنظرها لتتهدى بها إلى من صنع ذلك الكون المترامى الأطراف بتلك الدقة العظيمة ، وذلك الأحكام المتقن ، آيات تلفتك مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وكذلك آيات تحرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل منهج الله. والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها ، ولم يستنبطوا منها وجود إله قوى قادر حكيم ، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة. وكذلك كذبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها ، ولم يتمسكوا بها ؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن يدخلهم الحق النار فقط ، بل لهم عذاب أقرب من ذلك فى الدنيا ، لأن المسألة لو أجلت كلها للأخرة لاستشرى بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة ، لكن من يؤمن بالأخرة هو من سيحيا بأدب الإيمان فى الكون ، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج. عكس من يعربد فى الكون ؛ لذلك لا بد أن يأتى العقاب لمن يعربد فى الكون أثناء الحياة الدنيا ، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى أن لهم عذاباً قبل الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب فى الدنيا :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وحين تقول : أنا استدرجت فلانا ، فأنت تعنى أنك أخذت تحتال عليه حتى يقر بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم ، ويحاصره بالأسئلة من هنا ، ومن هناك ، إلى أن يقر ويعترف ، وهذا هو الاستدراج . و " الاستدراج " من الدرج ونسميه فى لغتنا اليومية " السلم " وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلاً فى عمارة ما ، ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثنى عشر ستيومتراً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويضعها على الدرج دون إرهاق النفس ، وهذا يعنى أننا نستدرج العلو لنصل إليه أو ننزل منه .

وقد خصوا فى الآخرة الجنة بالدرجات العليا ، والنار بالدركات السفلى .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٧)

(سورة الأعراف)

أى نأخذهم درجة درجة ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهبهم بما وصلوا إليه ، كما قال سبحانه من قبل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه فى حق أخيه الإنسان فى الدنيا يأخذه من أول جرم ؛ لأن الأخذة فى هذه الحالة ستكون لينة ، لكنه يملئ له ويعليه ثم يلقيه من عل .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ

بِقَتَّةٍ ﴿

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكون الآخذُ الآخذُ عزيز مقتدر.

وحين يستدرجُ البشرُ، فإن الطرف المستدرج له أيضا ذكاء، ويعرف أن هذا نوع من الكيد وفخ منصوب له، لكن حين يكون ربنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحد كيف يفلت. والعلة فى قوله: "سنستدرجهم" هى قوله: ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾؛ لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَأَمْلى لَهُم إِيَّائِنا كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٢﴾

والإملاء هو الإمهال وهو التأخير، أى أنه لا يأخذهم مرة واحدة، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع، نحمد أهل الخير وهم يزدون من فعل الخيرات، ونسمع دائماً من يقول: لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً، فالإيمان يعطى الأسوة واليقين. والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بل هو إمهال فقط، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وهنا يوضح الحق: إذا كنت سأستدرج وسأملئ فاعلم أن كيدى متين. والكيد هو المكر، والمكر أخذهم من حيث لا يشعرون وهو عملية خفية تسوء الممكور به.

وهو تدبير خفى حتى لا يملك الممكور به ملكات الدفع. وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيدة أو مكرأ؟ أيستطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً؟. طبعاً لن يستطيع أحد ذلك. هذا هو معنى ﴿ إن كيدى متين ﴾؛ ومتين أى قوى، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر، ونعرف أن الظهر مكوّن من عمود فقرى وفقرات عظمية، تحيط بها عضلات. فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان

أى حمل عليه يكسره. فشاءت تجليات ربنا عز وجل واقتضت رحمته وقدرته أن يحاط هذا العظام بعضلتين كبيرتين، وهما مانسميه في عرف الجزائريين "الفلتو" لحماية الظهر وتقويته ووقايته.

وإذا نظرنا إلى كلمة "متين"، نجد "المتن" هو الشيء العمودى فى الأشياء، وفى العلم مثلاً ندرس الفقه وندرس النحو، ويقال: هذا هو المتن فى الفقه، أى الكلام الموجز الذى يختزل العلم فى كلمات محددة، والذكى هو من يستوعبه. وغالباً نجد مع المتن الموجز شرحاً للمتن، ثم حاشية للمتن.

ويقول الحق بعد ذلك

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨٤)

وهنا ينبّه الحق سبحانه وتعالى كل الخلق أن يتفكروا فى أمر الرسول المبلغ الذى ينقل عن القوة العليا مرادها من الخلق. وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الإنسان الذى يقول إنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولقد ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نزول الرسالة عليه، وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله. لكنهم لا يريدون أن يسمعوا، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالنكوص عن المنهج، فقال بعضهم اتهاما للرسول: إنه مجنون، مثلما قال بعضهم من قبل: إنه ساحر، وكاهن، وقالوا: شاعر، ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل.

وتساءل: من هو المجنون؟

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكرى فى الاختيار بين البدائل، وحين يأخذ الله منه هذه القدرة على التوازن الفكرى، يصبح غير أهل للتكليف؛ لأن التكليف فيه اختيار أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح.

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل ؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه ؛ لذلك نلاحظ الطفل وهو صغير يختار له والده أو والدته الملابس والطعام ، وبعد أن يكبر نجد الطفل قد صار مرافقاً يتمرد ويقرر أن يختار لنفسه ما يريد لأنه قد صارت له ذاتية ، والذاتية - كما نعلم - توجد في النبات وفي الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منها قادراً على إنجاب مثله ، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان. أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية في الإنجاب والنسل ، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة في التفكير ؛ فهنا يسقط عنه التكليف ؛ لأنه مكره بفقدان العقل.

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذي لم يبلغ ، والمجنون والمكره بمن هو أقوى منه ، وهذه عدالة الجزاء من الحق ، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله ، وبهذا يحرس ربنا الكون بقيوميته .

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلي الذي يختار بين البديلات ، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكن قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات ، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عنده كل غال نفيس لهم حتى وهم كافرون به . وخلقه الفاضل ذاتي مستمر ودائم .

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له ، وبغوغائية ، وكل واحد يلقي اتهاماً ليس له من الواقع نصيب ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرْدَيْكُمْ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ

مِنْ جَنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أى أن يجلس كل اثنين ويتدارسا : هل محمد عاقل أم مجنون ؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أن محمداً هو أكثر الناس أمانة ، وكان الجميع يسمونه

الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحي ، وليس من المعقول أن يضره الوحي ،
أو أن يفقد بالوحي توازنه الخلقى ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا
غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقاً عظيماً ؛ لأن الخلق هو
الصفات التي تؤهل الإنسان لأن يعيش في مجتمع سليم وهو مسالم . وسادام
خلقه سليماً ، فمعيار الحكم عنده سليم .

وبعد ذلك قالوا عنه : إنه " ساحر " ، ونقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر
كبار رجال قريش ليؤمنوا برسالته ؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس
فيها سحر على الإطلاق .

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ﴾

الجنة التي تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم -
هي منتهى العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم نذير واضح ،
جاءكم أولاً بالبشارة ، لكنكم في غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون
الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ

أَجَلُهُمْ فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذي يأخذ بيدهم إلى الإيمان
الأعلى ، ينتقل الجدل إلى التفكير ومسئوليته :

﴿ أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

والتفكر هو أعمال العقل حتى لا يقولنَّ أحد : إن رسول الله مجنون ، لأن مجرد النظر في الكون يجعل الإنسان راثيا للسماء مرفوعة بلا عمد ، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك في انتظام دقيق .

﴿ أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

إذن فوقنا سماء ، وهناك ما فوق السماء ، وتحتنا الأرض ، وفيها ما تحت الأرض ، وهناك ما بين السموات والأرض . وما نراه في الظاهر هو ما يسمونه « مُلْكٌ » أما الخفى عنك الذى لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه « ملكوت » .

ويقول سبحانه فى سيدنا إبراهيم :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

فكلمة « ملكوت » معناها مبالغة فى الملك ، مثل رهبوت أى الرهبة الشديدة ، ورحموت أى الرحمة الشديدة ، وكلها صيغة « فعلوت » وهى صيغة المبالغة .

﴿ أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح ، ولكن العظمة والسر ليسا فى السماء والأرض فقط ، بل هناك أشياء دقيقة جداً ، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر ، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق . وأنت قد ترى ساعة « بيج بن » الشهيرة فى لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة فى العالم ، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة فى حجم الخاتم ، ونبهر ونعجب بدقة عمله وصنعيته . فما بالناس بالخالق الأعظم الذى يعظم خلقه من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر ، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة

لا تستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر، كالميكروب، أو تدركها بصعوبة كالذبابة والبعوضة وبكل هذه الكائنات كل مقومات حياتها، حتى الكائن الذي لا معدة له يجهزه خالقه بقدرة على امتصاص الدماء مباشرة بعقله أو غريزته ويسعى ليأكل ويملاً معدته وله أجهزة تحول غذاءه ليكون دماً.

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط، لذلك يقول الحق:

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

أى من أول شيء يقال له شيء، صار محكوماً عليه وجودياً، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التي تعطى له الحياة، وتعيّنه، حتى وإن كانت حواس استشعارية في ذات هذا الكائن، ولا يقوى عليها صاحب العقل. مثال ذلك: نجد أن ما يفر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التي نتهمها بالغباء.

وحين يتأمل العقل ما وصل إليه العلم في البحث في عالم الحيوان وعالم البحار، سنجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم. وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم.

إننا نعلم أن الإنسان جنس، وأن له نوعين: نوع ذكورة، ونوع أنوثة، وبينهما جنس مشبه نسميه الخنثى، والأجناس لها أفراد متعددة. وكل واحد له خلق، وكل واحد له موهبة، وكل واحد له مهمة. وساعة يطلب منا الحق: إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد غيرك، وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك، ويجب عليك أن تجعل كلمة «شيء» هذه هي المقياس، ولذلك يقول لك الشرع: إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها، بل قل هي ليست بشيء ذى بال. وإن هم واحد بعمل سيئة فلا يقل: وماذا استفعل لى سيئة واحدة؟

مستصغراً شأن هذه السيئة . وهذا نقول له : لا ، لأن كلمة « شيء » يجب أن تحكم الكون . إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً ضئيل التكوين ، ولا بسطة له في جسمه ، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة ، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة ؛ لأن الله قد يعطي الضئيل فكراً عميقاً ، أو حيلة كبيرة ، أو موهبة خاصة في أي شيء . فلا تنظر إلى شيء قليل في أي إنسان ، بل انظر إلى الشيء الجميل الذي فيه وهو المخفى عنك في نفسك .

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

ولماذا تأتي هنا حكاية اقتراب الأجل ؟ وللإجابة عن التساؤل أقول : إنها هامة جداً ؛ لأننا مادامنا أفراداً أي جنسين أو ثلاثة أجناس ، وقال عنا ربنا إننا خلفاء في الأرض ، فعلينا أن نعلم أن الخليفة في الأرض جاء ليخلف من سبقوه ، وقد يُميت ربنا أي إنسان في سن شهر أو سنة ، أو سنتين أو خمسين عاماً ؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق - تبارك وتعالى - نفسه ولا يعلمه أحد ؛ لأن غاية المتساوي لا بد أن تكون متساوية ، وعلى سبيل المثال : إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا : لنيل إجازة الليسانس ، وسنجد منهم الطويل ، والقصير ، والأبيض ، والأسود ، والذكي والغبي ، والقوى والضعيف ، وهم لا يتفوقون إلا على دراسة الحقوق ، وكذلك لا تتساوى جميعاً كبشر إلا أمام الموت ، فهناك من يموت وهو في بطن أمه ، ومن يموت وهو طفل ، ومن يموت وهو فتى . وإن كنا نختلف فيما بقى بعد ذلك ، والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول : لا لن أموت .

ومادمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت ، لتثاب على ما فعلت في الدنيا بدلاً من أن تعاقب ، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل ، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل ، والإبهام هو أوضح أنواع البيان ، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً توضيحاً كاملاً فهو يبهمه .

ومثال ذلك : لو جعل الله للموت سناً ، لصار الأمر محدداً بلا أمل . لكنه

سبحانه لم يجعل للموت سناً أو سبباً، وأشاعة في كل زمن، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت في أى لحظة، ونزول الموت لا يتوقف على سبب، فقد يأتي بسبب وقد يأتي بغير سبب، ومادام الإنسان يستقبل الموت في أى وقت، فعلى العاصي ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله.

وإياك أن تقول: كيف مات فلان وهو غير مريض؟؛ لأن هناك العديد من الأسباب للموت، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب، فالإنسان الذي نفقده بالموت، مات لأن أجله قد انتهى، والحق هنا يوضح: أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره سنتان، ومن مات وعمره ثلاث سنوات، ومن مات وهو ظالم، ومن مات وهو مظلوم، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تساوى هذه الحياة؟. وما ذنب الذى لم يعش في الدنيا إلا شهراً؟ لا بد إذن أن تعرفوا أن هناك غاية ثانية تنتظركم، غايات فردية هي آجال الناس بذواتهم، وآجال إجماعية تتمثل في يوم القيامة.

وفي قوله تعالى ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

يوضح الحق تبارك وتعالى: أنه إذا كان هذا الحديث الذى أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع، ويجمع كل أنواع الكمالات، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟

وهل في اتباعهم للأهواء ولتقنيات بعضهم لبعض سعادة لهم؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك. وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿ مَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ

فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

وقد كرر الحق هذا التحذير كثيراً؛ لأن الأشياء التي قد يقف العقل فيها، أو تأخذ مذاهب الحياة منها، ويكررها الله، ليجعلها في بؤرة الاهتمام دائماً، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من السامع. وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه في سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة:

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر في ذهن السامع.

﴿ من يضل الله فلا هادى له ﴾

وسبحانه لا يرغم واحداً على أن يهتدى، فإن اهتدى فلنفسه، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال.

وكلنا يعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض، ليتم الشفاء بإذن من الله، الدواء إذن وسيلة إلى العافية، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل في ذلك إساءة للطبيب؟ لا. وكذلك منهج الله.

﴿ من يضل الله فلا هادى له ﴾

لكن هل يريد الله الضلال لأحد، لا، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء. ولذلك يقول لنا الشرع: إياك أن تشرك بالله شيئاً فى أى عمل؛ لأن ربنا يقول لنا فى الحديث القدسى الذى يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه ﴾ (١)

ومعنى الشركه فى عرف البشر، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم، وموهبة كل منهم، لا تكفى لإقامة مشروع ما، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين، فهل هناك ما ينقص ربنا ليستكمله من آخر؟ حاشا

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى باب تحريم الرباء.

لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكاً يجعل الله رافضاً لعبادة العبد
المشرك . لذلك يقول في الحديث القدسي : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من
عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه» . وما دام ربنا قد تنازل عن رعايته له
فليتلق المتاعب من حيث لا يدري .

ومن قوله تعالى :

﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾

نتبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن
يعدّل على الله ، ليجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو
ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من في قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً
ويتركهم في طغيانهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو
فقدان العين للبصر .

ويقول الحق - تبارك وتعالى - بعد ذلك :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْ قُنِيَ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ



والمستول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين
سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، فكان الجواب منه مطابقاً
لما عندهم في التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذي يقوله محمد إنما يأتي منه جزافاً

بدون ضابط وليس من رب يُنزلُه . فلما أجاب بما عندهم فى التوراة، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده، ولذلك سألوه أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم، وكانوا جماعة فى الزمن الماضى، واتفقوا معه على كل شىء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۗ ﴾ (٢٥)

(سورة الكهف)

فقال اليهود: الثلاثمائة سنة نعرفها، أما التسعة فلا نعرفها، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

إذن التوقيتات كلها حسب التوقيت العربى، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال، والمثال أن كل عالم البحار تكون الحسابات المائىة فيها كلها بالهلال، لأنه أدق، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل، بينما القمر دلالة شهرية، ومجموع الاثنى عشر هو الدلالة السنوية. لكنهم لم يفتنوا إلى هذه، وأخذوها على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسى، وأضاف الحق: ﴿. وازدادوا تسعا﴾ لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين.

ومادة السؤال فى القرآن ظاهرة صحية فى الإيمان؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل »، وساعة يقول الشرع: افعل، ففى ظاهر هذا الفعل مشقة، وساعة يقول: لا تفعل ففى ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب، والمنع عنه يناقض شهوات النفس. وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحية من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة لوجهة لرسول الله من أمته، حكاها القرآن بصور متعددة، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله: « ويسألونك »؛ ومرة

ورد بصورة فعل ماض « وإذا سألك ». وكثيراً ما جاء السؤال بهيئة المضارع « يسألونك »، لأن المضارع يكون للحال وللإستقبال .

وجاءت الأسئلة بالقرآن فى صيغة المضارع خمس عشرة مرة، وجاءت بصيغة الماضى مرة واحدة . وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً . وإذا نظرنا إلى مادة الفعل « يسأل » فى القرآن وبترتيب المصحف ، نجد القرآن يقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول فى ذات الآية السابقة :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ويقول عز وجل :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لِمُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾

وبعد ذلك فى سورة الأعراف يقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنْهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

ثم يقول الحق :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (من الآية ١ سورة الأنفال)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (من الآية ٨٥ سورة الإسراء)

ويقول المولى سبحانه:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

ويختتم هذه الأسئلة بقوله:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النازعات)

تلك هي خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله « يسألونك »، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴿٣٦﴾ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

والآيات الخمس عشرة التي جاء فيها الحق بصيغة المضارع « يسألونك » نجد كل جواب فيها مصدرًا بـ « قل » وهو أمر للرسول : قل كذا، قل كذا، ولكن في الآية الواحدة التي جاء فيها بصيغة الفعل الماضي و « إذا سألك »، لم يقل : فقل إنني قريب، بل قال : « فإنني قريب أجيب دعوة الداع »، لأن الله يعلم حب محمد لأُمَّته، وحرصه عليهم ولذلك يقول :

﴿ لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيْعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولذلك حين علم الحق علم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسوؤه فيها، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه في أمته . وقد ورد في الحديث ما يؤكد ذلك ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (فرفع يديه فقال : أمتى أمتى وبكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسأله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوئك) (١)

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسوله على أمته، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرم به الرسول، فجاء الخطاب فى آية الدعاء بدون « قل » .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمة أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط ، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه . لذلك نجد أربع عشرة آية تأتى فيها « يسألونك » وتكون الإجابة « قل » ، والآية الخامسة عشرة جاء فيها « يسألونك » وكانت الإجابة « فقل » لتدل « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد ، فكان الفاء دلت على شرط

مقدر هو : إن سألوك فقل ينسفها ربي نسفاً، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجْلِيهَا لَوْحَتَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و «يجليها» أى يظهرها، وهناك ما يسمى «الجلوة» وما يسمى «الخلوة»، و«الجلوة» أن يظهر الإنسان للناس، و«الخلوة» أن يختلى عن الناس، و«لايجليها» أى لا يظهرها، و«لوقتها» ترى أنها مسبوقه باللام، ويسمونها فى اللغة العربية «لام التوقيت»، مثلما يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

وهى بمعنى «عند»، ومعنى ذلوك الشمس، أنها تتجاوز نصف السماء، وتميل إلى المغرب قليلاً. وقوله : «لا يجليها لوقتها إلا هو» أى لا يبينها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى .

﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

والثقل يعنى أن تكون كتلة الشئ أكبر من الطاقة التى تحمله ؛ لأن الكتلة إن تساوت مع الطاقة فهى لا تثقل على الحمل .

أو أن الطاقة التى تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض ؛ فيكون الشئ ثقيلًا، وقد يكون هذا الثقل أمراً مادياً، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أردباً من القمح فيقدر على حمله، لكنه إن زاده إلى أردب ونصف، فالحمل يكون ثقيلًا على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن «فينخ» به .

﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط ، بل هو ثقل فكري وعقلي أيضاً ، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل تمرين هندسى أو تمرين فى مادة الجبر ، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره ، وصعب الحل فى بعض الأحيان .

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس فى ملكاتها ، مثل الهم جائم على الصدر وثقيل عليه ، وهو أفسى أنواع الثقل ، ولذلك فالشاعر القديم يقول :

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال : ثقل مادى ، وثقل فكري ، وثقل نفسى .

﴿ ثقلت فى السموات ﴾ ، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة . ونعلم أن الملائكة أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة ، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر ، أما الملائكة فهى ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها ، وبعضها يخدم البشر ، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه ، وبحياته ، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيداً جديداً للكون . فكونوا جميعاً مسخرين فى خدمته ، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون ، ولهم إلف بالخلق ، إلف كاره للعاصى ، وإلف محب للطائع . ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به . وإن وقع من الطائع زلة ، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى . ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً » (١)

ونعلم أن المنفق سىأخذ ثواب إنفاقه ، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه . وهكذا تدعو لنا الملائكة .

(١) رواه الدار قطنى فى سنته .

و«ثقلت» هنا تعنى أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم فى السموات وكذلك من هم فى الأرض، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعطى لها صورة توضح قوله الحق:

﴿ لا تأتیکم إلا بغتة ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التى تأتى عليها فيقول: «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه» (١)

ومثل هذه التوقعات تخيف.

وقوله الحق:

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتیکم إلا بغتة ﴾

أى أن الواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة، أى يجىء من غير استعداد نفسى لاستقباله. ويتابع سبحانه:

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾

وحفى من الحفاوة، والحفى هو الملح فى طلب الأشياء، مثل التلميذ الذى يتوقف عند درس لا يفهمه، فيسأل هذا، وذلك إلى أن يجد إجابة.

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه، والحفى أيضاً عالم بما يسأل عنه، وسبب العلم أنه ألح فى السؤال عليها.

والأمور التى يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر فى مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتة بمكان، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن

(١) رواه سعيد عن قتادة،

يعالجه، فيقطع المسافة إلى المكان الثاني لتحقيق هذه المهمة، إنما يمشى ويسعى على رجليه، و« يدوب » النعل الذي يضعه في قدميه من المشى فيقال عنه إنه: « حافى ». ولذلك يقال: حفى فلان إلى أن وصل للشئء الفلانى، أى سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات، مزقت نعله حتى جعلته يمشى حافياً. وهنا يقول الحق على ألسنة القوم: ﴿ كأنك حفى عنها ﴾ أى أنك مُعنى بها، ودائب السؤال عنها، وعارف لها.

وتأتى الإجابة من الحق:

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾

وفى ذات الآية سبق أن قال: ﴿ علمها عند ربي ﴾

والربوبية متعلقها الخلق، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر، والألوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج، وجاء الحق فى هذه الآية، مرة بالربوبية، ومرة بالألوهية. والأولى هى علة الثانية، فأنت أخذت الله معبوداً، وأطعته لأنه خلقك ووضع لك المنهج، ولا يدخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شئء ويمنحه البركة، وكذلك يغطى الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب فى الدنيا أو الآخرة، لذلك هو الإله الحق الذى نتبع منهجه.

﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها، وسبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۗ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ
 وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ
 وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾



ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله: أنتم تسألونني عن الساعة، وأنا بشر، وممتلق فقط، والإرسال بالمنهج يأتي من الله وأنا أبلغه، ولا علم لي بموعد قيام الساعة، ولا أملك لنفسي لا ضراً ولا نفعاً، أى لا أملك أن أدفع الضر عنى أو أجذب النفع لنفسي، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر، فالإنسان يملك ما يعطيه الله، والعاقل حين يملك، يقول: إن هذا ملك عرَضِي، لا آمن أن ينزع مني. ولذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن نَّشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن نَّشَاءُ وَتُعِزُّ مَن نَّشَاءُ
 وَتُذَلُّ مَن نَّشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة آل عمران)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ
 أَيُّ أَنْ أَحَدًا لَا يَمْلِكُ شَيْئًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْلِكَهُ، ورسول الله من البشر.
 ويضيف:

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)

فهرس آيات المجلد السابع

الصفحة	سورة الاعراف	الصفحة	سورة الاعراف	الصفحة	سورة الانعام
٤٠٩٢	الآية : ٢٦	٣٩٨٣	الآية : ١٥١	٣٨٧٢	الآية : ١١٠
٤٠٩٥	الآية : ٢٧	٣٩٩٠	الآية : ١٥٢	٣٨٧٣	الآية : ١١١
٤١٠٣	الآية : ٢٨	٣٩٩٨	الآية : ١٥٣	٣٨٧٥	الآية : ١١٢
٤١٠٦	الآية : ٢٩	٤٠٠٣	الآية : ١٥٤	٣٨٨٢	الآية : ١١٣
٤١١١	الآية : ٣٠	٤٠٠٧	الآية : ١٥٥	٣٨٨٥	الآية : ١١٤
٤١١٢	الآية : ٣١	٤٠١٠	الآية : ١٥٦	٣٨٨٨	الآية : ١١٥
٤١١٤	الآية : ٣٢	٤٠١٠	الآية : ١٥٧	٣٨٩٤	الآية : ١١٦
٤١١٦	الآية : ٣٣	٤٠١٢	الآية : ١٥٨	٣٨٩٧	الآية : ١١٧
٤١٢١	الآية : ٣٤	٤٠١٥	الآية : ١٥٩	٣٨٩٧	الآية : ١١٨
٤١٢٢	الآية : ٣٥	٤٠١٧	الآية : ١٦٠	٣٨٩٨	الآية : ١١٩
٤١٢٦	الآية : ٣٦	٤٠١٩	الآية : ١٦١	٣٩٠٧	الآية : ١٢٠
٤١٢٧	الآية : ٣٧	٤٠٢٠	الآية : ١٦٢	٣٩٠٨	الآية : ١٢١
٤١٣٢	الآية : ٣٨	٤٠٢٢	الآية : ١٦٣	٣٩١٠	الآية : ١٢٢
٤١٣٤	الآية : ٣٩	٤٠٢٤	الآية : ١٦٤	٣٩١٤	الآية : ١٢٣
٤١٣٥	الآية : ٤٠	٤٠٢٦	الآية : ١٦٥	٣٩١٨	الآية : ١٢٤
٤١٣٧	الآية : ٤١	٤٠٣٣	سورة الاعراف	٣٩٢٦	الآية : ١٢٥
٤١٣٨	الآية : ٤٢	٤٠٣٥	الآية : ١	٣٩٣٤	الآية : ١٢٦
٤١٤١	الآية : ٤٣	٤٠٤٠	الآية : ٢	٣٩٣٧	الآية : ١٢٧
٤١٤٧	الآية : ٤٤	٤٠٤١	الآية : ٣	٣٩٤٠	الآية : ١٢٨
٤١٤٨	الآية : ٤٥	٤٠٤٤	الآية : ٤	٣٩٤٤	الآية : ١٢٩
٤١٤٩	الآية : ٤٦	٤٠٤٥	الآية : ٥	٣٩٤٧	الآية : ١٣٠
٤١٥١	الآية : ٤٧	٤٠٤٦	الآية : ٦	٣٩٥٠	الآية : ١٣١
٤١٥١	الآية : ٤٨	٤٠٤٩	الآية : ٧	٣٩٥١	الآية : ١٣٢
٤١٥٢	الآية : ٤٩	٤٠٤٩	الآية : ٨	٣٩٥٢	الآية : ١٣٣
٤١٥٣	الآية : ٥٠	٤٠٥١	الآية : ٩	٣٩٥٣	الآية : ١٣٤
٤١٥٣	الآية : ٥١	٤٠٥٢	الآية : ١٠	٣٩٥٥	الآية : ١٣٥
٤١٥٦	الآية : ٥٢	٤٠٥٤	الآية : ١١	٣٩٥٦	الآية : ١٣٦
٤١٥٨	الآية : ٥٣	٤٠٦٢	الآية : ١٢	٣٩٥٨	الآية : ١٣٧
٤١٦١	الآية : ٥٤	٤٠٦٤	الآية : ١٣	٣٩٦١	الآية : ١٣٨
٤١٧٤	الآية : ٥٥	٤٠٦٧	الآية : ١٤	٣٩٦٢	الآية : ١٣٩
٤١٧٩	الآية : ٥٦	٤٠٦٨	الآية : ١٥	٣٩٦٣	الآية : ١٤٠
٤١٨٢	الآية : ٥٧	٤٠٦٩	الآية : ١٦	٣٩٦٥	الآية : ١٤١
٤١٨٥	الآية : ٥٨	٤٠٧٣	الآية : ١٧	٣٩٦٨	الآية : ١٤٢
٤١٨٨	الآية : ٥٩	٤٠٧٥	الآية : ١٨	٣٩٧٠	الآية : ١٤٣
٤١٩٢	الآية : ٦٠	٤٠٧٦	الآية : ١٩	٣٩٧٢	الآية : ١٤٤
٤١٩٣	الآية : ٦١	٤٠٨١	الآية : ٢٠	٣٩٧٢	الآية : ١٤٥
٤١٩٤	الآية : ٦٢	٤٠٨٤	الآية : ٢١	٣٩٧٥	الآية : ١٤٦
٤١٩٦	الآية : ٦٣	٤٠٨٦	الآية : ٢٢	٣٩٧٧	الآية : ١٤٧
٤٢٠٤	الآية : ٦٤	٤٠٨٨	الآية : ٢٣	٣٩٧٨	الآية : ١٤٨
٤٢٠٥	الآية : ٦٥	٤٠٩٠	الآية : ٢٤	٣٩٨٠	الآية : ١٤٩
٤٢٠٨	الآية : ٦٦	٤٠٩١	الآية : ٢٥	٣٩٨٠	الآية : ١٥٠

